BAGHDAD MARLBORO

نجم والي

NOVEL
رواية

بغداد مالبورو

من أجل برادلي مانينغ

الرواية الحائزة على جائزة برونر كرايسكي العالمية للأدب لعام ٢٠١٤

نجم والي

بغداد مالبورو

رواية

من أجل برادلي مانينك

دار الرافدين للطباعة والنشر

جميع الحقوق محفوظة©

Undique ad inferos tantundem viae est.

«الطريق إلى الجحيم هو من كل مكان في نفس الطول»

(جواب أنكساغوراس على سؤاله وهو يرقد في بلاد غريبة على فراش الموت، إذا كان يريد أن يُنقَل جثمانه إلى موطنه)

«جحيم الأحياء هو ليس ما سيأتي لاحقاً. إذا كان هناك جحيمٌ، فهو هذا الموجود سلفاً؛ إنه الجحيم الذي نعيش فيه كل يوم، والذي نصنعه عن طريق وجودنا المشترك. هناك وسيلتان تُجنِّبانِنا وطأة المعاناة تحته. الأولى تبدو سهلة بالنسبة للعديدين: تقَبُل الجحيم والانتهاء بهذا الشكل بأن نكون جزءاً منه، لدرجة أن لا يراه المرء أبداً. الثانية هي مغامرة وتتطلب اليقظة الدائمة والاستعداد للتعلم: البحث وتعلم الفهم، من وما هو في وسط الجحيم ليس جحيماً، ومنحه الديمومة والمجال»

«مدن غير مرئية»

إيتالو كالفينو

«أعمدة ضوء

تومض في ليل البرية

سجائر تحترق حتى الأزلية

انظر...

أي الأسماء نخط

في وحشة ليل الجبهات

بغداد... مالبورو»

سلمان ماضي

الإهداء

إلى سارة م. لأنها أودعتني قصصاً عديدة وذهبت إلى الكوميسارة ڤَرينا ك. لأنها تعرف لماذا هذه القصة الآن

ما قبل دانييل بروكس

كل الطرق تقود إلى الميدان

- ١ -

بداية الطريق: في مكان ما الآن

كلما نظرت إلى جواز السفر الذي أحمله، إلى الاسم الذي فيه وتاريخ الميلاد، كلما تذكرت دانييل بروكس. فحتى يوم ظهوره هكذا فجأة، لم أظن يوماً أن حياتي ستنقلب بهذا الشكل العنيف على عقب وعلى يد رجل غريب مثله قادم من البعيد. حدث ذلك قبل سبع سنوات في بغداد وهي أصعب السنوات التي عاشتها المدينة، إن لم تكن أكثرها خطورة في تاريخها الطويل. في الحقيقة كلما عدت بالقصة إلى الوراء كلما فكَّرتُ بغرابتها، ولو لم تحدث لي أنا بالذات لما صدقت أنها حدثت فعلاً أو أنها جرت في مدينة مثل مدينة بغداد، أو أن اثنين مثلنا رغم كل ما جرى لهما في الحياة، كان لا بد لهما أن يلتقيا، من غير المهم أنهما عاشا وقد فصلتهما عن بعض بلدان بحار ومحيطات. هو الذي وُلد في نيو أورلينز في ولاية لوزيانا عند ضفاف نهر المسيسيبي ونشأ في حي كوينز في نيويورك، وأنا الذي وُلدت في مدينة صغيرة على ضفاف نهر الفرات غرب العراق، ونشأ لاحقاً على ضفاف دجلة في بغداد. اليوم يبدو كل شيء حقيقي، حتى اسمي المزيف وأوراقي الجديدة، مكان الإقامة الجديد والبلد الذي اخترته صدفة وصار بمثابة بلد لي بعد طواف طويل ودوران في بلدان مختلفة من العالم قرابة ثلاث سنوات، لكن في ذلك الوقت، عندما كنت ما كنت عليه، بدا لي الأمر

مختلفاً، أمرٌ لم أفكّر بمنحه تعريفاً معيَّناً، بدأ وانتهى بنفس الطريقة. تركته يسري على طبيعته. في أحسن الأحوال ربما ظننت أنها الصدفة وحدها التي قادت ذلك الرجل إلي، أو في أسوأ الأحوال أن أحدهم أرسله لي لكي يُلحِقَ بي ما يمكن من أضرار. لكن أن يكون هذا الرجل جاء للبحث عني منذ وصوله إلى بغداد، فهذا ما لم أفكر به أبداً. من أين كان لي أن أعرف، أن رجلاً يسكن بعيداً عني آلاف الكيلومترات، انتظر الفرصة السانحة طوال هذه السنوات لكي يلتقي بي. ربما بدا الأمر له أقرب إلى المعجزة أو ربما نسي الأمر مع مرور الزمن، لكن عندما أعلنت الحرب (أية حرب؟) ودخل الجيش الأميركي إلى بغداد في 9 أبريل 2003 تذكَّرَ الرجل وقال لنفسه: ها هي الفرصة قد حانت، لا بد لي من السفر إلى العاصمة العراقية للبحث عن رَجُلي المطلوب. دون أن يدري، أنه في اللحظة التي سيزوره فيها، رَجله هذا سيتبدل، سيتغير وسيعيش حياة جديدة بعد ذلك اليوم التاريخي الذي سيطرق فيه عليه بابه. صحيح أنني لست الوحيد الذي حصل له هذا التبدل؛ العراقيون أيضاً، بل وحتى الأميركان، كلهم تبدلوا بعد ذلك التاريخ. لكن لو كان أمامي ميزانٌ الآن، لوضعت دخول الأميركان في كفة وما حدث لي بعد تعرفي على دانييل بروكس في كفة أخرى. نعم آلاف العراقيين، بل الملايين منهم غيَّروا أسماءهم بعد ذلك التاريخ خوفاً من الملاحقة، أو كما فعلوا على عادتهم

عندما تكيفوا مع كل زمن جديد؛ بعضهم هاجر والبعض الآخر ظلَّ مقيماً. لكن الذي تغيَّر عندي: حياتي. نعم حياتي كلها. لا أريد القول إن الحياة التي أعيشها الآن خطأ وأن التي قبلها كانت صحيحة، أو العكس، بل لكي تعرف أن الشخص الذي يروي لك القصة الآن هو غير الشخص الذي كان عليه في يوم دخل إلى حياته دانييل بروكس. ليس لأن كُلّاً منا لن يكون هو نفسه في زمانين ومكانين مختلفين وحسب بل أكثر من ذلك بكثير. لكنني الآن وكلما فكَّرتُ بحياتي وما جرى لها، أتوقفُ عند صورة واحدة: مدينة بغداد ودانييل بروكس.

لم يحدث الأمر صدفة إذن. في ذلك الحين وقبل قرابة سبع أو ثماني سنوات، كنت أسكن في بيتي في حيٍّ مرموق من بغداد، ليكن اسم الحي الذي عشت فيه حي الخضراء مثلاً، أو حي الجامعة، أو إذا شئت ليكن اسمه حي الأطباء، أو حي الإعلام، لا يهم، من الأفضل التكتم عليه الآن. المهم أنه سيكون أحد تلك الأحياء الراقية من المدينة وليس القديمة منها، مثل حي العطيفية، الكرادة، زيونة، أو المنصور، بل أحد تلك الأحياء التي بُنيت في السبعينات. كان بيتي يقع على الشارع الرئيس قريباً من السوق ومن مركز شرطة الحي. في تلك الأيام كانت المنطقة مقارنة بالأحياء الأخرى من بغداد هادئة بعض الشيء باستثناء هجوم مسلَّح على مركز الشرطة في أواخر عام 2003، وحوادث سطو حدثت من وقت إلى آخر في الأشهر

الثلاثة الأولى من عام 2004، لم يحدث حتى ذلك التاريخ في الحي ما كان يستدعي الانتقال أو ترك البيت. كانت زوجتي قد انفصلت عني، ذهبت إلى بيت أهلها، ليصبح البيت الكبير بالنسبة لي أشبه بالسجن. لا العمل في الحديقة الواسعة التي تقدَّمت البيت، ولا الجلوس في صالون البيت ومشاهدة التلفزيون أو سماع الراديو، منحاني السلوى أو ساعداني على النسيان، فماذا يفعل المرء في بيت مساحته تجاوزت ثلاثمائة وخمسين متراً مربعاً، مئتان متراً شكَّلت البيت المبني ومئة وخمسين متراً الحديقة. أما انقطاع التيار الكهربائي يومياً فقد أصبح بديهية بالنسبة لنا. المولِّدات الكهربائية لم تكن هي الشائعة في ذلك الوقت. في بعض الأيام كان يمر عليَ من حين إلى آخر ابن أخي، يظل عندي بضع ساعات أو يبيت حتى اليوم الثاني في أيام نهاية الأسبوع ما عدا ذهابي إلى محل بيع المشروبات عند نهاية الشارع الذي يقع خلف بيتي، لشرائي العرق منه أو جلوسي لدقائق قليلة في زاوية هيأها صاحب المحل لزبائنه الدائمين مثلي. كان ابن أخي هو سلواي الوحيدة، وحتى تلك المَرَّات القليلة التي ذهبت فيها إلى ساحة الميدان لزيارة صديقنا الشاعر سلمان ماضي، لم تمنحني سلوى مشابهة. أنت لا تعرف كره سلمان للأميركان حتى أنه فضَّل العيش في ساحة الميدان على العيش مع زوجته وابنه، قال إنه المكان الوحيد الذي لن أرى فيه الأميركان، رغم اعتقادي

أنه فعل ذلك عمداً آنذاك، وإدعاؤه ذاك كان حجة لا غير. سلمان سكن هناك قبل دخول المارينز إلى بغداد. الأميركان مجرد عذر، دخولهم بغداد سهَّل له تبرير حلمه بالعيش هناك، نوع من التضامن مع المهمشين، كما قال. ذلك كان ديدنه الذي عرفناه به وذلك ما صرَّح به أيضاً مرات عديدة أمامها مفتخراً. أقول حتى الجلسة مع سلمان لم تمنحني السلوى أو النسيان، على العكس، كان منظره يحزنني أكثر، صحيح أننا كنا نشرب سوية لكن سلمان كان يشرب بإفراط. هذه المرة أخفى في كل زوايا البيت قنينة فيها بقية من العرق فهو يخاف أن ينفد العرق في ساحة الميدان فيضطر للبحث عنه حيث يرى الأميركان. نعم أنا أكنُّ الوِدّ لسلمان، والكل يعرف علاقتنا القديمة منذ الثمانينات، لكن سلمان تغير كثيراً منذ عودته من حرب الكويت؛ انغرس في الكآبة كل مرة أكثر ولم يغير منه شيئاً ما حدث بعد 9 أبريل 2003، إن لم يجعله أكثر غضباً من قبل. كنا نجلس ساعات وساعات لا نتحدث وإذا بدأ هو بالحديث فبشتم العالم جميعاً. لا أحد يستطيع إسكاته إلا النوم، أما النزول معه إلى حانة الجنون فهو مغامرة كبيرة، فالويل إذا رأى جندياً أميركياً أو دورية مرَّت من هناك لتنهدر كل كلمات الشتم التي تعلَّمَها. كان الجلوس مع سلمان سيحزنني أكثر حتى إذا وفَّرت عليه قصة انفصال أزهار عني والحديث عن الوضع التعيس الذي أنا فيه. على عكس الجلوس مع ابن أخي، كنت أشعر بالراحة كلما زارني؛

فمعه على الأقل أستطيع نسيان حزني ولو مؤقتاً. كان قد بدأ للتو بالدراسة في جامعة بغداد وكان يستمتع بالقصص التي واظبت على روايتها له عن حياتنا الجامعية في السبعينات، حتى أنه كان يضحك ظناً منه أن ما أرويه هي قصص خيالية، عن الطالبات وتنورات الميني جوب، بل الميكروجوب، وكيف أن الحجاب لم يكن أمراً معروفاً، ربما لبسن العباءة لكن حتى هذه كنّ ينزعنها بعد دخولهن الكلية ويتركنها في غرفة الطالبات. كان عليك أن تشمَ رائحة دخان سجائرهن إذا مررت بشباك غرفة الطالبات، كنت أقول له. قصص سكران بالأحرى، لأنني وفي كل المرات التي جلس فيها معي كنت أشرب. كل صورة أخذها لي كنت أمسك فيها كأس عرق في يدي. لم يكن هو يشرب لكنه كان معجباً بي إلى درجة أنه درس في نفس الكلية التي درست فيها، كلية البيطرة؛ الطب الحيواني. في مرة سألته لماذا فعل ذلك؟ فأنا نفسي طلَّقتُ مهنتي القديمة واخترت أخرى لا علاقة لها بها، ليجيبني: كيف لا أفعل ذلك وأنت الذي قال: إذا كان العالم مستودعاً للحيوانات فإن العراق هو مركزه فلا حاجة لدراسة الطب البشري. لا أتذكر أنني قلت له ذلك يوماً، لكنني قلت له ذات مرة، بالتأكيد في إحدى لحظات السكر تلك وقد شطح بي الخيال: هل تعرف كم مرة فكرتُ بترك مهنتي الحقيرة هذه، مللتُها، أريد أن أصبح كاتباً. فعلَّقَ بقوله: ولكنها مهنة فاشلة في العراق وفي البلدان العربية عموماً، فبغض النظر عن أنها

لا تدرُّ عليك أي ربح فهي تجلب لك المصائب. كنت أعرف إعجابه بي. فمثلما كان يظن أن ما أرويه له قصص من صنع الخيال، خيال شخص سكران يريد أن يصبح كاتباً. ظننت أن إعجابه بي هو الذي جعله يخترع لي الحكايات وينسب لي جملاً وسلوكاً من صنع خياله، خيال شاب دخل للتو سن العشرين، لكي يساعدني ـ رغم جوابه ذاك ـ على تحقيق مشروعي بأن أصبح كاتب قصص. إعجابه هذا ما جعله أيضاً يزورني كلما استطاع، رغم أنني كثيراً ما كنت أقلق عليه أن يحدث له مكروه وهو في طريقه إلي، لكن جوابه كان دائماً: أيها العم الجلوس معك حياة تعادل كل ما يحدث في الخارج من قصص ودمار وخراب. كان مصراً على المجيء رغم معرفته باعتراض أبيه على الزيارات تلك. وفي الأيام التي لا يستطيع فيها المجيء، في العطل الجامعية مثلاً، عندما يذهب لزيارة أهله، كان عليّ الجلوس وحيداً في البيت لشرب العرق أو الجلوس في مكتبي الصغير في حي الجامعة على شارع أبي غريب مقابل معمل البسكولاتة مباشرة، هل تتذكر؟ المعمل الذي بنته في بغداد شركة نمساوية في الخمسينات؟ وبسبب توقُّف العمل مؤقتاً أو قِلَّتِه، أو في أحسن الأحوال لكرهي له، أصبحت ساعات جلوسي في البيت أطول. سرَّحث الموظفين الثلاثة الذين نظَّموا عمل المكتب وأبقيث حسن؛ عامل بسيط يحرس المكتب ويعمل لي الشاي أو المزّة كلما جئت لأشرب هنا لوحدي

أو مع أحد الأصدقاء. لكن عندما أبلغني ذات ليلة أن دورية أميركية جاءت في ساعة متأخرة ليلة أمس بسبب صاروخ أطلق عند بوابة البناية، قلت له: حسن، أصبح الأمر خطراً ومن الأفضل أن تترك العمل أنت الآخر. قال لي: كلا، وأنه سيظل هنا، الأميركان عثروا على منصة الصاروخ والشاب الذي نصبها ليلة أمس يعرفه وقد ذهب إليه وحذَّره أمام أهله ألَّا يكرِّر ما فعله ليلة أمس وليذهب ويطلق صواريخه في مكان آخر. لكن إذا كان حسن مصراً على البقاء ولم أجد أنا سبباً قوياً يستدعيني بالتردُّد على المكان، قلتُ لأبقِه، فقط رحت أتصل بحسن من وقت إلى آخر وأكتفي بالجلوس في البيت.

في مساء ليلة 31 مارس/آذار 2004. ما أزال أتذكر ذلك التاريخ جيداً، ليس لأنني منذ تعرُّفي على زملاء لي في كلية الطب البيطري - بعضهم سيصبح صديقاً حميماً لي - شيوعيين، أو بسبب صداقتي بسلمان الذي اتُّهِمَ عبثاً ذات يوم بأنه شيوعي، رغم فوضاه وصعلكتِه اللتين عُرف بهما، وأنا أعرف خطورة هذا اليوم بالنسبة لهم؛ لأنه تاريخ تأسيس الحزب الشيوعي العراقي وكان يعني وضعهم جميعاً تحت المراقبة - تخيل حتى المسكين سلمان - أما خروجهم للجلوس في حانة أو مقهى فكان يعني الاحتفال بالذكرى، بل حتى البقاء في البيت كان يعرِّضُهم لشكوك رجال الأمن، أمرٌ بعثَ على الحيرة حقيقةً. ولأنني كنت خارج الشبهات، ربما بسبب

مكان ولادتي، هل نسيت؟ المناطق الغربية من البلاد أو بسبب لقبي، أو ربما بسبب خالي الذي كان ضابطاً كبيراً في الجيش. كنت أنقذهم أنا بزيارتي لهم الواحد بعد الآخر، أحمل قنينة الشرب والمزات في الكيس. نعم، أتذكر ذلك التاريخ أيضاً، ليس لأن يوم 31 مارس/آذار هذا هو ذكرى يوم زواجي قبل سبع سنوات، فكيف لي أن أنساه، وكان هذا التاريخ الحجة القوية التي استخدمَتْها أزهار ضدي في الشجار معي كل عام، كانت تقول: أنت ترفض أن يصبح عندنا أطفال وتقول من أجل إدامة الحب بيننا، لكنك تنسى حتى يوم زواجنا، لا تتذكره ولا تحتفل به، فعن أي إدامة حب تتحدث؟ كلا، كان من الصعب علي نسيان ذلك اليوم، ليس لأن قلقي على ابن أخي ازداد مع تزايد الفوضى في بغداد، أمر تحقق بعد أسبوع عندما مات بعد تعرُّض الباص الذي كان يُقلّه إلى صاروخ في طريق عودته من عند أهله إلى بغداد، بل لأنه اليوم الذي سيغير مجرى الحرب في العراق، إن لم أقل اليوم الذي سيدمغ بدمغته كل الحروب القادمة في العالم منذ ذلك التاريخ، عندما يحل المرتزقة بديلاً عن الجنود في الجيوش، ففي ذلك اليوم تناقلت الأخبار عن مقتل أربعة مرتزقة تابعين لمنظمة بلاكووتر (وليس كما قيل عنهم رسمياً: «قوى مساعدات مدنية» أو«مساعدون أجانب بإعادة الإعمار» كما لو كانوا مهندسين، عمال بناء، أعضاء منظمات إنسانية، أو أخصائيين ببناء محطات لضخ ماء صالح للشرب)، هل

تتذكر؟ المرتزقة الأربعة الذين ظلت جثثهم المحروقة معلَّقة على جسر الفلُوجة يومين أو أكثر؟ في ذلك اليوم الذي كان سيمرُّ عليَّ مثلما مرَّت قبله بقية الأيام، فماذا يعني قتل أربعة مرتزقة أميركان أمام المئات من العراقيين يومياً. جلست في صالون البيت أصغي للأخبار وللتعليقات التي قيلت بهذا الخصوص في راديو الترانسيستور لأن التيار الكهربائي كان مقطوعاً كالعادة، عندها سمعت ضرباً على باب البيت، ولأرى نمير جاري الذي يقع بيته خلف بيتي يقف هناك. في الحقيقة لم أرَ نمير أو أحداً من عائلته منذ ثلاثة شهور، منذ حفلة رأس السنة الأخيرة وتعرُّض مركز الشرطة القريب للهجوم. في الحقيقة لم أستطع إخفاء فرحتي لرؤيته مجدداً، حتى أنني لعنت نفسي أمامه في ذلك المساء. اللعنة على النسيان، قلت له وأنا أصافحه وأعانقه بحميمية. لا عتب على أحد في الأيام الصعبة هذه، قال، ثم أوضح لي أنه جاء ليودِّعني لأنه باع البيت، فمن الأفضل له أن يسكن قريباً من مكان عمله؛ الطريق من البيت إلى النادي وبالعكس أصبح خطراً عليه. أيقنت أنه على حق فهو يعمل في نادي العلوية في ساحة الأندلس وقطع الطريق ذهاباً وإياباً يومياً هي شجاعة يُحسد عليها، وما لم يقله لي في حينه اكتشفته أنا لاحقاً، فهو ترك البيت أصلاً بسبب تهديدات له من مسلَّحين. حديقة بيته فيها أشجار كثيفة، كما يقع بمواجهة الشارع الذي يقود إلى محل بيع المشروبات، ويُمكن أن يُستخدم نقطة انطلاق

أو مأوى للأسلحة، ولرصد أو مهاجمة جنود المارينز الذين يأتون من حين إلى آخر بسيارات الجيب العسكرية لشراء علبة بيرة أو علبتين، ولأن من غير المسموح لهم شرب الخمرة في معسكرهم القريب، يشربونها بعجالة في أحد الشوارع القريبة الضيقة. لكنه لم ينسَ أن يقول لي قبل أن يذهب بأنه سيكون سعيداً إذا زرته في نادي العلوية، رجل طيب مثلك نادر العثور عليه في هذه الأيام، قال لي، على الأقل يستطيع هو أن يخدمني في الكافتيريا هناك، يردّ لي شيئاً من دَيْن حُسن الجيرة. في الحقيقة، أراد أن يقول لي ذلك منذ زمن طويل، فهو كلما رأى ضوءاً في صالون البيت أو في الحديقة، حزن عليّ، الجلوس وحيداً يحتاج إلى طاقة وسلوان، أما فيما يخص بطاقة العضوية فسيحصل عليها لي بسهولة، رغم أن مقاولاً مثلك لا يحتاج إلى وساطة في هذا المجال. شكرته ووعدته بالمجيء، لكنه وقبل أن يذهب استدار وقال، نسيت أن أقول لك، قبل يومين جاء أحد المقاولين إلى النادي؛ رجل أميركي لوحده، الغريب أنه كان يتحدث اللغة العربية بطلاقة، قال إنه يبحث عن مقاول عراقي. كان يبحث عنك أنت بالذات؟ وكم دُهش الرجل عندما قيل له إنك لا تأتي إلى هنا. قال: عجيب، أليس هذا هو نادي المقاولين والتجار؟ في الحقيقة، كل ما دار في رأسي في حينه، أن نمير هو الآخر مثله مثل الكثير من العراقيين يُبالغ، ربما كانت رغبته في أن أزور النادي هي

التي جعلته يخترع تلك القصة لي، فالجميع كان يبحث عن مقاولات وصفقات في تلك الأيام، فلماذا لا أكون أنا واحداً من أولئك أيضاً؟ ربما فكر نمير بذلك، لماذا لا؟ كان النادي ومنذ تأسيسه بالنسبة للقسم الأكبر منهم مكاناً تُعقد فيه صفقات المقاولات، أمر لم يكن يعنيني في ذلك الوقت بتاتاً. كنت متعباً أفكر بالراحة أكثر من المال، بالكاد تحمّلتُ انفصال زوجتي عني حتى أصابني موت ابن أخي وبالطريقة العبثية تلك في الصميم، العمل في المقاولات يحتاج إلى أعصاب قوية بشكل عام، فكيف هي الحال في تلك الأيام؟ عليك أن تتملق كثيراً، تمسح مؤخرات، كما يقول المثل عندنا. ليس ذلك وحسب، بل إن تنفيذ مشروع ما وإتمامه لم يخلُ من المغامرة، فمن لا يكلّف حرساً خاصاً من إحدى شركات الأمن التي بدأت بالتكاثر مثل نبات الفطر في تلك الأيام، ستتعرض مواد مشروعه والمعدّات للسرقة، وأجور الحرس تختلف حسب مكان المشروع وحجمه ومدته. إن أغلب أولئك الذين يطلقون على أنفسهم مقاولين أو تجار من الذين يتردّدون على النادي هم أثرياء جدد جمعتهم علاقات مع رجال في الحكومة، يأخذون المقاولات ليس لتنفذيها بل لبيعها لمقاولين آخرين صغار، حتى أنا عُرض علي تنفيذ هذا المشروع أو ذاك لكنني رفضت. كان ذلك هو الشائع في أوساط المقاولين والتجّار، خاصة زوار تلك الأندية منهم. ربما ما أنقذ سمعة النادي هذا أنه نادٍ قديم مثل النادي

القريب منه، نادي الهندية. بناهما الإنكليز الذين أدخلوا تقاليد النوادي في سنوات العشرينات على عكس النادي الآخر؛ نادي الصيد الذي بنته السلطة البائدة في سنوات السبعينات، لكن ذلك لم يغيّر من الأمر شيئاً.

كانت تلك هي المرة الأولى التي سمعت فيها برجل أميركي جاء يبحث عني، في المرة الثانية سمعتها من شاب غريب الأطوار كان يأتي من حين إلى آخر إلى محل بيع المشروبات عند نهاية الشارع. في الحقيقة وحتى ذلك اليوم، لم أعرف إذا كان هذا الشاب أحد سكان الحي أم أنه ظهر هكذا فجأة، لأنني لا أتذكر أنني رأيته سابقاً وأنا أسكن الحي منذ نهاية السبعينات، لكن متى انتبه أحدنا لتفاصيل مثل هذه إذا لم يحدث فجأة ما يجعله ينتبه إلى ما حوله؟ إلى جيرانه الذين يسكنون قريباً منه أو في الشوارع المجاورة. وبشكل عام يجب أن يكون الحدث هذا عادةً حدثاً غير عادي، حدثاً كبيراً، لكن اسمح لي أن أقول لك، فهو في حالة العراقيين يجب أن يكون أكبر من الحرب لأن الحروب تحولت إلى روتين بالنسبة لهم. العراقيون ومنذ أن تأسست دولتهم عام 1921 رأوا سلطاتهم تصول وتجول في حروبها شمالاً وجنوباً، فلماذا يدهشهم دخول الأميركان بغداد مثلاً؟ أنا نفسي وقفت في الحديقة وفي يدي كوب الشاي أراقب بهدوء الدبابات الأميركية وهي تسير باتجاه مركز بغداد، كأن الأمر لم يعنيني أبداً. على أية حال، كان لا بد أن يحدث في

حالتي ما هو أكبر من الحرب، أن يأتي شخص مثله يسأل عني مثلاً لكي أعرف أن هناك شاباً في الحي اسمه محمد باريس ظهر فجأة في الحي وعليّ تقبُّل وجوده، وأنني لم أنتبه إلى اسمه الأصلي إلا لاحقاً، لكن في ذلك الوقت وكلما ظهر في محل بيع المشروبات كلما سمعتهم ينادونه بذلك الاسم. لم ينادِ عليه أحد باسمه الحقيقي، محمد خضر الصادق، قيل إنه لُقِّبَ بباريس بسبب أناقته عندما كان يعمل بائعاً للثلج في إحدى أسواق المنطقة بعد أن حلّ الأميركان الجيش العراقي. كان يرتدي بنطلوناً قصيراً وفانيلة ملوَّنة فلقَّبوه محمد باريس بإشارة إلى باريس عاصمة الأناقة العالمية، وكان حسب ما عرفت من القصص التي دارت عنه، جندياً في الجيش العراقي السابق تحوَّل بعد أبريل 2003 إلى خاطف محترف أراد السير على خطى روبن هود، كما سيقول لي ذات يوم، يختار ضحاياه من كبار اللصوص«الحواسم»؛ أولئك اللصوص الذين انتشروا في بغداد مباشرة بعد دخول القوات الأميركية إليها لسرقة ما يمكن سرقته بدل القتال في «أم الحواسم» كما أُطلق رسمياً على المعركة مع الأميركان، والطريف أن محمد هذا الذي دخل في البداية جهاز الدفاع المدني عبر القوات الأميركية التي أرادت الاستفادة من معرفته بأوساط المجرمين لم يُخفِ نشاطه أبداً، سمعته لمرات عديدة يتحدث بمنتهى الجدية مفتخراً أمام زُوَّاد محل المشروبات بأن الأميركان كانوا يدفعون له على الأقل

مئة دولار عن كل مجرم يُسلِّم لهم، لكنه تخلّى عن هذه المهنة وبدأ يعمل لحسابه الخاص؛ يختطف الأثرياء وكبار اللصوص. صحيح أنه كان ينفّذ عمليات الخطف في مختلف الأوقات، لكنه كان يفضِّل القيام بها في النهار، من شروق الشمس وحتى مغيبها، وعندما يسأله البعض جادّين كانوا أو مازحين عن بعض تقنيات عمله، يقدّم نصائحه مجاناً ويقول: «من المستحسن اختيار الأوقات التي يتوجه فيها الناس إلى أعمالهم أو يعودون منها إلى منازلهم»، أما عمليات الهروب فيشرحها بالتفصيل وكيف أنها ستكون صعبة في الليل بسبب حواجز الشرطة في طرقات المدينة. محمد هذا ـ الذي لا أروي لك هنا قصته عبثاً ـ والذي كان يلبس كل يوم الزي ذاته: زياً رياضياً زيتوني اللون، هو الذي جاء هذه المرة ليخبرني بأن هناك رجلاً أميركياً جاء يسأل عني. حدث ذلك في يوم حار بعد ثلاثة شهور تقريباً على زيارة نمير لي في يوم 28/حزيران 2004 بالضبط في اليوم الذي أعلن فيه للعراقيين عن تسليم الحاكم المدني الأميركي السلطةَ لهم في بغداد. أتذكر أنني في ذلك اليوم أردت الاحتفال بالمناسبة، طبعاً ليس بمناسبة تسليم السلطات للعراقيين كما قيل رسمياً، هراء، بل بمناسبة هروب الحاكم هذا بطريقة تليق به، فلكي يغطي على تسلُّله خفيةً من مطار بغداد بطائرته الخاصة مثل لص محترف خاف إلقاء القبض عليه، دعا إلى مؤتمر صحفي في مكان آخر، ولأننا نقتنص المناسبات

خاصة وأنّ ليس هناك ما يُفرِح في البلاد، قلت لأذهب وأشرب نخب الكاوبوي السافل هذا مع زبائن محل المشروبات. في ذلك المساء وبعد ساعتين أو أكثر من وصولي إلى هناك ظهر محمد باريس على عادته، وبدل أن يبدأ برواية مغامراته سمعته يسأل صاحب المحل إذا كنت أجلس في زاوية المحل، حتى أن صاحب المحل قال له وهو يغمز له بعينيه، ماذا يا محمد هل تريد اختطافه وهو لا من الأثرياء ولا من الحواسم؟ بإشارة منه إلى سمعته التي شاعت. ضحك محمد وقال له: كلا، أريده لأمر عاجل، وعندما خرجت له بنفسي سحبني إلى جانب المحل لكي نقف لوحدنا. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها محمد باريس وجهاً لوجه، بهذا القرب، صحيح أنه في أواسط الثلاثين من عمره لكنه بدا لي وكأنه في الخمسين، أصلع الرأس، وجهه نحيف غطّت نصفه لحيةٌ غزاها الشيب، حتى صوته بدا لي منهكاً وهو يحذرني، قال لي: من الأفضل لك مغادرة المنطقة والنوم في مكان بعيد، وعندما حدّقث بوجهه مستفسراً عن السبب، أجابني أنه وهو في طريقه إلى هنا رأى قبل دقائق سيارة دوج كبيرة تحمل رقماً أميركياً جلس في داخلها رجل لم يرَ وجهه جيداً، لكنه رآه ينزل ويدق على باب بيتي، رجل طويل وضخم، أسمر، داكن البشرة على ما يظن، لكي لا يقول أسود. وقوف سيارة تحمل رقم أميركي أمام البيت لا يجلب غير المصائب، ثم أضاف وهو يربّث على كتفي، في كل

الأحوال ولأنني رجل طيِّب فإنه لن يتردَّدَ في حمايتي. أنت تعرف أين أسكن، قال لي، قبل أن يختفي مع قنينته.

هل تعرف، ربما تعتقد أنه الغرور أو أنها اللامبالاة أو في أسوأ الأحوال أنه الجهل ما جعلني لا أحمل ما قيل محمل الجد، لكنني حتى اليوم وكلما فكرتُ بالأمر كلما أيقنت أن من غير الممكن بالنسبة لي التصرف بطريقة أخرى غير الطريقة التي تصرَّفتُ بها، ففي تلك الأيام أصبح من الصعب التمييز بين الحقيقة والخيال، الاختراع والواقع، بين الأمنية والزيف. يكفي أن يطلق أحدهم شائعة ما حتى تجدها في اليوم الثاني على كل لسان، كل شيء يعدي في بلادنا، الكذب ومثله النميمة، الحسد ومثله إلحاق الأضرار، الاعتداء ومثله القتل، الاختطاف ومثله الابتزاز، الاغتصاب ومثله الدعارة، نعم، كل الصفات الشريرة تلك تنتقل مثل الفيروس بين الناس، على عكس الصفات الحسنة؛ لا عدوى تنقلها لأنه لم يعد لها وجود أصلاً، الصدق والكرم ومساعدة الآخرين مثلاً، أو الطيبة والكرامة والإخلاص هي صفات أصبحت في عداد الماضي، هذا إذا كانت وُجدت عندنا ذات يوم. كل شيء زائف، كل شيء ادِّعاء، فلماذا كان عليّ التصرف بطريقة أخرى؟ وإذا كنت لم أصدق ما قاله جاري نمير وهو رجل بسيط، لا أجد عندئذٍ ما يستدعي الكذب علي، فكيف لي أن أصدق ما قاله شخص أراد أن يكون روبن هود العراق. بدل ذلك قلت

لنفسي إن البلاد كلها جُنَّت منذ دخول الأميركان حتى الآن، تدهور الأوضاع جعلهم لا يكتفون باختراع القصص لأنفسهم وحسب بل وللآخرين أيضاً، ألم يخترع نمير قصة بيعه للبيت؟ فبعد يومين أو ثلاثة من ادّعائه ذاك رأيت بنفسي وأنا في طريق عودتي من محل الشرب سيارة بيك أب جلس فيها رجال ملثّمون ومسلّحون عددهم ستة أو سبعة يدخلون بيته. أما القصص التي رواها محمد باريس عن نفسه فلم أصدق واحدة منها، روى مثلاً أن أحد ضحاياه صبي في الثامنة من عمره، اختطفه لأن أباه كان مديراً سابقاً في مصرف الرشيد، وأن المدير هذا من «الحواسم» (كما أطلق على الأثرياء الجدد الذي جمعوا ثروتهم بعد هزيمة «أم الحواسم» كما سمَّى النظام الذي ولَّى معركتَه مع الأميركان)، وقد سرقَ وقت دخول الأميركان بغداد 40 مليون دولار. طبعاً أنا لا أشك أن الرجل هذا مدير البنك لم يسرق 40 مليون دولار، معاذ اللّه، فهو ما كان حصل على منصبه في العهد السابق لو لم يكن تمتَّع بموهبة الحرامي، لكن ما هو غير معقول بالنسبة لي ولا يصدقه عقل هو أن محمد باريس أفرج عن ابن اللص هذا مقابل 20 ألف دولار فقط! أو القصة الأخرى التي تقول إنه ربح مئة وتسعين ألف دولار دفعة واحدة من عملية اختطاف رجل ثري بطلب من زوجته، قالت له، إن زوجها ثري كبير عمل مع الابن الأكبر للحاكم السابق، وإنه حصل على جزء من ثروته بعد هروب الحاكم

وأولاده وإنها تريد الانتقام منه لأنه تزوَّج بصبية، وحسب ما رواه محمد باريس، كانت عملية اختطاف سهلة فوفقاً لتوجيهات زوجته الأولى اختطفناه وهو في طريقه إلى منزل زوجته الجديدة، طرحناه أرضاً وكبَّلناه ووضعناه في صندوق السيارة ولُذنا بالفرار. بعد أيام لم تكتفِ الزوجة بدفع الفدية وتأخذ حصة لها بلغت أربعة أضعاف ما حصل عليه، بل إنه منذ ذلك الحين أصبح عشيقها المفضل، ينام عندها متى شاء، يضاجعها متى شاء وبكل الأوضاع، من الأمام، من الخلف، من الفم، من كل ثقوبها، كما قال، تُحقِّق له كل ما يريد، حتى أنها لا تمانع إذا كبَّلها من يديها ورجليها متى شاء. فكيف تريدني أن أصدقه إذن؟ ومن اعتاد اختراع القصص، لماذا عليه أن يكون صادقاً في قصتي، حتى إذا كان لقبه «الصادق» كما في حالة محمد خضر؟ فهل من المعقول أن يأتي أميركي يبحث عن مقاول عراقي بسيط مثلي؟ ربما شغلتني هذه القضية قليلاً لكنني حاولت للمرة الثانية نسيانها، طردها من مخي وكنت نجحت في ذلك لو لم يتصل بي حسن بعد ثلاثة أو أربعة أيام من مكتبي ويقول لي بصوت حزين بالكاد حبس دموعه إن الشاب الذي نصب منصة الصواريخ أمام المكتب ذات مرة جاء في سيارة بيك آب يصحبه أربعة أو خمسة رجال ملثَّمين صعدوا إلى السطح لينصبوا هذه المرة منصَّة صواريخهم على سطح البناية، وعندما طَلب منهم النزول صوَّبوا رشاشاتهم نحوه، قالوا

له، عليه المغادرة فوراً والذهاب إلى رب عمله لكي يخبره أن المكتب مُصادَر منذ ذلك اليوم وأنهم هنا بانتظار زيارة أصدقائه الأميركان. الحقيقة يا أستاذ لا أعرف عن أي أميركان يتحدثون؟ ولا أنا، قلت له، صحيح أنني لم أخبره عن قصة زيارة الأميركي لبيتي إلا أنني وللمرة الأولى بدأت أربط بين الزيارة المفترضة للأميركي للبحث عني في المرّتين السابقتين وبين ما جرى في المكتب، فمن غير المعقول أن حسن هو الآخر يكذب عليّ. الشكوك التي غزتني تلك لم تدم طويلاً حتى تصبح حقيقة، إذ في اليوم الثاني من حديثنا في التلفون رأيت سيارة البيك آب نفسها التي دخلت بيت نمير تقف عند باب بيتي، لا أدري إذا كانت هي ذاتها التي نصبت منصة الصواريخ عند مكتبي ولا أدري إذا كان الرجال الستة أو السبعة الذين جلسوا فيها، الرجال الذين هدّدوا حسن أيضاً هم أنفسهم الذين دخلوا عليّ بأسلحتهم في ساعات الصباح الأولى وطلبوا مني مغادرة البيت فوراً وهم يصرخون «اللّه أكبر» إنهم مقاومة، قالوا لي، وإن واحداً مثلي يتعاون مع الأميركان لا مكان له في الحياة عادة، وإنهم لن يقتلوني احتراماً لعائلتي. أبوك كان شيخاً فاضلاً، قالوا، وأخوك مجاهد مثلنا. هل تعرف، لقد عشت لحظات مرعبة كثيرة في حياتي، سواء على الجبهة الإيرانية في بداية الثمانينات، في الجنوب، في أهوار الناصرية وأهوار ميسان، أو لاحقاً في حرب الشمال في جبال كوردستان،

لكنني أقول لك، إنني لم أرتجف، لم أشعر بالخوف يسري في كل مسامات جلدي مثلما حصل لي في اللحظات القصيرة تلك. من الصعب وصف المشهد، نعم رأيت بشراً يحملون السلاح منذ أن فتحت عيني على الحياة ورأيت الناس حولي تحمل السلاح هناك في البرية في سهوب المناطق الغربية، رأيت الناس تحمل السلاح وتطلق النار، سواء الرعاة أو المهربين، المحتفلين بالأعراس أو المعزين في المآتم، حتى في البيت عندنا رأيت أبي يطلق النار، حدث ذلك في عرس أعمامي أو خوالي بل حتى عند ولادة ابن أخي الذي مات. طبعاً عندما انتقلنا إلى بغداد، وبدأ أبي بالعمل في المقاولات تغير الأمر لكنني لم أرَ أبي يتخلّى عن السلاح حتى ساعة موته. ظل ينام وبندقيتان تحت سريره أحياناً. وأتساءل كيف كان هؤلاء يمارسون الجنس وتحت سريرهم السلاح. ليس أبي فقط. ملايين الرجال فعلوا نفس الشيء، حتى أخي الأصغر كان مهووساً بالسلاح لدرجة أن أبي حذّره ذات يوم بأنّ عليه أن يتحكم هو بالسلاح وألا يسمح للسلاح بالتحكم به، السلاح هو زينة الرجال قال له، لكن بحدود، الأمر الذي جعل أمي تضحك وتقول له: عليه قبل أن يعلِّم ابنه الحكمة أن يتحكم هو بالسلاح. وعندما مات كان أول ما فعلته أمي أنها جمعت البندقيتين اللتين ملكهما أبي مع المسدسات، خمسة أو ستة مسدسات على ما أظن، هدايا خاصة من المسؤول هذا أو ذاك، وطلبت مني أن أرميهم في النهر

في مكان بعيد. قالت لي إنها حزينة لموت أبي، لكنها للمرة الأولى ستنام سعيدة وتشعر بأمان، أمرٌ جعل أخي الأصغر يغضب حقيقة. كان قد دخل الكلية العسكرية للتو وعندما عرف ما فعلناه أنا وأمي غادر البيت فوراً؛ قال إننا لم نحترم إرث أبي، السلاح المتروك، تلك هي وصيته لنا، إنه شرفنا، وعندما قلت له عن أي شرف تتحدث، قال لي إنه لا يأخذ دروساً في التربية من أخ صديق للشيوعيين وللشروگية و... وسكران، ما زلت حتى اليوم أسمع رنين الصفعة التي أنزلتها على خدِّه. غادر أخي غاضباً ولم تسنح لي بعدها فرصة الاعتذار له. حتى عندما ماتت أمي لم يأتِ لمأتم العزاء، أقام مأتماً خاصاً به في بيته، وحتى وفاته لم يفهم ابن أخي ما هي أسباب الخلاف بيني وبين أبيه، هل أقول له السبب هو حمل السلاح؟ لكنني ولقول الحقيقة، ولا علاقة للأمر هنا برفضي لحمل السلاح وكرهي حتى لمنظره، هو أنني ربما شعرت بالخوف لمنظر السلاح، في الجيش أو في الشارع، في أيام الحرب أو في أيام السلام (متى كان عندنا سلام؟) لكنني لم أرَ الخطر ماثلاً أمام عيني مثلما رأيته في ذلك الصباح. التهديد الذي رأيته يلمع في عيون المسلَّحين الملثَّمين أولئك، خاصة في عيني رئيسهم كما يبدو، الملثَّم بالغترة والذي ظل جالساً في مقدمة السيارة، صامتاً تماماً يراقب المشهد، لم أرَ له مثيلاً من قبل. في الساعات الأولى من صباح اليوم الصيفي الحار ذاك خطر في ذهني أمر واحد

وحسب؛ أن أغادر البيت فوراً. وعندما وصلت إلى ساحة الميدان، أو عندما صعدت درجات السلالم التي تقود إلى شقة صديقنا الشاعر سلمان ماضي، أو ربما عندما طرقت على باب الشقة تلك، أو عندما، وذلك هو الأكثر رجحاناً، رأيت سلمان يفتح لي الباب سكراناً على عادته وهو يقول لي «أهلاً وسهلاً بك في المنطقة المحرَّرة، ساحة الميدان»، عرفت أنني هربت بثيابي التي ألبسها وحسب، وأنني لم آخذ معي ما أحتاج إليه: لا حقيبة ملابس ولا الصندوق الصغير الذي حوى على مدَّخراتي، كل ما ادَّخرتُه لكي أعيش بسلام. نعم، تركتُ كل شيء في البيت لهم باستثناء مبلغ بسيط احتفظت به دائماً في بطانة السترة لأيام الضيق، دون أن أدري أنني بالذات وعن طريق ذهابي إلى سلمان كنت أسير بالضبط بالاتجاه الذي شاءت القصة السير إليه، الطريق الذي لم أختره أنا إنما اختارته لي الحياة، السير باتجاه الرجل الأميركي الغامض الذي جاء يبحث عني، كأنني مثل بطل رواية بدأت تُكتب للتو، رماه المؤلف ليواجه قدره هناك، لكن إلى أين كنت سأذهب في بغداد في تلك الأيام والقتل على الهوية قد بدأ للتو على قدم وساق في بغداد، إن لم أذهب إلى صديقي سلمان؟ لكن وقبل الحديث عن الرجل الأميركي الغامض الذي سألتقي به لا بد من الحديث أولاً عن سلمان ماضي؛ فدون معرفة سلمان من الصعب فهم القصة وما جرى لي في تلك السنوات. نعم من الصعب معرفة لماذا كان

على حياتي أن تتبدل منذ ذلك الحين.

ـ ٢ ـ

عودة لا بد منها: بداية أيام الجمر

العراق ١٩٨٤ ـ ١٩٩١

تعود معرفتي بسلمان إلى أيام الخدمة العسكرية، إلى شتاء 1984 على ما أظن، العام الذي بدأت فيه رحلة استخدامي في العديد من الوحدات العسكرية التي قاتلت في جبال ومدن وقصبات كردستان. حتى ذلك الوقت وقبل أن أتسلم أول أمر استخدام لي إلى كتيبة الاستمكان في قاطع مدينة السليمانية، في سد دوكان بالتحديد، كنت خدمت في قسم الشؤون الحيوانية العسكرية التابع لمقر الفيلق الثالث في البصرة. كانت ما تزال الحرب العراقية الإيرانية على أشدها، وكان القصف بالمدفعية والطائرات والبارجات روتيناً يومياً على الجبهة الجنوبية، صحيح أن القوات العراقية توغَّلت إلى عمق كبير داخل الأراضي الإيرانية إلا أن الهدف المعلن في بغداد كان دائماً، السيطرة أولاً على مدينة عبادان والانطلاق منها للسيطرة على كل إقليم خوزستان الغني بالنفط، هدف كبير بالأحرى إن لم يكن نوعاً من الانتحار، فمثلما لغَّمنا نحن المناطق التي عرفنا أن الإيرانيين سيزحفون منها على البصرة، لغَّمت إيران أيضاً كل المناطق المحيطة بعبادان. ومن أجل إبطال مفعول الألغام هذه التي أعاقت تقدمهم، أرسل الإيرانيون مجاميع كبيرة من الأطفال الصبيان الصغار يحمل كل منهم مفتاح الجنة، للسير عليها، أمر لم

يستطع العراقيون القيام به، فعن أية جنة سيكون الحديث والحزب الذي يحكم البلاد حزب علماني؟ ولا أدري من كان صاحب تلك الفكرة العبقرية الذي اقترح أن أفضل ردّ على الإيرانيين هو إرسال الحمير بدل الشباب اليافع، طبعاً دون تزويدها بمفاتيح دخول الجنة، لا تضحك أرجوك، حتى الحمير لم تسلم من الحرب، على أية حال، ولأن أغلب الحمير التي جالت بحرية ذات يوم على طول الحدود بين إيران والعراق هربت مباشرة بعد اندلاع الحرب باتجاه دول الخليج. كان لا بد من إجبارها على العودة. آلاف الحمير كانت تُنقل يومياً إلينا من دول الخليج ومن الكويت خصوصاً، وكانت مهمة وحدتنا معاينة الحمير تلك وفرز الصالح منها لإرساله للسير على الألغام، لأن بعضها كان متعباً جداً، سينهك بعد سيره بضعة أمتار. وأكثر من عام دارت وحدتنا على طول الجبهات وعرضها وهي ترسل الحمار بعد الحمار. ليست هناك إحصائية بعدد الحمير التي ماتت هناك لكنها بالتأكيد كانت مجزرة كبيرة. كان عليك أن ترى منظرها، العديد منها كان يرفس وينهق كأنه عرف ما ينتظره بعد ساعات وعندما تغير مجرى الحرب أو لنقل عندما لم يعد هناك حمير لا في البلاد ولا في دول الخليج، قررت وزارة الدفاع توزيعنا، الضباط منا بصورة خاصة، من خريجي الطب البيطري على الوحدات العسكرية التي كانت تقاتل الأكراد في الشمال؛ الفيلق الأول في السليمانية والفيلق الخامس في أربيل

وحتى مثلث الحدود العراقي التركي الإيراني. كانت مهمتنا في المرة هذه إيقاف ظاهرة انتحار البغال التي شاعت فجأة في ربوع كردستان. مهمة عبثية أخرى لكنها من ناحية أخرى أفضل من المهمة السابقة، ليس بسبب خطورة جبهات القتال على طول خطوط التماس مع إيران وخاصة الجبهات الجنوبية وحتى جبهة الوسط عند واسط ومندلي، لأن الحرب في الشمال لم تكن أقل خطورة منها، كلا، بل لأنني على الأقل أعيد في المرة هذه الحياة لحيوان ولا أسلبه حياته بالطريقة الشريرة كما فعلنا في البصرة. أنت تعرف أنني لم أخدم في الجيش مثل بقية الخريجين من غير الحزبيين الذين كان عليهم أن يكتفوا في فترة خدمتهم برتبة نائب عريف، بل خدمت برتبة ضابط، ولم يكن سبب حصولي على الرتبة هذه انتمائي للحزب الحاكم كما حصل للخريجين من هذا الصنف بل أكثر من ذلك بسبب لقب عائلتي ومكان ولادتي؛ فأنا لست من سكان الجنوب. حصلت على هذا الامتياز، وكان من المسموح لي التمرد لكن إلى مدى محدود، هل نسيت كيف أنني كنت أدور على أصدقائي الشيوعيين الذين تحصّنوا في بيوتهم أحمل قناني العرق لهم في يوم عيد ميلاد حزبهم في 31 آذار، أتحدى رجال الأمن الذين كانوا يراقبونهم؟ كنت أعرف أنني لن أتعرض للاعتقال مثلهم. مرة واحدة تجرّأ شرطي أمن على سؤالي، وعندما قرأ اسمي في الهوية وعرف مكان الولادة اعتذر مني، بل

رأيت وجهه يشحب، ربما خاف مني؟ اليوم الكلّ يعرف ذلك، لكن لا أحد يريد الاعتراف، الكل يتحدث عن الفوارق بين الناس اليوم، وينسون أنها القاعدة التي شاعت طوال كل هذه السنوات في كل مكان، خاصة في الجيش. خريجون مثلي قدموا من مناطق غير المناطق الجنوبية وغير أكراد تمتعوا بامتيازات حسدهم عليها الطرفان: الأكراد وسكان الجنوب، كان ولاءنا للسلطة نحن القادمون من خارج تلك المنطقتين تلقائياً، ومن يشذ منا عن القاعدة هذه، من يُشَكُ في ولائه قد يتعرض للأضرار لكن بحدود التأنيب أو التأديب، فمثلاً خريجوا الطب البيطري الذين انتموا للحزب للحاكم والذين ليسوا بصفتهم ضباطاً لم يُرسلوا للخدمة على خطوط جبهات القتال، لا في جنوب العراق ولا في شماله، نسبة كبيرة منهم عملت في حقول الدواجن الخاصة بأبناء الحاكم، أما شخص مثلي حصل على امتياز الضابط ولم يتعرض للاعتقال لكن لا بد من تعريضه للعقاب لأنه يرفض الانتماء للحزب الحاكم، لأنه يختار أغلب أصدقائه من سكان الجنوب من الشروگية. مرة أرسل يطلبني ضابط أمن الفيلق الثالث على الجبهة العراقية الإيرانية في الهارثة، قائلاً لي: «يوّل ملفك الشخصي، يقول كل أصدقائك شين تكعيب، تقدر تقول لي السبب». تعرف الشين التكعيب هذه، الشين الثلاثية، التي شاعت كتهمة في تلك السنوات، شروگـي، شيعي، شيوعي، هل أقول له إنني وبالرغم من لقبي عشت منذ

طفولتي على ضفاف نهر الفرات في غرب العراق مع شروگـية لم يكونوا بالضرورة شيوعيين. ناس بسطاء أغلبهم جاء آباؤهم للعمل في معسكر الجيش البريطاني الذي خيّم هناك؟ هل أقول له إن أبي حدثني كيف أنهم في بداية الأربعينات وبسبب قلة الأيدي العاملة بنوا الحسينية الشيعية والجامع السنّي سوية، في أيام الجمعة والعطل الرسمية، سُنّة وشيعة تعاونوا على البناء؟ هل أقول له، إنني وعيت على مؤذن الحسينية أو رادودها في المناسبات الحسينية، اسمه كامل وهو سني، بسبب صوته الجميل لا غير؟ هل أقول له، في الحبانية مثلاً ا،لمدينة الصغيرة المجاورة لمدينتنا الأصغر منها، كانت الطوائف العراقية جميعها هناك، مسيحيون على اختلافهم، آشوريون وكلدان وكاثوليك، حتى الصابئة المندائيين كانوا هناك؟ لكن هل سيفهمني الضابط هذا أو سيظن أنني أضحك عليه؟ وهو؟ هل أقول له إنه ما كان تسلم منصب ضابط أمن الفيلق ذلك لو لم يكن من عشيرة الحاكم؟ معرفتي هذه جعلتني أشعر بالغضب طوال ذلك الوقت، أعزل نفسي عن زملائي الضباط، بدل ذلك رحت أبحث في كل وحدة عسكرية أنتقل إليها عن نائب عريف خريج لكي يكون صديقاً لي، أمر لم يكن سهلاً بالطبع، ففي الجيش بالذات كان الحذر هو السائد، من الصعب الوثوق بأحد. الحديث عن الأمور الشخصية أمر نادر، حتى بين الضباط، فكيف ستكون الحال بين ضابط وجندي، من

غير المهم أنه نائب عريف خريج؟ في البداية تعرضت لبعض المشاكل مع بعض الجنود لكن مع مرور الوقت رحت أطور إستراتيجية خاصة بي، أبحث عن نواب العرفاء الذين يشربون العَرَق أو من لا يشربونه لكنهم على الأقل من خريجي كلية الآداب فميلي للقراءة قديم، منذ أيام الدراسة الجامعية في سنوات السبعينات، ثم خروجي سوية مع العديد من مثقفي الفترة الزمنية تلك، خروجنا سوية للشرب في حانات شوارع أبي نؤاس وفي مبنى اتحاد الأدباء في بغداد، لكن مهما كانت الإستراتيجيات التي طورتها، إلا أن الأمر كان يأخذ مني عادة بعض الوقت، باستثناء المرة التي تعرفت فيها على سلمان ذات ليلة، أظن بعد أسبوع من نقلي إلى كتيبة الاستمكان في دوكان. كان عليّ مغادرة مقر الوحدة، قيل لي إن البغل الذي ينقل المؤونة إلى رعيل الرادار الذي اتخذ موقعاً له في رابية على قمة الجبل حاول الانتحار، ألقى بنفسه في الوادي، وأن عليّ الإسراع لرؤية إذا كان ما يزال يعيش. كانت ليلة باردة على ما أتذكر، سماء صافية تلألأت فيها النجوم وكان الضوء ينعكس على الثلج أزرق، لكن البغل الذي حاول الانتحار سقط عند منحدر ضيق، بالضبط عند مغارة صغيرة حجبت الضوء عنه، ولو لم أسمع صوتاً بشرياً يردد «أيها الجلاد، اذهب إلى قريتك الصغيرة، لقد طردناك وألغينا هذه الوظيفة» في ذلك اليوم لم أعرف أن المقاطع الشعرية تلك كتبها شاعر عراقي معروف

عاش في تلك الفترة في سان فرانسيسكو. كلا، لم يهمني حتى أنني لم أسأله عن الشاعر في البداية، كل ما همني هو أنني في المرة هذه عثرت على جندي صديق، رغم أنه لم يحمل رتبة نائب عريف، جندي عرفت أنه سيصبح صديقي دون بحث أو عناء، كلمات القصيدة تقول لي إنه ليس في الحزب الحاكم ولفرحتي بالاكتشاف لم أنتبه للبغل الذي استقر عند المنحدر تحت، بل توجهت إلى الجندي الذي ردد القصيدة تلك. لقد مرّ أكثر من ربع قرن على تلك الليلة، يا إلهي قرابة سبعة وعشرين عاماً، لكنني ما أزال أتذكر بوضوح كل تفصيل كأنها حدثت بالأمس أو للتو. كان سلمان يجلس على صخرة قريبة وفي فمه سيجارة، رغم أنه كان يرتجف من البرد لم يرمِها إلا عندما رآني أقف قريباً منه كأنه بوغت بوصولي، حتى أنه لم يملك الوقت الكافي لكي يمسح دمعة هبطت كما هو واضح على خده الأيمن وتوقفت هناك، لكن بريقها اضطرب تحت الضوء، نهض سلمان باضطراب وأخذ التحية، قال لي، وكانت أسنانه تصطك من البرد، العفو سيدي، المنتحر هناك تحت بين الأدغال. أعجبتني كلمة المنتحر، لم يقل لي الحيوان أو البغل، المنتحر، لِمَ لا؟ قلت لنفسي، والبغال أصبحت في البلاد هذه أكثر وعياً لرفض الحرب، لم تعد تطيق لا الأثقال التي توضع على ظهرها للنقل ولا العيش في الأماكن غير الطبيعية هذه، في المعسكرات وخطوط التماس يحيط بها السلاح من كل جانب بدل العشب

والخضّار. لا أعرف إذا كانت عندنا إحصائية بعدد المنتحرين من البشر؟ لا أدري، لكنني على يقين أن أية مقارنة بين عدد المنتحرين من البغال والبشر، ستثبت أن البغال فاق عددها الأضعاف، حتى الحمير رأيتها تنتحر على الجبهة العراقية الإيرانية بينما كان شعراء الجبهة الشرقية يلهبون الحماس بقصائدهم، لا حناجرهم بُحّت من ترديد النشيد تلو النشيد، ولا أيديهم تعبت من قرع طبول الحرب. ابتسمتُ، لكن الدمعة تلك التي حافظت على مكانها أثارت عندي الفضول، ظننت أنها بسبب البرد أو الرياح التي هبَّت ساعتها نشيطة، طلبت منه أن يستريح، مددت يدي لأصافحه وقدمت نفسي دون أن أذكر كلمة ملازم، سألته عن اسمه، فقال لي رقمه، قلت له، كلا، اسمك، فقال بعد تردد وكأنه لم يعتد ذلك، الجندي المكلف سلمان ماضي، سألته، ماذا سيفعل الآن والبغل مات، كيف سيصعد إلى الرابية دونه، عاينني بدقة، كأنه لم يصدِّق كلامي أو أنه صدَّقه وأراد التأكد من أن الضابط الذي يراه من لحم ودم وليس من صناعة أوهامه، فقال لي، ولكنك سيدي لم تفحص الحيوان. ابتسمت وطلبت منه أن يأتي معي. كانت سيارة الجيب بانتظاري تحت في الوادي. لم ينطق سلمان بكلمة طوال الطريق، مثلي. هل تعرف في بعض الأحيان يلتقي اثنان لا حاجة لأن يسأل أحدهما الآخر بماذا يفكران، هكذا ببساطة يفهم أحدهما الآخر فهماً، يفكران بالطريقة نفسها، ذلك ما حصل لنا نحن

الاثنين في تلك الليلة الشتائية الباردة. أعطيته معطفي مباشرة بعد دخولنا الغرفة الخاصة بي في الوحدة، سألته ماذا يريد أن يأكل، الشراب لن أسألك عنه عندي منه ما يكفي، ثلاثة قناني عرق أو ربما أكثر، قلت له، طلبت من السائق أن يجلب لنا مشويّات ومزّات من الحانوت، رميت حطباً إضافياً إلى الموقد، عرفت أن وراءنا ليلة طويلة من الحديث، عرفت أنني أمام جندي مكلّف غير عادي، شخص سيصبح صديقي طالما بقينا على قيد الحياة، لم يُخطئ حدسي طبعاً، فبعد الكأس الثالث أو الرابع وفيما كان يصدح صوت فيروز في العمق «يا طير يا طاير على طراف الدني... لو فيك تحكي للحبايب شو بني... يا طير...». سألته عن اسم الشاعر الذي كتب القصيدة التي ردّدها قبل قليل، حدق بي وكأنه بوغت بالسؤال ثم قال، أمر غريب، لا تعرفه؟ قلت له، بجد لا أعرفه، فسألني إذا كنت قرأت لأحد الأدباء العراقيين ربما لكي لا يسألني إذا كنت لا أعرفه شخصياً، شاعر استثنائي مثله، كان من الصعب تجاهله، فأجبته، أعرف أديباً واحداً هارون والي، وبصراحة قرأت له لأنه يتحدث دائماً عن المسكوت عليه وعن كل ما يَلحق بالإنسان من حيف. لم أعرف أنه سيعرف هارون والي الذي تحدثت عنه وأن علاقة قديمة وحميمة ربطته معه، لكن الفرحة التي ارتسمت على وجهه، عندما نطقت الاسم أمامه جعلتني أفهم منه كل شيء، خاصة عندما سمعته يقول لي: صحيح أن هارون

لم ينشر إلا قليلاً لكن يعجبني فيه إصراره على مواصلة رواية الجحيم الذي نحن فيه. غادر مبكراً من أجل أن يعطي نفسه الفرصة لرواية عذابنا بحرية. ذلك ما أخبرني به قبل أن يغادر. آه كم أشعر بقربه منا الآن، قال لي، ثم أضاف كيف أنه كثيراً ما سمعه يردد جملة صديقنا الإيطالي إيتالو كالفينو التي أحبها من كل قلبه والتي تقول: نحن في الجحيم. كل ما نستطيع عمله هو مساعدة أولئك الذين لم يجعلوا جحيمنا أكثر سوءاً حتى الآن. أتذكر أننا بعد أن انتهى من تذكُّره لهارون شربنا على الأقل قنينة عرق كاملة، شربنا نخب صديقنا الروائي المشترك وتحدثنا عن أنفسنا كثيراً كأننا أردنا التعرف على بعض بسرعة، أن نمنح الثقة، ربما هذا ما جعله يقول لي في ساعة متأخرة من الليل بأنه سعيد بالتعرف عليَ ويأمل ألا يسبب لي المشاكل بسبب ماضيه أو حاضره كما قال ساخراً، وعندما رآني أتطلع به، قال لي، لا بد أن تعرف ذلك لأنني لا أريد توريطك معي أو بي، ثم رفع رأسه وأشار إلى مكان منخفض على جبهته وآخر في ذقنه، قال إنهم اقتادوه ذات يوم إلى دائرة الاستخبارات في وزارة الدفاع في باب المعظم خلف الجامع الذي بنوه هناك للتمويه على أقبية التعذيب، طلبوا منه أن يعترف بعلاقته بالمعارضين وأن يشي بأصدقائه الذين كانوا بالنسبة لهم شيوعيين، وحين قال الحقيقة وهي أن لا علاقة له بما يتّهمونه فتحوا عليه أبواب الجحيم. الحصيلة لا تزال ماثلة في

جسده، قال إنه وقّع على تعهد ما يثبت أنه مذنب وباح بكل ما يعرفه عن الأصدقاء: خرجتُ من ذلك المكان يلازمني شعور بالعار. كسروا كرامتي وإنسانيتي. شعرت أنني حقير وبدأت العيش ككلب همَه الأوحد ألاّ يُعذَّب مرة أخرى. قال لي: هل تعرف أن باستطاعتهم استدعائي غداً وسؤالي عن علاقتي بك. فطمأنته بأن عليه ألا يقلق من هذه الناحية، وطالما نحن سوية لن يتعرض للاعتقال، على الأقل في تلك الأيام، وبسبب خالي كنت واثقاً مما أقول. حتى اليوم لا أدري كيف استيقظنا في اليوم الثاني في ساعة مبكرة، ربما لم ننم أو ربما نمنا على شكل دفعات، نشرب، ننام ثم نصحو، نشرب، نتكلم ثم ننام ربما نسيت أمر النوم لكنني لم أنسَ أنه قبل أن يذهب إلى السرير، قال لي لا بد أن أقول لك، لماذا بكيت في الوادي تحت، إنه الشعور بالذنب لا غير، ثم أوضح لي كيف أن الجميع يعرفون أن المنحدر عند تلك النقطة حاد جداً. كان عليّ أن أنتبه جيداً، قال بصوت حزين منكسر فهو لم يصعد للمرة الأولى بالبغل إلى الرابية في قمة الجبل من هذا المكان، بدل ذلك، قال لي وفي صوته الكثير من الندم، كنت مشغولاً بالتأمل، ليست تلك هي المرة الأولى التي يلهيه فيها التأمل عن إنقاذ أحد ولكن تلك قصة سيرويها لي في يوم آخر، كما قال، الآن عليه أن يعيش مع شعوره بالذنب من جديد، ثم سمعته يردد وهو في في طريقه إلى السرير جملة عرفتُ لاحقاً أنها لهاملت: «لماذا يجعل

التأمل منا جبناء». قلت الناس تقتل بعضها حولنا وهو يتألم لسقوط بغل، أية مفارقة؟ في صباح اليوم الثاني نهضت من الفراش قبله، غسلت وجهي ولبست ملابسي العسكرية بسرعة وذهبت إلى مقر الكتيبة مباشرة لكي أطلب من الآمر أن يترك سلمان يعمل عندي مراسلاً، فوافق.

بهذا الشكل بدأت صداقتنا أنا وسلمان، باستثناء نوبات الحزن والشعور بالذنب التي كانت تهجم عليه من يوم إلى آخر ما جعلتني أتركه وحيداً في خلوته لأنني لم أشأ أن أجعله يعرف بأنني كثيراً ما رأيته يبكي في خلوته دون أن يشعر بذلك. كان يومنا مقسماً حسب برنامج لم نختر نحن تفاصيله؛ في ساعات الصباح الأولى نستيقظ، لا يهم متى، لا علاقة لنا بأوقات استيقاظ الوحدة العسكرية إلا إذا كان هناك بغلٌ أضرب عن صعود الجبل أو رمى نفسه في ساعة مبكرة في الوادي، باستثناء مرتين أو ثلاث لم يحصل مثل هذا القبيل، فلأنني ضابط استخدام مؤقت لم آت منقولاً إلى الكتيبة، كنت لوحدي بمثابة وحدة مستقلة، حتى أطلق الضباط الباقون عليَ لقب «وحدة البغال» ربما عن غيرة وربما عن احتقار لمهنة الطب البيطري وللحيوان. الاستقلالية هذه جعلتني أتمتع ببعض الامتيازات التي لم يتمتع بها الآخرون، حتى أن أطلب كل ما أحتاجه من الجنود. كان بإمكاني الاستعانة بجنود آخرين بعدد بغال الكتيبة. كان عندنا عشرة بغال على ما أظن، كلها بصحة

جيدة قبل أن ينتحر خمسة منها والسادس فرّ في الليل، لكن باستثناء السائق لم أطلب جندياً إضافياً لكي يساعدني في العناية بالبغال، رغم العناء الذي يكلِّفه الاعتناء بكل بغل. أردت الاكتفاء بسلمان، فما هي حاجتنا نحن الاثنين لثالث يزعج علينا خلوتنا، وحسب سلمان، الشخص الوحيد الذي يصلح أن يكون ثالثنا هو هارون والي، لكنه فرح أيضاً أن هارون بعيد «كم أحسده أنه أصبح خارج بالوعة الموت»، كما قال وهو يصنف الحرب الدائرة في ذلك الحين. العجيب هو أن سلمان الصعلوك المعروف بكسله منتظراً هبوط الإلهام عليه لكتابة قصيدة لم يشأ إخابة ظني أمام الضبَّاط الآخرين، أمام الضابط المساعد المسؤول عن أمن الوحدة والذي نظر لعلاقتنا بعين الشك، خاصة وأنا لم أحضر اجتماعاته الحزبية. كانت البغال دائماً عذري، وكان هو في دخيلة نفسه يعرف أن البغل أهم من الحزب، ففي المناطق الجبلية تلك لا قيمة لجندي أو ضابط أو سلاح دون البغل، بالتأكيد وصله ملف سلمان الأمني من مدينته، كأن سلمان عرف ذلك لذا لم يشأ أن يمنح أحداً عذراً يجعله يطلب مني التخلي عنه. كان جاهزاً لمساعدتي حتى دون أن أطلب منه ذلك فما إن يعرف أنني مطلوب لمعالجة حيوان حتى يترك ما بيديه ويلبس بسطاله، ويقول لي، لنذهب، بامونوس، مقلداً أفلام الكابوي. ليس ذلك وحسب، بل جلب في إحدى إجازاته النادرة كتابين أو ثلاثة عن البغال، اشتراها من

مكتبة ماكنزي في بغداد، مَن يتذكرها الآن؟ تلك المكتبة القديمة في شارع الرشيد عند زاوية شارع البنوك؟ وشكراً له، فقد تعلمت ما هو جديد عن هذا الحيوان اللطيف. لكن الغامض أيضاً أنني لا أتذكر أننا في جامعة الطب البيطري درسنا مثل هذه الكتب، لكن مكتبة ماكنزي كانت تحوي على كل الكتب القديمة وبمختلف اللغات، لا أحد يعرف من أين كان ماكنزي يحصل عليها، لكن العديد من طلاب كليات الطب كانوا يجدون ضالتهم التي يبحثون عنها عنده. هل ترى، أنا أتعلم أدباً جديداً، أدب البغال، قال لي سلمان في حينه، ولا تعجب إذا كتبت قصيدة عن أصدقائنا البغال، قصيدة؟ سلمان كتب قصائد في ديوان كامل أطلق عليه «في انتظار البغل» احتفظت بها مع كل القصائد التي كتبها في غرفتي الجبلية الصغيرة، ليس في كتيبة الاستمكان في سد دوكان وحسب بل في كل الوحدات اللاحقة والتي كانت أغنى فترة شعرية في حياته. كان يومنا مقسماً بصورة تلقائية دون أن نختار نحن ذلك، ساعدنا هدوء جبهتنا في ذلك الوقت، كأن الأكراد أعلنوا الهدنة معنا وتركونا نعيش حياتنا هناك. كان لدينا ما يكفي من الوقت، ففي الأيام التي لا يوجد فيها بغل ينتحر أو يضرب عن العمل أو يهرب، نجلس أنا وسلمان في غرفتي الصغيرة الدافئة، نقرأ، خاصة في ساعات الظهيرة والعصر أو نذهب سوية للتمشي عند غابة قريبة. في الليل نجهّز مائدتنا المتواضعة لكن الغنية

بكل شيء، وشكراً لجنديين، الأول مسيحي عمل في الحانوت اسمه وليم، والثاني كردي عمل في المطبخ اسمه عماد، كانا يفاجآننا كل يوم بهداياهما من الفواكه والخضراوات والمشروبات والسجائر من ماركة سومر النادر الحصول عليها في ذلك الوقت، حتى الأكل كانا يجلبانه لنا وكنا نفضله على أكل مطعم الضباط. كان يطيب لنا الجلوس عند مائدتنا، نجلس من الساعة السابعة مساء، نشرب العرق العصري، نعبّ الكأس بعد الكأس وفي العمق يصدح صوت فيروز، من النادر أن نسمع شريط أغاني آخر، ندخن السيجارة تلو السيجارة ونتحدث، ولا نتوقف إلا بعد أن تغمض عيوننا لوحدها، لايهم في أية ساعة، ربما في منتصف الليل، أو ربما بعده، لأننا نادراً ما سألنا عن الوقت أو عاينًا ساعة، الكتيبة كلها نائمة لا يُسمع إلا صوت الحراس عند استبدال دورياتهم أو صوت بومة تنعق في البعيد أو صوت حركة أوراق، تكسر ثلج، لكننا كنا نتكلم ونتكلم وأغلب أحاديثنا كانت تدور عن الكتب وهو لا يصدق أنه عثر على المكتبة الكنز هذه كما أطلق على الحقيبتين الكبيرتين اللتين امتلأتا بالكتب، وأين؟ في شمال العراق، في مدينة السليمانية، في منطقة دوكان، منطقة جبلية وعرة، كم هو محظوظ، قال لي، فلو لم أجلب أنا كل الكتب هذه ما كان بمقدوره جلب ولو كتاب واحد. حدثني كيف كان عليه أن يحذر بسبب ملفه الأمني واعتقاله السابق في مديرية الاستخبارات، فقد حاول

ذلك ذات مرة في الأيام الأولى من خدمته في سد دوكان؛ جلب معه كتابين «الأبله» لدوستويفسكي باللغة الإنكليزية، وكتاب «الفتنة الكبرى وقتل عثمان بن عفان» لطه حسين. كانت محاولة منه لمعرفة ردود الفعل في الوحدة. الجميع يعرف، أن حمل كتاب في عهد الحكم البائد وحده تهمة فكيف هو جلب كتاب إلى الثكنة؟ كان عليه أن يخضع لسؤال مساعد آمر الكتيبة، قال له، لماذا هذا الكتاب بالإنكليزية؟ ولماذا الكتاب الثاني عن الفتنة؟ في المرة القادمة سأرسلك إلى مديرية الاستخبارات في وزارة الدفاع في بغداد، هل فهمت؟ قال له النقيب المسؤول عن أمن الكتيبة محذراً. منذ ذلك الحين وهو يتجنب غواية حمل كتاب معه. وفي مرات كان ينسى فيجلب معه كتاباً عند عودته من الإجازة لكنه يتركه في الباص أو يضعه على حافة شباك أو مصطبة حديقة. فقط الكتب التي جلبها عن البغال لم تثر الريبة عند الضابط، أو ربما، من يدري؟ والآن يعثر على هذه المكتبة الكنز، ربما ظن سلمان، أنني قرأت كل تلك الكتب التي جلبتها معي، لكنني بالمقارنة به لم أقرأ مثله، كان سلمان قارئاً نهماً، ليس ذلك وحسب بل كان حالَما ينتهي من قراءة كتاب حتى يبدأ بالحديث عنه، وإذا بدأ فمن الصعب إيقافه، كل أحاديثنا دارت عن الكتب سواء تعلق الأمر بالكتب التي قرأها في غرفتي أو تلك الكتب التي قرأها قديماً وتذكرها في تلك الأيام. طبعاً من الممكن أن أبالغ، من الممكن أن يكون ذلك

مجرد ادّعاء مني، لا علاقة له بالحقيقة، كأن يكون أمنية مني لا غير إلا أنني أتذكر أن موضوعنا المفضل كان هو الكتب، ربما كانت هناك بعض الاستثناءات التي لم أشأ ذكرها. اعترافي له ذات يوم برغبتي بكتابة رواية عن الحيوانات، رغم خجلي من الاعتراف أمامه بأنني ما زلت هاوياً مقارنة بصديقنا هارون والي، أو حديثنا من فترة إلى أخرى عن صديقنا هارون، خاصة في الأيام الأولى من صداقتي مع سلمان، كل واحد منا تحدث عن الجوانب التي يعرفها فيه ولا يعرفها الآخر، وحتى في هذا كانت الكتب هي الحاضرة. كان يقول، فيما يخص كتابة الرواية، على المرء ألا يقرأ مئات الروايات وحسب، بل أن يعيش على الأقل تجربة واحدة فريدة، أليس ذلك ما فعله صديقنا هارون والي، قال إنه لا يعرف قارئاً يفوق نهمه بالقراءة ولو كان معنا في صومعتنا في الجبال لما فعل غير ما فعلناه: القراءة، ولا شخص مغامرٌ مثله. أظن أنه قال ذلك تواضعاً لأنني أعرف الاثنين، ربما فيما يخص المغامرة كان هو على حق، لكن فيما خص القراءة، كلا، لم يشأ أن يقول إنه يفوق هارون نهماً بالقراءة. هل تعرف أنه في إحدى المرات قال لي، جدي يقول: ليس هناك شيئان في الحياة أحلى من «النيك والحديث عن النيك» وأنا أقول لك، ليس هناك أحلى من شيئين في الحياة، قراءة كتاب والحديث عنه، وشكراً له أنني تعرفت على كُتّاب ما كنت فكرت بقراءتهم قبل تعرُّفي عليه: أريش ريمارك،

هنري باربوس، ليونارد فرانك، أندريه مالرو، أرنست همنغواي، كان يوصيني بجلب كتبهم معي كلما ذهبت في إجازة، وأتذكر أنه كان يحزن إذا جئت ولم أحصل على الكتاب الذي طلبه كما حصل مع رواية «الساعة الخامسة والعشرون» للروماني كونستنتين فيرجيل جيورجيو، ولم أعرف إلا لاحقاً أن كل تلك الكتب دارت عن موضوع واحد: الحرب، ذلك هو ديدننا، المكتبة معنا أينما تنقّلنا، فبعد عامين من بقائنا في سد دوكان وبعد أن نجحنا بترويض ما تبقى من بغال في كتيبة الاستمكان على تحمل المصاعب والأثقال، انتقلت بعدها للاستخدام في وحدات أخرى، ولحسن الحظ، كان أحد أخوالي ما يزال يشغل منصباً مهمّاً في وزارة الدفاع قبل أن يُعتقل في 3 تموز 1993 بتهمة اشتراكه بالمحاولة الانقلابية العسكرية ضد الحاكم والتي فضحت وكالة الاستخبارات الأميركية، السي آي أي، أمرها آنذاك. قيل سهواً، ويُعدم مع العديد من ضباط من عشائر جبور ودليم، ولولا مساعدة خالي في حينه لما استطعت فرض تنقل سلمان معي، قلت إنه وبسبب تمرُّسه معي بعلاج البغال، من الصعب عليّ العثور على جندي يعوضني عنه. ولأن الاستخدام أمر عادي في الجيش وافقت كتيبته في سد دوكان على إعارته إلى قسم الشؤون الحيوانية العسكرية في وزارة الدفاع لكي يصبح ارتباطه بي مباشرة. هكذا تنقلنا في مناطق عديدة، في قلعة أربيل وقلعة ديزة، في كويسنجيق

وسيد صادق، في شلاشات گلي علي بيگ ومصيَف صلاح الدين، في سرسنك وزاخو، وفي وحدات ومناطق أخرى ما عدت أتذكرها، لكنني أتذكر أننا كنا في كل تنقلاتنا تلك متلازمين وكانت أكثر فترات القراءة في حياتي. وعندما انتهت الحرب في 20 آب 1988 وتسرحنا من الجيش بعدها بشهر أو شهرين، قلت له، ما رأيك أن تأتي للعمل معي في إحدى مجازر بغداد، فبعد الخبرة الطويلة التي جمعناها سوية مع الحيوانات، لا بد أن نفعل ذلك، ليس لي مهنة أخرى ولا أنت تستطيع العيش من مهنتك، فلماذا ذهابك إلى الناصرية؟ كنت أعرف قلقه من العودة إلى مدينته وكان يظن أنه سيُعتقَل حالما يصل إلى هناك، قال لي، أعرف ماذا تقصد بقولك، الأمر في صالحنا وفي صالح الحيوانات، ثم التفت لي وقال: «أيها الجلاد، اذهب إلى قريتك الصغيرة، لقد طردناك وألغينا هذه الوظيفة»، فضحكت وقلت له، لا يهمك، لن تُلغى وظيفة الجلاد في هذه البلاد ولن يعود إلى قريته الصغيرة. لم أعرف أن ذلك بالفعل ما سيفعله جلادنا الحقيقي، جلاد البلاد أو ما أطلقوا عليه «القائد التاريخي» أو «القائد الضرورة» في أغلب الأحيان، وبعد قرابة خمسة عشر عاماً من وقفتنا في محطة سيارات علاوي الحلة أنَّ المجرم هذا سيعود إلى قريته التي رعى فيها أغنامه وهو طفل، لكن بعد فوات الأوان، بعد أن التَهم البشر والأحجار، بعد أن سمم الكتب والأنهار، بعد أن حرق البلاد وزوَّر مخيلات

الأطفال. في ذلك اليوم ذهب سلمان إلى الناصرية في ساعة متأخرة من المساء من أجل رؤية أمه فقط، كما قال لي، وبعد يومين من زيارته تلك غادر المدينة في ساعات الفجر الأولى. لم ينم عندي في الأيام الأولى كما طلبت منه، استأجر غرفة في فندق في الباب الشرقي. بعد أسبوعين بدأنا بالعمل سوية من جديد، في مجزرة حكومية في وسط بغداد، قريبة من ساحة النهضة.

لا يهم العطب الذي أصاب ذاكرتي، ولست وحدي. فقدان الذاكرة هو مرض عراقي مزمن لن يُعالج إلا بعد قرون، إلا أنني ما أزال أتذكر تلك الفترة التي قضيناها سوية منذ تسريحنا من الجيش في شهر سبتمبر/أيلول 1988 حتى استدعائنا سوية للخدمة العسكرية من جديد في صيف عام 1990 أيضاً في سبتمبر/أيلول بعد احتلال الكويت بأربعة أسابيع لا أكثر؛ أنا إلى وزارة الدفاع وهو إلى وحدته التي كانت ما تزال حتى ذلك الحين في البصرة قبل أن يتنقل لاحقاً بين قاطع جبهة الكويت الجنوبية عند الحدود البرية مع المملكة السعودية مباشرة وحتى جنوب صحراء السماوة في العراق. سنتان فقط هما كل ما منحونا إياه للحياة، قال لي في حينه. هل رأيت؟ أي قدر لعين؟ ثم أضاف: في المرة هذه لا بغال ولا حمير تحميها أو تحمينا، هي جيوش ودمار، جيوش أربعة وثلاثين دولة حلت بعتادها وأسلحتها، بمزابلها ومراحيضها من جهة، ومن الجهة الأخرى جلاد بدل أن يترك الوظيفة ويذهب إلى

قريته، أرسل جيشه ليحتل بلداً مجاوراً ظناً منه أنه سيظل بفعلته دون عقاب. لا أتذكر جيداً اليوم الذي جاء ليودعني فيه لأنه لا يظن بأنه سيعود حياً هذه المرة، وحتى إذا عاد فإنه لن يعود الشخص ذاته، سلمان الذي عرفته، كأنه تنبأ بما سيحدث لنا وللبلاد. لكن ذاكرتي ما تزال أمينة للعديد من الذكريات التي قبلها، طوال عملنا في المجزرة لمدة ذينك العامين. عامان بالضبط، كأنني صدّقت نبوءته أيضاً بأنه سيعود مخرَّباً، وحيداً ومحطَّماً كالزجاج، كما كتب في قصيدة لاحقة له وهو يرثي الليالي التي قضاها هناك في البرية، في العراء يحصي خراباته، أصدقاءه الذين فقدهم، يحصيهم واحداً واحداً، كأن ما حصل له أجبرني على تذكر ما عشناه، أنا شاهده، كما كان يحلو له أن يسمّيني، أو شاهدُنا نحن الاثنين: أنا وهاورن والي، توأمنا الأمين، كما كان يقول. الروائيون لهم عالمهم الخارجي والشعراء لهم عوالمهم الداخلية. أما أنت أيها الصديق، كما قال لي ذلك، أنت حامل الفانوس الذي ينير لنا الطريق. أية مهمة أعطاني إياها في ذلك الوقت، فطوال الأيام التي قضيتها في مكتبي في قسم الشؤون الحيوانية العسكرية في وزارة الدفاع في ساحة الميدان، كنت أقوم بتسجيل كل ما عشناه سوية وبالذات في السنتين الأخيرتين من حياتنا كأنني أردت توثيق حياته، تركت التدخين. أعطيته العلبة الأخيرة التي كانت عندي، قلت له، ربما لن تجد سيجارة بعد الآن. أعرف إدمانه على التدخين، القراءة والكأس،

فلماذا الزواج والإنجاب؟ كان يقول، ها أنت ترى يا صديقي كيف أن حامل الفانوس لا يحتاج إلى دخان، قلت له، خذ علبة سجائري الأخيرة هذه، علبة سجائر بغداد. وضعَها في جيبه وقال: لا يهم كلما دخنت سيجارة منها تذكرتك. ياللهول، أية مفارقة، تسعة شهور تقريباً، ربما أقل أو أكثر منها بقليل وأنا لا أفعل شيئاً غير أن أجلس إلى طاولتي أدوِّن وأدوِّن كأنني خفت ألا أراه بعد اليوم، لا أشعر بالوقت كيف يمر. كانت الحرب الجديدة تدقُّ على الأبواب ولا يهم الوقت الذي ستستغرقه، فإنها ستكون حرباً مختلفة عن بقية الحروب التي عاشتها البلاد، لا أحد سيعود منها كما ذهب إليها، على الأقل هكذا سيكون صديقي سلمان.

بدأتُ بتدويني من تاريخ اليوم قبل الأخير من رحيله، كيف ظهر في المجزرة فجأة. كان عليه الالتحاق بكتيبته في ذلك اليوم لكنه على عادته أراد أن يبدأ بيوم غياب. ليرموا بي في السجن عند وصولي إذا شاؤوا، السجن أو الجلوس في خندق في صحراء السعودية أو الكويت، أو صحراء العراق؟ ما هو الفارق، قال لي، وهو على حق، كما هي الحال دائماً. كيف أعبر له عن قلقي وأدعوه للالتحاق وأنا أجلس في بغداد؟ أي جلاد أنا الآخر، أقول الآن لنفسي، في ذلك اليوم. سمعت صوته عند مدخل المجزرة، هذه المرة لم يقل جملته المحببة نكاية بي «أيها الجلاد، اذهب إلى قريتك الصغيرة، لقد طردناك وألغينا هذه الوظيفة» بل سمعته

يصيح بي بأعلى صوته الصادح من هناك، «جرجر بيضاتك أيها الرفيق وأمسك عضوك في يدك.فنحن ذاهبون إلى الحرب لصيد القحبات» أتذكر تلك الكلمات التي شاعت أيام المقاومة الفرنسية، رددها الأنصار الفرنسيون في طريقهم لمقاتلة الألمان، صحيح أننا قرأناها في رواية لجان بول سارتر في ثلاثيته دروب الحرية، لكن أن يقولها سلمان في المجزرة بصوت عال يعني تعريضنا للخطورة فإن لم أعتَقَل أنا فهو المرشح للاعتقال، لحسن حظنا نحن الاثنين، باستثنائي وباستثناء شاب عامل أطرش في ذلك اليوم، أو على الأقل هذا ما ظننته حتى ذلك اليوم، لم يكن هناك أحد، قال لي، إن ما يغيضني يا صديقي هو أنني سأذهب مجبراً إلى حقول الموت. لم أقل له: ولماذا لا تنتحر مثل بغل، لأنني أعرف أنني لست مؤهلاً لمثل هذا القول ولأنني إن لم ألتحق بمكتبي في مديرية قسم الشؤون الحيوانية العسكرية في وزارة الدفاع فسأرسل لقضاء خدمة الاحتياط إلى إحدى مجازر الحيوانات الحكومية أو الخاصة، وكانت كثيرة في تلك الأيام. أتذكر أنه عانقني بحرارة، ودّعني بسرعة لكي لا أرى دمعة سقطت من عينيه مثل تلك الدمعة التي رأيتها على خده في أول يوم لتعارفنا. «من لا يكون مشغولاً بالحياة سيكون مشغولاً بالموت»؛ تلك هي الجملة التي دونتها بعد أسبوعين منذ قالها لي قبل أن يخرج من الباب. كانت كثيرة جمله تلك المليئة بالحكمة. لحسن الحظ ما زلت

أتذكر بعض تلك الجمل التي دونتها. مثلاً، سألته ذات مرة ونحن نشرب العرق لوحدنا على شاطئ أبي نؤاس: من برأيك أفضل شاعر قرأت له. وبدلاً من أن يجيبني مباشرة علّق قائلاً، أترى تلك الموجة؟ ولم تكن هناك موجة. كان النهر ساكناً لا حركة فيه. أنا الآخر سكَتُّ، لكن في اللحظة التي وقفنا فيها نهمُّ بمغادرة المكان سمعته ينادي النهر ويصيح بصوت عال، لماذا لا تلتفت أيها النهر وتعطي صديقي الجواب الذي يريد؟ كما دوَّنث أنه سألني ذات يوم: لماذا دوام المجازر في الليل عادة، والذبح يبدأ في الرابعة فجراً؟ لماذا هذا التوقيت بين حفلات الإعدام البشرية وذبح الحيوانات؟ هل درستم ذلك في كلية الطب البيطري؟ هل عثرت في أيام دراستك على جواب؟ نظرت إليه، كنا نجلس في بار أنكيدو في أبي نؤاس في المرة هذه. حقاً ما الصلة، هل ثمة طقس ما تبدأ مراسيمه في تلك الساعة من اليوم؟ سألته فأجابني، ظننت أنك الجلاد والخبير. أتذكر أنني حدَّثته بعد الجملة تلك عن صورة شعرية للروسي بوريس باستيرناك: «وكان الفجر رمادياً كضوضاء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة»، فما كان منه إلا أن أجابني: لو قال باسترناك «كضوضاء المحكوم عليهم بالإعدام، لكان أفضل»، ثم رأيته يحدِّق بي، هل نسيت الضوضاء في المجزرة ساعة تنفيذ الحكم الذي تصدره بيدك، ابدأوا الذبح، فيبدأ سيلان الدم وأنت تدور بصدريتك حول الجلادين. هل تعرف أنني في لحظات

الفجر تلك أتذكر كل فجر عشته في الجيش فأشعر بقلبي يثب خارج جسدي ويتحول إلى طير؟ فهل ستذبحه يوماً؟ دوَّنت أنني أتخيله كله يتحول إلى طير في الساعة التي يبدأ فيها إعدام الحيوانات، أبحث عنه ولا أراه، وعندما أخرج من المجزرة أراه جالساً عند النخلة الوحيدة في حديقة المجزرة، أقترب منه، فيقول: ألا ترى معي كيف أن المجازر سيدة المكان، حتى الحديقة التي كانت في منتصف الساحة الداخلية للمجزرة لم تكن في الحقيقة إلا أرضاً بوراً رغم نهر دجلة القريب. فيها نخلة وحيدة، نعم، نخلة وحيدة يربط إليها الحيوان الذي يستشعر الخطر مبكراً فيفر من حبال جلاديه.قال لي وهو يشير إلى نفسه هو الواقف يدخن سيجارة هناك: أحب النخلة هذه التي تقف شاهداً على قدري وما ينتظرني أو ما ينتظرنا من موت. أتذكر أيضاً وبقوة أنني دوَّنت كيف أنه سألني ذات ليلة وبينما نحن عائدين في الليل من جولة خمرية، أنا إلى بيتي في الحي البغدادي الذي سكنت فيه وهو إلى غرفته التي تأجّرها في فندق في الباب الشرقي عند ساحة الطيران، توقف فجأة وقال لي: سألتني ذات يوم عن أفضل شاعر عرفته؟ إنه هذا الطفل الصغير، قال لي وهو يشير إلى صبي جلس على الرصيف في تلك الساعة المتأخرة من الليل يبيع السجائر. ذات ليلة ذكّرته بذلك ونحن نجلس على شاطئ أبي نؤاس، سألته، إذا كان أطفالنا ومعهم أطفال البلاد التعيسة هذه

كلها في المستقبل على هذه الشاكلة، سيتحولون إلى باعة جوالين على الأرصفة والطرقات، كما عمل الكثير من الأصدقاء بسطاتهم في شارع المتنبي وسوق الهرج في سنوات الحصار. تطلَّعَ بي قليلاً ثم نظر بصمت إلى دجلة وقال: ما من مستقبل للشاعر إلا العبارة «غنٍّ من فضلك؟ هل نسيت ليالينا في جنة دوكان؟ أين هي فيروز؟»كانت تلك هي المرة الأولى التي تذكر فيها الأيام تلك عند سد دوكان. في أي خواء نعيش نحن المطرودون من الجنات، سمعته يردِّد وهو يرمي رُبع العَرَق إلى الشاطئ ثم ليهتف بعدها «ثم هيا يا رياح... ثم هيا يا مطر». ولم أعرف في حينه أنها جملة ردَّدها ماكبث. الغريب أنني رويت نفس القصة لاحقاً لشاعر صعلوك آخر التقيت به صدفة في ساحة الميدان، والذي صفَنَ لدقائق ثم قال فجأة، «لماذا يجعل منا التأمل... جبناء». لم أعرف أيضاً إلا منه عندما سألته عن مصدر الجملة، أنها ذات الجملة التي تمتم بها سلمان أيضاً قبل أن يغطس في النوم في غرفتي الحجرية الصغيرة عند سد دوكان، وأن الجملة تلك بالذات ردَّدها قبل قرون هاملت. أتذكر أنني دوَّنت: هل ثمة صلة بين الصعاليك وشكسبير؟ أتذكر أنني دوَّنت أيضاً، أننا لم نتحدث عن أمرين، الأول هو السياسة، ليس لأننا لم نفهم في السياسة أو لأننا لم نرغب بذلك، بل لسبب بسيط، لأننا متفقان في دخيلتنا أن النظام الذي يجلس على رقابنا ويقودنا، يقود البلاد كلها إلى الهاوية، ثم ما هي حاجتنا

للحديث بالسياسة، وقد حدثني ذات مرة عن قصة اعتقاله وتعرضه للتعذيب. الشيء الوحيد الذي كنا نردِّده «أيها الجلاد، اذهب إلى قريتك الصغيرة، لقد طردناك وألغينا هذه الوظيفة» أتذكر أنني دوَّنت ذلك بحماس. أما الأمر الثاني: النساء. فبشكل ما ومنذ اليوم الأول لتعرفنا على بعض ورؤيتي لتلك الدمعة التي هبطت فجمَّدها برد الشمال القارص على خده، فكَّرتُ: من غير الممكن أن تكون الدمعة تلك بسبب شعور بالذنب لانتحار البغل أو سقوطه إلى الوادي، كما قال، كلا، كثافتها واستقرارها في تجاعيد الوجه هما دليل على سبب آخر، متى يبكى الشاعر؟ سألت نفسي، يبكي لموت طفل أو لحُبٍّ مفقود، وهذا ما جعلني أتجنب الحديث معه عن النساء. لم أحدِّثه مثلاً عن علاقتي في تلك الأيام بأزهار وكيف أننا ننتظر تسريحي لكي نتمم الخطبة إن لم نتزوج. قلت لنفسي، لماذا الحديث عن سعادات الحب وكنت واقعاً في الحب من الأخمص حتى الرأس بالفعل. كانت أزهار مركز العالم بالنسبة لي، لم أتخيل يوماً أننا سننفصل عن بعضنا أو أنني لن أجدها إلى جانبي في أيام المحنة والنجاح، ربما يعيش هو قصة حب فاشلة؟ الشعور بالذنب ونوبات الكآبة التي تهجم عليه، والسَّهو والنسيان في بعض الأحيان والبكاء بصورة سرية، تلك هي علامات الخسارة التي تشير إلى حُبٍّ مفقود، أليست عدم رغبته بالحديث عن ذلك هو دليل على ذلك أيضاً؟ وكان عليَّ أن أنتظر ست

سنوات على تعرفنا، أن أنتظر نشوب حرب طاحنة أخرى لكي أعرف أن حدسي لم يخطئ وأن الألم الذي استحوذ عليه نخر روحه أكثر من ست سنوات، بكل ما مرّ علينا من ألم وعنف وقسوة، كل ما مرّ علينا من موت وحروب ودمار لم تنجح أن تنسيه. أتذكر أنني دوَّنت كيف أنه عاد ينتظرني عند باب المجزرة، قال لي: هل من المعقول أنني سأذهب إلى مجزرة الدواب الحقيقية ولم أزرك يوماً في بيتك، لا بد لي من وداع أمك وأبيك. قلت له: لتصحبني إذن، عندي في البيت ما يكفي من قناني العرق. أخذنا تاكسي. كانت تلك هي المرة الأولى التي يتعرف فيها على والدي أيضاً، فرح الاثنان بالتعرف عليه، لقد سمعا مني الكثير عن هذا «الشروگي». وعندما جلسنا في غرفتي في سطح البيت رأى صورة أزهار على المنضدة، فسألني عنها، حدثته عن علاقتنا، قلت له، إننا مرتبطان ببعضنا منذ أيام الجامعة، ننتظر نهاية الحروب لكي نتزوج. أعرف أنها حماقة، لكننا ذات يوم أقسمنا بكل مقدّساتنا بأننا لن نتزوج إلا عندما تنتهي الحرب، وكما ترى يا صديقي، انتظرنا تسريحي من الجيش لكن ما إن عقدنا خطبتنا حتى بدأت حرب جديدة ولم نلحق شراء الأثاث، قال لي: أي قسم حكيم، ثم ردد «الحب سر اللّه على الأرض... هات لنشرب»، وبعد الكأس الأول مباشرة ردّد «أحلم هذا الحلم الغريب المجهول، بامرأة جميلة أحبها وتحبني»؛ مقطع آخر ليس له، لمالارمية كأنه في لحظات الأزمة يستعين

بشاعر زميل له. ذلك هو ديدنه. لبرهة سكت، جرع كأسه كله، أشعل سيجارة، نفث دخانها وبدأ بالحديث دون أن ينظر ناحيتي، قال، إنه لم يشأ الالتحاق بالجبهة قبل أن يروي لي القصة التي وعدني بها ذات يوم، قال لي، هل تتذكر أول ليلة قضيناها نشرب في غرفتك الحجرية في دوكان؟ لم ينتظر إجابة مني طبعاً لأنه يعرف أننا الاثنان مهما نسينا من الأشياء في حياتنا لكننا لن ننسى أول ليلة تقاسمنا فيها مائدة اليأس والوحدة في سد دوكان. ثم راح يحدثني عن أحلام أو عن الفتاة التي لم يعرف لها اسماً فأطلق عليها «أحلام» مثل أحلامي المذبوحة، قال معلقاً. أتذكر أنني دوَّنت ما رواه لي ومع كل جملة كنت أشعر بالغصة، قال: إن أول لقاء له بها كان في سوق الهرج في كركوك قبل أن تنتقل وحدته من هناك وقبل تعارفنا بسنتين. الصدفة قادته للتعرف عليها وعلى قصتها الحزينة، في البداية من وليم وهو جندي الحانوت المسيحي في الكتيبة من أهالي كركوك، ملك أهله مقهى في السوق، ثم منها شخصياً فيما بعد. كانت هي قد أحبت شخصاً وهربت على ما يبدو من أهلها لأجله، لكن الشخص أوقع بها واختفى فأصابها الجنون، تشردت في المدن حتى استقرَّت أخيراً في سوق هرج كركوك، وكانت أحلام بضاعة سهلة للرجال بسبب عوقها العقلي. جمالها الذي فاق كل جمال، بل وميلها للحكمة، كما قال لي، لأنها كانت بارعة بإطلاق جمل من فمها لم يعرفها فم حكيم،

كانا أول ما لفت نظره لها قبل أن يعرف أن جمالها بصورة خاصة هو الذي سبّب لعنة لها، وإذا كان وجد هو في وجهها ما كان يبحث عنه من براءة وصدق وأمان، من رقة وحزن وسلوان، إذا كان وجد في جمالها حكمة لم يجدها في كل ما قرأه من كتب من قبل، كل ما كان يتخيله وهو يخاطب امرأة في قصيدة، وجد الآخرون فيها غنيمة سهلة وصيداً ثميناً خاصة رجال الأمن والشرطة. كانت الشرطة في آخر الليل، الحرس ورجال الأمن يقضون وطرهم معها في غرفتها على السطح بينما كانت هي لا تشعر بهم. قالت له: لا تدري إذا كانوا بشراً أم جماداً، إنهم حتى ليسوا بحيوانات. الحيوانات تميل لمن يداعبها، تخرج صوتاً أليفاً، لكن هؤلاء يزأرون كلما ألقوا بجسمهم عليها بأصوات ستحسدهم عليها حتى الجواميس، إنهم أوغاد لا يستحقون الحياة. مرات عديدة حاولت مساعدتها، حمايتها، قال لي، لكنها لم تشأ سماعه، قالت له، أرسلك اللّه للضحك عليّ حتى أعرف أنني قذرة وأنت الطيب والحبّاب؟ لماذا تذل امرأة فقيرة مثلي وأنا أحبك؟ لماذا أنتم قساة إلى هذه الدرجة؟ لماذا أنتم الشعراء تريدون تطهير أنفسكم بصورة مسيح؟ إذا كنت تريد مساعدتي فعلاً فعليك أن تعترف بقذارتك أنت في الأول، أن تسأل نفسك لماذا الملابس الخاكية هذه التي تلبسها ولماذا أنت هنا في الشمال، أنت المولود في الجنوب؟ ما تزال كلماتها تلك ترنّ في آذانه، وكان، وذلك ما لم يسامح نفسه عليه،

يظن أنها لم تكن لتتحدث بهذا الشكل لو كانت مجنونة. هل تدلني على وسيلة لحماية مجنون غير أن تتركه على جنونه؟ قال لي. ولكي يثبت كلامه أخبرني كيف أنها قالت له: أنت تقاتل في الشمال وأنا أقاتل مثلك، لكن على جبهة أخرى في الشمال. لم يفهم، لكن، قال لي، تخيل، ذات مرة سألتني وأنا أحاول إقناعها بالذهاب معي، قالت لي: وهل تنزع ملابسك العسكرية هذه؟ طبعاً تألم لها، بكاها في بعض المرات وكثيراً ما سأل نفسه، إذا كان رجال الشرطة والأمن أولئك ينتقمون من أنفسهم، لماذا يفضّلونها هي على غيرها، فمن غير المعقول أن يكون جمالها هو السبب الوحيد، لا بد أنهم وجدوا فيها تعويضاً للوضع الذي هم فيهم؛ هم الآخرون أوقعت بهم السلطة، تركتهم لمصائرهم وحدهم، مرات عديدة أراد أن يصرخ بوجوههم لكنه كان جباناً، لم يفعل، ذات مرة، قال، خلاص، لا بد أن أنقذها، نزع ملابسه العسكرية في ذلك اليوم ولبس بنطلون جينز وقميصاً أبيض. فرحت عندما رأته بالملابس تلك، صحبته وقبل أن يصعدا في الباص الذاهب من كركوك إلى بغداد جلسا في مطعم صغير قريب من محطة الباصات وبينما كان يراقب سعادته وهي تأكل معه مثل سيدة لا يعوزها شيء لكي تكون بمثل هذا المقام، رأى ثلاثة رجال وقفوا عند رأسه. كان واضحاً من مظهرهم، من شواربهم الثخينة، من رؤوسهم الحليقة، من نظراتهم المزدرية، من وجوههم المشعة بالعدوانية والحقد أنهم

شرطة أمن أو ضباط مخابرات، قالوا له: مبروك عليك هل ستتزوج القحبة هذه؟ طبعاً كان عليه أن ينهض ويرمي صحون الأكل في وجوههم، أن يرفس على الأقل واحداً منهم، يعرف أنهم سيضربونه حتى تكسير عظامه، يعرف أنهم سيجعلون الدم يسيل منه، لكن على الأقل يضرب واحداً منهم، لكنه بدل ذلك طلب منها أن تنهض ليغادرا المطعم. هل تعرف، ماذا قالت لي؟ سألني، وكانت المرة الأولى التي حدَّق فيها بي، قالت لي: اذهب أنت إذا شئت أنا أريد أن أكمل أكلي، منذ أسابيع لم آكل بشهية مثل هذا اليوم. لا حاجة له لأن يقول لي إنه ذهب بالفعل، لم يستطع تحمل أن يكون مع امرأة ليست هي قحبة بعرف هؤلاء وحسب بل أن يكون مع امرأة نام معها رهط من الرجال. هذه المرة لم تقف الدمعة عند أخدود خده بل هبطت وجرت معها الدمعة تلو الدمعة، بعضها بلل وجهه فيما سقط الباقي منها على الأرض. رأيته يمسح وجهه، يجرع الكأس الثاني كله ثم يتمتم: «لماذا يجعل التأمل منا جبناء»، لم يعرف لماذا نبذل نحن البشر الكثير من الجهد لكي نكون مقبولين في الوظيفة أو في السلطة، لكننا نبخل باستثمار هذا الجهد مع مَن نحب؟ الشعور بالذنب هذا ظل يعذبه طويلاً، كلما نزل في إجازة حاول تجنُّب المرور بسوق الهرج، كيف سيراها بعدما حدث في المطعم وهل سيسألها أن تأتي معه ـ كما كانت تطلب منه كلما رأته ـ إلى بغداد، وهي تعرف أنه لم ينزع عنه الملابس

العسكرية، كما فرحت عندما رأته في نهار الخميس العذب ذاك في السوق؟ كان جلادوها من العسكر، فكيف تذهب مع عسكري وهي ترى فيه الجلاد؟ لماذا عليها تصديقه وقد خذلها مرة ولم يأخذها كما رغبت إلى بغداد؟ وعندما جاء أمر نقل كتيبته إلى السليمانية ارتاح في دخيلته، فكَّر أن أحلام كانت تحدِّيه الذي فشل فيه في الحياة. بعدها ربما ظهر طيفها أمامه في هذه القصيدة أو تلك، في هذا الحلم أو ذاك، لكنه حاول نسيان أمر تلك الفتاة أو هذا ما ظنَّه. ففي النهاية لا هو اللّه ولا هو المسيح، ولا هو قديس عليه التضحية بنفسه، وما حدث لأحلام من الصعب عليه إصلاحه ولم يتخيل يوماً أن العمل في المجزرة بالذات سيعيد طيفها إليه. هل رأيت الجمال، سألني، عندما يبدأ الذبح، كيف أن البعير أشد الحيوانات صراخاً يشعر بالموت قبل هبوطه فيهيج ويعيط ويقطع الحبال: يركض في كل الاتجاهات وخلفه يركض القصّابون بسيوفهم وخناجرهم صارخين به إلى أن يذبحونه، وأين؟ عند النخلة الوحيدة في حديقة المجزرة. أنا، قال لي، كنت كلما ذبحوا بعيراً أرى أحلام تُذبح وحيدة في غرفتها على السطح هناك، أنا النخلة الوحيدة وهي البعير، أو أنا البعير وهي النخلة الوحيدة. ثم سألني، هل تتذكر عندما جئتك ذات صباح يوم سبت في المجزرة؟ كانت المرة الثالثة أو الرابعة التي أردت أن أنوب عنك بإدارة شؤون المجزرة، قلت لك وأنا أرتجف أرجوك أعطني أية مهمة

أنوب عنك بالعمل فيها باستثناء إطلاق صفارة سيلان الدم، هل تعرف لماذا؟ لأنني بهذا الشكل كنت أشعر كأنني أبعث كل أولاد العاهرة أولئك لذبح أحلام؟ أتذكر أنني في اليوم الأخير من رؤيتي له في بيتنا وقبل التحاقه بالجبهة، قلت له من الخطأ أن يشعر بالذنب، ليس هناك مذنبون وأبرياء، كل ما هنالك أحداث تجري لهذا السبب أو ذاك، دعاوى الذنب يستلُها المرء لأغراضه العملية، وفي النهاية هناك مُدَّعون ومُدَّعى عليهم، أتذكر أنه قال لي، إذا كان الأمر كذلك، فهو الاثنان معاً، الضحية والجلاد، المُدَّعِي والمُدَّعَى عليه، الحاكم والمتهم. في اليوم الثاني، لا أتذكر في أية ساعة نمنا، لكنني أتذكر أنه ذهب في ساعة مبكرة دون وداع. كان فراشه فارغاً إلا من ورقة تركها لي، كتب عليها «أيها الجلاد، اذهب إلى قريتك الصغيرة، لقد طردناك وألغينا هذه الوظيفة»، ثم تحت وبخط صغير، كتب «نذهب إلى الحرب لكي نموت» هذه المرة كان المقطع الذي كتبه يعود إليه، ولكي يموت لم يحتج مساعدة من أحد. أتذكر أيضاً وبوضوح، كأن الأمر حدث يوم أمس، أنني بعد مرور أسابيع على فراقنا، دوَّنت جلستنا الأخيرة تلك بكل تفاصيلها وبقوة على الصفحة الأخيرة من الدفتر الأخير. أتذكر أيضاً أنني بكيت وأنا أجلس في مكتبي في البناية التي كانت ذات يوم وزارة دفاع، كأنني عرفت أن كل ما دوَّنته سيذهب هباء.

اندلعت الحرب واحترقت الوزارة ومعها احترقت

البلاد، لكن شكراً لذاكرة لا تحترق ولا تشيخ. فما تلف أو ضاع مع حريق السجلات ومعها الدفاتر تلك، كان دوَّنه سلمان، كأنه هو الآخر عرف أننا سنضيع مع ضياع البلاد وأننا إذا حدث والتقينا يوماً لا بد أن نروي لأحدنا الآخر ما جرى لكل منا في الأزمان الصعبة تلك. فبالتوازي مع الشهور التسعة التي قضيتها في مكتبي في وزارة الدفاع أدوِّن ما حرصت ذاكرتي على خزنه، حرص سلمان من طرفه على توثيق كل شيء عن طريق كتابة الرسائل لي. من غير المهم المكان الذي انتقل إليه أو العناء الذي كلفه إرسال رسالة لي، بل من غير المهم ما يمكن أن يجلب له ذلك من مخاطر وأهوال، خاصة إذا عرفنا أن البريد كله خضع للمراقبة في ذلك الوقت، فكيف هي الحال مع الرسائل التي أرسلها الجنود، والأكثر إشكالاً هي الرسائل المرسلة من جبهات القتال، لكن كل ذلك لم يمنع سلمان من الإصرار على كتابة الرسائل، للأسف ضاع بعضها أو ضلّ الطريق كما عرفت منه لاحقاً بعد سنوات، أكثر من عشر سنوات، البعض الآخر وصلني في النهاية خاصة تلك الرسائل التي أرسلها لي على عنوان البيت وليس على عنوان الوزارة، ولا يهم أنَّ بعضها تسلَّمته بعد شهور كما حدث لرسائله الثلاث: الرسالتان ما قبل الأخيرة اللتان وصلتاني بطريقة عجيبة بعد نهاية الحرب بسنة أو أكثر، والأخيرة التي عرفت بها بعد ذلك التاريخ بقرابة خمسة عشر سنة، ربما أقل أو أكثر منها بقليل. أقول لك بصراحة،

دون رسائله تلك ما كنت عرفت الجحيم الذي عاشه صديقنا وهو يقاتل الخراب والوحدة، القذارة واليأس، الجوع والعطش، في كل الخنادق والجبهات التي تنقَّل بينها، كأن قدره اختلف عن بقية أقدار الجنود. عادة يلتحق الجنود بوحداتهم، يتنقلون معها. أما هو فكان عليه أن يعيش الجبهات كلها، في البداية، كيف يمكن أن أصبح أنا الخبير بالبغال والحيوانات أفضل الجنود خبرة بالرصد؟ هل تستطيع أن تشرح لي ذلك، قال لي في أول رسالة وصلتني منه، بالضبط بعد مرور شهر من التحاقه بخدمة الاحتياط. أي عبث بالفعل فلأن أحدهم تفتَّق عقله العبقري العسكري واقترح أن يجمع كل جنود الرصد في كتيبة واحدة ويوزعهم على الوحدات التي كان عليها القتال في الجبهات الأمامية. كان على سلمان الإذعان لتلك الأوامر. ذات صباح يوم أربعاء وبينما اصطفت وحدته على عادتها للتعداد الصباحي سمع صوت مساعد الكتيبة المسؤول الأمني يقول، الوزارة، يقصد وزارة الدفاع طبعاً، تريد تشكيل كتيبة استطلاع من أفضل جنود الرصد في الجيش لكي يكونوا نموذجاً للجنود الآخرين يدافعون عن شرف البلاد هذه في الخطوط الأمامية. وكان من الممكن أن يفكر سلمان بكل شيء باستثناء أن الضابط سيقترب منه ويغرز عصاه في صدره ويقول له: اخرج أنت. باستثنائه وثلاثة جنود آخرين لم يختر الضابط جنوداً آخرين، اثنان من الجنود الثلاثة يعرفهما من أيام سد دوكان، الأول مسيحي وليم

كان المسؤول عن الحانوت آنذاك، الثاني عماد، الجندي الكردي الذي حرص على جلب المأكولات لنا أما الجندي الثالث والذي اسمه نهاد فهو جندي شاب لم يتعدَّ عمره الثماني عشرة عاماً التحق بالكتيبة قبل وقت قصير وكما عرف سلمان منه، هو صابئي مندائي من مدينة العمارة. الغريب هو أن الضابط لاحقاً، عندما أوقفهم أمامه في مكتبه لم يُخفِ ضحكته وسخريته منهم أربعتهم وهو يتصفح سجلاتهم الأمنية التي استقرت بين يديه على الطاولة، قال لهم، سلمان ماضي، وليم سركيس، عماد عقراوي، نهاد خليل، أنتم أسوأ جنود الرصد الذين عرفهم الجيش في يوم ما، لكنكم لا بد وأن تتعلموا الدرس، لنرى من سيكون أفضل منكم في الجبهة الأمامية؛ أولهم شروگـي قضى الأفندي خدمته العسكرية مع البغال وقراءة الكتب الوجودية وسماع أغاني فيروز، ثانيهم مسيحي رقيق قضى خدمته العسكرية بائعاً في الحانوت يسمع الموسيقى الغربية، جون ترافولتا وموسيقى حمى يوم السبت، وثالثهم كردي أعمامه وأهله يقتلون جنودنا في الجبال، ورابعهم صابئي يداه ناعمتان لم تعرفا غير صياغة الذهب ونقشه والحديث عن خال له اسمه نور ملا إبراهيم أو كما يدَّعي اسمه الملاك، كل إنجازه نقش فتاة يهودية اسمها ملائكة أو «ملائكة الجنوب» كما أراد. أي هراء واستخفاف بتاريخ البلاد المناضلة هذه؟ منذ اليوم ستعرفون ما هي العسكرية، ستكونون في الخطوط

الأمامية. لم يتركهم حتى ينتظروا فترة الغذاء، سلّمهم أوامر استخدامهم وقال لهم: السائق ينتظركم عند الباب، اتصلت به قبل قليل وسيوصلكم حتى الحدود الكويتية ومن هناك عليكم تدبير أمركم. لا تعتقدْ أنَّ سلمان استاء من أمر الاستخدام، على عكس الجنود الثلاثة الآخرين الذين رأوا أمر إرسالهم إلى الجبهة بصفتهم دوريات استطلاع بمثابة الحكم بالإعدام، إذ شعرَ سلمان بالارتياح أخيراً، تخلَّصَ من الضابط الكلب هذا، صحيح أنه لم يكتب لي تلك الجملة إلا أنني وجدتها مبثوثة بين السطور، فعلى مدى الشهور الثلاثة الأولى من خدمته، سواء عندما التحق بوحدته أولاً في معسكر أبي القاسم في البصرة أو عند انتقالها لاحقاً للشعيبة ثم إلى حقول نفط الرميلة، سواء عند تحركها باتجاه الزبير أو عندما أصبحوا قريباً من الحدود عند صفوان، في كل التنقلات الأولى تلك، لم يمر أسبوع لم يرسل بطلبه الضابط هذا كل يوم أربعاء، لم توقفه الحرب ولا مشاغله الأخرى، كأن سلمان شكَّل خطراً عليه أكبر من خطر الدول الأربع والثلاثين التي شكَّلت حلفاً في ذلك الوقت ضد العراق. لم يكتب لي سلمان اسمه لكنني عرفته بعد خمسة شهور أو ستة من وصول رسالته، عندما رأيت الضابط هذا في التلفزيون يتسلّم وسام أو نوط الشجاعة من سيده حاكم البلاد وجلّادها، اسمه النقيب حيدر ملا كريدي، اسم غريب حقيقة حتى أن الحاكم لم يتردد أن يضحك عندما علَّق النوط على

صدره، لم يسأله بل خاطب وزير دفاعه «منين أهلو هذا»، ربما ظن الحاكم أنه كردي بسبب اسم العائلة «كريدي» أو ما شابه لكنه فوجئ حقيقة عندما عرف أنه من الحلة أو كربلاء، لا أتذكر بالضبط لكنني أتذكر أنني أنا الآخر فوجئت وأنا أرى الضابط هذا، ليس لأنني لم أتوقعه وحسب، فكما أعرف من أيام خدمتي في الكتيبة نفسها في دوكان، كان اسم ضابط أمن الكتيبة صالح، صالح حاجم التكريتي، بل أكثر عندما قرأت في اليوم الثاني أن شجاعة أو بطولة الضابط الكريه هذا تركزت بإشرافه ومعه ضباط آخرين على قتل المئات ممن أطلق عليهم الغوغاء في انتفاضة آذار 1991، لقتله لهم في مناطق الحلة وكربلاء والباقون من زملائه لقتلهم الآخرين في بقية مدن الجنوب، قلت، كم كان سلمان على حق، صحيح أن سلمان لم يكتب لي ما أراده الضابط منه لكن من السهل لي تخيل سبب إرساله له، الضغط عليه لكي ينتمي للحزب الحاكم أو التنكيل به لرفضه الانتماء، وكان سلمان يعرف أن الخدمة في الجبهات الأمامية بالرغم من خطورتها إلا أنها تمنحه الحرية بأي مقدار كانت تلك الحرية أو حتى إذا بدا استخدام هذه الكلمة في هذا السياق غير مناسب. بصراحة أنا الآخر بدا لي استخدامه لكلمة الحرية في هذا السياق غريباً لكن رسائله التي وصلتني من هناك وإن لم تتعدَّ الخمس رسائل (هذا إذا لم نلحق بهما الرسالتين الأخيرتين) جعلت فكرتي تتغير، كأنه وهو

يواجه الموت تحرَّرَ من كل عبء أو خوف، من كل مسؤولية أو رقابة، كأنه في بحثه عن موته هناك أراد تحرير نفسه من كل ذنب، وعدم إرسالها لي عن طريق البريد حرَّره من عبء الرقابة العسكرية، فأي بريد هذا، وفي الأيام تلك، وهو يخدم في أكثر الخطوط تماساً بالحرب، أولاً مع فرقة حمورابي المدرعة التي كانت دخلت الكويت العاصمة من محور صفوان ـ العبدلي ـ المطلاع ـ الجهراء، ثانياً مع فرقة المدينة المنورة المدرعة التي وصلت مدينة الأحمدي جنوب مدينة الكويت من محور الرميلة ـ الأبرق ـ قاعدة علي سالم الجوية وثالثاً مع فرقة توكلنا على الله المدرعة التي دخلت على محور الأوسط مابين فرقة حمورابي وفرقة المدينة المنورة وتمركزت في غرب الكويت، قبل أن يدور لاحقاً وقبل نهاية الحرب بأيام بين أكثر جبهات القتال خطورة، بين خنادق منطقة الخفجي عند مثلث الحدود الكويتية العراقية السعودية وخنادق منطقة الرقعي على جبهة حفر الباطن عند الحدود السعودية العراقية، أو بكلمة أفضل عند الحدود الفاصلة بين صحراء السماوة العراقية مع صحراء وادي حفر الباطن السعودية، لكن حتى إذا سلَّمنا بهذا الأمر ـ أنه أرسل رسائله مع أولئك الجنود الجرحى الذين كان لا بد من نقلهم للعلاج في مستشفى معسكر الرشيد في بغداد، لكي يبعثوها لي من البريد المدني أو يسلِّموها لي بأيديهم كما فعل زميلاه اللذان تنقلا معه على الأقل

حتى الأسبوع الأخير من الحرب، الجندي المسيحي وليم والكردي عماد ـ فإنه تخلّص على الأقل من الرقابة الداخلية. صحيح أن الرسائل تلك كانت أكثر رسائله حزناً وتعبيراً عن الخراب، لكنها أيضاً أكثرها تعبيراً عن إصراره بالتوثيق أو بالتدوين ـ إذا قارنت ذلك بما فعلته أنا في دفاتر وزارة الدفاع ـ توثيق لكل ما جرى على الجبهات البعيدة تلك، ليس فيما يتعلق بمجرى القتال، فذلك كان أقل ما شغله حقيقة، بل أكثر فيما يتعلق بنقل ما دار بين زملائه الجنود، ووصف حياتهم اليومية، في جلساتهم أو إقاماتهم الطويلة في الخنادق والتي دام بعضها أسابيع. مهما بدت بعض تلك التفاصيل غير ذات معنى أو قليلة الشأن بالنسبة لمن يقرؤها إلا أنها تشكل شهادة لمن يريد أن يعرف ما دار حقيقة على خطوط النار، فحتى جلوس الجنرال الأميركي نورمان شفارتزكوف قائد قوات التحالف في 3 مارس/آذار 1991 ومعه الأمير السعودي خالد بن سلطان المسؤول عن تموين القطعات العسكرية آنذاك من جهة، على طاولة واحدة بمواجهة وزير الدفاع العراقي سلطان هاشم ورفيقه اللواء الركن صالح عبود الجبوري قائد الفيلق الثالث في خيمة في صفوان وتوقيعهما اتفاق وقف إطلاق النار وبحضور ممثل الجانب الروسي بريماكوف، لم نعرف عن أخبار الحرب على الجبهات الجنوبية غير ما سمعناه من محطات الإذاعة الرسمية وبعض المحطات الأجنبية الأخرى والتي خضع أغلبها

في حينه للتشويش. نعم كان هو العام الذي انطلقت فيه القناة التلفزيونية السي أن أن. لكننا، لا في ذلك الحين ولا بعده، عرفنا الستالايت، حتى صور توقيع الاتفاقية تلك التي أطلق عليها اتفاقية صفوان بين الجنرال الأميركي قائد القوات البرية لقوات التحالف أو «التلاحف»، كما سمتها أحلام لاحقاً، وبين وزير الدفاع العراقي الذي ما زال ينتظر تنفيذ حكم الإعدام عليه في سجن كامب كوبر الملاصق لمطار بغداد، أقول حتى الصور التاريخية تلك لم نرَها باستثناء الصور الحقيقية لقصف بغداد في ليلة 16 / 17 كانون الثاني 1991 التي عشناها حية، لم نرَ غير صور مزيفة بثّتها المحطتان الرسميتان عندنا بعد مدة وكان علينا إما أن نسافر إلى خارج البلاد أو ننتظر حتى 9 أبريل 2003 لكي نرى ما لم نرَه في تلك الأيام أو لكي نكتشف ما كان عندنا من محظور، لكن حتى رؤيتنا المتأخرة لصور المعارك التي دارت هناك لا تستطيع تقديم صورة لما جرى حقيقةً هناك. هل تفهمني، أن تجلس وترى على شاشة التلفزيون صور قصف بغداد هو غير أن تسقط تلك الومضات التي تراها على الشاشة على شكل حبيبات، شظايا تمزق جسدك الحي، وهو الفارق هذا الذي يجعل القلب يضرب بقوة أو يتوقف عن الخفقان، الأوصال ترتعش أو تتقطع الأنفاس، الجبهات تعرق أو تصطك الأسنان، كل ما يمكن أن ينتجه الخوف من عرق ويباس فم، من بلع ريق ولعق لسان، أقصد العيش في

جحيم النار التي تطلقها طائرة مجهولة أو تحت رحمة اليد التي تضغط على زر أوتوماتيكي يرسل إلى بيتك صاروخ، هو غير الحديث عنه، لا تخيُّل يعبر عن حقيقة الألم لحظة أن تجلس تحت رحمة الموت والدمار. أقول لك ذلك، ليس لأنني أبحث عن عزاءٍ لنفسي ولكل أولئك الأموات أو للجرحى وأولئك الذين انهارت عليهم بسبب القصف سقوف البيوت، كلا، لا عزاء لدموع أطفال رأيتهم يبولون أو يتغوطون على أنفسهم كلما سمعوا ضجيج طائرة أو زعيق صفارة إنذار بل لكي أجعلك تفهم معي الألم الذي عبَّرت عنه رسائل سلمان التي كتبها لي من الخطوط الأمامية لجبهات القتال في ذلك الحين. وهل هناك جبهة أقرب لنيران الأربع وثلاثين دولة من جبهة الخفجي والرقعي وحفر الباطن؟ كل كلمة سطَّرها هي كتاب في معرفة الألم وكل كتاب هو إنسان، وكل إنسان هو مدينة وكل مدينة هي بلاد وكل بلاد هي قارة وكل قارة هي عالم، ذلك ما قالته لي رسائله التي كتبها لي من هناك، خاصة رسائله الثلاثة الأخيرة، اثنتان بعثهما لي مع جنديين جريحين، زميليه، عماد ووليم، ولحد اليوم مثلي مثله آنذاك، لا أدري إذا كان الاثنان تعمَّدا أن يسقطا جريحين أم أنهما جرحا بالفعل بنيران المارينز. جُرح عماد في البداية وسار وليم على خطاه بعد شهرين. من الأفضل أن تنتهي معوَّقاً على أن تموت، قال لي عماد وبعده وليم عندما سلَّماني الرسالتين وهما يجلسان على كرسي متحرك وكأنهما

اتفقا على قول الجملة نفسها أو كأنها هي تلك الجملة التي شاعت على لسان الجنود في الجبهات، أما الرسالة الثالثة وهي الأطول، كان عليها أن تضيع في غبار الصحراء وما كنت عرفت بأمرها لو لم يظل هو مصرّاً على تذكُّرها حتى بعد مرور قرابة خمسة عشر عاماً على كتابتها. الرسالة التي تسلّمتها من الكردي عماد، كتبها مباشرة بعد وصوله الأحمدي جنوب مدينة الكويت والتحاقه مع كتيبة الرصد واحتفظ بها إلى أن تحين مناسبة لإرسالها، الثانية التي سلّمني إياها وليم كتبها عند دخولهم مدينة الخفجي مع دخول الكتيبتين المدرَّعتين العراقيَّتين إلى هناك. في الرسالة الأولى التي كتبها في صفحتين أو ربما أكثر بقليل بدأ بها بتذكر صباحاتنا وأماسينا الجميلة في منطقة دوكان قبل أن يبدأ بعدها بالحديث عن عبث الحرب تلك، أية حرب هذه التي ترسل جنوداً من مختلف الوحدات إلى الخطوط الأمامية بصفتهم أفضل جنود الرصد في الجيش العراقي. سبعمئة وخمسون جندياً؟ سبعمئة وخمسون كذبة، بل سبعمئة وخمسون حكماً بالإعدام؟ هكذا ببساطة، تخيَّل، أحدهم جلس إلى مكتبه في وزارة الدفاع وقال لي: هاتوا لي ملفات بعض الجنود، درسها على راحته واختار منها سبعمئة وخمسين جندياً. قال: خذوهم ليموتوا على الجبهات، لماذا كل هذا العناء في التحقيق معهم عن ميولهم السياسية وأصولهم الاجتماعية، لماذا دوخة الرأس هذه. وإلا من الصعب

عليّ تخيل قرار همجي بغير هذا الشكل، ماذا سنفعل في دوراننا على الجبهات، قيل لنا، إنكم أنتم كتيبة الاستطلاع النموذجية في كل الجيوش لذلك ستكون مدينة الخفجي أول محطة لكم ومن هناك ستتنقلون على طول الجبهات، هذا ما كتبه لي، والأكثر حماقة من ذلك أنهم لم يكونوا تحت إمرة ضابط، كلا، خمسة نواب ضباط تدرجوا بقدمهم العسكري، كانت حصة كل منهم مئتين وخمسين جندياً، المضحك المبكي هو أن نواب الضباط هؤلاء كانوا واثقين من عملهم، ألا ترى، ألم أقل إن أبناء القحبات أولئك الذين كانوا يتزاحمون على اغتصاب أحلام كانوا وفي كل ما يقومون به، لا يفعلون شيئاً غير أنهم ينيكون أنفسهم. أحلام كانت تراهم ينكبُّون عليها، ينهشون جسدها وهي تنظر إليهم ببلاهة مفتوحة العينين كأنها هي الأخرى تقوم بأداء واجبها. أحدهم أوقع بها وهي لا تريد الاعتراف. أحدهم أوقع بهم وهم لا يريدون الاعتراف. بدل ذلك يقومون بمهتهم على أحسن وجه: نحن سندافع عن شرف الوطن، قال أقدمهم خدمة في الجيش، وعندما انطلقوا ذات يوم سبت في الساعات الأولى من صباح كانون أول/يناير بارد جداً، عرف سلمان أنهم سائرون إلى حتفهم لا محالة، حتى القلم لم يستقر بين أصابعه. صحراء يجتاحها البرد بدل الغبار. كانت تلك هي أيضاً أول مواجهة له مع عراء الصحراء. كان عليهم أن يتوقفوا في الطريق، أرتال الدبابات تسير بالتوزاي مع الشريط

البحري باتجاه الجنوب. أما هم فكان عليهم السير على الطريق الصحراوي جنوباً. ربما لاقاهم حطام سيارات، هياكل حيوانات، ربما لاقتهم جمال اكتسى جلدها بالقير، بسخام النفط المحترق في الآبار القريبة. باستثناء ذلك كان عليهم مواجهة خلاء واسع، قيل لهم، إنكم جنود رصد وعليكم السير على هذه الطرق الغامضة، لكنهم لم يروا لا نُوَّاب الضباط الخمسة، ولا قام أحدهم بالرصد، ربما كانت سلواه الوحيدة الجمال التي تاهت مثلهم في العراء. جمال تائهة لكنها على الأقل بعيدة عن سكاكين الجزارين وسيوفهم، كتب لي وهو يقارن كتيبتهم بالجمال. المهم أننا ما زلنا على قيد الحياة، من يدري، أي جزار ينتظرنا بسكينه غداً؟

الرسالة الأخرى كتبها بعد التحام كتيبة الاستطلاع بكتيبتين مدرَّعتين تابعتين للحرس الجمهوري العراقي ودخولهم معاً إلى مدينة الخفجي السعودية. هل تتذكر الكتيبتين المدرَّعتين اللتين دخلتا الأراضي السعودية؟ طبعاً يبدو الأمر مضحكاً، فكيف سمح طيران قوات التحالف، أو «التلاحف» كما سمتها أحلام، للقوات العراقية بالدخول إلى هناك؟ الاثنان أرادا تجريب قواتهما وإظهار عضلاتهما؛ جلَّاد بغداد عن طريق إظهاره أنه جاد بالزحف على كل دول الخليج، والأميركان الذين أرادوا تلقين السعوديين وبقية شيوخ الخليج بأنهم دون تدخل الأميركان سيصبحون لقمة سائغة، سيكونون محتَلِّين. دارت المعركة ثلاثة أيام في المدينة وحولها،

اثنان وسبعون ساعة، من صباح 29 كانون الثاني 1991 وحتى مساء الواحد والثلاثين منه، لم يقل لهم أحد قبلها، إنهم ذاهبون لاحتلال المدينة السعودية، قيل لهم، إنكم كتيبة استطلاع لذا تبقون عند مشارفها أو ستتوزعون على شكل دوريات مهمتكم هي التنسيق مع مقر الكتيبتين المدرَّعتين اللتين استقرَّتا هناك قبل مجيئهم بأسبوع أو أسبوعين. مجرد تهديد، كما قيل، لكن الزحف العراقي على السعودية على الطريق البري ذلك فاجأهم مثلما تفاجؤوا على الجانب الآخر من الجبهة بمواجهتم مجموعتي استطلاع أميركيتين مكونتين من اثني عشر جندياً من قوات المارينز. كان ذلك أول جحيم يعيشه سلمان مباشرة، فماذا تفعل كتيبة استطلاع في حرب برية جرت حتى بالسلاح الأبيض، إذ مباشرة بعد بلوغ نبأ سقوط مدينة الخفجي تحرك خط الدفاع الثاني المكون من حلفاء الكويت، العرب (وتشيكوسلوفاكيا) نحو المدينة، عندما قامت القوات السعودية والقطرية والكويتية بتطويق المدينة من جهة الغرب والجنوب بمساندة جوية ومدفعية من القوات الأميركية. بقيت القوات العراقية يومين كاملين في المدينة قبل أن تأتيهم الأوامر بالانسحاب على مرحلتين، الأولى عن طريق هجوم مقابل من ناحية الغرب لتأمين انسحاب القطعات الثقيلة، والثانية الهجوم من ناحية الجنوب لتشتيت انتباه الطرف المقابل. القوات التي هاجمت غرباً نجحت باختراق

قوات التلاحف حتى أنها أخذت أسرى الحرب معها إلى بغداد، 23 جندياً أميركيا فقط لم يكن بينهم أي جندي عربي لأن عمل الجنود العرب كان في الخطوط الخلفية للتموين. 72 ساعة من القتال المتواصل بين القوات العراقية من جانب وقوات التحالف الدولي ممثّلةً بالسعودية، الحرس الوطني، قطر، الولايات المتحدة الأميركية، والكويت. من الجانب الآخر طالت معركة استعادة مدينة الخفجي. من الصعب وصف الرعب الذي استحوذ على الجنود. كان القتال في أكثر من موقع وجهاً لوجه في مساحة ضيقة ومكشوفة. ليس من الغريب إذن أن بعض تلك القوات تشابكت مع بعضها خطأ كما حدث لقوات تابعة للمارينز الأميركي أو للقوات العراقية التي أبادت دوريتي استطلاع تابعتين لكتيبتهم، كانا في طريقهما للانسحاب باتجاه مدينة الرقعي شمال حفر الباطن.

ربما بدت المعلومات تلك قريبة من كل تلك المعلومات التي من الممكن قراءتها اليوم في الويكيبيديا أو من الممكن العثور عليها في أرشيف الصحافة ووسائل الإعلام، لكن ما حدث في المدينة وحولها مباشرة لا يعرفه أحد بكل تفاصيله إلى يومنا هذا، وحتى أنا، الذي ولحسن حظي وصلته تفاصيل ذلك اليوم عن طريق ما كتب سلمان، لا أعرف إلا جزءاً، أما التفاصيل التي تحدث عنها سلمان وما عاشه هناك مباشرة فيفوق بوصفه كل جحيم؛ فماذا تفعل كتيبة

استطلاع في حرب برية اشتبكت فيها القوات المتعادية بشكل عنيف استخدمت فيها كل الأسلحة التي ملكتها حتى السلاح الأبيض، نعم، وخاصة بعد انسحاب القطعات الثقيلة وبقاء قوة رمزية صغيرة لإلهاء قوات التحالف بالقتال. دار القتال في داخل المدينة، من بيت إلى بيت، من شارع إلى شارع. الأرقام الرسمية التي تحدثت عن سقوط 10 قتلى و32 جريحاً من القوات السعودية وعن 26 قتيلاً وأسيرين من وحدات المارينز وعن 32 قتيلاً من القوات العراقية إضافة إلى 113 أسيراً هي مجرد روايات لا علاقة لها بعدد القتلى الفعلي، لا علاقة لها بوصفه لما دار أمام عينيه هناك. ورغم أن كتيبته الاستطلاعية كانت أول المنسحبين، ليس لأن قائديّ المدرعتين رأفا بهما أو لأن القيادة العسكرية في بغداد أمرتهم بالانسحاب بل لأن العديد من الذين قاتلوا بالدبابات سقطوا جرحى أو قتلى، أما الجرحى فكان عددهم كبير وكان لا بد من العناية بهم على الأقل حتى دخول الأراضي العراقية، وهذا ما جعل أمر مصاحبة جنود الرصد للفرقتين أمراً مفهوماً خاصة وأن مهمة الرصد انتفت تقريباً. لكن فرحة جنود الاستطلاع لم تدم طويلاً، فهم ما إن نجحوا بالانسحاب وهلّلوا فرحاً، قالوا: ها نحن نعيش، على عكس زملائنا في دوريتي الاستطلاع الذين قُتلوا خطأً بنيران مدفعيتنا، حتى جاءهم الأمر بالتحرك غرباً باتجاه مدينة الرقعي شمال مدينة حفر الباطن السعودية لكي يدخلوا

الأراضي العراقية من هناك عبر صحراء السماوة. لكن من أين كان لهم أن يعرفوا بأن في فجر اليوم البارد ذلك وفي الساعة الرابعة بالضبط بدأت قوات التحالف ـ أو «التلاحف» كما سمتها أحلام ـ توغُّلَها في الأراضي الكويتية والعراقية وأن الجيش البري لهذه القوات تم تقسيمه إلى ثلاث مجموعات: الأولى توجهت لطرد قوات الحرس الجمهوري العراقي من مدينة الكويت، الثانية قامت بمحاصرة جناح الجيش العراقي في غرب الكويت، فيما كانت مهمة المجموعة الثالثة هي التحرك في أقصى الغرب ودخول جنوب الأراضي العراقية لقطع كافة الإمدادات للجيش العراقي، إن لم يكن الزحف حتى بغداد. وهي المجموعة هذه التي كانت بقيادة الجنرال الفرنسي بلزاك (الذي انتحر لاحقاً في منطقة تلّ الِّلحم لعدم تمكنه من الزحف على بغداد!) التي قطعت على سلمان وزملائه طريق الانسحاب باتجاه مدينة السماوة وبعدها بغداد، فاجأتهم بالضبط ومباشرة بعد عبورهم خط الحدود الذي يفصل صحراء حفر الباطن عن صحراء السماوة. إنها للمفارقة تلك التي حدثت، كما كتب لي سلمان. كانت الفرقة 20 مشاة التي انسحبوا معها أو التي التحمت معهم ورافقتهم على طريق الانسحاب تحتل أصلاً موضعاً دفاعياً داخل الكويت ضمن قاطع الفيلق الرابع وعلى جناحه الأيمن (وادي حفر الباطن) وكانت إمكانياتها متواضعة، أسلحتها قديمة ولم تملك حتى قطع غيار كأنها أرسلت

مثلهم عمداً للموت هناك، لكن على الرغم من الإمكانيات المتواضعة لها لم تكتفِ الفرقة هذه بتخندقها في مواقعها هناك بل تصدَّت أيضاً لقوات التحالف المهاجمة التي كانت خليطاً من قوات عربية عديدة ـ وإن كان أغلبها كما عُرف لاحقاً من القوات المصرية ـ وأجبرتها على التراجع في بعض الأحيان كما تمكنت هذه الفرقة من إسقاط ثلاث طائرات أميركية من نوع طائرة دون طيار (آ 10) وأسرت أربعة طيارين وضابطاً أميركياً برتبة كولونيل، أمر عبثي طبعاً، لأن قائد الفرقة وكل الضباط الباقين عرفوا أن مقاومتهم في مواقعهم تلك هي ضرب من الانتحار، فهي مسألة وقت وسيكسر صمودهم إن لم يُسلِّموا أنفسهم طواعية. كيف سيبقون يقاتلون هناك وقد انقطعت كل خطوط الاتصالات عنهم ووسائل التموين، الماء الذي في حوزتهم والأكل، لا بد وأن ينتهي في اليومين القادمين. الوضع باختصار يائس وهذا ما ثبت له كلما ذهب بمهمة استطلاع. كل دوريات الاستطلاع التي دفعت بها الفرقة إلى عمق الجبهة المواجهة أو إلى صحراء حفر الباطن، إلى الوراء تؤيد ما ذهب إليه. لكن ماذا عليه غير تنفيذ الأوامر وهل يستطيع الرفض؟ خاصة وأن العقيد ضابط أمن فرقة المشاة، لم يكن غير العقيد حيدر ملا كريدي الذي ترقَّى وأصبح ضابط أمن فرقة، كأنه قدر لا يستطيع الفكاك منه.

كانت تلك هي الرسالة الأخيرة التي تسلَّمتُها من

سلمان، وصلتني بعد شهرين من وقف إطلاق النار. الكل يعرف ما جرى بعد ذلك. في 26 شباط/فبراير 1991 بدأ الجيش العراقي بالانسحاب بعد أن أشعل النار في حقول النفط الكويتية. خط طويل من الدبابات والمدرَّعات وناقلات الجنود تَشكَّل على طول المعبر الحدودي الرئيس بين العراق والكويت والذي تحول إلى صيد سهل لقصف قوات التحالف. ما يزيد عن 1500 عربة عسكرية عراقية دُمِّرت في ذلك اليوم ولحسن حظ الجنود، فبالرغم من ضخامة عدد الآليات المدمرة لم يزد عدد الجنود العراقيين الذين قتلوا على هذا الطريق عن 500 قتيلاً لأن معظمهم تركوا عرباتهم العسكرية ولاذوا بالفرار. هل نسيت الاسم الذي أطلق على هذا الطريق؟ طريق الموت أو ممر الموت، كما أُطلق عليه لاحقاً. في اليوم التالي، في يوم27 فبراير وبعد 100 ساعة من الحرب البرية، قال الرئيس الأميركي: «الكويت أصبحت محرَّرة والجيش العراقي قد هُزم». في اليوم نفسه اندلعت انتفاضة في جنوب وشمال العراق. في 3 مارس/آذار 1991. وقَّع الجنرال الأميركي قائد قوات التحالف ـ أو «التلاحف» كما سمتها أحلام ـ شفارتزكوف مع الفريق الركن العراقي سلطان هاشم (الذي ما يزال ينتظر تنفيذ حكم الإعدام به في سجنه كامب كوبر عند مطار بغداد!) اتفاق صفوان لوقف إطلاق النار. لكن طوال تلك الأيام الصعبة، طوال أيام الفوضى التي عمَّت البلاد، خاصة في 16 مدينة

منها، لم أسمع خبراً عن سلمان ولو لم يُسلِّمني الرسالة هذه الجندي زميله وليم بعد شهرين من اتفاق صفوان لما عرفت أن سلمان كان على قيد الحياة، على الأقل حتى اليوم السابع من حصارهم في خنادقهم تلك، لأن وليم ومعه ثلاثة جنود آخرين جُرحوا وحملهم الصليب الأحمر إلى بغداد. الرسالة تلك، التي سلَّمني إياها في يومٍ ربيعي حار في حديقة مستشفى الرشيد في بغداد، كانت هي آخر علامة حياة من صديقي سلمان قبل أن تزورني وبعد عشر سنوات من تسلمي الرسالة تلك ذات صباح شتائي بارد على غير عادته في مكتبي في حي الجامعة، امرأةٌ في نهاية الثلاثين من عمرها، ظلَّت محافظة على جمالها ورشاقتها اصطحبت معها صبيّاً ربما كان في الثامنة من عمره أو أكثر، هو الآخر لبس ملابس أنيقة وصفف شعره بعناية. قالت لي إن اسمها نخيل وإنها زوجة صديقي سلمان وهي لجأت إلي لأن ليس هناك أحداً غيري قادر على مساعدتها.

- ٣ -

ظِلّ شاعر

ربما ظن سلمان أنه بعودته إلى البيت هذه المرة وببقائه مع أمه في الناصرية سيتسنى له مواصلة العيش بهدوء في مدينته الجنوبية البعيدة عن بغداد. لم يصدق وكذلك أمه أنه سيعود من الجبهة حياً. كانت الحرب قد انتهت منذ ثلاثة شهور والانتفاضة هي الأخرى أصبحت ماضياً، وابنها سلمان لم يرجع، لا إشارة حياة منه. صحيح أنها لم تقم مأتماً على روحه، لم تقل أنه مات، ظلت في داخلها تأمل عودته لكنها لم تشأ نزع ثوب السواد الذي لبسته منذ اليوم الأول لاستدعائه إلى خدمة الاحتياط في حرب الكويت. لا الذين ذهبوا إلى جبهات القتال في تلك الحرب ولا ذويهم ظنوا أن أحداً شارك في تلك الحرب سيعود حياً منها، رغم أنها حرب لا تختلف عن بقية الحروب، الكل يعرف أن لا شيء حقيقي في تلك الحرب أو في أية حرب أخرى غير الموت. ذلك ما عرفته أنا وأنت وما عرفه الجميع. تلك هي الحقيقة الوحيدة لكل الحروب لكن لا أحد يصرح به علانية، الجميع يكذب حتى أنا. كان الموت على جبهات القتال لقاءً يومياً منتظراً بالنسبة للجنود هناك، بينما كنت أنا أقنع نفسي بأن كل شيء سيكون على ما يرام. ستنتهي الحرب ذات يوم مثلما انتهت الحروب التي قبلها ولم أفكر أنني بذلك لم أفعل غير أن أكون إلى جانب الجزار الذي أرسل الجنود إلى المجزرة البشرية

تلك، لم يخطر على بالي أنَّ من الممكن أن لا أرى صديقي بعد اليوم وعندما وصلتني رسائله تنفَّستُ الصُعداء، ها هو على قيد الحياة ـ قلت لنفسي ـ ولم أعرف أنه لهذا السبب بالذات لن يشعر بالراحة أبداً. لأنه ظل على قيد الحياة سيضيف ذنباً جديداً إلى ما ظنَّه ذنوبه القديمة. الآخرون ماتوا وهو نجا من الموت. كم فرحت أمه لرؤيته، نزعت ثوبها الأسود، لبست ثوباً مطرَّزاً بالألوان، لم تسأله، أين كنت طوال الوقت والحرب انتهت منذ ثلاثة شهور على الأقل؟ لم يكن لديها الوقت لطرح الأسئلة مثل كل الأمهات اللواتي عاد أبناؤهن من الحرب، أي حرب أخرى، هلَّلت ونثرت حلويات جيكليت عليه وعندما اجتاز عتبة باب الدار، قالت له: سنعمل فرحاً يا سلمان يبقى في ذاكرة الناس، وكان عليها أن تحزن عندما سمعت ردَّه، قال لها وبصوت حزين منكسر: ليس هناك ما يفرح يا أمي، إن هذه الحرب تختلف عن بقية الحروب. إنها خلاصة كل الحروب التي عشناها والأخرى القادمة. لم تفهم الأم ما قاله، ظنته مجرد حزن عابر. إنها مسألة أيام وسيتغير سلمان. في البداية فكرت أن الإرث الذي حصلوا عليه صدفة وقبل استدعائه للخدمة بشهور سيشجعه على عمل مشروع صغير على الأقل وتكوين عائلة صغيرة، أن يتزوج. كان أبوه يملك أراضيَ في ميناء الفاو وعندما استعاد العراق مدينة الفاو بعد الاحتلال الإيرانيِّ لها عوَّضت الدولة أصحاب الأملاك المتضررة في نهاية عام

1989 بمبالغ مجزية رغم أنهم لم يتسلَّموا المبلغ إلا في عام 1990 وبفترة قصيرة قبل حرب الكويت. ولأن أباه تُوفِّي في شباط/فبراير 1987 بعد فقدانه الأراضي تلك بعد الاحتلال مباشرة كان عليهم الخضوع لمعاملة بيروقراطية طويلة. في النهاية تسلَّمت أمه المبلغ 70 ألف دينار، في ذلك الوقت كان مبلغاً ليس بالقليل، لم يجد الوقت الكافي للتفكير بما سيفعل به، ليس بسبب عدم اهتمامه بالمال بل بسبب التحاقه بخدمة الاحتياط. أمه هي الأخرى لم تلمس المبلغ، قالت، أنتظر عودة سلمان وعندما رأته عاد حزيناً ومخرباً وضعت المبلغ كله تحت تصرفه وكانت وهي تراه وقد استسلم لبحبوحة العيش، تقول لنفسها، من حقه أن يرتاح فهو لم يستمتع أبداً بحياته، لم يزعجها أنه يخرج في ساعات مبكرة من النهار ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من المساء، لم تسأله أين كان يقضي الوقت كله، كانت بلا حيلة فهي لم تفهم ماذا جرى له. لم تكن هذه الحرب الأولى التي اشترك فيها، خدم في الشمال في الحرب ضد الأكراد وعلى الجبهة الشرقية في بداية اندلاع الحرب العراقية الإيرانية قبل أن ينتقل مجدداً إلى سد دوكان في السليمانية. منذ سوقه للخدمة العسكرية حتى اليوم لم يعرف إلا فترات قليلة من السلام رغم أن العيش في الثكنات العسكرية هو أتعس من العيش في أيام الحرب على الجبهات لذلك كان من الصعب على الأم أن تفهم تغيره التام هذه المرة وكان أملها الوحيد

هو أنها غيمة صيف عابرة، كما قالت له ذات يوم، سينسى سلمان الحرب يوماً مثلما فعل الآخرون وسيعود كما كان. لم تعرف أن ديدن سلمان دائماً هو الحزن كأنه عقد حلفاً أبدياً معه، رغم أن الأمر فاق هذه المرة كل المرات السابقة، لم تعرف أنه سيدوم زمناً طويلاً، أياماً وأسابيع وشهور وكان عليها أن ترى صحته تنهار أمامها يوماً بعد يوم، أن ترى إدمانه على الشرب يوماً بعد يوم أو إدمانه على التدخين دون أن يقول لها لماذا هو على هذه الحال. ما عاشته أمه ولم تستطع أن تجد له حلاً أو ظنت أن لا حل له إلا في زواجه. كان على نخيل التي ستصبح زوجته أن تعيشه من جديد. الأم ماتت مغمومة بعد مرض عضال عام 1993 لكنها على الأقل ظنت أنها نجحت أخيراً بجلب ابنها إلى صف الحياة، صحيح أنها فكرت بزواجه لكنها وحتى معرفتها بأمر حبه لنخيل ثم زيارتها لأهلها لطلب يد ابنتهم، لم تعرف فتاة يمكن ترشيحها للزواج من ابنها ولا بين الأقارب، وخاصة أن هؤلاء لم يفكروا إلا بالإرث الذي حصلوا عليه، حسب ظنها، وعندما لاحظت التغيير الذي طرأ على ولدها منذ أن حلت العائلة الجديدة التي اشترت البيت المجاور لهم، فكرت لا بد وأن يكون ذلك له علاقة بابنة الجيران، ففجأة كفَّ سلمان من الخروج مبكراً كل صباح، على العكس، رأته كثيراً ما يصعد إلى سطح البيت في ساعات النهار ثم في ساعات المساء، وعندما عثرت الأم ذات يوم بعد صعودها خلفه إلى

سطح الدار على قصاصات ورق حُشرت بين طابوق الجدار الذي يفصل بين سطحي البيتين، لم تصدق ما رأته عيناها، صحيح أن مستواها في القراءة بسيط لأنها تعلمت في صفوف محو الأمية، صحيح أنها لم تفهم أبيات الشعر التي كتبها سلمان في تلك القصاصات لكنها قرأت مرات عديدة اسم بنت الجيران، نخيل، ومن يكرر الاسم بهذه الغزارة وكل يوم لا بد وأن يكون قد وقع في الحب ولم يكذب حدسها. كان سلمان تغير بالفعل منذ أن رأى نخيل وهذا ما ظنته نخيل أيضاً. كانت هي في نهاية العشرين من عمرها وجاءت منقولة للتدريس قبل فترة قريبة في ثانوية البنات المجاورة لحيِّهم. كانت فتاة ناحلة، سمراء، قامتها قصيرة، متر وستين سنتمتراً، شعرها الأحمر الطويل هبط على كتفيها مثل شبكة صياد (هكذا وصفه في إحدى قصاصاته تلك) فيما كان لعينيها العسليتين لمعانٌ لا يراه إلا الشعراء، وجهها المدور وفمها الصغير علامات جمال أخرى فارقة، حتى في لبسها، لبست بنطلون جينز التصق بفخذيها، أما القميص الطويل فلم يستطع لا إخفاء مؤخرتها المدورة بشكل مثير ولا صدرها الذي برز بشكل لافت، باختصار، حملت نخيل كل ما يمكن أن يحلم به الشعراء من صفات، «ناحلة، هشة، مشتهاة، أريدك» كان الشعار الذي رفعه شاعر عراقي آخر آنذاك، فكيف لا تدير نخيل صاحبة تلك المواصفات رأس شاعر مثل سلمان؟ كأنه استعاد عن طريقها ما فقده من قدرة على كتابة الشعر

فهو ومنذ عودته من جبهات القتال لم يكتب حرفاً واحداً. بعد الحرب هذه لم يعد من المجدي كتابة الشعر، قال لنخيل ذات يوم عندما حرَّضَته على كتابة الشعر من جديد أو عندما أرادت تشجيعه على نشر قصائده في صحف ومجلات العاصمة بغداد، دعيهم ينشرون قصائدهم، كل هؤلاء الدجالين والمطبِّلين للحرب وللديكتاتور. أنا طلَّقتُ الشعر، ليس لأحد مِنَّة عليَ. أنت قصيدتي وكفى، قال لها، وكانت هي تفهمه، لم تأخذ عليه عفته تلك، كما تسميها. كانت فرِحَة بالقصائد التي كتبها لها وما زالت تحتفظ بالعديد منها. كيف لا تقف إلى صفِّه وهو راح يمطرها بقصائده، أية امرأة لها القدرة على الصمود بوجه رجل يبعث لها بأحلى الكلام. خطيبها الأول مات في معارك عبادان في بداية الحرب العراقية الإيرانية، الثاني هرب إلى خارج البلاد مباشرة بعد تعليق الحصار، وها هي مثلها مثل ملايين من النساء الأخريات يتطلَّعن حولهن ويرين قطار العمر يمضي وهُنَّ في مكانهن واقفات، لا تلويحة من القريب ولا أمل يلوح في الأفق. كم فرحت عندما رأت رجلاً يهتم بها بهذا الشكل الجميل والأكثر من ذلك فهو شاعر، هل تعرف، قالت لي نخيل، في أزماننا الحقيرة هذه ليس هناك أجمل من الكلمات، لا يهم العذاب الذي عشناه ونعيشه حتى اليوم، لا بأس من الجوع الذي عانيناه ونعاني منه حتى اليوم، لا بأس من القهر الذي خضعنا له وما زلنا نخضع له حتى اليوم، كل شيء يمكن أن

يهون عندما يسمع الواحد منا كلمة طيبة أو جميلة، كلمة تصدر من القلب، قالت لي وهي تضرب على صدرها: كيف لا أفرح بسلمان؟ قلت لنفسي هذا هو الرجل الذي كنت أريد، ليس من العبث أنني انتظرت طوال هذه السنوات وحتى ذلك اليوم. وهي تتحدث عن ذلك تشعر برعشة تسري فيها من الأخمص حتى الرأس ولا يهم أنَّ قِصَّتهما انتهت إلى غير ما سعت هي إليه وهل هناك قصة حب حقيقية انتهت بشكل معقول؟ لا حب سعيد، قالت لي، وهي تعرف أن النساء أكثر تحفظاً من الرجال حتى عندما تنتهي قصة حُبِّهن لا يتحدَّثن عنها بالسوء، يُردن الاحتفاظ لأنفسهن بالذكرى الجميلة. زواجهما لم يدم أكثر من سبع سنوات. وشكراً لإصرارها هي على أن يبقيا طوال هذه الفترة سوية خاصة بعد ولادة الطفل، ابنهما الوحيد آدم. لكن رغم ذلك لم يكن الوقت كافياً لكي تحكم إذا كان زواجهما مستحيلاً، خاصة وأن السنوات الثلاثة أو الأربعة الأولى مَرَّت بسلام، صحيح أن سلمان عاد من جبهات القتال منذ سنوات لكن الانطباع الذي ظل عندها طوال تلك الفترة أنه ما زال يشعر بأنه يدور مع دوريات الاستطلاع في الجبهات الجنوبية من الحرب وفي خطوط التماس، في جنوب الكويت، في الخفجي وفي حفر الباطن، حتى أنه نسي أن هناك شيئاً اسمه النوم. مرات عديدة كانت تصحو ليلاً وتراه مستلقياً على ظهره، عيناه مفتوحتان. في البداية ظنَّت أنه ربما ومع

مرور الوقت سيتصالح مع النوم لكنها اكتشفت أن من الخطأ أن يطلق على رقاده في الفراش اسم النوم. كيف تسمي ذلك بالنوم والكوابيس تهجم عليه كل مرة أكثر، كلما نجح بإغماض عينيه، يكفيه سماع أية حركة أو يكفيه سماع صوت مِرزاب أو قفزة قطة على السطح أو حتى حركة في الفراش لكي يستيقظ، حتى لخفقة جناح طائر، وغالباً ما يستيقظ مذعوراً يدور حواليه كأنه نام على الأرض في خندق، كأنه محاصر من عدو هاجمه بغتة، كأن العشرة أيام أو ربما أكثر، الأيام التي عاشوها في خنادقهم محاصرين ما زالت حاضرة؟ كأنه ما زال يعيش هناك في خندقه وليس في بيته ومع أمه. رغم أنها لم تسمعه يتحدث عن الحرب مباشرة إلا مرتين أو ربما ثلاثة، مرة عن علاقة الحرب بالشعر (أمر غريب، أليس كذلك، الحرب والشعر؟) وكيف أنه في الأيام الأخيرة تلك من حصارهم في صحراء حفر الباطن أو صحراء السماوة لم يعلم أين كانوا؟ في الأراضي العراقية أم ما زالوا في أراضي المملكة العربية السعودية؟ لولا الشِّعر لما ظل على قيد الحياة؟ وفي المرة الثانية عن الصداقات التي تحدث بين الجنود وكيف أنهم في لحظات تقاسم اليأس فيما بينهم يكتشفون شراكة وألفة ماكانوا حصلوا عليها في أيام السلم العادية؟ أما الثالثة فجاءت تكملة لحديثه عن الصداقات. باستثناء ذلك لم تسمعه يتحدث عن الحرب وكما يبدو ليس لأنه لم يشأ ذلك بل لأنه لم يستطع

الحديث عن الحرب. لقد عاش وضعاً إن عرفه الآخرون سيتجاهلونه ولن يستوعبوه، وهي تقول ذلك لأنها وفي المرتين تلك التي سمعته فيهما يتحدث عن الحرب رأت إشعاعاً خفياً في عينيه، رغبة بالحديث، لكنه كلما همّ بفتح فمه حتى ارتدّ لسانه في فمه مثل صمام. ما لمسته أيضاً في حديثه عن صداقات الجنود هناك، أنّ في حديثه عن زميليه المسيحي وليم والكردي عماد وحتى عن جندي آخر شاب صابئي مندائي اسمه نهاد، كان هناك الكثير من النوستالجيا، كأنه ببقائه على قيد الحياة قد خانهم رغم أنه لم يقلها، إذا كان الثلاثة جُرحوا أو سقطوا صرعى وكان يجب أن يمضي وقت لكي تعرف أن وليم فقد ساقيه الاثنتين في الحرب، لكنه ظل على الأقل على قيد الحياة. هي الصدفة التي جعلتها وسلمان يجلسان ذات ليلة أمام التلفزيون ليشاهدا على الشاشة ريبورتاجاً عن معارك حفر الباطن وعن فقدان دوريتي استطلاع ثم ليظهر وليم على كرسي متحرك ويقول: أنا أشكر صديقي سلمان أنني على قيد الحياة، وعندما سألوه عما حصل لسلمان، قال إنه لا يدري لكنه يتمنى أن يراه على قيد الحياة ثم حدّق مباشرة كأنه عرف أن سلمان جالس في صالون البيت يشاهده «صديقي سلمان، سأكون سعيداً لو اتصلت بي أو زرتني، أنت تعرف عنواني، هل نسيت سوق هرج كركوك؟»، وبدل أن يوضح لها سلمان القصة رأته يجلس مثل المصعوق هناك، أطرافه ترتعش وعيناه

اغرورقتا بالدموع. كانت تلك هي المرة الأولى التي رأته فيها نخيل يبكي ولم تعرف ماذا تفعل؟ حضنته، قالت له، حبيبي باللّه عليك لا تبكِ، وكانت تحركه بين ذراعيها، تُردِّد، حبيبي، حبيبي باللّه عليك لا تبكِ، فيما هو يتمتم بصوت اختلط مع الدموع، يتمتم بصوت لم تفهمه، لماذا كان عليهم أن يموتوا بهذا الشكل؟ كأنه يخاطب أحد الضباط في كتيبتهم، إذا كان اسمه نقيب حيدر أو عقيد حاجم أو ما شابه، اندغم ما قاله مع صوت نحيبه الذي ازداد في ذلك اليوم. ناما مبكراً وكانت تظن أنها ربما ستعيد له الحياة إن مارست معه الجنس، لكن هباءً. كان ممداً على ظهره عندما فتحت رجليها وجلست فوقه، لم يتحرك أبداً حتى عندما نزعت ثيابه وأخذت عضوه وأدخلته في فرجها، صحيح أنه كان رخواً لكنه تصلَّب مباشرة ما إن شم الرطوبة التي تجمعت بين فخذيها تحت وعندما شعرت برعشة صغيرة جعلت جسدها كله يهتز مع سائله المنوي الذي قذف حممه في داخل الفرج، أرادت التطلُّع به للمرة الأخيرة، رأته ما يزال ممدداً على ظهره، عيناه تحدقان بسقف الغرفة وشفتاه تتمتم، مثل أحلام، أحلام، أحلام. منذ ذلك اليوم تبدَّلَ سلمان تماماً، عاد إلى عادته قبل زواجهما، راح يخرج في ساعات الصباح المبكرة ولا يعود إلا في المساء حتى بعد ولادة آدم ابنهما. في الماضي كان سلمان يجيب أمه كلما سألته، متى تتزوج وتنجب أطفالاً، قائلاً: ما حاجتي لهم وأولادنا نحن

الشُعراء هي القصائد؟ والآن؟ كأنه في أبوته أراد أن يلقي التراب إلى الأبد على قبر الشاعر الذي كانه. نادراً ما رأته يلعب مع الطفل يوماً، ولحسن حظها يقيم أهلها في الجوار لكي يبقى الطفل عند أمها حتى عودتها من المدرسة. ذات يوم جمعة لبست حجاباً وغطّت وجهها. قررت أن تلحق به لتعرف أين يقضي وقته. لم يشعر بها تتبعه. سارت وراءه على طريق الكورنيش ولم تصدق عينيها عندما رأته يجلس على ضفة الشاطئ بمواجهة مجزرة اللحوم بالضبط (ويبدأ بالشرب) كان عليها أن تصبح قريبة منه لكي ترى عدته التي أخرجها من جيبه: علبة سجائر مالبورو وقنينة ربع من العرق. جلس ينادي النخلة الوحيدة التي ارتفعت وسط حديقة المجزرة ويصيح، نخيل يا نخيل، يا نخيل، آه يا نخلات بلادي الهرمات. دافيد يا دافيد، آخ يا صديق سنوات عمري الجريحات. نعم تعرف أن الاسم الأول نخيل يعنيها، لكن الاسم الثاني؟ دافيد؟ لم تسنح لها الفرصة لتسأله، لا في اليوم ذلك ولا في الأيام التالية. في تلك الليلة عندما عادت متعبة من متابعتها له وعندما نام إلى جانبها سمعت أنفاسه تتصاعد. لا تتذكر أنها نامت ساعة واحدة لكنها تعرف أنها عندما نهضت في الصباح لم تجده إلى جانبها في الفراش، قالت، ربما جلس في المطبخ يدخن ويشرب الشاي لوحده على عادته لكنها بدل أن تجده هناك عثرت على ورقة تركها على الطاولة، كتب عليها مقاطع شعرية ليست له. كان من عادته في لحظات

الأزمات أن يلجأ إلى شاعر، رفيق له، كأنه يحتاج أحداً آخراً يفهمه، أحداً يلجأ إليه يستطيع الوثوق بكلماته، ليس من الغريب إذن أنه لجأ في المرة هذه كما عرفت لاحقاً لشاعر أميركي، والت وايتمان يأخذ من قصيدته وداعاً يا هواي، أبياتها الأولى. كيف لا وذكرى وايتمان ما تزال طازجة، حملها معه من أيامه الأخيرة على جبهات القتال؟

مع السلامة رفيقتي

وحبيبتي العزيزة

ذاهب أنا ولكن لست أدري

إلى أين

وماذا سيكون حظي

ولا أعلم لو سأراك ثانية

أم لا

وداعاً هواي

وعندما انتهت من قراءة الورقة، كانت على يقين أنه لن يعود وأنها فقدته إلى الأبد.

ذلك ما روته لي نخيل في نهار يوم سبت في مكتبي في بغداد ولم تكن بحاجة لأن تقول لي أين ذهب سلمان في ذلك اليوم وهو يلبّي نداءً قديماً. إلى كركوك بالتأكيد، لكنها وقبل أن تخرج منديلاً من حقيبتها وتمسح الدموع التي سالت بهدوء لكن بغزارة على خديها، سألتني، أرجوك هل تخبرني لماذا تشترك المجازر بهذه الصفة؟ وعندما رأتني أحدق بها وكأنني أطالبها

بتوضيح جملتها المبهمة تلك، قالت لي، أعني أنها تملك نخلة واحدة لأنها رأت صوراً لنا نحن الاثنين. عندما كنا نعمل في بغداد كان هو الذي أراها لها. في مجزرة بغداد هناك نخلة واحدة في الحديقة، ثم شرحت لها ساخراً بألم، في مجزرة البصرة أيضاً، لقد رأيت ذلك بعيني، ولبرهة صمت، قلت لها، ربما لأنهم أرادوا أن نعتاد على مجازر أخرى، أقصد مجازر النخيل، هل رأيت مشهد النخيل المحروق أو المقطوع الرأس في كل مكان؟ سألتها، هذه المرة هي التي حدَّقت بي بوجه مشدوه، أعرف أنه موضوع آخر فلست أنا في صدد الحديث عن الـ 7 ملايين نخلة التي راحت ضحية الحرب العراقية الإيرانية وحرب الكويت، سواء بسبب شق الطرق للمدرعات والدبابات العراقية والناقلات لكي تسير دون موانع طبيعية باتجاه الجبهة أو نتيجة للقصف الإيراني الكثيف أولاً، وبعدها لنيران مدفعية الحرس الجمهوري العراقي وهي تقصف المنتفضين بعد انتهاء حرب الكويت الذين احتموا في كل غابات النخيل التي امتدت يوماً على طول الحدود العراقية الإيرانية من الجنوب حتى وسط البلاد. كلا، كنت أعرف أن هذا موضوع آخر سيأخذ مني صفحات وصفحات لو رويته لك الآن، لكن نخيل، (وكأن والديها كاتبا رواية قد رسما لها مكاناً في التاريخ) سألتني وكان لا بد لي من منحها جواباً، أي جواب، حتى إذا كان لا علاقة له بالمنطق أو بجلستنا تلك، ربما لأنني أردت أن أمنحها عزاءً، أن أقف

إلى صفِّها ولو قليلاً، أو على الأقل طالما هي جالسة في مكتبي وهي تحتضن آدم، أو ربما لأنني أردت أن أفكر بطريقة ما لمساعدتها بالعثور على حل ما. ما يتعلق بالمال فأنا أستطيع مساعدتها، أعرف أنها في وضع صعب، مثلها مثل جميع العوائل العراقية التي عاشت الحصار، خاصة سكان الجنوب أو سكان بغداد، فبعد انهيار العملة العراقية وارتفاع الأسعار لم يعد للراتب الشهري الذي تقبضه كمُدرِّسة أية قيمة، ما يقارب أربعة أو خمسة دولارات، هل يمكنك تخيل ذلك؟ أما المبلغ الذي كان ذات يوم ضخماً والذي ترك سلمان ما تبقى منه لها، وتلك نقطة تُحسب له حقيقة، فقد أصبح مجرَّد أوارق مكدَّسة في البيت، لا قيمة له. ولحسن الحظ تركت أنا مهنة العمل الوظيفي وأصبحت مقاولاً، ليس عن قناعة لكن لم يكن أمامي طريقٌ آخر ينقذني في ذلك الوقت. الآخرون الذين عملوا موظفين حكوميين باعوا كل ما في حوزتهم من أغراض حتى شبابيك البيوت. ولو كنت أعرف بوجود سلمان وأنه على قيد الحياة لجعلته يعمل معي في المكتب لكنني لم أسأل عنه. مرة ذهبت ليأسي إلى مبنى اتحاد الأدباء بعد انتهاء الحرب مباشرة، رغم أنني أعرف أنه لا يكره مكاناً أكثر من ذلك، قيل لي، لا أحد يعرف مصيره وعندما سلَّمني الكردي عماد رسالة سلمان التي كتبها في الخفجي، قلت إن من الأفضل لي أنْ لا أسأل عنه لأن من الصعب عليّ تحمل صدمة فقدانه. حتى الصحف

اليومية التي أكرهها مثلما أكره الحرب رحت أشتريها كل يوم لقراءة صفحاتها الثقافية وكان عليّ تحمل رؤية الصورة الكريهة للديكتاتور مطبوعة على صفحاتها الأولى يومياً وقراءة القصائد الغثَّة في مديحه. ماذا كان عليّ أن أفعل؟ كان أملي أنني ربما سأعثر فيها على قصيدة لسلمان منشورة يوماً. لا شيء. هذا ما جعلني أقنع نفسي بالتطامن مع فكرة فقدانه أو لنقل فكرة عدم رغبتي بمعرفة حقيقة ما جرى له. كم شعرت بالحزن، حزن ممزوج بالندم، ليس فقط لأنني كلما تطلَّعث بنخيل أو بالطفل آدم الذي جلس طوال الوقت هادئاً ملتصقاً بأمه كأنه خاف أن تهرب منه في أية لحظة والذي ذكَّرثني ملامحه كثيراً بصديقي سلمان، بل الأكثر من ذلك، لأنني عرفت منها أن سلمان حدَّثَها عني في بعض المرات، عن أيام الخدمة العسكرية وعن عملنا في المجزرة، ولو لم يُرِها صورنا المأخوذة هناك لما كانت تعرَّفت عليّ مباشرة عند دخولها المكتب. لم ينسَ سلمان صداقاتنا إذن، كتب لها عنوان البيت وعنوان المكتب، وقال لها، في أيام الأزمات أو إذا حدث لي شيء اذهبي إليه، هو الوحيد الذي يمكنك الاعتماد عليه، وكأنه عرف أنه سيختفي وأنها ستحتاجني ذات يوم، أو كأنه أراد زجّي بمواجهة شبيهة بتلك التي حدثت له مع أحلام، فمثلما كانت أحلام استفزازه في الحياة أصبحت نخيل استفزازي الجديد في الحياة ليس لأنني لا أستطيع مساعدتها بإرجاع سلمان إليها

وإلى طفلهما، فهل هناك وسيلة أخرى غير أن تترك المجنون مع جنونه؟ بل لأنني لا أستطيع تركها هي وآدم لقدرها وحيدة، وهذا ما قلته لها في ذلك اليوم، قلت لها، إذا شاءت الانتقال للعمل في بغداد أستطيع توفير بيت صغير لهما على حسابي لكنها وقبل أن تنهض وتغادر، قالت لي، إنها تشكرني على العرض لقد صبرت كل هذه السنوات على غيابه، ثلاث أو أربع سنوات، لا تريد أن تحصيها أو تتذكرها تماماً وما كانت جاءت تطلب مساعدتي لولا أنها يأست من عودته تماماً، وأن كل ما تريده مني هو أن ترى سلمان ولو لفترة قصيرة. كما عليه أن يرى ابنه الذي كبر، المرأة الأخرى غير مهمة، المهم هو أن يزورنا من حين إلى حين.

هل تعرف؟ أنَّ تقدم العمر وخاصة تقدم العمر الواضح، لكي لا نقول الشيخوخة لا يحدث وفق عملية حسابية تفرض منطقها الخاص بنفس الشكل علينا جميعاً، ليس هناك تتابع منطقي في تقدم العمر. عندما نلتقي بشخص بعد سنوات طويلة، نملك الانطباع أحياناً بأنه تقدم في السن مرة واحدة أو العكس بأنه لم يكبر. انطباع خادع في الحالتين. منذ عشر سنوات لم أرَ سلمان، لكنني عندما دخلت البار في ساحة الميدان لم أحتج إلى أكثر من دقيقتين أو ثلاث لكي أميزه في زحمة البار الذي اكتظ بروَّاده وهو يجلس على مائدته وحيداً كما لو أنني استللته من الجموع استلالاً. عشر سنوات لم يتغيَّر سلمان، كأن تلك السنوات لم تكن

كافية لطرد الحزن الذي لفَّه بدوَّامته مثلما عرفته في أول يوم. أنا أيضاً، قلت لنفسي وأنا أقف أراقبه لحظة، لم أتغير خلال السنوات العشر هذه. لقد جمعت قواي كلها من أجل مشروعي الكبير الرئيس: البقاء على قيد الحياة رغم أن ذلك وحده إنجاز كبير في بلاد مثل هذه التي نعيش فيها، لكنني لم أنجح أن أعيش وجوداً أستطيع أن أقول عنه: وجوداً سعيداً، لا بعد زواجي من أزهار ولا بعد تبديلي لمهنة الجزار، فأنا أعيش مثله وجوداً حزيناً لمسته عند اقترابي منه وسلامي عليه وتعانُقِنا. لا الزواج منحني السعادة بل أضاف لي أعباء جديدة وجعلني أشعر بالذنب كلما رأيت في عينَي أزهار الحزن أو الرغبة بالبكاء بسبب عدم إنجابنا طفلاً، ولا مهنة المقاولات التي اخترتها بدل مهنتي الأولى جعلتني أشعر بأنني أخيراً عثرت على المهنة التي أريد، على العكس، المهنة هذه جعلتني أكثر احتكاكاً برجال السلطة، أمر تجنَّبته طوال حياتي وكرهته مثل كرهي للسلطة أو كرهي لذبح الحيوانات. كيف سينجح الواحد منا وكل ما يظنه سيجعل حياته تتغير ليصبح سعيداً، ولو لفترة محدودة، يتهدَّم سريعاً ولا يحتاج إلّا أن يتطلع لبرهة قصيرة إلى ما حوله ليرى وحوشاً بشرية تكشِّر عن أنيابها ليل نهار، لا أدري، إذا كان ذلك ما جعلنا نحن الاثنين لم نرَ تغيُّرنا، لم نرَ أننا تقدَّمنا بالعمر عشر سنوات أخرى، وأنَّ عشر سنوات كافية ليتبدل كل منا، فمن عاش في مجزرة وما زال يعيش لن يتغير لا هو ولا

الجزّارون من حوله ولا الحيوانات. هكذا تصافحنا وعانقنا بعضنا كأننا لم نفترق طويلاً، كأن الزمن توقف عند تلك اللحظة عندما دخل المجزرة وهو يهتف جملة سارتر تلك «جرجر بيضاتك أيها الرفيق وامسك عضوك في يديك فنحن ذاهبون إلى الحرب لصيد القحبات». كأننا لم نكن ودعنا قرناً مضى ودخلنا قرناً جديداً، كأن عدم سعادتنا نحن الاثنين وإن بفوارق بسيطة، جعلتنا نصبح متساوين، بأننا لم نتقدم في السن، على الأقل هذا ما ظننته، حتى لحظة وقوفي عند باب الحانة ومعاينتي له لأنني في اللحظة التي جلست فيها معه وتطلّعت بوجهه جيداً، قلت، إذا كان سلمان لم يتغير وظل كما عرفته، سلمان الحزين ذاته فإن أمراً واحداً تغير فيه هو أن حزنه أصبح أكثر لمعاناً ويمكن رؤيته واضحاً في عينيه دون أن يقول شيئاً.

في ذلك النهار الحار من شهر مايس/آيار وفي «حانة الجنون»، الحانة التي كما يبدو لم تكن تسميتها عبثاً، ليس بسبب غرابة بنائها؛ إذ بُنيت على شكل طابقين، يربطهما سلم خشبي متآكل عند المدخل. أو بسبب وقوعها عند نهاية زقاق ضيق، أحد أزقة منطقة الميدان الغريبة بعوالمها والذي من الصعب تخيل بناء حانة أو بار فيه وبهذا الشكل، ولا تفسير لذلك غير أن الحانة بُنيت في أزمنة غابرة عندما كان الحي بغير الصورة التي هو عليها الآن وأن أجيالاً عديدة من عائلة سركيس تعاقبت على وراثة الحانة هذه، وليم من الجيل الثالث

إن لم يكن من الجيل الرابع. ولكي يجلس فيها المرء ويتمتع بالشرب مع هذا الخليط العجيب الغريب من السكارى دائماً (باستثناء صاحب الحانة طبعاً وليم) لا بد له وأن يكون مثل بقية روّادها غريب الأطوار إن لم يدخل في هذر لأحاديث سكان المنطقة القديمة وجدالهم الذي لا ينقطع عن آخر سباقات الخيل وخمارات القمار، فعلى الأقل لا يبدو عليه فيه مسّ من الجنون، وإلا فمن الصعب عليه العيش مع هؤلاء الرجال الذين استهلكتهم الحياة، يستعيدون تاريخهم الشخصي بتكرار ممل، في الملاهي ومعاشرة العاهرات والمشاجرات التي خاضوها في شبابهم وعلاقاتهم بشقاوات بغداد بصورة مبالغ بها، إن لم تكن مزيَّفة تماماً. نعم في النهار القائظ ذاك وفي حانة الجنون، الحانة التي ستصبح على مر الأيام ـ وإن بتقاطع ـ حانتي أيضاً، لم نتحدث كثيراً، قال لي، لنشرب بصحة اللقاء التاريخي هذا، «أو» أضاف وهو يغمز بعينيه «بصحة الجلاد الذي لا يريد العودة إلى قريته الصغيرة رغم أننا ألغينا هذه الوظيفة». كان فرحاً بقدومي، لم أرَه منزعجاً، حتى أنه لم يسألني كيف عثرتُ على عنوانه، بالتأكيد كان يعرف بزيارة زوجته لي، ألم يزوِّدها هو بعنواني؟ لم أشأ أن أذكر له لا زيارتها لي ولا حديثها عن حياتهما الصعبة، لا عن حبها له ولا عن سفرتها اليائسة بعد عامين أو ثلاثة من غيابه إلى كركوك، لم تعثر عليه في سوق الهرج كما ظنت ولحسن

حظها تذكرت وليم وعندما سألت عنه في السوق ذاتها ظناً منها أن هذا سيدلها عليه، قيل لها، إن وليم انتقل إلى بغداد، باع المقهى الذي كان ملكه وهو صاحب حانة هناك. وشكراً للمكان الذي يكرهه سلمان، نادي اتحاد الأدباء في بغداد، لأن زملاء لدودين له أو معارف (لأن لا أحد منهم يحبه هناك!) قالوا لها أنه لا يأتي إلى هنا وإذا أرادت العثور عليه فلترسل إليه أحداً إلى حانة اسمها «حانة الجنون» تقع في ساحة الميدان، دون أن تدري طبعاً أن ليس الحانة هذه فقط تعود لوليم إنما الشقتين اللتين وقعتا فوقها، واحدة سكن فيها وليم نفسه، والثانية سكنها سلمان، حتى تعليقها، وهي تقول، مرات أقول لنفسي، حتى بغداد الكبيرة هي قرية صغيرة، كيف يعرف هؤلاء مكانه بهذه السهولة؟ وأنا لا؟ كلا، لم أشأ أن أروي له أية قصة من تلك القصص ليس لأنني على يقين أنه هو الآخر يعرف أن من السهل لمن أراد البحث عنه العثور عليه، وليست تلك هي المرة الأولى. أتذكر أنه قال لي في سنوات الثمانينات، كيف أن من يريد أن يعتقلني أو يعتقلنا جميعاً «نحن الذين نطالب بعودة الجلاد إلى قريته الصغيرة» عليه أن يقوم فقط بتمشيط مقاهي شارع الرشيد: من مقهى الزهاوي وحسن عجمي والبرلمان إلى مقهى الأعيان والشاهبندر والتجار، ومقهى البرازيلية طبعاً ومقهى المعقدين، أو أن يمرّ على مطاعم بيع الفوگة في منطقة الحيدرخانة حيث صحون الثمِّن وقد صُبَّ فوقه المرق دون لحم، ثم

عليه أن يعرج بعد ذلك على حانة شريف وحداد في حافظ القاضي وحانة الخيام في شارع الخيام والركن الهادئ في الباب الشرقي وعلى حانات شارع أبي نؤاس: من حانة أنكيدو وسرجون إلى حانة ليالي السمر وصفوان. نعم، سيعثر علينا جميعاً هناك في ساعة واحدة. نعم، لم أشأ أن أروي له أية قصة من تلك القصص ليس لأنني لم أشأ إحراجه أو منحه الانطباع بأنني مجرد مقاولِ دَعِيّ عنده بعض المال يستطيع مساعدته، بل ببساطة لأنني لم أشأ في ذلك اليوم الكشف له عن فشلي في الزواج. أية مفارقة، قلت لنفسي، في فترة تعارفنا الأولى في السليمانية ـ في سد دوكان ـ لم أشأ الحديث عن قصة حبّي مع أزهار لكي لا أثير حزنه بفرحي آنذاك. في هذه المرة لم أشأ الحديث له عن فشلي لكي لا يتخذه تعليلاً لما قام به من ترك زوجته وطفله وذهابه إلى كركوك ليكون قريباً من أحلام، أو كما هو عليه الآن؛ فضّل العيش في منطقة الميدان على العودة إلى زوجته وابنه. غريب أمرنا نحن البشر، حكماء ورائعون بتوزيع النصائح للآخرين، خاصة لأولئك القريبين منا، مَن لهم مكانة خاصة عندنا، لكننا متهوِّرون وصبيانيّون في تعاملنا مع أنفسنا بالذات، هل نريد بذلك منع أصدقاءنا الأحبة من الوقوع بنفس الهاوية التي وقعنا فيها، أم أننا عن طريق حماسنا بتقديم النصائح لهم وإخفائنا ما فعلناه في الحقيقة، مثل ما فعلوه هم، نريد الدفاع عن آخرِ حجة في

حوزتنا لكي لا نتخذ قراراً نندم عليه لاحقاً؟ أم لأننا نرى في قرارهم القرار الذي تمنَّيناه ولم نستطع إنجازه؟ الأوان فات، ومات ما مات، ولا يُهمّ أنها حكمة أخرى لسكران فأنا أعرف في النهاية أنَّ من غير المهم ما نفكر به، وما فات مات لأن ما يحدث بالتالي ليس له علاقة بما فكرنا به، هو شيء آخر خارج عن إرادتنا، قلت له، لماذا لم تأت لزيارتي بعد عودتك من الحرب تلك؟ أعرف أنك تفضل العزلة لكن كيف تنسى صديقاً مثلي؟ على الأقل كنت هنأتك على عودتك بسلام؟ كأن سؤالي أو عتبي عليه فاجأه، كأنني حشرته في موقف حرج لا بد من توضيحه لي وهو يعرف أنه وطوال خدمته في الجبهة لم ينسني يوماً واحداً وإلا لما كتب لي تلك الرسائل، لبرهة أو ربما لدقائق معدودات، لأنني ومنذ جلوسي في الحانة تلك فقدت إحساسي بالزمن كأني ملقى في مكان وزمان آخر. رأيته يحدق بي صامتاً لا يجيب لكن عضلات وجه كانت تتحرك، أما يداه فلم تتركا الكأس، مسكتاه بقوة كأنه خاف أن يهرب منه الكأس. كان من الصعب عليّ تفسير صفنته تلك، أفكار عديدة استحوذت عليّ في حينه، أتذكر بأنني فكرت، ربما سخر في داخله من قولي له «عودتك بسلام» لكنه رغم ذلك لم ينجح بالردّ عليّ بقوله: عن أي سلام تتحدث أيها الصديق؟ بعد ذلك فكرت ربما استحوذت عليه في تلك اللحظة ولهذا السبب الرغبة بالبكاء، كما فعل في أول ليلة تعارفنا فيها على بعضنا. ربما فقد

القدرة على البكاء أو ربما لم تكن لديه الرغبة بالبكاء أو في أحسن الأحوال، أجّل الرغبة تلك إلى حين يختلي بنفسه، ثم فكرت، كلا إنه يشعر بالخوف، خوف شديد، خوف لم أعهده من قبل، خوف يقطع، يدمي، يبعثر الروح، من الصعب فهمه، ثم فكرت، كلا إنه مجنون دمّرته الحرب، نعم حوّلته إلى مجنون بشكل مطبق إلى درجة أنه يستطيع أن يخدعنا أو يضحك علينا جميعاً، لكي نبقى أسرى صداقته كما في حالتي وحالة وليم الذي كان كريماً معه سواء في وضع الشقة تحت تصرفه أو في سلوكه ذلك النهار، لم يترك مائدتنا لحظة دون شرب أو صحون مزّات، كلما فرغت كلما صاح بالنادل أن يأتي بصحون جديدة، ولا يهم أن يضطر لجلبها لنا هو بنفسه وهو يدفع بكرسيه المتحرك يشق طريقه بصعوبة بين الكراسي المزدحمة في الحانة دون أن ينسى في كل مرة أن يقول لي: أهلاً وسهلاً بالأستاذ، شرفتنا زيارتك، لم أصدق أنني سأراك ثانية، ليذكّرني بلقائنا قبل أكثر من عشر سنوات عندما سلّمني الرسالة التي أرسلها لي سلمان من جبهة الخفجي بيده أو يريدنا أن نكون أسرى محبّته، كما في حالة نخيل التي ما زالت تأمل برجوعه إليها رغم ما سبب لها برحيله من خيبة وعذاب، وبعدها كما في حالة أحلام، النصف مجنونة أو النصف عاقلة والتي لم تأتِ معه هذه المرة إلى بغداد لأنه نزع ملابسه العسكرية ولبس بدلها المدنية، بل لأنها هي التي أصرّت على الذهاب إلى بغداد، قالت له، إنها

تحلم بالانتقال إلى بغداد وكل ما تريده هو أن تعيش هناك قريباً من بناية المحكمة، وحسب وليم، لا أحد يدري أية بناية محكمة تقصد، فوحدها المنطقة القريبة من ساحة الميدان فيها ثلاث بنايات محاكم؟ بعد ذلك، فكَّرتُ: كلا لديه رغبة بالضحك لكنه لا يستطيع الضحك، قيل «شر البليّة ما يضحك»، وفي بلاد مثل بلادنا بكل ما أصابها من شر وويلات تعِب الناس من الضحك حتى طلّقوه، ثم فكَّرتُ: كلا لديه رغبة بالبوح لي ولا يستطيع، إما لأن وقت البوح لم يحن بعد أو لأنه لا يريد النطق به بعد فوات الأوان، أليس ذلك ربما ما جعله يتجنَّب رؤيتي أو زيارتي أو حتى الاتصال بي بعد عودته من جبهة حفر الباطن؟ بعد ذلك فكَّرتُ: كلا لديه رغبة بالصراخ بي، بتأنيبي، بتحميلي مسؤولية ما حدث من مجازر وحروب، لكنه لا يملك شجاعة القول، كأن يقول لي: أنا قضيت خدمتي العسكرية أقاتل على جبهات القتال أتنقل بين موت وآخر وأنتَ؟ وأنتَ؟ نعم، وأنتَ يا صديقي ماذا فعلت؟ قضيت خدمتك في مكاتب وزارة الدفاع؟ ثم فكَّرتُ: كلا ربما عنده رغبة أن يسألني، أن أبدأ أنا بالحديث لأنه بذلك فقط يستطيع أن يعرف أين عليه أن يبدأ بالكلام، كل ذلك مرّ بسرعة وكان من الممكن أن ألحق بأكثر من فكرة واحتمال لولا أنني قلت له فجأة، ربما لكي يبدأ بالفعل أحدنا بالحديث، قلت له: كما يبدو أن صديقك وليم ظل أميناً للمهنة التي اختارها ذات يوم، النادل، وفقط في تلك اللحظة رأيت جسمه

يرتدُّ ويستند إلى الكرسي ينفث دخان سيجارته بقوة، يأخذ جرعة من كأسه ثم يقول لي بصوت منطفئ وحزين فيه عتاب: ها أنت ترى بنفسك، على المرء أن يظل أميناً لمهنته حتى إذا ورثها على مدى أجيال، ألم يكن ذلك خطأنا، هو أننا تركنا مهنة الجزار؟ على عكس ما اعتقدنا به، لم يكن في ذلك ما هو خارج عن المألوف، إنه جزء من الطبيعة البشرية، تاريخ الإنسانية ليس غير تاريخ للجريمة والقتل وحسب، في البلاد هذه، قال لي ونغمة الحزن لم تغادر صوته، عليك أن تختار بين أن تكون القاتل أو القتيل. طبعاً، كان عليّ أن أسأله، أي الاثنين اخترت؟ هل أنت القاتل أم القتيل؟ لكنني فضّلت الصمت على الأقل حتى نهاية جلستنا في الظهيرة تلك، في الحانة.

في كل الأيام التالية التي التقينا بها وعلى مدى سنتين أو أكثر كان هو الذي يتحدث أكثر مني أينما كنا، في غرفته الصغيرة أو في الحانة، في المقهى أو أثناء تجوالنا في الشارع، وعندما ينفد الكلام وما عندي له جديد يقول لي، لنذهب بجولة عبر منطقة الميدان كأنه يخاف الصمت. لم أسمعه يشكو يوماً من صخب الحانة أو صخب المقهى أو صخب السوق، على العكس ففي مرات عديدة وإذا ما كنا جلسنا في الحانة أو في مقهى قريب من الساحة يقترح عليّ الذهاب في جولة عبر الأسواق القريبة. في الحقيقة لم يكن يزعجني التجوال عبر تلك الأسواق، خاصة سوق الشورجة. كم أحببت

هذه السوق ليس لأنها أقدم سوق في بغداد وحسب، كما لا يزال يمكن رؤية بعض المراوح الهندية القديمة من عام 1934 في سقوف بعض المحلات، بل لأن السوق يثير عندي ذكريات سنوات أيام الجامعة عندما كنا نأتي بصحبة بعض زميلاتنا من الطالبات للتجول بين دكاكينها. في كل مرة يقترح عليّ سلمان فيها الذهاب بجولة عبر السوق نتنقل دون هدف بين مختلف فروعه وسط صراخ الباعة الذي لا يهدأ وضجيج العربات الذي لا ينتهي، أقول له، لماذا لا؟ فأنا وفي كل السنوات الماضية ومنذ إقامتي في حي على أطراف العاصمة لم تسنح لي فرصة المجيء إلى هنا، خاصة وأن عملي تركَّز في الجهة الأخرى من دجلة، جهة الكرخ، والسوق تقع على جهة الرصافة، نعم، السوق هذه ومنذ تشييدها أواخر العهد العباسي احتلَّت مكانة ثابتة في ذاكرة الناس لاسيما أهالي بغداد لأنها أقدم مركز تجاري في العاصمة والبلاد. رغم أنني لا أظن أن سلمان كان يفضل الذهاب إلى هناك بعض الأحيان على الجلوس في الحانة أو المقهى لأن السوق يقع في منطقة تاريخية وسط المدينة قرب جامع الخلفاء الذي بني في القرن العاشر أو لأنه يريد شراء شيء فنحن في النهاية لسنا سُوَّاحاً أجانب ولا زبائن نريد شراء توابل أو أقمشة أو خضار كما يفعل الناس القادمون من مختلف مناطق بغداد لهذا الخصوص. ثم غالباً ما مررنا من هناك مخمورين وأقصى ما كنا نفعله هو أن أدعوه للأكل في

مطعم صغير في السوق، لأكل مخلمة أو چلفراي أو عروگ وشرب لبن أو عصير شربة زبيب بعدها. الأكلات وأنواع العصير التي أحبها أو أحببناها سوية، وكان يجلبها لنا الجندي الكردي عماد عندما كنا في سد دوكان، ربما عرف سلمان ما يدور في ذهني، خاصة عندما كان يطلب مني الانتقال إلى سوق الصفّارين القريب كأن صراخ الباعة الذي لا يهدأ في سوق الشورجة أو ضجيج العربات الذي لا ينتهي لم يكن يكفينا لكي ننتقل إلى سوق ليست أكثر ضجيجاً وحسب بل لأنها الضجيج بعينه، إذا لم نشأ الحديث عن سقفها المهدم والذي لا يقينا من حرارة الشمس اللاهبة. هل تعرف، قال لي ونحن نجلس في غرفته ذات مساء، ليس هناك ما يرعبني أكثر من الصمت. أحب هذا الضجيج لأنه يطرد الخوف عني، مرات عديدة فكرت بجملته تلك، ربما هو على حق، الخوف الذي يثيره السكون عندنا هو الذي يدفعنا للقيام بشيء ما. إنها الطريقة الوحيدة لكي نحمي أنفسنا كما لو كنا نعيش الأبدية. والأكثر غرابة من ذلك هو أننا في لحظات الوحدة والهدوء نشعر بأننا مُراقَبون. أليس ذلك ما شعر به الجنود على الجبهة؟ أنا الآخر خبرت ذلك على جبهات القتال في الحرب العراقية الإيرانية وعلى جبهات حرب الشمال ولا حاجة أن يكرِّره عليّ سلمان أو ليحدثني عن رعبه من الهدوء الذي عاشه على بعض الجبهات، ففي النهاية أعرف ذلك جيداً، ليس هناك أكثر

رعباً من السكون على خطوط الجبهة. وفي حالته كان الأمر مضاعفاً؛ السكون الذي عاشه لم يكن له مثيل، مرات عديدة كان يطول ويطول وكل دقيقة تمضي، كل ثانية تمر، كل دَقة قلب له، كل نفس يخرج مع زفيره يتحول إلى تعذيب، سواء في جولاته وهو يطوف على الجبهات مع دورية الاستطلاع، أو في بقائهم في خنادقهم محاصرين في معركة الخفجي، عندما كنا في الشمال في سد دوكان حدثني مرات عديدة عن ساعات الوحدة التي كان عليه قضاؤها فوق في رابيته على قمة الجبل، كان يرتجف في الليل وأسنانه تصطك، ليس بسبب البرد، فالبرد يمكن مقاومته أو التغلب عليه بإشعال النار وهذا ما فعله في بعض المرات، رغم أنه كان ممنوعاً. كان يحتال بإشعال النار، كلا، بسبب الخوف، كما قال لي، الخوف يسري في العظام أقوى من البرد، لسعاته أكثر حدة. عادةً ينذر صوت البومة بالشؤم عند مَن يسمعه، إلا عنده، كان يشعر بنوع من التطامن كأنه وجد في صوتها عزاءً له. البومة تنعق وهو يرتل الشعر، لا بد من العثور على حليف، ليكن نعيق بوم، نهيق بغل، تكسُّر غصن، صوت شلال، خفقة جناح طير، أو ليكن صوت جمل يحدو في الصحراء أو نباح كلب أو صوت قافلة بدو تَمُر، كل شيء باستثناء السكون، ماذا لو جاءت طلقة واخترقت جسده الآن؟ كم أرعبه أن يموت في السكون، ليس من الغريب أنه ولفترة طويلة بعد عودته من جبهة حفر الباطن واظب على ترك

المذياع مفتوحاً طوال الوقت ينام على صوته، حتى في تلك الأيام التي كان يغادر فيها البيت ويجلس خلف المجزرة مع قنينة عرقه وعلبة سجائره، دائماً علبة سجائر مالبورو. لا يجلس دقيقة واحدة هادئاً، كان يتمتم مع نفسه طوال الوقت، أو يرتل بقية ما حفظه من شعر، بالتأكيد ظن الذين مروا به بأنه مجنون، من أين لهم أن يعرفوا أن السكون هو العدو الأول لسلمان وهو عندما يرمي نفسه وبهذا الشكل الغريب أحياناً في الضجيج فهو لا يريد أن يشعر بأنه وحيد، مثلما كان هناك على خطوط النار، لا بأس أن يصمت، أن يتمتم مع نفسه أو يرتل بعض الأبيات من الشعر، لكن المهم، أن يكون حوله ضجيج.

لا في لقائنا الأول ولا في لقاءاتنا اللاحقة، نجحت بإقناع سلمان لا بالعودة إلى زوجته نخيل وابنه آدم، ولا بالانتقال إلى حي آخر غير منطقة الميدان، لكي يستطيعا على الأقل زيارته، فمن الصعب على امرأة مثل نخيل دخول منطقة الميدان، كان من الصعب عليّ تخيل أن أحداً يستطيع العيش هناك حتى إذا كان صديقي سلمان. صحيح أنني فرحت باستعادة صداقة قديمة، خاصة وأن العديد من الأصدقاء اختفوا، من لم يمت منهم على جبهات القتال أو في السجون، هاجر إلى خارج البلاد، قليلون هم الذين بقوا، أو لنقل الذين أصروا على البقاء وإن كان بقاء بعضهم هو نوع من الانتحار، التخَفِّي، التنقُّل من مكان إلى آخر، لم تكن

أموراً سهلة للجميع، بعضهم استسلم مبكراً ودخل إلى الحزب الحاكم وأصبح إلى صف الجلاد، كما كان يحلو لسلمان أن يقول، لكنني من الناحية الأخرى لم أفهم لماذا تحوَّل سلمان إلى هذا الشكل، إلى ظل سلمان، وليس سلمان الذي عرفته قديماً، لدرجة أنني لم أتوقع منه يوماً أن يلجأ للسكن في منطقة الميدان، فهذا ما لم يكن في الحسبان. أمر لم أخفِه عليه يوماً في كل زياراتي المتقطعة له والتي لم تكن قليلة، قلت له، هل تعرف ما يسببه لي المجيء إلى هنا من متاعب، كل مرة، إذا قلت لأحد، إنني كنت في زيارة لمنطقة الميدان وإنني بقيت هناك حتى ساعة متأخرة من الليل، يقول لي، كيف جرؤت وذهبت إلى هناك؟ أن تخرج من هناك سالماً معافى، فتلك معجزة لا غير؟ حتى أزهار، قالت لي، عندما سمعت ما رويته لها «أنت تذهب إلى بيوت الدعارة هناك»، ولم تصدق أن صديقاً لي اسمه سلمان ماضي يسكن هناك، أنتم الرجال تخترعون دائماً القصص العجيبة لخياناتكم، قالت لي، بصوت غاضب، نعم لم يصدقني أحد، باستثنائه هو الذي يسخر كلما سمع هذا الكلام ويقول، تلك إشاعات وحسب ويسدّ أذنيه على ما يقوله الآخرون. يعرف الجميع أن دخول المنطقة هذه هو بمثابة دخول المنطقة الحرام، خاصة بعد ساعة غروب الشمس فمن يدخلها من جهة الشورجة أو من جهة باب المعظم ما عليه إلا ترديد كلمات دانتي في الكوميديا الإلهية «أيها الداخلون إليها

ودِّعوا آمالاكم جميعاً»، كل الذين تورَّطوا بدخولها تحدَّثوا عن عدم الرحمة، عن الوحشية التي ينقضُّ فيها المهاجمون من سكانها على داخلها الغريب، خاصة إذا كان ثملاً، أو مسافراً قادته قدماه إلى هذا المكان في البحث عن فندق، اسمها وحده «ساحة الميدان» يستدعي الحيطة والحذر والتحسب والاستنفار، إن لا يعني الاستطلاع أيضاً، كل ما عرفناه من مصطلحات للحروب، ألا يُطلَق على جبهات القتال «ميدان الحرب»؟ هل لهذا السبب اختارها سلمان، أغراه اسمها باللجوء إليها، وعندما ورث وليم الحانة، قال، إنها فرصة مناسبة، ليس هناك أحسن منها؟ منذ أن عاد من الحرب، كما قالت لي نخيل وهو لا يفكر إلا بجبهات القتال، جلبها حتى إلى الفراش معه، والبديل هو إذن في إقامته الجديدة في ساحة الميدان، ليس هناك تفسيرٌ آخر، هنا يشعر بأنه في حلبة الصراع والمناورة واستدراج الخصم واستغفاله، الاستغراق في تفاصيل المنطقة، هو أشبه بالطواف في دوريات الاستطلاع، أشبه بالاشتباك في الأرض الحرام. إنه تداخل الحدود بين الأطراف المتنازعة، المختلفة عن بعضها، التي قادها قدرها إلى هناك، باستثنائه هو وسلمان، لم يسكن هناك أحد بإرادته (ألم يقدني إليها أنا الآخر، قدري لاحقاً؟) هذا إذا أسلمنا أنه فعل ذلك بحرية بالفعل، وليس مدفوعاً من شعوره بالذنب أو رغبته بالموت بطريقة أخرى، في ساحة حرب جديدة. حتى وليم، قال لي، بأنه لو لم يرث الحانة، لما

انتقل إلى بغداد وبالذات إلى ساحة الميدان، كان مرتاحاً في عمله في المقهى الذي كان يملكه في كركوك، لكن كل أعمامه هاجروا إلى خارج البلاد، وعندما مات عمه الأخير صاحب الحانة، كان لا بد من الانتقال إلى هنا، ليس لأن سلمان، قال له ولا يعرف إذا كان جاداً أم متهكماً، بأن «الحانة قدر كل وليم» وعندما لم يفهم وليم ما عناه بقوله ذلك، حدثه سلمان عن شاعر أميركي من أصل روسي، وليم بليك كانت الحانة مكان إقامته الدائم حتى أنه مات فيها، كلا، وليم سركيس، أو وليم العراقي الذي عوَّقته الحرب، لبَّى نداء واجب عائلي لا غير، فلا عذر له، لا بد من المحافظة على تقاليد العائلة، منذ أربعة أجيال والعائلة الآشورية تلك القادمة من كركوك أصلاً تتوارث الحانة، أما السكان الباقون، الذين مررت بهم، كلما جئت لزيارة لسلمان، أو الذين تحدثت معهم صدفة في الحانة، أو الذين حدثني عنهم، فهم خليط عجيب من سماسرة وباعة دم وتجار أعضاء بشرية ومزوِّرين وجنسيِّين مثليِّين ومشرَّدين ومدمنين و... موظفين متقاعدين، أغلبهم جاء هارباً من مدن البلاد الأخرى، لهم طبعاً أسبابهم التي تجعلهم يتحملون العيش في ميدان الخراب والقسوة هذا، وجوههم الممطوطة التعبة تبوح بكل شيء، ما أزال أتذكر لحظة خروجي من بيته في صباح اليوم الثاني، تركته نائماً لأنني أعرف أنه لن يستيقظ قبل الثانية عشرة ظهراً، لماذا عليه أن يفعل؟ يا إلهي، قلت هل من المعقول أن

صديقي سلمان ترك زوجة وطفلاً، ترك بيتاً واسعاً وفضّل السكن في هذا الحي، كيف يتحمل رؤية الأطفال المشردين الذين يمكن أن يجرّدوا الزائر من كل شيء بقوة السلاح؟ أو كيف يتحمل رؤية العجائز الجالسات في أقصى الزوايا وهن يستخرجن القمل من الرؤوس والملابس المتسخة بحماس غير منقطع، فيما تهدر ألسنتهن مثل مشارط؟ والأكثر كيف يتحمل رؤية مدمني الخمر الذين ينامون ليلتهم عند عتبات البيوت، أو وسط الخرائب التي انتشرت هناك؟ وكيف يتحمل رؤية المسنين من الجنسيين المثليين الذين أقصتهم الحياة إلى حافاتها، القادمين من كل جهات وشعاب البلاد، استأجروا غرفاً قديمة يمارسون فيها طقوسهم بحرية لما تبقى من عمرهم؟ وعندما أصبحت في الساحة عند محطة الباصات، فكرت، أن لا الكتل اللحمية التي رأيتها في الساحة تتهالك للحصول على مقعد في باص نقل قديم وهي في طريقها إلى عملها، ولا رهط أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم يوماً بالأدباء، الذين يمرون بالساحة يومياً في طريقهم إلى مقهى البلدية القريب أو مقهى حسن عجمي وهم يفكرون بقصيدتهم الجديدة بتمجيد الحرب والجلّاد، يعرفون ماذا يدور في الحي. أنا الآخر خدمت في وزارة الدفاع، البناية المقابلة للمنطقة بالضبط، لم أتخيل أنني سأدخلها يوماً، سأرى بيوتها القديمة الآيلة للسقوط، سأشم رائحة العفونة التي سربتها الحيطان، على شوارعها التي من

الأفضل تسميتها مستنقعات ركدت فيها مياه المجاري. هل يعلم أولئك العابرون الذاهبون إلى دوائرهم الحكومية أو أعمالهم والعائدون منها يومياً، ولا يعنيهم إلا رقم الحافلة التي يستقلونها في رحلة الذهاب والإياب، ما يدور على بعد أمتار قليلة منهم؟ ربما أرادت ساحة الميدان بهذا أن تكون محطة تتجمع فيها الباصات الحكومية الذاهبة إلى كل أرجاء العاصمة أو أن تكون أيضاً ملتقى لسُوَّاق تلك الباصات والذين يقيمون علاقات مريبة مع الموظفات العوانس اللواتي كثرن في أزمان الحروب والأزمات، أن تحصن نفسها بهذا الشكل، مَن يدري، ربما لكي تبدو كأنها منطقة طبيعية مثل بقية مناطق العاصمة بغداد أو مناطق عواصم عالمية أخرى؟ ساحة الميدان وبالصورة التي رأيتها منذ اليوم الأول هي سادوم أو عامورا عراقية أو بغدادية، تخيل، حتى أحلام لم تشأ الإقامة هناك، قالت له، أنا جئت معك لأنني أردت السكن إلى جانب بناية المحكمة وليس في مثل هذه المستنقعات. لم يدرِ إذا كان عليه أن يضحك، أم يبكي عند سماعه ذلك، حتى وليم، قال لي، أمرها غريب أحلام هذه. اختفت في اليوم الثاني لا أحد يعرف إلى أين ذهبت، أين سكنت، لكنها ظهرت بعد خمسة أيام، في يوم الجمعة. منذ ذلك الحين، حافظت على ديدنها هذا، تزوره كل جمعة، تغسل ملابس وتنظف له الغرفة وتطبخ له، تأكل معه، تنام معه وفي صباح يوم السبت تختفي من جديد، وعندما سألها وليم، أين

تذهب كل هذه الأيام؟ تجيبه، إلى بيتها الجديد جوار بناية المحكمة، وعندما يلح عليها بالسؤال، أية محكمة، ترد عليه بسؤال، وهل هناك غيرها؟ أمرها غريب حقاً. أتذكّر أنها في أول مرتين رأتني فيهما صدفة سألتني «قل لي، يا أخي؟ بعدك تشتغل موظف بالمحكمة؟» ربما ظنّتني موظفاً لأنني كنت الوحيد الذي لبس البدلة عند دخوله الحي، عادة تركتها لاحقاً، شكراً لها. بدأت ألبس ملابس بسيطة، لا ربطة عنق ولا بدلة. لكن مهما كانت أحلام غريبة الأطوار فإنها لم ترفض العيش معه في الميدان وحسب بل قالت لي في المرة الثالثة والأخيرة التي رأيتها فيها «قل لي، يا أخي، صديقك ما عنده عائلة وأهل يروح لهم؟» حتى الجملة تلك التي أعدتها على مسامع سلمان لم تقنعه بالانتقال من الحي، قال لي، إنها معركتي الأخيرة في الحياة فأنا لم أصدق أنني عثرت على خندقي الأخير. وفي كل مرة زرته فيها من جديد رأيت إصراره على البقاء هناك. كان عليّ قبول ذلك. من الأفضل ترك المجنون مع جنونه، حتى نخيل يأست، اتصلت بي ست أو سبع مرات، من مدة لأخرى، لم أحدِّثها طبعاً عن أحلام أو أخبرها أنني بدأت أتجنب زيارته بسببها في يوم الجمعة، بل قلت لها، إن حالة سلمان يائسة ومن الأفضل لها أن تنساه ولكي أواسيها رويت لها ما حصل للشاعر اليوناني كونستانتين كفافيس. قلت لها، كفافيس سكن أيضاً في اليونان في منطقة شبيهة وعندما سألوه، لماذا تعيش في هذا

المكان القذر؟ أجاب: لأنه يضم مراكز الوجود الثلاثة وهي خمارة للسكر وكنيسة تصفح ومستشفى نموت فيه. كل مراكز الوجود هذه موجودة في الميدان، فإلى جانب الجامع يقع بيت الدعارة وخلف مركز الشرطة حانة القمار وأمام المصرف الإسلامي يجتمع المتسولون وينام السكارى وعلى بعد مائة متر أو مئتين تقع مدينة الطب. بل حتى المكتبة الوطنية تقع هناك إذا لم نتحدث عن السجن الجامع لوزارة الدفاع. صحيح أنني الآخر يئست لكن ما كان يحزنني أكثر هو أنني كنت أرى صحته تذوي كل مرة أكثر، وماذا كان عليّ أفعل غير أن أزوره من حين إلى آخر.

في تلك الأيام أتذكر أنه حدثني عن الخوف الذي يشعر به. خوف غير عادي، حتى في تلك الفترة التي عاشها سعيداً في زواجه. كان يشعر بالخوف كلما تطلّع بنخيل خاصة في ساعات الليل عندما تستلقي إلى جانبه على الفراش. كان خوفاً ممتزجاً بالبكاء. في بعض المرات فكر أن يوقظها ويطلب منها أن يرحلا بعيداً عن هذه المدينة. الغريب أنه كلما اشتدت عنده تلك الرغبة بالرحيل كلما غلبتها الرغبة بالسكوت ليرتد لسانه كصمام. أتذكر أنه حدثني بأنه يعرف أن نخيل كانت ترى الخوف مرتسماً في عينيه وكان هذا وحده يكفي لأن يشعر بالخوف. نفس الأمر حدث له مع أحلام. أتذكر أيضاً أنه حدثني فيما يخص علاقته بأحلام، قال، إن بعض الناس ورغم مرور السنوات وتقدُّمهم في السن

يفكرون بأمر واحد وحسب، الجنس، أما هو فكان يتركها تنام إلى جانبه لا يلمسها. يكفيه جمالها والتطلع بوجهها لكي يفقد هدوئه ويشعر بقلبه يخفق. أتذكر أنه حدثني بأنه يشعر أحياناً بنفسه مثل حزمة أعصاب تضطرب لهذا السبب أو ذاك، يريد أن يقوم بأشياء كثيرة في نفس الوقت لكنه في النهاية لا يفعل أي شيء سوى الجلوس في الحانة والنزهة في السوق، ذلك كل ما يفعله. قال لي أيضاً، لا تظن أنني أفعل ذلك، لأن الإرث الذي حصلت عليه جعلني أصبح كسولاً. كنت فعلت ذلك حتى دون إرث. أتذكر أيضاً أنه حدثني عن هارون والي وعن رواياته التي صدرت له آنذاك والتي وصلت مهربة بأغلفة أخرى إلى بغداد: «الحرب في حي الطرب» روايته الأولى و«مكان اسمه كميت» روايته الثانية و«تل اللحم» روايته الثالثة وعن مجموعتيه القصصيتين، «ليلة ماري الأخيرة» و«فالس مع ماتيلدا»، قال لي وهو يحثني على قراءتها، ستعثر على نسخ كوبي منها في مكتبة الحنش في شارع المتنبي، ثم أضاف وبحماس، ألم أقل لك أن هاورن كان يحتاج الهواء النقي فقط لكي يكتب بحرية وبالطاقة هذه؟ ثم تساءل وبحب، ترى بماذا سيفكر بي أو بنا صديقنا الروائي وهو في منفاه، أي قدر سيرسمه لي... بل أية رواية سيكتب؟ هذه المرة لا حاجة له لتخيل أي جحيم. جحيمنا يصل لهيبه إلى كل مكان. أتذكر أيضاً أنه حدثني عن ابنه آدم، قال لي، كلما رأى الأطفال

يتجولون هنا نهاراً في الحي بثيابهم القذرة كلما تذكر آدم، هل رأيت المادة التي يشمها الأطفال وهم يتجولون؟ إنها مادة كيمياوية اسمها الثنر، هل رأيت كيف تتلف المادة المخدرة هذه خلايا الجسد وأنسجة الجسم؟ يا إلهي كم أشعر بالخوف على آدم، كلما رأيت الأطفال هؤلاء يتسولون من المارة بطريقة مؤذية، أطفال بلا أهل ولا عوائل، أبناء الحروب الدائمة لهذه البلاد؟ أتذكر أيضاً أنه حدثني كيف أنه كلما تذكر آدم شعر بالخوف ولو كان الأمر بيده لذهب الآن لزيارته، لقال له ها؟ هل تريد أن نرحل بعيداً؟ لكنه كلما شعر برغبة بذلك كلما لجأ إلى البكاء، يعرف أنه أب غير صالح، لكنه يعرف أيضاً أنه بهذه الطريقة ينقذ ابنه منه، من الأفضل له ألا يراه وأن ينسى أن له أب اسمه سلمان. حدثني بقصص كثيرة كأنه أراد التعويض عن كل تلك السنوات التي لم نرَ فيها بعضنا أو كأنه ـ وهذا ما عرفته لاحقاً ـ أراد عن طريق كل القصص تلك تجنب القصة الوحيدة التي كلما رغب أن يرويها لي كلما ارتد لسانه في الوهلة الأولى مثل صمام يغلق فمه، لكي يمنعه من الكلام، لكنه ما إن ينجح ويفتحه ثانية حتى يبدأ برواية قصة غير التي أراد أن يبوح لي بها، ذلك كان ديدنه، على الأقل حتى ليلة 9 أبريل 2003 قبل دخول قوات المارينز العاصمة بغداد بساعات.

فقط في تلك الليلة التي اضطررت فيها للبقاء في غرفته بعد إغلاق كل الطرق التي تقود من وإلى مركز

المدينة، وفي ساعة متأخرة من الليل بدأ سلمان بالحديث عن الرسالة التي لم تصل إلي على الإطلاق. الرسالة التي كتبها لي في صحراء حفر الباطن كأنه تكهن بما سيحدث بعد الليلة تلك. كأنه عرف أن الحرب بدأت أصلاً في تلك الليلة وليس كما ظن البعض أنها انتهت بدخول قوات المارينز إلى بغداد، كأن لا ميدان يحصنه بعد الآن أو كأنه يهيء نفسه لكتابة رسائل قادمة لي لكن عليه في الأول الانتهاء من رسائله القديمة، الانتهاء من الرسالة الأخيرة التي كتبها لي في اليوم الأخير من الحرب (أية حرب؟) في 3 مايس/آذار عام 1991 وبالضبط في ذلك اليوم ذهب جنرالات الحرب بنياشينهم العسكرية لتوقيع اتفاق وقف إطلاق النار في خيمة صفوان على الحدود الكويتية العراقية فيما كان عليه وهو ورفاقه من الجنود، كل ما بقي من كتيبة المشاة ودوريات الاستطلاع مواصلة دفن أنفسهم في خنادقهم في الصحراء. آه لو كنت قرأت الرسالة تلك، قال لي، ولم أحصِ عدد كؤوس العرق التي شربها حتى تلك الساعة، لعرفت كل شيء. لعرفت ما جرى لي وللآخرين ولماذا اختلفت الحرب تلك عن بقية الحروب. أردت الكتابة لك فيها عن كل شيء، قلت، إنها ستكون آخر رسالة وبعدها ليأتِ الطوفان، وها أنت ترى الطوفان بنفسك يصل حتى ساحة الميدان؟ ما يزال يتذكر ذلك اليوم. يا إلهي، كيف أنسى ذلك اليوم وما يزال صراخ ضابط أمن الكتيبة عقيد الخراء حيدر ملا كريدي،

العقيد الذي لم تبدله لا الهزائم ولا الحروب يرن في أذنيه، قال ذلك وهو يصمّ آذانه كأن صراخ العسكري الكريه هذا وصل إلى جدران غرفته في ساحة الميدان كأنه شق عتمة الليل وطار فوق سطوح البيوت المهدمة في الساحة. كأنه الصوت الوحيد الذي أحاط بنا ونحن نجلس في غرفته في الطابق الأول في بيت آيل للسقوط في أحد أزقة ساحة الميدان الخلفية تحتنا حانة الجنون على يميننا المكتبة الوطنية وعلى يسارنا مَباغٍ وقوَّادون، وراءنا خرائب وصالات قمار، وأمامنا مبنى وزارة الدفاع القديم. آه لو كنت قرأت تلك الرسالة، أعاد تلك الجملة بصوت ليس فيه عتاب بل حوى على توسل شفيف، لفهمت لماذا لم أزرك، لماذا لم ألتقِ بك أو أتصل بك على الأقل. كان لا بد أن أختار العزلة لكي لا تصل إليّ حتى سكيني أنا نفسي ليس بسبب خوف من خطر، كيف والأخطار أحاطتنا من كل جانب وما تزال، ليس بسبب البحث عن تبرير أو حجة فأنا أعرف أنني أمامك لست مطالباً بأي عذر أو تبرير لكن كيف أفسر لك ذلك، كيف أروي لك القصة، أروي لك ما حدث، وأنت لم تقرأ الرسالة حتى الآن؟ أعرف أن الرسائل الأخرى وصلتك لحسن حظي أو لحسن حظ الاثنين اللذين حملا رسائلي الأخرى لك، وليم وعماد. صحيح أن ذلك لم يستطع منع جرحهما، عوَّقهما لكنه على الأقل أنقذهما من الموت، الأول برمي نفسي عليه والثاني بسحبه للخندق عندما تعرَّضنا إلى قصف كثيف.

ولو لم أفعل ذلك لكانت مزقتهما الشظايا التي سقطت مثل أمطار يهوا القديمة في التاريخ، لكن الرسالة الأخيرة هذه والتي كتبتها طوال الأسبوع الأخير من الحرب، لم تكن محظوظة مثل رسائلي الأخرى. أي نحس، حتى الجندي الشاب نهاد لم يحالفه الحظ، مات أو تناثر في الهواء مثله مثل الرسالة التي ضاعت مع الباكيت الصغير، المسكين قال لي، عندما رآني أنتهي من كتابتها، لا عليك سآخذها معي وسأوصلها لصديقك العزيز، كان نهاد على يقين، أنه سينجح في مسعاه، الهروب في عتمة الليل، كم كان بريئاً في ظنه ولم يعرف أن الموت سيكون له بالمرصاد. هل تعرف كم يؤلم ذلك. أنا ذهبت أصلاً لأموت على الجبهة وفي النهاية كما ترى أنا على قيد الحياة والآخرون جرحى أو أموات. هل أحصيهم لك، من الصعب أن يفهم أحد ما دار هناك. كل دفاتر العالم لا تستطيع أن تحصي الأموات. لم تكن حرباً مثل بقية الحروب، لا حرب إيران ولا حرب الشمال. أعرف أنك ستقول لي لا فرق بين الحروب ولكن الحرب الحقيرة تلك فاقت كل الحروب. هل تعرف ماذا يعني أن تظل محشوراً أياماً وليال في خندق صغير لا يصلح حتى أن يكون قبراً؟ لا نوم هناك تخلينا عنه. كيف تنام وأنت لا تعرف متى يُنَفِّذ إنزال الجيش الذي يحاصرك عند الجهة المقابلة؟ يا له من رعب أن تظل محشوراً هناك لا تعرف أين سيهبط عليك العدو ليطلق عليك النار من الأمام أم من الخلف، من

فوق، أو من تحت؟ نعم، لماذا لا يخرج لك من الأرض؟ أنت وحدك هناك تحصي كل ثانية ودقيقة تمر، وحدك أمام الصمت المريب وحولك كل هؤلاء الجنود ولا تدري إذا كانوا موتى أم أحياء؟ قيل لهم اصمدوا... فصمدوا وكان كل شيء يهون إلا صياح عقيد الخراء هذا وصياحه في الجنود، حتى آمر الكتيبة كان عليه وزملائه الضباط أن يهدِّئوا من روع عقيد الخراء هذا، أن يروِّضوا الجنون الذي أطبق عليه، على الأقل أن يظلوا طوال الوقت حذرين لكي لا ينجح في مغافلته لهم وهم في نومهم ويذهب إلى الناقلة الصغيرة التي حشروا فيها الأسرى الأميركان، 23 جندياً أميركياً وأربعة ضباط وضابط طيّار برتبة كولونيل ولويتنانت أول في قسم الإعاشة، غنيمتهم من معركة الخفجي قبل نجاحهم بالانسحاب من هناك. لو كنت رأيت نهاد، شاب ما زال في بداية عمره، تسعة عشر عاماً وربما أقل من ذلك بكثير. كان أول من نهض ووقف بوجه العقيد ليقول له، على جثتي سيدي، الأسرى يجب أن يظلوا على قيد الحياة، والعقيد يصرخ، أيها الصابئي المندائي الجبان، أيها الجبناء، هؤلاء الأميركان أعداؤكم، هم الذين هجموا عليكم وقتلوكم، قتلوا عائلاتكم، أبناءكم وأنتم تتركونهم أحياء، انتظروا وسترون كيف سيقتلونكم حالما تسنح الفرصة لهم. إنها الحرب أيها الخونة وفي الحرب ليس هناك غير قاتل أو مقتول. كل مرة يعيد نفس الأسطوانة وكان على الكتيبة تحمُّل

جنون هذا العقيد. كيف يقولون له أن عليهم المحافظة على أرواح الأسرى حتى وصولهم إلى بغداد؟ وبأنهم في دخيلتهم خاصة سلمان ورفاقه من كتيبة الاستطلاع يشعرون بتعاطف مع الجنود هؤلاء على الأقل لأنهم مثلهم، جنود كتيبة استطلاع. ماذا سيحدث لسلمان وكتيبته لو وقعوا في فخ الأسر مثلما قاد سوء الطالع هؤلاء وجعلهم يتيهون في الصحراء ليصطدموا بهم؟ عشرة أيام أو أكثر نُقل الأسرى معهم بالأحرى منذ دخولهم مدينة الخفجي وعندما كسروا حصارهم هناك ونجحوا بدخول الأراضي العراقية، فكر سلمان، ها هم تنفسوا أخيراً الصعداء، الآن وليس بسببه هو سلمان فهو بطل الرغبة بالحياة بل بسبب الجنود الآخرين، بسبب هذا الجندي الشاب على الأقل مثلاً. هل تعرف من الصعب تفسير هذا التضامن أو الولاء فالجنود يأتون من مناطق مختلفة، وعندما يُرمون في خنادق الحرب يتشكل بينهم خيط سري من الالتحام ببعضهم، يربطهم برابطة من الصعب تصنيفها أو تعريفها، لنطلق عليها رابطة الجنود، نوع من الحب الذي يفوق كل تعريف، أو نوع من الصداقة التي تتجاوز كل ما عُرف من صداقات. كلا من الصعب عليه أن يوضح لي ذلك، خذ مثلاً الجندي الكردي عماد، كان يحدثهم دائماً عن قريته الصغيرة يصف لهم كل فرد من سكانها، امرأة أو رجل، طفل أو شيخ، يصف حتى الملابس التي يلبسونها، طريقتهم في المشي يروي المفارقات والنكات عنهم

وعندما يصل إلى فتاة من القرية اسمها گول، يتوقف عن الكلام، يبتسم، يحمر خداه، ينظر إلى عيونهم، ثم يقول لهم، كلا لن أقول لكم كلمة واحدة عنها، لكنه في الليل يأتي إليّ ويقول، فلك وحدك أنت أحدثك عنها، وكان عليّ أن أضحك كلما رأيته يجمع قواه، يغمض عينيه ويحاول أن يتحدث عنها مثل شاعر، كأن يقول، ضفائرها بلون عيدان الذرة، عيناها بلون العسل الجبلي، بشرتها بلون القمر الكامل، مشيتها مثل مشية غزال، صوتها مثل خرير شلال، ضحكتها شمس في يوم ممطر، و... و... وغيرها من الصفات، وعندما أسأله، من أين تدري أنها تحبك مثلما تحبها. كان يبتسم ويضرب على قلبه قائلاً: قلبي رادار. بالفعل عندما عاد من الحرب معوقاً لم ترفض گول الوفاء بوعدها والزواج منه والآن يعيش معها في قريتهما الصغيرة ولهما ثلاثة أطفال هكذا هم الجنود، خذ وليم، قال لي، هو أيضاً كان يبعث لنا السلوى بأحاديثه. أينما كانوا كان وليم يحدثهم عن أجداده وأعمامه الذين خدموا الإنكليز، بعضهم عملوا طباخين في مطابخ الجيش الإنكليزي في الرطبة وفي الحبانية وفي أچ ثري (3H) يصف لهم أنواع المشروبات التي رآها هناك وفي كل مرة كان يقول لهم، إن عليهم، فقط أن يظلوا على قيد الحياة فهو يعدهم بأنه سيفتح لهم حانة وسيطلق عليها حانة الجنون، حانة يشربون فيها بالسعر الذي يريدون ولكي يؤكد لهم أنه لا يمزح، يطلب من سلمان أن يسجل ذلك على ورقة

لكي يوقع عليها، أوراق عديدة سجل عليها أسماء جنود آخرين طلبوا منه أن يكون شاهداً على ما يرغبون بتحقيقه في المستقبل، قرابة مائة اسم أو أكثر سجلهم سلمان في دفتر صغير وإلى جانب كل واحد الرغبة التي يريد تحقيقها إذا نجا من الحرب وعاد إلى البيت سالماً. كانت تلك سلواه في الأيام الأخيرة ولو كان الدفتر معه لأراه لي الآن لكنه فقده على الجبهة ومعه الرسالة التي كتبها لي لا يعرف المصير الذي انتهى إليه كل أولئك الذين سجل أسماءهم هناك، بعضهم سقط أمام عينيه، كم سنة مرت على موتهم؟ عشر؟ إحدى عشرة؟ اثنتا عشرة؟ لا يهم، فحتى اللحظة هذه وكلما تذكر لحظة موتهم أمامه لا يستطيع منع نفسه من البكاء حتى جف الدمع في عينيه. كيف ينسى موت نهاد مثلاً؟ رغباته وحدها ملأت ورقتين أو أكثر من دفتره الصغير. كان ما يزال في أول العمر. حدثه مراراً عن مشاريعه في المستقبل، عن خططه لكي يصبح نقاش ذهب من الدرجة الأولى في العراق، قال له، أريد السير على خطى خالي كان يُطلق عليه اسم الملاك أو نور الشيخ ملا ابراهيم، وهل هناك أحد لا يعرف عائلة الشيخ ملا إبراهيم، الابن الأكبر سمر ملا ابراهيم صاحب محل صياغة فيليبا للذهب في شارع النهر في بغداد، وبعده ابن أخيه نور بن الشيخ يحيى ملا ابراهيم الذي ورث المحل وظل يعمل فيه حتى يوم اعتقاله في مديرية الاستخبارات في وزارة الدفاع في 28 أكتوبر

1980، نهاد هذا بالذات لم ينجح بالبقاء على قيد الحياة، غافلته الحرب على شكل كولونيل أميركي طيار، كان الأسير التاسع والعشرين أو الثلاثين، لم يعد يتذكر الرقم لكنه يتذكر على الأقل وبشكل ما، ما حدث في الليلة تلك عندما سمعوا وهم في مواقعهم فجأة وفي عمق الليل الصرخة التي أطلقها نهاد. كانت صرخة ألم مريرة. لا بد وأنه تألم كثيراً. كانت نوبة حراسته للناقلة التي كانت بمثابة السجن الذي وضعوا فيه الأسرى ولا أحد يدري كيف جره الكولونيل للحديث وأقنعه بالخروج من الناقلة. كل شيء حدث بسرعة خاطفة، هجوم الكولونيل على نهاد وسرقة سلاحه وقتله بسكين. لم ينجح الكولونيل كما ظن بالهرب، لم ينجح نفسه بتخليص الأسرى الـ 29 الآخرين. لكن ما حدث بعد ذلك لا يستطيع سلمان تذكره تماماً. لا يدري إذا كان هو الذي بدأ يصرخ ويطلق النار من حوله وهو يصيح، يا إلهي لماذا نهاد؟ أم هو عقيد الخراء حيدر الملا كريدي الذي أمر بإعدام الأسرى فوراً. أمطرهم رشاشه. وهو يصيح ألم أقل لكم أنهم سيقتلونكم؟ رغم أن المشهد مايزال ماثلاً أمامه، رغم أن الصورة تعتم كلما حاول تذكر التفاصيل. كل ما يتذكره أنه وزملاؤه كانوا يطلقون النار في كل الاتجاهات وأنه هو وسلمان كانا الأقرب للكولونيل، أقرب للناقلة التي خرج منها الأسرى مهرولين، لأن نوبة حراسته كانت التالية بعد نهاد. لا يدري إذا حاول الأسرى الهرب أم هجموا عليه، ما يزال

يسمع صوت أحدهم وصراخه «آم ديفيد، مالبورو سلمان» ثم بلهجة عراقية «أنا دافيد، وأنت بغداد يا سلمان» كأنه أراد تذكيره بأنه ليس غير اللويتنانت الأول في قسم الإعاشة دافيد باربييرو الذي تحدث معه مرات عديدة في نوبات حراساته الليلية وكانا في بعض الأحيان ينشدان بصوت منخفض لكي لا يسمعهما الآخرون أبيات من شعر الأميركي والت وايتمان، كانا فرحين بصداقتهما العابرة، الأميركي يرتل ما حفظه من وايتمان بالنص الأصلي وسلمان ما حفظه من ترجمات هكذا وكأنهما كانا متفقين أو فهما بعضهما من خلال القصائد. كانت إنكليزية سلمان بسيطة تسعفه لتبادل بعض الكلمات اليومية وحسب، ولكن لحسن حظه، كان هناك نهاد يلجأ إليه. الجندي الأميركي يكتب القصيدة التي يرتلها على ورقة ويسلمها لسلمان الذي يعطيها بدوره في اليوم الثاني لنهاد، هكذا أنشدا: «لاتغلقي أبوابك عني أيتها المكتبات المتكبرة فلقد أتيت بما خلت منه رفوفك المليئة كلها، ومست إليه حاجة رفوفك المليئة كلها، من الحرب جئت بكتابي» (من قصيدة لا تلقي أبوابك عني) أو «ارحل كالهواء أهز خصلاتي البيضاء، فوق الشمس الهاربة، أسكب جسدي في دوامة المد والجزر، أذروه على شكل موجات، أورث نفسي للتراب، لكي أنمو من العشب الذي أحب» (من قصيدة أغنية نفسي) أو «أوه يا قُبطانُ! يا قُبطاني! لقد انتهت رحلتنا الرّهيبة، فلقد اجتازت سفينتنا كلَّ عقبةٍ، وأحرزَ

الهدفُ الذي ابتغيناه، الميناءُ قريبٌ، إنني أسمع الأجراسَ، الناس يهلّلون، بينما أغيُنٌ تتتبّع الرافدةَ الثّابتةَ، تتقدّم السّفينة متجهّمةً جريئةً: ولكنْ، أوه يا قلبُ، يا قلبُ، يا قلبُ! أوه القَطراتُ الحُمرُ النّازفة، حيث القبطانُ يضطجع على سطح السَّفينة، ساقطاً بارداً وميِّتاً.»(من قصيدة أوه يا قُبطان! يا قُبطاني) أو «تعالَوا، سأجعل القارةَ سرمديّةً؛ سأصنعُ السُّلالةَ الأكثرَ روعةً التي ما طلعت عليها الشمسُ بعدُ؛ سأصنع أراضيَ سماويةً جذابة، بمحبّة الرفاق، بمحبّة الرفاق الأبديّة» (من قصيدة أوراق عشب)، ومقاطع أخرى من قصائد أخرى، مثل: «في ما وراء الحدود عند دفة سفينة»، «إليك أيتها الديموقراطية»، «إلى غريب»، «أيها الشعراء الآتون»، «النائمون»، «طفل قال ما هو العشب»، «إلى مومس من عامة الناس»، وغيرها من قصائد الشيخ الحكيم، كما أطلق عليه الجندي الأميركي الأسير وخاصة القصيدة الأخيرة التي خاطب فيها والت وايتمان مومس عابرة، حملها سلمان معه دائماً كأنه عثر أخيراً على شاعر رفيق له يعيش في قارة أخرى لكنه يفهم مشاعره إزاء أحلام، «كوني رابطة الجأش مطمئنة، أنا والت ويتمان، متحرّر وشهواني مثل الطبيعة، ليس حتى تحتجب عنكِ الشمس، كيما أحتجب أنا عنكِ، ليس حتى تأبى أن تتلألأ لكِ المياه، وتخشخش لكِ الأوراق، كيما تأبى أن تتلألأ وتخشخش لكِ كلماتي، يا فتاتي، ضربت معكِ موعداً، وأوصيكِ أن تتأهبّي، كيما تكوني

جديرة بلقائي، وأوصيكِ أن تكوني طويلة الأناة، وفي أوج زهوكِ حتى أجيء، وإلى ذلك الحين، أحييكِ بنظرة جارحة كي لا تنسيني»، مرات عديدة قرأ القصيدة لأحلام وكان جوابها دائماً هو طلبها منه أن يعيد قراءتها، لكنه حتى في تذكره هذا، يشك أنه أطلق النار عليه، فهل من المعقول أن يطلق النار على جندي صارع معه ليالي الوحدة واليأس بقراءة الشعر؟ كان الليل وكانت الظلمة وكان صوت الضابط وكان الرصاص على شكل نيران وخراطيش، لا يعرف بالضبط مَنْ أطلق النار على مَنْ، كل شيء جرى بسرعة حتى أنه لم يجد أمامه غير الهرب في تلك الساعة وهو يرى طائرات حامت فوق مواقعهم، غطت هجوم القوات التي حاصرتهم طوال العشرة أيام تلك، في تلك اللحظة نسي الموت الذي كم اشتاق إليه. ليس غير الهرب وضعه أمام عينيه إلى أي اتجاه تختاره قدماه. المهم الركض أو الزحف، إذا استدعت الحال، لكن ليس غير الركض ثم الركض في النهاية إلى عمق الصحراء، العثور على طريق، المهم أن يحفر بسطاله له طريقاً بعيداً عن طائرات الآباتشي والأسلحة الرشاشة التي خدّدت بصوتها السماء، وحده في البرية، الأفق من أمامه، والأعداء من ورائه. لا يتذكر كم مضى عليه من الوقت وهو يسير وسط ظلمة الصحراء، بل لا يتذكر إذا رأى الفجر يشق طريقه وسط بحر الرمال، كل ما يمكن أن يقوله أنه تاه. أو سقط بسبب العطش والجوع بسبب انهيار قواه ولحسن حظه

عثر عليه بعد يومين أو ثلاثة من هروبه بَدوي في الصحراء حمله إلى قرية قريبة وعندما صحا طمأنه البدوي قائلاً: لا تخَفْ، أنت في صحراء السماوة وجدناك مطروحاً تهذي على الأرض، مكث عند البدوي لمدة شهرين أو ثلاثة ليس لأن شفاءه استغرق كل هذا الوقت بل لأنه هو الذي طلب من البدوي أن يبقيه عنده. كان بحاجة لأن يستريح. وعندما وصل البيت لم يقل لأمه، أين كان كل هذه الشهور كما لو كان عاد للتو من الجبهة سيراً على الأقدام. ثلاث محاولات للانتحار قام بها بعد ذلك، لحسن حظ أمه المسكينة لم تعرف بذلك. كانت مشغولة بفرحتها لعودته سالماً. أخرجت حزمة النقود التي أخفتها في صرة دفنتها تحت الأرض، قالت له، خذ هذا الربع مليون دينار، لم تُمَس، انتظرت عودتك. افعل بها ما تشاء، ظنت أنه سيعود بهذا الشكل إلى رشده ولو لم تدرِ أن كل مال العالم لن يعيد لسلمان الحياة فهو ومنذ عودته من حفر الباطن تحول إلى ظل سلمان، إلى ظل محطم لذلك الشاعر الذي كان أصلاً حزيناً. هذه المرة أُضيف له الخراب. فكر بالذهاب إلى مستشفى المجانين للعلاج، خاف أن يضحك منه الأطباء، فكر أنه ربما سيشفى إذا توقف عن قراءة الكتب وكتابة الشعر، بل ماذا لو تزوج، وعندما رأى نخيل قال، ها أنا ألتقي بالمرأة التي تعيد لي الحياة، ثلاث سنوات أو أكثر عاش معها. استرد عافيته بعض الشيء وتصالح مع نفسه إلى حد ما. تصالح مع النوم أيضاً ومع الكوابيس ولم يعرف

أن الأمر يحتاج مناسبة واحدة ليعود وينفجر من جديد. كان عليه أن ينتظر ظهور وليم في التلفزيون لكي يتذكر ما جرى على الجبهة في تلك الليلة بكل تفاصيله الواضحة والغامضة الملتبسة أيضاً. لكي يتذكر كم هي سعادته هشة، كم هو مؤقّتٌ فرحه وأن ما حدث له عند خطوط النار لا شفاء له ولا عزاء. في اليوم الثاني استيقظ في ساعات الفجر الأولى وغادر البيت ترك الورقة التي كتب عليها لنخيل قصيدة والت وايتمان. لم يشأ أن يوقظها ليودّعها، صحيح أنه تأملها قبل مغادرته بلحظات. كانت تحضن آدم لكن رقدتها في تلك الساعة وبسلام جعلته أكثر إصراراً على رحيله، كان لا بد له أن يذهب. لو كانت الجبهة قائمة لكان ذهب إلى هناك، لكن على الأقل هناك صديقه وليم، ولا بد أن يذهب إليه. ألا ترى يا صديقي، قال قبل أن يتداعى بجسده على الفراش ونحن في غرفته في الميدان؟ في الغرفة الحجرية في سد دوكان، قلت لنفسي، في الليلة الأولى التي تعرَّفنا فيها على بعضنا شعر سلمان بالذنب لانتحار البغال. هذه المرة في غرفته في الميدان بالتأكيد يظن أنه هو وليس غيره من سبب قتل نهاد، وإلا كان من الصعب لي تخيل ما ظنه هو، بأنه هو وليس غيره من أطلق النار على كل الأسرى الأميركان؟

في اليوم الثاني استيقظنا على خبر سقوط بغداد وعلى أصوات عيارات نارية في الساحة. أتذكر أول جملة قالها لي وهو يفتح عينيه وقبل أن يقول لي،

صباح الخير هل تعرف، أنها المرة الثانية عشرة التي تسقط فيها بغداد؟ ثم راح يحصي مرات السقوط لها في التاريخ. كانت نبرة صوته لا تخلو من الحزن، أمر فاجأني. ظننت أنه هو الذي عانى الكثير، سُجن وعُذب، قاتل على كل الجبهات وخُرِّب، سيفرح مثل صبيان منطقة الميدان أولئك، ورثة التنافر المستديم الذين أصلاً لا آصرة تربط بينهم والذين خرجوا هائجين باتجاه شارع الرشيد. ساروا سوية هذه المرة، التحموا مع بعضهم على غير عادتهم مثل خلية نحل كبيرة فرحين بدخول المارينز (لم أعرف إلا لاحقاً أن الفتيان أولئك الذين أدمنوا السبات في أزقة الميدان وحاراته وخرائبه عرفوا بخبر سقوط بغداد قبلنا وأنهم كانوا في طريقهم إلى ساحة الأندلس لتهديم التماثيل التي انتصبت هناك، عرفوا أنهم سيحصلون على مكافأتهم من الأميركان!) أو مثل المعمَّمين الذين اختفوا في جحورهم حتى ذلك اليوم والذين عرفوا، أن زمنهم هو الذي سيسود وبمباركة الأميركان. بدل ذلك رأيت وجهه حزيناً ويديه ترتجفان. كم أخطأت بزواجك إذن أيها الصديق، سمعته يقول لي، وهو يذكرني بالقسم الذي حلفته ذات يوم مع أزهار في الثمانينات. قلنا لن نتزوج طالما هناك حروب. لا أدري لماذا شعرت بالخوف في اللحظة تلك، كأن الجملة التي قالها جعلتني أرى المصيبة التي تنتظرني. كانت علاقتي بأزهار أصلاً مهدَّمة لكن نشوب حرب جديدة هو نذير شؤوم بالنسبة لي إن لم يكن رسالة

إنذار. كأنني عرفت أنني حالما سأصل البيت لن أجد أزهار. ستكون قرَّرت فعلاً مغادرة البيت. لقد ملَّت من إقناعي. ها هي سبع سنوات تمر ونحن لم ننجب طفلاً ليس لأننا لم نستطع، إنما لأنني لم أرغب كأنني أيقنت أن الدور سيقع عليّ منذ الآن وأن عليّ التمرن على الخوف ليس لأن لا أحد يدري إلى أين ستسير البلاد كلها بعد دخول قوات المارينز، ليس لأن أحداً ما جلس في مكان ما في زاوية من زوايا البلاد وبدأ بالتخطيط لبث الذعر ونشر الخراب، ليس لأن الثأر والقتل على الهوية سيدمغ بدمغته البلاد، ليس لأن الشر سيخرج من قمقمه مثلما خرج العبد المسجون من قنينة سليمان، فرانكينشتاين ولّى وترَكَ لنا مختبره بكل ما فيه من شرور، ليس لأن ما حدث فاجأنا جميعاً، بل لأننا كلنا في هذه البلاد، شعرنا في ذلك اليوم أن كل ما خططنا له ذهب مع الريح. إننا ودعنا عصراً انتهى لندخل زمناً آخر، نبدأ من الصفر، وعلينا نسيان كل ما تعلمناه حتى الآن مثلما يفعل المهاجرون والمنفيون. البداية من الصفر أياً كان عمرك. صحيح أنني لم ألقِ عليه الخطبة تلك لكنني وكما أتذكر لم أتوقف عن التفكير بذلك طوال الوقت. منذ لحظة تذكيره لي بالقسم الذي حلفته مع أزهار ولم أكن بحاجة لذكره لأنني على يقين أنه عرف ما فكرت به في تلك الساعات. لا بد وأنه رآه في عيني وأنا أحضنه قبل الوداع كأنه رأى الخوف مرتسماً في عيني وإلا ما سمعته يقول لي، مهما حدث أرجوك، تذكَّر أن لك صديقاً

اسمه سلمان. أتذكر أنني أردت أن أقول له إنني أنا الخائف هذه المرة يا سلمان. خائف مما سيجعله يشعر بالندم مثلك. خائف أن يحدث ما لا يمكن منع حدوثه مثلما حدث لك على جبهة حفر الباطن في الليلة الغامضة تلك. ليس هناك ما يُعذِّب أكثر من الشعور بالذنب. الجريح يخضع للعلاج فيلتئم جرحه. المعوق يحصل على أعضاء اصطناعية يعتاد عليها مع مرور الأيام فيعتقد أن كل البشرية تسير بسيقان اصطناعية وتأكل بيدين اصطناعيتين، ألم يقل ذلك وليم؟ وحتى هو سلمان، ألم تلتئم جروحه التي تعرض لها عندما أنقذ عماد وليم؟ كل الشظايا الصغيرة أخرجوها منه ولم تبقَ غير ندب صغيرة، حتى أنه بحث عنها عندما أراد عرضها لي في مرة نسي أين موضعها. نسي جروح الجسد. إلا جرح الروح لا يمكن نسيانه لأنه يظل يصاحبه أينما ولّى وجهه في الصحو وفي النوم، سيطارده الجرح مثل كابوس، هذا إذا نجح ونام. أتذكر أنني توقفت عند عتبة الباب طويلاً ربما بسبب ترددي، هل أقول له ما فكرت به أم أتركه يفسره وهو يتطلع بعينيَ على هواه؟ أتذكر أنني في النهاية وباستثناء كلمات مبعثرة قليلة لم أفهم حتى أنا مغزاها لكي أعيدها عليك الآن. لم أنطق أمامه بما يستحق التذكير. تحكَّم بي خوفي ساعتئذ. خفت أن يسخر مني صديقي، ويقول لي، ما حدث لي لا يمكن مقارنته بحدث آخر. شعوري بالذنب لن يفوقه شعور آخر. أتذكر أنني ودعته وقد استحوذ عليّ هذا الشعور،

قلت له بصوت واهن سأزورك. ولم أعرف أن الحزن سيقعدني في البيت بعد أن حصل ما كنت أخشاه ليس لأنني لم أثنِ أزهار عن الذهاب، على العكس طوال الشهور الماضية تعمّدت أن يزداد بيننا الشجار لكي أمنحها العذر بالانفصال. كأن وجودها في البيت أصبح عبئاً عليّ وإصرارها على الحمل وولادة طفل أصبح يشكل تهديداً لي رغم أنني في دخيلتي كنت فرحاً بها، سعيداً. أراها تتحرك أمامي في البيت بل لأنني شئت أم أبيت أسلمتها هي الأخرى إلى قدرها. وهل هناك قدر في العراق غير الموت؟ صحيح أنني لم أسمع بقصف بيت أهلها الذين لجأت إليهم إلا بعد أسابيع، لكن شعوراً ما قال لي، سيحدث ما ستندم عليه. قلبي رادار، قال الجندي الكردي عماد لسلمان، وأنا؟ أنا الآخر عرفت بما يدري من دقات القلب، هل تعرف، عندما يبدأ القلب بالضرب دُم، دُم، دُم، لا يبقى أمامك غير أن تترجم ما تقوله تلك الدقات. كانت تلك هي المرة الأولى التي أظل فيها في البيت وحيداً. في البداية قلت سأعتاد على غياب أزهار أو ربما هي مسألة وقت ونعود أنا وهي كما كنا أيام زمان. لكن خبر موتها الذي حمله لي ابن أخي في أول زيارته لي في بغداد نزل عليّ مثل صاعقة ضربتني على اليافوخ وأقعدتني في البيت أسابيع وشهور. هل سمعت بحادثة قصف الطائرات الأميركية لقرية صغيرة هادئة وقعت على نهر الفرات، قرية قريبة من مدينة صغيرة اسمها الحوامضية؟ ماتت أزهار ومات

معها كل أفراد عائلتها، أربعة وعشرين نفراً في قصف عشوائي على البيت. طبعاً فكرت بصديقي مباشرة، فمن غيره يفهم الوضع الذي أصبحت فيه؟ لكن الحزن يشلّ كما تعرف والوحدة تمرين يومي وكلما فكرت بزيارته كلما أجلت زيارتي له، ليس لأن الوضع بعد 9 أبريل 2003 وبعد دخول قوات المارينز بغداد، صار من سيء إلى أسوأ حتى أصبح الوصول إلى منطقة الميدان مغامرة ما بعدها مغامرة، وليس لأنني انتظرت تحسن الوضع الأمني قليلاً حتى أعود إلى زيارته هناك لكي نتقاسم مائدة يأس واحدة من جديد، وليس لأن لا الوضع الأمني تحسن ولا الحي تغير. كلا، كلها أعذار أقنعت بها نفسي لكي لا أجلس أمامه وأروي له ما حدث. من الممكن، أن ألتقي بأي شخص آخر، أن أتحدث معه دون أن أشعر بأنني مطالب بتوضيح، باستثنائه هو سلمان، يكفي أن يتطلع بعينيّ لكي أشعر بالعذاب وتأنيب الضمير كأنني أفعل بالضبط ما فعله هو ذات يوم عندما اختار العزلة في بيت أهله. لكن عندما دقّ الرجل الأميركي الغامض على باب بيتي، أو بعدها عندما زارني الرجال المسلّحون في اليوم التالي من تلك الزيارة لم أفكر بالبحث عن مكان ألجأ إليه مؤقتاً غير منطقة الميدان. أعرف أنه هو الآخر أكثر حزناً مني وأنني سأضيف له حزناً جديداً لكنني لم أفكر باللجوء لأحد غيره في ذلك اليوم. حدث الأمر بصورة أوتوماتيكية. الذهاب إلى الميدان. عجيب، قلت لنفسي،

كم كان سلمان على حق إذن، كأن الساحة تلك هي الخندق الذي يتحصن المرء فيه فعلاً، دون أن أدري أن ما فكرت به سينقلب على عقب ومعه ستنقلب حياتي كلها، إن لم تكن حياتنا، أنا وسلمان، مع ظهور دانييل بروكس الرجل الأميركي الغامض والذي لم يعد غامضاً منذ أن قاده قدره الروائي أن ينتهي هو الآخر إلى ميدان أكبر اسمه بغداد.

لم ييأس دانييل بروكس من العثور عليّ رغم محاولاته الثلاث الفاشلة عندما فكر بلقائي وجهاً لوجه في نادي العلوية أو في البيت أو في المكتب. حديثه السابق مع عامل المكتب حسن شجعه أن يكرر زيارته إلى المكتب على الأقل. المكتب يقع في بناية منعزلة بعض الشيء عن بقية البنايات ودخوله لها لا يثير الشبهات مثلما يثير دخوله نادي العلوية أو البيت، خاصة وأن الزمن اختلف عن قبل، حتى أصبح تحرك أجنبي وأميركي بحرية ضرباً من الجنون. المكتب يقع في ضواحي المدينة ويمكن أن يجنبه ذلك التعرض للاختطاف والقتل اللذين كانا في بداية رواجهما في تلك الأيام. هذا ما ظنه دانييل في حينه، وهو في طريقه إلى المكتب لم يشعر بخوف أو خطر، ثم أن العامل كما بدا له كان شخصاً ودوداً وسيسأله إذا أمكن أن ينتظرني في المكتب إلى حين قدومي. فكرة بدت طريفة لحَسن في الحقيقة عندما سمعها منه، فبعد أن سلّم عليه وجلس على الصوفا، وبعد أن سأله حسن وهو

يخاطبه بكلمة «مستر» إذا رغب بكوب من الشاي أو القهوة رأى دانييل بوجود حسن الدائم في المكتب دليلاً على ممارستي العمل، ولم يعرف أن حسن يفعل ذلك بما يشبه الروتين خاصة وأنه يقيم في الجوار في بيت أحد أعمامه، يأتي إلى المكتب يومياً لأن ليس عنده ما يفعله أو لأنه مثل دانييل لم يفقد الأمل بظهوري ذات يوم في المكتب وهذا ما جعله يبتسم بوجه دانييل، ويقول له، بإمكانه أن ينتظر الوقت الذي يشاء، لكنه من جهته يشك بأنني سآتي، ثم أخبره كيف أنه بإمكانه إحصاء عدد المرات التي جئت فيها للمكتب على مدى السنة الماضية. لقد تغير رب عملي كثيراً خاصة في الفترة الأخيرة، ففي المرة هذه ذهب ولم يخبرني بمكان وجوده. طبعاً لم يخبره حسن بزيارة المسلحين للمكتب وتهديدهم لي، لكنه أخبره، كيف إنه لا يعرف شيئاً عني، أنا مثلك لا أعرف أين يقيم الآن حتى الاتصال انقطع تماماً، مرة واحدة فقط، وقبل أسابيع، لم يشك دانييل بكلام حسن. لماذا يفعل ذلك وهو يرى علامات الحزن على وجه الرجل البسيط ويسمع صوته المنكسر، ثم إن الرجل لم يبخل بضيافته. قدم له الشاي مع قطع صغيرة من البسكويت ربما لأن دانييل لم يلبس ملابس عسكرية أو ربما (وهذا هو الأكثر رجحاناً) هو حديث دانييل الصافي باللغة العربية ونبرته الهادئة التي تحدث بها والتي على عكس قامته الطويلة وجسمه الرياضي المربوع وبشرته السمراء الداكنة أو السوداء، ما منح

حسن الثقة والحديث بصراحة. نعم، في المرة السابقة وفي زيارته الأولى أثار الرجل الغامض عنده الخوف فكل القصص التي سمعها بعد سقوط بغداد تقول بأن الأميركان لا يزورون أحداً لأسباب لها علاقة بالصداقة أو يأتون ليسألوا عن صحته أو أحواله بل دائماً لأسباب أمنية لكي يبحثوا عن الأسلحة أو عن المطلوبين مثلاً، قصص كثيرة سمعها عن تعرض العديد من العائلات للاستجواب والتوبيخ، بعضهم تعرض للضرب والإذلال. الناس الذين ظنوا في بعض المرات أنهم سيقومون بضيافة الأميركان أو أرادوا منحهم الانطباع بأنهم يرحبون بالضيوف كأن يقدموا لهم الشاي أو القهوة أو الحلويات كما فعل هو في حينه مع دانييل بروكس قد أثاروا الشك عند الأميركان، ففي النهاية لا يدخل الأميركان بيتاً بصفتهم ضيوفاً. وسعيد الحظ هو الذي لا يتعرض للاعتقال أو الضرب أو القصف كما حصل لعائلة أزهار في بيتهم على نهر الفرات. لكن الأميركي هذا الغريب الأطوار منحه بعض الثقة. صحيح أنه لم يجرؤ على سؤاله عما يريده من رب عمله وأنه فعل ذلك على عادته كما فعل دائماً في عهد السلطة السابقة، من الأفضل عدم إثارة الأسئلة لكي لا يحصل المرء على جواب يوقعه في ورطة، أية معرفة جديدة مسؤولية، ويمكن أن تكون مسؤولية خطرة. لكنه رغم ذلك لم يتردد في هذه المرة في زيارته الثانية من رواية المصيبة التي حصلت لعائلة أزهار، قال له، عائلة

مسكينة أبيدت كلها في ساعات الفجر الأولى بلا ذنب، قيل بسبب اختباء إرهابي مطلوب في البيت. قصة ملفقة وكذب بكذب، قُتلوا جميعاً، لم يعتذر أحد عن فعلته حتى اليوم. بل لم يرد خبر إبادتهم في أية نشرة إخبارية لا محلية ولا عالمية وباستثناء أخ لأزهار، لحسن حظه يعمل في بغداد، لم يبق أحد من عائلتها. وحتى هذا الأخ عندما أقام مجلس الفاتحة، المأتم، لم يسمح لزوج أخته بحضور المجلس، طرده حالما رآه يقترب من الباب، قال له، هذه النتيجة التي أردتها لو لم تطرد أختي لما ماتت. اذهب إلى أصدقائك الأميركان. أراد طبعاً أن يعيِّرَه بسبب معارضته السابقة للنظام وكأن كل معارض يعني القبول باحتلال الأميركان. ثم روى له كيف أنني حاولت عبثاً توضيح الأمر للأخ، أن أقول له بأنني لم أطرد أزهار إنما هي مشكلة الطفل التي بيننا. أزهار كانت تريد طفلاً وأنا لا أريد. مرات عديدة قلت لها من الغباء أن يولد أطفال في هذه البلاد. ثم وصف له حسن الحالة التي أنا فيها، كم أثار منظر الرجل الأسود (أو من الأفضل القول الأسمر الداكن) حسن، كما قال لي، في مكالمة لاحقة معه فهو لم ير أحداً يتأثر لسماعه مثل هذه القصة بهذا الشكل. رآه يقترب من الصورة التي وضعتها على الطاولة، صورتي مع أزهار في يوم زواجنا، رفعها وتمتم بحزن منكسراً «مثلما حدث لها» ثم أرجعها إلى مكانها ولم يعرف حسن ماذا عنى بتعليقه ذلك، «مثلما حدث لها» من هي

المقصودة؟ ظن حسن أنه ربما أخطأ السمع لكن الحزن الذي رآه على وجه الرجل يؤكد له أنه لم يخطئ سمعه، وما زاد دهشة حسن أكثر هو أنه سمع الرجل الغامض يتمتم وهو يُرجع الصورة إلى مكانها، «اللّه في عونك يا صديقي» هل من المعقول أنه يسمع ذلك؟ قال حسن لنفسه، فهو لم يعرف أو يسمع مني يوماً أن صداقة ما ربطتني بأميركي أو أن لي علاقة، أية علاقة بشخص أميركي لا من بعيد أو قريب، منذ أن بدأت بالعمل في المقاولات أو لنقل، منذ أن أجّرت مكتبي هذا وحسن معي كل يوم، يعرف كل زبائني والشركاء، لا أجنبي بينهم. ثم أنني وكما يعرف لم أسافر يوماً خارج البلاد. أمر غريب، قال حسن لنفسه، لكنه وحتى في هذه الحالة لم يسأل الرجل الأميركي عن سبب زيارته وسؤاله عني، ولا الحديث معه بصراحة عن الأضرار التي ألحقها بي ظهوره المفاجئ في حياتي. ربما أحسّ دانييل بذلك أو ربما لا، من يدري، لكنه في كل الأحوال أراد طمأنته، صافحه وكانت تلك هي المرة الأولى التي يصافح فيها حسن رجلاً أميركياً. من الصعب عليه أن ينسى الرجفة التي سيطرت على أوصاله كلها والتي لاحظها دانييل أيضاً لأنه طلب منه ألا يخاف، قال له، إذا اتصل سيدك بك أعطه رقم التلفون النقال هذا مع العنوان، قل له، دانييل بروكس جاء من الولايات المتحدة الأميركية من أجلك، وإنه يريد الحديث معك لأمر هام. ثم غادر ولم يقل له إنه سيعود ثانية. لكن من

أين لحسن أن يعرف أن دانييل، فكَّرَ مباشرة بعد مغادرته المكتب أن عليه تبديل خطته. من العبث البحث عني هناك، حتى حسن قال له ذلك. يجب البحث عنه في مكان آخر، طبعاً سأله، إذا كان يقترح عليه مكاناً معيناً، لكن من أين لحسن أن يعرف أنني لجأت إلى ساحة الميدان. عرف بوجود صديق لي، اسمه سلمان لكن من أين له أن يعرف مكان إقامته، ولا أعتقد أنه سيصدق إذا قلت له أنني سكنت في منطقة الميدان. كل ذلك عرفه لاحقاً مثلما عرفت أنا بزيارة دانييل هذه لاحقاً أيضاً، لكن في ذلك الوقت أمل حسن أنني سأتصل به لكي يعطيني رقم التلفون وعنوان إقامته، حتى دانييل شعر بالاطمئنان عندما عبر له حسن عن أمله بذلك، قال له قلبي يقول لي، إنه سيتصل في اليومين هذين ويزورك. قلبه الرادار أخطأ في هذه المرة، مثلما أخطأ القلب الرادار عند دانييل، لأن لا حسن ولا دانييل ظن أو فكر أو خطر على باله ولو لثانية أن سيارة حمولة صغيرة وقفت عند بوابة معمل البسكويت المقابل للبناية التي فيها مكتبي تنتظر خروج دانييل بروكس لكي تلحق سيارته وتلتف عليه مع سيارة أخرى لتقطع طريقه عند تقاطع الشارع القادم، ثم لينزل منهما ثلاثة رجال مسلحين، ملثمين باليشماغ ويخرجون دانييل من سيارته ويكبلون يديه، يغلفون رأسه بكيس أسمر، ثم يرمونه في صندوق سيارة الشوفروليه الدولفين، ويسيران باتجاه مجهول؟

- ٤ -

غواية المارينز

عندما سيُلقى به في قبو مظلم حار، في مكان مبهم في بغداد، جدرانه من الإسمنت لا نافذة فيه ولا سرير أو فراش يُلقي عليه جسده المتعب. سيتذكر اللويتنانت الثاني الأميركي السابق دانييل بروكس اليوم الأول الذي بدأ فيه بالخدمة في وحدته العسكرية الجديدة التي أرسلوه إليها في المملكة العربية السعودية أو مملكة الغبار، كما أطلق عليها بعد أيام من خدمته. ما يزال يتذكر ذلك اليوم الحار بصورة غير مألوفة، خاصة بالنسبة له وهو الذي ترعرع في مدينة صيفها كان معتدلاً. صحيح أنه سمع عن ارتفاع درجات الحرارة المرعب هناك، عن هبوب عواصف الرمل أو عن الأمطار الغزيرة والسيول، ومن غير المعروف متى ينتهي الصيف ويبدأ الشتاء خاصة في المناطق الداخلية من المملكة، كما قال له العديد من زملائه، لكنه لم يظن أن قميصه النظيف الذي لبسه خصيصاً لذلك اليوم سيلتصق بجلده بسبب الرطوبة العالية التي سيطرت على المكان كما التصقت بجلده رائحة الرطوبة الممتزجة برائحة الأثاث والموبيليات القديمة والتي جعلته يشمها في جسده وبهذه القوة ولو كان الأمر بيديه لنهض من مكانه وغادر المخزن الصغير والمظلم الذي جلس فيه على كرسي معدني شعر بحرارته تلهب مؤخرته أمام منضدة صغيرة حُشرت في زاوية قريبة

من رفوف عالية. كان يعرف مزاج الضابط المسؤول إذا حدث ودخل عليه فجأة، سيعتقد أنه لبس قميصاً وسخاً، بلا شك أنه كان في اليوم الأول من عمله ولم يشأ منح الضابط هذا انطباعاً بأنه تقاعس عن تأدية واجبه ولماذا؟ بسبب الحر لا غير. كلا، لم يشأ دانييل الذهاب إلى غرفته واستبدال ملابسه. رش ملطف تحت الإبط. ترى ماذا سيقول عنه آمر وحدته المسؤول عن قسم الإعاشة والتجهيزات «ساپـلاي أدمينتسريشين أند أوپيريشين كليرك»، الرائد راي پرينس؟ من الأفضل له إنهاء الجرد في المخزن ومقارنة الأرقام الموجودة في السجلات مع المواد الموجودة فعلاً، ذلك ما قاله له أيضاً الأوفيسر دافيد باربييرو الذي كان في طريقه إلى وحدته بعد انتهاء إجازته والذي أصبح صديقاً له مباشرة بعد جلوسه إلى جانبه وهما في طائرة النقل العسكرية في طريقهما إلى القاعدة الجوية الأميركية في الرياض «يو ويل سي إفري ثينغ إز أوكي ذير» قال له دافيد وهو يهيئه للجو العام في القاعدة الجوية الأميركية في الرياض، «بَتْ وان پيرسون...» وهو يعرف قصة الـ «بَتْ» الـ «لكن» هذه والتي يمكن أن تكون لا شيء أو كل شيء. أما في تلك القاعدة وفي قطاع التجهيزات العسكرية «الإعاشة» الذي التحقوا به فهي تعني «باستثناء» الرائد راي پرينس الذي وصلته أخبار مزاجه الصعب وصرامته مقدماً عندما كان ما يزال في دورته التدريبية في ساوث كارولينا في

باريس آيلاند، من الضروري تجنب كل ما يمكن أن يثير غضب الضابط الضخم الجثة الطويل القامة والحليق الرأس «كود يو إيماجين؟ أقين إن فيتنام نو بودي وونتس هِم؟ ذَرفور ذاي سيند هِم هيرا!»، ليس هناك أحداً لا يعرف قصته بأنه كان في فيتنام وأرسلوه إليهم. «سرچ أند ديستروي» ابحث (عن العدو) ودمر (دمر العدو هذا طبعاً!). ذلك كان مبدؤه. كان عمله أصلاً في مستودعات السلاح «آرمور أوفيشيل» مسؤولاً عن توزيع الذخيرة «آمونيشين تيكنيشيان» لكنه لم يلتزم بعمله. كان يُحَمِّل سيارة الجيب العائدة لمستودع بالذخيرة ويذهب إلى الأحراش، إلى القرى الفيتنامية القريبة ويطلق النار عشوائياً على المزارعين. فقط الأعداء الموتى هم المهمون بالنسبة له. قتل العدو هو مقياس شجاعة كل جندي. ذلك ما عرفه دانييل من زميله الذي جاء للتدريب في ساوث كارولينا وباختصار لأنه قادم مثله من مدينة شرق المسيسيبي. حذار من إثارة غضبه، قال لنفسه، وهو يمسح العرق الذي تصبَّب على جبهته بأطراف أصابعه. لكنه لم يعرف أن رائحة جسمه بالذات وليس غيرها ستثير الضابط الصارم. صحيح أنه لم يُسمعه ولا كلمة واحدة عندما دخل عليه إلى المخزن، لكنه رأى امتعاضه وتقلّصت أسارير وجهه، كما وكان يسد أنفه بطرف إصبعيه. وعندما شكى له دانييل حرارة الغرفة وضرورة التفكير ببناء أيركونديشين أو جلب مروحات منضدية على الأقل

كشر الضابط عن أسنانه وابتسم، ثم قال له ساخراً إنه ليس في فندق من خمس نجوم «يو آر مارينز. سولجير» قال له وهو يصرّ على أسنانه، والمارينز هو من تحمل الصعاب، لا شكوى ولا ألم، لا تقاعس أو إهمال، لا كسل أو نوم. كلا، المارينز جندي يقظ على الدوام، متحفز مثل القط الوحشي، حاضر لكل طارئ، وآخر ما يمكن أن يزعجه هو درجة حرارة مرتفعة أو رطوبة، والويل لمن يُبدي عكس ذلك. ففي تلك اللحظة وجد دانييل بروكس نفسه في حيرة، لا يعرف ماذا يقول للضابط الذي تقلّصت ملامحه وبدا الامتعاض واضحاً على وجهه، ربما هي قلة خبرته. كان ما يزال شاباً صغيراً، كم كان عمره آنذاك؟ ثمانية عشر؟ تسعة عشر؟ أو عشرين؟ حتى الضابط سأله عن عمره في حينه، لكن لا يهم، كان عديم الخبرة. صحيح أنه تطوع للمارينز برغبة منه. قرأ في الكتب العسكرية كل ما له علاقة بتاريخ المارينز وبعدد وحداته وأصنافه، من تاريخ تشكيل المارينز في 15 نوفمبر/تشرين الثاني 1775 بوقت قصير بعد اندلاع حرب الاستقلال الأميركية، مروراً بالحرب الطرابلسية في أعوام 1801 وحتى 1805، والحرب البريطانية الأميركية عام 1814، والحرب المكسيكية بين 1846 حتى 1848، والحرب الأهلية بين الشمال والجنوب عام 1861، والانتهاء من حركات التمرد في جمهوريات الموز في أميركا اللاتينية في القرن التاسع عشر ومن بداية القرن

العشرين مع الحرب العالمية الأولى 1914، والحرب العالمية الثانية 1939، ثم الحرب الكورية من 1950 حتى 1953، والحرب الفيتنامية من 1965 حتى عام 1971، والمساهمات الصغيرة في أماكن مختلفة في العالم في سنوات الحرب الباردة بعد 1975، مثل محاولة الإنزال في خليج الخنازير في كوبا، ثم التدخل في جزيرة غرانادا في الكاريبي عام 1983، وفي بنما عام 1989، ثم دخول أفغانستان عام 2001 والعراق عام 2003، ناهيك عن التدخل في البوسنة وفي بيروت، حتى الهجوم عليهم وفقدانهم للمائتي مارينز في العاصمة اللبنانية. كان دانييل بروكس فخوراً بكل ما قام به المارينز من إنجازات، إلا أنّ ما قرأه لم يساعده في تلك اللحظة لا على تجنب رائحة العرق التي تصببت من جسمه حتى شعر بنفسه مثل ينبوع صغير ومسامات جسمه تُزَع صغيرة فيه، ولا على تجنب قول جملة بلا معنى أصلاً، وإن كانت تعبر عن رغبة منه بالحديث مع الضابط وحسب. حتى الآن لم يتحدث إلا مع بعض زملائه الجنود ومع نائب الضابط في المكتب الذي سلَمه السجلات وعيَّن له مكان عمله. كانت تلك هي أول مواجهة له مع آمر وحدته بالحديث وجهاً لوجه. ولم يكن مهيئاً لها رغم أنه عرف من الجميع أن الرائد راي پرينس يحرص دائماً على زيارة جنوده الجدد في مقر عملهم، وعمل دانييل بروكس كان الجلوس في مخزن التجهيزات العسكرية بغض النظر عن درجة

الحرارة العالية التي ارتفعت في ذلك اليوم والسخونة اللاهبة التي شعر بها تخرج من أخاديد جدران الغرفة المبنية من الإسمنت ولو كان وقحاً مثل زملاء له آخرين، لسأل الضابط الصارم: لماذا عليه هو الجندي البسيط الجلوس في ذلك الجحر الصغير بينما جلس الملازم نفسه وكل ضباط وحدة التجهيزات في مكاتبهم المكيّفة الهواء والمجهّزة بثلّاجات ماء؟ لكنه لم يقل إلا تلك الجملة التي عبرت عن حيرته وجعلته يطالب على الأقل بجلب مروحة دائرية صغيرة يضعها على طاولته الصغيرة، وحتى تلك الجملة التي بدت له بريئة جداً أثارت كما يبدو الضابط الصارم وجعلته لا يكتفي بالتحديق به في تلك اللحظة بوجه عبوس وحسب أو أن يلقي به في السجن لثلاثة أيام بل أن يسخر منه لاحقاً، في اليوم الثالث على ما يتذكر عندما أرسل يستدعيه للحضور إلى مكتبه مباشرة بعد مغادرة غرفة الحبس. لم يكن الرائد راي پرينس لوحده في ذلك اليوم بل جلس في المكتب ضباط آخرون، ليسأله سؤالاً واحداً: هل كانت بيوتكم في حي كوينز في نيويورك تحوي على مكيّفات هواء؟ ثم يطلب منه الخروج وسط قهقهات الضباط الآخرين. وقبل استدارته إلى الخلف باتجاه باب الخروج لاحظ دانييل بروكس أنه العسكري الأسود الوحيد في ذلك المكان. أما الضبّاط الذين جلسوا هناك: كانوا كلهم من البيض.

لا في ذلك اليوم ولا في الأيام والشهور والسنوات

التي تلت، أخذ دانييل بروكس التعليقات الساخرة تلك بمحمل الجد، ولا يدري إذا كان طوَّر استراتيجية خاصة به منذ اليوم الأول لالتحاقه بالكتيبة. استراتيجية أصبحت أكثر إحكاماً مع السنوات. أم أنها استراتيجية السكان السود عموماً تعلَّمها منذ طفولته. كان جدُّه مثلاً يروي له وهو صغير بأن الجنس الأسود ينتمي إلى قبيلة تسكن بين السماء والأرض وعليه أن يتجاهل ما يحدث أمامه في الشارع وهو لا يحتاج سوى أن يصغي لأصوات قبيلته القادمة من السماء. إيقاعات موسيقية جميلة وأن يجعل عينيه تحدِّقان باتجاه واحد: إلى الأمام ولا يتوقف عند سماعه شتيمة من عابر أبيض أو تعليق. أمر واحد يجب أن يكون نصب عينيه في النهاية؛ أن يفكر بأن كل ما يفعله يجب أن لا يلحق الضرر بإخوانه في العرق. لا أولئك الذين يسيرون على الأرض ولا لأولئك الذين يعيشون بين السماء والأرض، أبناء عمومتهم الأصليين. كم أعاد جده الكلام ذلك على مسامعه وكم من مرة طلب منه أن يعده بالسير على ذلك في حياته، وحتى قبل أن يموت بساعات، قال له «يو آر ذه مان أوف ذه فاميلي». ولأنه رجل العائلة، كما قال جده، عليه أن يحافظ على عائلته، أن يعتني بها، أن يحميها. أختان صغيرتان وأمه. مات أبوهم في أحراش فيتنام. والآن على العائلة الاعتماد على نفسها. كان عمره عشر سنوات عندما مات الجد. لكنه ولكي يكون صادقاً مع نفسه لا يتذكر أنه بعد موت الجد فكر

بوصاياه: العمل في وقت مبكر والذهاب إلى المدرسة. على الأقل في السنوات الأولى أنساه كل شيء. وكان عندما يتجاهل شتائم الرجل الأبيض وتعليقاته بكل ما حملته من إهانة وتحقير، ليس لأنه أصغى إلى صوت قبيلته التي سكنت بين السماء والأرض «ايدينس ڀاراداييس ڀيڀول» كما سماهم الجد بل لأنه لم يجد لا الوقت الكافي للتفكير ولا الأعصاب. كان مشغولاً بالعمل ليل نهار. الكدح المتواصل لكي لا تجوع أمه وأخواته. لم يترك مهنة إلا وعمل بها وهو صغير، وإن كل ما عرفه الآن وهو يجلس في قبوه أنه وفي كل حياته تلك، في كل ما قام به تصرَّف بصورة تلقائية دون تخطيط أو وعي منه. لم يستيقظ ذات صباح ليقول لنفسه: اليوم تفعل كذا أو كذا أو تقول كذا أو كذا مثلما أوصاك جدك. لم يضع لعمله جدول أعمال ويقسمه حسب الساعات وحسب الأشخاص الذين يدخلون عليه في ذلك اليوم ولا يدري ماذا سيقول له جده إذا عاد إلى قيد الحياة ورأى بأنه لا يكتفي بتجاهل تعليقات الآخرين بل إنما أضحكته تلك التعليقات وجعلته يشارك الآخرين، البيض طبعاً، تعليقاتهم وبأكثر لذاعة. وكان حسب ما يظن، رغم أن الصورة تلك تبدو له مشوشة بعد كل هذه السنوات، يتصرف بتلقائية حتى عندما غامر وجاء من أجلي إلى بغداد. في كل سلوكه ذلك، أعني دانييل بروكس لم يبد مفتعلاً، حتى عند مشاركته آنذاك المعلقين على لون جلده بطرائف ونكات لا تقل سخرية بل وسخافة عن

نكات مبتذلة ولأن الابتسامة لم تغادر وجهه أبداً أطلق عليه الآخرون «ذه سمايلي مان» منذ أن كان في الدورة التدريبية. أما في القاعدة الجوية الأميركية في الرياض فلم يطلق عليه اللقب ذاته زملاؤه الذين عملوا معه في المخازن فقط، بل في كل أقسام الوحدة الباقية لأن شهرته طافت كل الأقسام ووصلت السعوديين أيضاً سواء العسكريين منهم الذين خضعوا بشكل دوري لدورات تدريبية عندهم في الوحدة أو أولئك الذين زاروا القاعدة من حين إلى آخر على شكل عملاء أو مقاولي تجهيزات، خاصة هؤلاء الذين كلما واجهت أحدهم مشكلة، قيل له، اذهب إلى الـ «سمايلي مان» ليس غيره يحل لك المشكلة. لكنه لم يعرف لماذا استفزت ابتسامته الرائد راي پرينس وشاركه في ذلك ضباط آخرون. ضباط بيض طبعاً. وكأن ليس من حق جندي أسود أن يضحك؟ طبعاً الحديث اليوم عن سود وبيض هو أمر مختلف. يمكن أن يكون مبالغة. لكن في ذلك الوقت، في سنوات السبعينات والثمانينات بل حتى في التسعينات، كان الحديث عن ذلك أمر شائع، لا يوجد في الصحف والمجلات ولا في أجهزة الإعلام ولا في الأفلام وحسب، بل عاشه دانييل بروكس في كل فترة خدمته العسكرية التطوعية في المارينز وفي كل الوحدات والقواعد العسكرية الأميركية في المملكة العربية السعودية ولم ينقذه من التعرض لذلك لا عمله المتواصل الذي يفوق في أحيان كثيرة ساعات عمله

المطلوبة. يتعدى الثلاثة عشر ساعة، ولا تدرُّجه في مراتبه العسكرية من جندي مارينز بسيط إلى لويتنانت ثاني. كلا، لم ينفعه ذلك من تجنب تعليقات رؤسائه والذين لم يتردد بعضهم من إلحاق كلمة «نيـگير» بتسميته «ذه نيـگير سمايلي مان» وحتى عندما ظن أنه سيتنفس هواء نقياً كلما نُقل إلى قاعدة عسكرية جديدة خاصة وأن سجله الذي ينتقل معه يشهد له بأنه جندي من طراز خاص. إلا أن الأمر بدا له مع الوقت مثل حلقة مفرغة لا نهاية لها. كأن الانتقال إلى وحدة جديدة ليس غير تكملة للمسلسل الذي بدأ في القاعدة الجوية في الرياض، كأنهم دمغوا في السجل الذي يرسلونه معه كل ما له علاقة بما جرى هناك، وكان عليه أن يدخل إلى الغرفة التي خُصِّصَت له مع جنديين آخرين أو يدخل مقر عمله لكي يسمع زملاءه يخاطبونه بالجملة ذاتها «ذه سمايلي مان» كأنه دُمغ بهذه الصفة مدى الحياة.

ولكن قبل الحديث عما جرى للـ «سمايلي مان» أو «ذه نيـگير سمايلي مان» دانييل بروكس لا بد من المرور على محطات تنقله بالعمل. صحيح أنه لا يتذكر كل القواعد العسكرية الأميركية التي عمل فيها أو عددها بالضبط إلا أنه يستطيع على الأقل أن يحصي بعضها، ليس لأنها أهم من القواعد العسكرية الأخرى أو أكبر وحسب، بل لأنها تلك القواعد التي انتقل إليها دون الرائد الصارم راي پرينس، العسكري أو رئيسه الوحيد الذي كلما نطق تلك الجملة «سمايلي مان» نطقها أمامه

بكراهية بل وبازدراء واضح وهو لا يريد أن يقول إن الضباط الآخرين كانوا أقل صرامة من الرائد الضخم الجثة والحليق الرأس صاحب اللّكنة التاكساسية، لكن ما ميزه عنهم هو هذه الكراهية التي التمعت في عينيه. كثيراً ما رآه يصك على أسنانه ويخرج تلك الجملة مجزّأة كلمة بعد كلمة، كأنها عظام سمك غص بها. من الصعب تصور سعادته عندما تسلم كتاب نقله من القاعدة الجوية في الرياض إلى القاعدة الجوية في تبوك قبل أن يبدأ رحلة تنقلات إلى قواعد أخرى. كم امتعض الرائد راي پرينس في حينه عندما سمع إجابته على سؤال له: إن كان لا يحزنه الانتقال والابتعاد عن زملائه هنا؟ كلا، قال له إن كل المارينز أخوة له بالهدف. «وَت أيفير يو سَذ، سمايلي مان» علق راي پرينس، ولو أراد المشاغبة في تلك اللحظة لقال للرائد بأنه طبعاً حزين لفراق زملائه، خاصة صديقه الحميم دافيد باربييرو (أو كما عرفت منه، دافيد وايتمان، «وايتمان» الأسود، كما أطلق على نفسه بسبب تعلقه بالشاعر الأميركي والت وايتمان) لكنه سعيد أيضاً بالانتقال إلى قاعدة ليس فيها ضابط اسمه راي پرينس، يعرف أنه سيركز على عمله أكثر دون ذلك القلق الذي لم يتركه يوماً أثناء عمله في القاعدة الأميركية في الرياض وعلى مدى سنة حتى عند ذهابه في مهمات صغيرة، كما حصل له أثناء مساعدته في تنظيم مخازن التجهيزات المؤقتة في بعض الموانئ أو المطارات

المدنية في السعودية التي تحولت بعض مراسيها ومدارجها للاستخدام العسكري، وكم كان يزعجه سماع كلمة «استخدام» كما يقولون في اللغة العسكرية ما يعني أن عمله مؤقت، وليس نقلاً. أسبوعين أو ثلاثة على أكثر تقدير وسيعودون إلى قاعدتهم في الرياض وسيلتقي «فاكينـگ ميجور راي پرينس» حدث له ذلك مراراً في فترات استخدامه، عندما ذهب إلى مطار القصيم الإقليمي أو مطار حائل، إلى مطار القيصومة أو مطار فهد في القطيف، إلى ميناء الجبيل التجاري أو ميناء ينبع الصناعي. كل تلك المطارات أو الموانئ المدنية ظاهرياً لكن الجاهزة للاستخدام العسكري دائماً، بل وحتى عندما ذهب إلى بعض المناطق الصحراوية التي تم فيها إعداد مهابط ترابية مؤقتة، وفي كل إقاماته المؤقتة تلك لم يغادره القلق أنه سيعود وسيلتقي راي پرينس من جديد ويسمعه يردد في مناسبة أو دون مناسبة جملته الشريرة «سيرج أند ديسترو»، تلك هي المهمة الملقاة على المارينز، ابحث (عن العدو) ودمره. قلق أو ظن أنه انتهى منه تماماً إلا عندما تسلَّمَ كتاب نقله. هذه المرة ليس استخداماً بل «النقل». ولا يدري إذا كان وراء ذلك مقاول بناء وتجهيزات لبناني اسمه شادي أبو ديغول والذي وجد في دانييل كنزاً ثميناً. لم يترك مناسبة إلا وطلب فيها أن يجلبوا له في المكتب «ذا سمايلي مان» وكان عندما يدخل عليه يبدأ الرجل بالضحك عالياً، يهتز كرشه بقوة

وهو يقول له «هللويا سمايلي مان» فيرد عليه دانييل من طرفه هو الآخر ضاحكاً «هللويا مان» ولم يُخفِ عليه أبو ديغول رغبته بأنه لو كان بمقدوره لطلب من الرائد راي پرينس أن يسمح له بالعمل معه وحده هو أبو ديغول، لكنه لا يريد الدخول بصراع مع أميركا «لو كانت فرنسا لعرفنا كيف نتحدث معها، لكن أميركا» قال له أبو ديغول «لا، هذه قضية ساخنة. يمكن أن تتحول إلى حرب، خاصة وأن عسكرياً مثل صديقنا راي پرينس يعتقد أنه نيرون زمانه» ربما نجح الرجل أخيراً وعمل على نقله، من يدري؟ فهو أول ما ذهب إلى هناك رآه يدخل عليه ضاحكاً «أهله وسهلة بيك سمايلي مان» قال له المقاول اللبناني بلهجته اللبنانية كأنه عرف مسبقاً بنقله أو لأن القاعدة الجوية في تبوك بدأت للتو ببناء مخازن تجهيزات ستكون أضخمها في المنطقة، احتاجته لتدريب طاقم كبير سيبدأ بالعمل هناك؟ على أية حال، شعر بالراحة في حينه، ليس لأنه سيعمل هذه المرة دون راي پرينس وحسب، بل لأن فترة السنة التي قضّاها هناك كانت أشبه برحلة استجمام بالنسبة له. كانوا قريبين على البحر الأحمر عند المثلث ذلك الذي ربط ميناء العقبة الأردني مع إيلات الإسرائيلي ونقطة رأس المصري المصرية تماماً. كان الجو معتدلاً وكان في أيام نهاية الأسبوع يذهب للسباحة أو الغوص في البحر الأحمر ولم يزعجه في حينه لا اشتعال الحرب بين إسرائيل ومصر بالضبط عند المثلث ذلك ولا ضغط

العمل عليه الذي بدأ بسبب استحداث قاعدة عسكرية صغيرة مجاورة لقاعدتهم خاصة تابعة للجيش الإسرائيلي بهدف الدعم اللوجستي للطائرات الإسرائيلية في المستقبل، كلاهما أمران عابران فالحرب لم تستمر أكثر من ستة أيام. أما بناء القاعدة الإسرائيلية فانتهى هو الآخر بعجالة أيضاً، فتجنباً للفضيحة وتسرب الخبر للصحافة عملت الحكومة السعودية كل ما في وسعها لكي يُنجز العمل بسرعة. أسبوعين فقط «رقم قياسي» كما تفاخر مقاول البناء اللبناني «شادي أبو ديغول»، «أميركا، سعودية، إسرائيل، كله تمام، المهم المصاري/الفلوس». صحيح أنه حزن عندما نُقل بعدها إلى قاعدة أخرى، إلى قاعدة حائل ثم لتبدأ معها فترة تنقلات عديدة كلما أرادوا بناء مخازن ضخمة، كلما كان اسمهم أول المطلوبين للعمل هناك خاصة فيما يتعلق بتدريب طواقم عمل جديدة، لكنه ورغم حزنه لمغادرة قاعدة تبوك على البحر الأحمر كان يعرف أنها مسألة وقت وسيبدأ بالتعود على العيش في القاعدة الجديدة، ومن غير المهم ما سيحصل له فإنه سيعمل هناك دون رائد الـ «شِت» راي پرينس وهو عندما يذكر ذلك لا يريد أن يقول إن حياته في كل القواعد التي تنقل بينها على طول المملكة العربية السعودية وعرضها سارت على ما يرام دون مشاكل. كان هناك ضباط بيض وجنود سود دائماً، وفي حالات نادرة «ضباط سود» أيضاً. ليست غايته عمل إحصائية

بما جرى من حوادث بعضها كبيرة انتهت إلى إطلاق نار، إلى قتل أو إصابة بجروح، أبطالها على الأغلب ضباط بيض وجنود سود، إلا أن كل تلك الحوادث ظلت حالات مؤقتة، انفعالية أغلبها أيضاً تحت تأثير شرب الخمرة وتعاطي المخدرات، على عكس ما حصل بينه وبين رائد الـ «ميرد» هذا. كان بعيداً عن تلك الحوادث التي عاشها أينما حل كأنها حدثت على كوكب آخر، ليس لأنه لم يشرب الخمرة أو يتعاطى المخدرات في تلك المرحلة من حياته. الحشيش بالذات والذي انتشر بصورة ملفتة للنظر في القواعد العسكرية خاصة القريبة من البحر، بل لأنه على عادته فعل كل ما في وسعه لتجنب الدخول في صراع مع أحد. باستثناء ثلاثة أيام السجن التي أمر بها له «فكنـگ» راي پرينس، لماذا؟ لأنه سأل عن ضرورة وجود أيركونديشين. لم يُسجن يوماً آخراً في حياته. «سمايلي مان» كان من الصعب استفزازه، ذلك ما تردد في كل القواعد التي انتقل إليها حتى أن بعض الجنود راحوا يتبارون فيما بينهم، يضعون الرهان، من سينجح باستفزازه؟ عبثاً، كان يضحك وغالباً ما زار في اليوم الثاني الخاسر في الرهان لكي يدعوه لشرب قهوة معه ثم يقول له «هلو مان؟ سمايلي مان إنفايت يو تو درينك كوفي ويذ هم» وكان الجندي الخاسر حتى إذا شعر بالإهانة في البداية سيبتسم وسيقول له «أوكي، مان» ويربت دانييل بروكس على كتفه مثل أخ حميم ويقول له «لتس گو مان» وعندما ينتهيان من شرب

القهوة يودّعان بعضهما «گود باي سمايلي مان ميني ثانكس يو آر گريت» يقول له الجندي الآخر وهو يعرف أنه كسب صديقاً في ذلك اليوم. ليست هناك قاعدة عسكرية بحرية أو جوية أو برية خلت من أصدقاء له، عشرات الأصدقاء كسبهم بسرعة، وهو كلما فكر بالأمر كلما شعر بالرضى. ليس هناك أجمل من الصداقة، الصداقة هي التي تجعل منا أكثر تشبثاً بالحياة، ذلك ما قاله لصديقه دافيد باربييرو ذات يوم. وهو لم يأت للمارينز لعمل عداوات بل لكسب صداقات، فلماذا لا يجعل حياته تسير بخط مستقيم وعلى ما يرام؟ ففي النهاية عسكري مثله مختص بشؤون التجهيزات، الإعاشة، إضافة إلى توفير المواد الغذائية، الوقود، الماء، الملابس، الأفرشة والأغطية، كل ما يُمكن أن يدخل في باب الخدمات أو التموينات، لا يمكن أن يحدث له ما هو درامي أو ما سيسبب نقلة كبيرة في حياته، على العكس، ففي الوقت الذي كان زملاؤه من المارينز في الأصناف الأخرى يتنقلون مع وحداتهم من منطقة ساخنة إلى أخرى، خاصة أولئك الذين أرسلوا إلى فيتنام أو لاحقاً إلى أميركا اللاتينية لقمع الثورات هناك، تنقل هو من مستودع إلى آخر وكان تنقله هذا أشبه بالروتين، فلا المخازن اختلفت في حجمها أو درجة حرارتها العالية في الصيف والمنخفضة جداً في الشتاء، ولا القواعد العسكرية اختلفت. جميع القواعد تلك سُيِّجت بأسلاك شائكة وبأبراج حراسة عالية وبوابة

للدخول، بوابة ضخمة وحُرَّاس مدجَّجين بالسلاح، من الصعب دخولها لغير العسكريين أو الأميركان. كان المارينز يعيشون بين أقرانهم. العديد منهم جلب عائلته معه ولم يفكر في حينه أن للمارينز، أو له، قبيلةً تعيش بين السماء والأرض «ايدينس ڀاراداييس ڀيڀول» كما قال له جده ذات يوم، المارينز هنا في قواعدهم على الأرض، بغض النظر إذا تعلق الأمر بقاعدة جوية أو بحرية، حتى القواعد الأرضية الكبيرة الضخمة التي بُنيت على شكل مدن، مثل مدينة خالد العسكرية أو كما يطلق عليها عادة قاعدة حفر الباطن فهي لم تختلف في التفاصيل العامة عن قواعد عسكرية أخرى، مثل قاعدة مدينة عبد العزيز العسكرية عند تبوك أو قاعدة مدينة فيصل العسكرية في خنيس شميط عند الحدود اليمنية أو قاعدة مدينة فهد العسكرية في الظهران أو قاعدة مدينة أم الساهك العسكرية أو مدينة أسد العسكرية في الخرج جنوب شرق الرياض أو مركز قيادة قوات الدفاع الجوي في الرياض (والذي يرتبط بنظام كامل يقوم بتأمين صورة كاملة للمجال الجوي للبلاد، إضافة إلى تمكنه من السيطرة على أنظمة الأسلحة وأجهزة القيادة والسيطرة الموزعة بالمواقع التابعة لمجموعات الدفاع الجوي الستة المنتشرة في أنحاء الجزيرة) أو غرفة الحرب المجاورة للمركز (والتي هي مجمع ضخم منفصل عن مبنى وزارة الدفاع في الرياض) وأخيراً وليس آخراً مركز القيادة المتقدم لقيادة القوات

المشتركة في ريش المنجور في المنطقة الشرقية (ولا يغيِّر من الأمر أن المركز هذا مجهَّز تحت الأرض ومحاط بأكياس الرمل بالإضافة إلى بعض الخيام) صحيح أن المدينة (مدينة خالد العسكرية) حوت على مقر لأركان القوات المسلحة البحرية والجوية والبرية وغرفة عمليات تحت الأرض ومركز للقيادة العامة ومدرسة لسلاح الهندسة وتحميها أنظمة صواريخ وأسراب عدة من الطائرات إلا أن ما يربطها مع بقية القواعد في البلاد هي أنها هي الأخرى حصن لا غير. مدينة أميركية صغيرة بشوارعها وحدائقها بـ «شوبينـگ مولها» بحاناتها ومسابحها وهذا ما شعر به دانييل بروكس. الأمر ليس متشابهاً في القواعد الأرضية والبحرية وحسب بل حتى في القواعد الجوية الأميركية سواء تعلق الأمر بالقاعدة الجوية في العاصمة الرياض (قاعدة الرياض الجوية في مدينة الرياض للطائرات الأميركية والبريطانية والفرنسية وكذلك لطائرات التزوُّد بالوقود وطائرات الأواكس وطائرات النقل. ومن هذه القاعدة كانت تنطلق صواريخ باتريوت أثناء حرب الكويت) أو القاعدة الجوية في حفر الباطن سواء تعلق الأمر بقاعدة عبد اللّه بن عبد العزيز الجوية في جدة أو قاعدة فهد الجوية في الطائف، سواء تعلق الأمر بقاعدة فيصل الجوية في تبوك، أو قاعدة خالد الجوية في خميس مشيط، سواء تعلق الأمر بقاعدة سلطان الجوية في الخرج (وهي مقر القوات الجوية الأميركية والبريطانية

والفرنسية الآن، وكانت في الأصل لإيواء الطائرات الأميركية القادمة من عمان والولايات المتحدة، حتى تم تطويرها وتوسيعها لاستقرار القوات الجوية الأمريكية والبريطانية والفرنسية) أو القاعدة الجوية في الرياض، بل وحتى في القاعدة الأم لجميع القواعد الأميركية في الشرق الأوسط والرابط بين القواعد الأميركية في أوروبا وغرب آسيا، قاعدة عبد العزيز الجوية في الظهران. سارت الحياة بالنسبة له بشكل روتيني (مرة واحدة فقط بعد الانفجار الذي حصل في مدينة الخُبَر انتقلت الطائرات الأميركية منها مع طواقمها إلى قاعدة الخرج الجوية) كل سنة تقريباً في قاعدة، أحياناً كل ستة شهور وليس كما كان قبلها كل أسبوعين أو ثلاثة للاستخدام في إحدى القواعد. كان من النادر أن يبقى في قاعدة واحدة سنوات طويلة. في القاعدة الجوية في الظهران وفي قاعدة حفر الباطن، وهما الاستثناءان الوحيدان، ليس لأنه شاء ذلك أو هم شاؤوا ذلك في القاعدتين بل لأن راي پرينس كان هناك. ظهر له فجأة من جديد كأنه قدره الأبدي، شادي أبو ديغول، قال له، طالما هناك قواعد أميركية في المملكة طالما هناك أبو ديغول، وفي حالة راي پرينس «طالما هناك مارينز، هناك راي پرينس» كما قال له پرينس نفسه في أول مرة يلتقيان بها بعد خمس أو ست سنوات، ربما أكثر؟ لا يدري، ولا يريد أن يدري وكل ما يدريه الآن هو الجملة التي قالها له راي پرينس والتي ظلت عالقة في ذهنه،

فلكي يكون واضحاً معه، قال له، إنه لا يريد أن يتركه يذهب بسهولة هذه المرة «سمايلي مان» قال له بشكل حازم «فروم ناو يو ويل بي وير آيام» وكان عليه أن ينتظر سنوات أخرى بعد ذلك اللقاء، ست سنوات، إن لم يخطئ الظن لكي يعرف لماذا أصرَّ الرائد الصارم راي پرينس على إبقائه معه. لكنه لم يفهم وهو لا يكن له ودأ؟ الآخرون في كل القواعد الباقية كانوا يتمنون بقاءه فترة أطول لأنهم اكتشفوا تفانيه بالعمل، لم يشكُ مرة أو يتقاعس، على العكس كان يعمل بلا ملل، ليال عديدة ظل ساهراً يعمل حتى ساعات متأخرة من الليل. وفي الصباح كان أوَّلَ الجنود الذين يستيقظون، ليس ذلك وحسب، بل كان يستيقظ بحيوية «هاي سمايلي مان» كانوا يقولون له «يو آر گريت وان ريلي مان»، ليس هناك أحداً من الضباط في القواعد التي تنقل بينها لم يقل له كم يتمنى أن يبقيه، لكنه يعرف أنها «القواعد المتبعة» في القواعد العسكرية «ذه كورَپشين إز ذه ريزين» لقد تعلم ذلك في دورته التدريبية، قيل له، منعاً للفساد «البقاء في قسم التجهيزات فترة طويلة في مكان واحد، يعني نسج علاقات طويلة مع المتعاقدين والمقاولين» الجميع يعرف ذلك، خاصة في بلدان مثل بلدان الشرق الأوسط المعروفة بتفشي الرشوة والفساد فيها، لذلك من الأفضل التنقل من قاعدة إلى أخرى ومن طرفه لم يزعجه ذلك ليس لأنه بهذا الشكل عرف المملكة العربية السعودية جيداً بل لأنه حصل على

علاقات وصداقات عديدة، لا يُرَدُّ له طلب عند الحاجة، مكالمة تلفونية واحدة لزميل له في قاعدة أخرى يلبي الطلب. وكم صعب أمر انتقاله على الآخرين «وي مس يو» في كل مرة عرفوا فيها بانتقاله ومع مرور السنوات وبعد كل تنقلاته كاد أن ينسى أو نسي تماماً أن هناك رائداً اسمه راي پرينس، ظن أنه ودَّع العسكري الضخم الجثة صاحب اللكنة التاكساسية إلى الأبد وجملته الشريرة التي ما تزال ترن في أذنه «سيرج أند ديستروي»، قبل أن يظهر له هذا فجأة بعد قرابة أكثر من ست أو سبع سنوات في القاعدة الجوية الأميركية في الظهران.

في الحقيقة لم ينتقل دانييل بروكس في حينه إلى القاعدة الجوية في الظهران مباشرة، بل كان كتاب النقل الذي تسلَّمه يوصي به بالعمل أولاً في ميناء عبد العزيز في الدمام. كان الميناء من الناحية الشكلية أو الرسمية ميناءً مدنياً لكنه كان في الحقيقة قاعدة عسكرية. قاعدة عبد العزيز البحرية. لم تكن هي المرة الأولى التي ينتقل فيها دانييل بروكس إلى ميناء ظاهرياً هو ميناء مدني لكن عملياً هو في الحقيقة قاعدة عسكرية أميركية استخدم القسم الأكبر من مراسيه لأغراض عسكرية. كانت تلك هي الحال في قاعدة فهد البحرية بالجبيل وفي القاعدة البحرية في جَدَّة وفي كل الموانئ الباقية التي انتقل إليها: ميناء (الجبيل) التجاري استخدمته قوات المشاة البحرية الأمريكية

والفرقة المدرعة البريطانية. ميناء ينبع الصناعي استخدمته القوات الفرنسية. ميناء ينبع التجاري استخدمته القوات السعودية والمصرية. أما ميناء القضيمة بالقرب من جدة فهو ميناء عسكري صغير اعتبر مرفأً احتياطياً. طبعاً يظل أكثر تلك الموانئ أهمية هو ميناء عبد العزيز في الدمام ليس لأن الأميركان استخدموا ثلاثة أرباع مراسيه التسعة والثلاثين للأغراض العسكرية، وليس لأنه لو لم يعمل هناك لما عرف بشركة الأحلام للاستيراد والتصدير وصاحبها غازي الجاسي، ليس لأنه سيصبح مجهِّزاً للقاعدة والذي دونه أيضاً لما تعرف لاحقاً على زوجته أو شريكة حياته التونسية «كنزة»، بل لأنه لو لم ينتقل إلى هناك لما التقى بالرائد راي پرينس من جديد، ولما كان سيدمغ هذا اللقاء، على عكس تجربته الأولى مع الرجل الصارم في القاعدة الجوية في الرياض، مسار حياته اللاحقة بعد ذلك اليوم تماماً، إن لم يكن دمغها أصلاً. عجيب أمرنا نحن البشر، نلتقي في حياتنا بمئات البشر إن لم يكن بالآلاف منهم، لكن واحداً منهم سيصبح محور حياتنا. من الخطأ الظن أن ذلك يحدث فقط عند تعرف الأزواج على بعضهم كما حدث له مع كنزة مثلاً (وهو سيأتي على هذه القصة لاحقاً) كلا، يحدث دائماً ما ليس في الحسبان، وحسب اعتقاده، أن جل مصائرنا نحن البشر تتحقق في المكاتب سواء تلك التي يراجعها الناس لشأن ما أو تلك التي يعملون فيها، كما هو الأمر

في حالته. من أين كان له أن يدري ما سيحدث له قبل أن يلتقي برائد «الخراء» كما يطلق عليه باللغة العربية التي يفخر بتعلمها، على الأقل أنه ومنذ أن تعلمها يستطيع شتم الرائد بها ولو بصوت واطئ مع نفسه. نعم، من أين له أن يعرف أن القاعدة العسكرية في ميناء الدمام تخضع بشكل مباشر لمركز القاعدة العسكرية وأم القواعد في المملكة العربية السعودية في الظهران؟ ففي يوم ربيعي مشمس، كان اليوم الوحيد في ذلك الأسبوع الأول من أبريل الذي لم تهبّ فيه العواصف الرملية حاملة معها كعادتها من كل عام في هذا الفصل من السنة كل ما تلفظه الصحراء من فائض في رحمها، في ذلك اليوم الاستثنائي بكل شيء، وبعد أن انتهى من عمله في مكتبه الصغير في الميناء اتجه دانييل بروكس إلى بوابة المرفأ وانعطف إلى اليمين. كان يعرف أن السائق الهندي راجو بانتظاره هناك لكنه بدل ذلك رأى المقاول اللبناني شادي أبو ديغول واقفاً هناك عند موقف التاكسي الذي ينتظره فيه عادة السائق الهندي، كما اتفقا على ذلك في ساعات العصر تلك. عندما ينتهي دانييل بروكس من عمله ويستبدل ملابسه ينزع البدلة العسكرية، يستحم، يحلق لحيته، يتعطر ويلبس ملابسه المدنية ثم يخرج ويطلب من راجو أن يقوما سوية بجولة باتجاه الصحراء. ذلك كان شغفه الوحيد في تلك الأيام، الذهاب إلى الصحراء في ساعات المغرب. زملاؤه الجنود الآخرون في القاعدة يلجؤون

إلى الخمرة أو الحشيش أو الجلوس مع عائلاتهم أو بعضهم (وعددهم ليس بقليل) يذهبون بعد نهاية عملهم إلى بيوت الدعارة في حي العدامة أو في حي الزهور. أما هو فقد كان ملاذه هو رؤية الصحراء وقت الغروب أو وقت الفجر ولأنه يستيقظ في ساعة مبكرة جداً يكتفي بالذهاب في ساعات الغروب إلى هناك. في حالات نادرة وخاصة في أيام العطل الرسمية وهي عندهم قليلة في القاعدة يذهب في ساعات الفجر. كانت الشمس في ذلك اليوم الجميل على غير عادتها قد مالت للغروب تواً، عندما سمع دانييل بروكس صوتاً يعرفه يناديه من ناحية موقف التاكسي «هاي سمايلي مان» ولا حاجة لكي يتأكد من هوية صاحب الصوت، يعرفه، فمن غير المقاول الذي سيردد له دعابته تلك التي يعرفها، والتي سيذكره بها «دو يو ريميمبير؟» وقبل أن يجيبه، سيضيف «وير إز أميركين بَزِز إن ذه كينـگدم ذَر إز شادي أبو ديغول». فوجئ بوجود شادي أبو ديغول في تلك اللحظة هناك لكن المفاجأة كانت أكبر برؤيته للرجل الثاني الذي وقف إلى جانبه. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يلتقي بها دانييل بروكس بالمقاول اللبناني الفكه فهو ومنذ أن التقاه في تبوك مع بداية العمل بإنشاء القاعدة العسكرية الإسرائيلية، عندما قيل له بأنه سيلتقي بمقاول بناء لبناني مسؤول عن بناء القاعدة لكي تتفق معه على ما يحتاجه من تجهيزات، عرف أن ما قاله الرجل مازحاً هو حقيقة ولم يزعجه

أبداً رؤيته، فالرجل كان دائماً لطيفاً معه، لم يُخفِ عنه يوماً ثقته به ولو تُرك له الأمر بالفعل لعينه موظفاً عنده، فلماذا لا يفرح كلما التقاه «هللويا گريت مان». كان دانييل يقول لشادي أبو ديغول كلما رآه، تعبيراً عن فرحته لرؤيته طبعاً، باستثناء ذلك اليوم، ليس لأنه هو دانييل بروكس كان في طريقه لممارسة طقسه المسائي إلى الصحراء مع السائق راجو أو لأنه لم يعثر على راجو في ذلك اليوم بل بسبب الرجل الثاني الذي وقف إلى جانبه والذي لا حاجة له أن يتفحص وجهه جيداً لكي يعرف هويته، وجهه بصرامة ملامحه وعينيه اللتين نفتحا بسعتهما وجسمه الضخم وشعره الحليق وبدلته العسكرية والنجمات الخمس التي التمعت على الكتفين والبيريه العسكرية المرصوصة في كتافيات القميص على طريقة الضباط الإسرائيليين، لا حاجة له حتى وإن يسمعه يحييه في تلك اللحظة «هلو سمايلي مان؟» ولكن بصوت جاف، لكي يعرف أن رجلاً واحداً ينطق تلك الجملة بطريقة مختلفة عن الآخرين وأنه مهما فعل وحاول أن يكون لطيفاً بالتأكيد مجاملة للشخص الذي رافقه إلا أن طريقته بنطق الجملة، إصراره على شد أسنانه يفضحه يجعل من السهل التعرف عليه، حتى إذا وقف على مسافة بعيدة منه حتى إذا غَصَبَ نفسه على ابتسامة مفتعلة كما فعل في ذلك اليوم، فمثلما هو دانييل بروكس ماركة مسجلة باسم «سمايلي مان» يظل الرجل هذا ماركة مسجلة بالنسبة له إذا لم يكن

بالنسبة لجنود آخرين، على الأقل لزميله الذي أصبح صديقه منذ أول يوم، دافيد باربييرو «الضابط الصارم» أو «الرجل الذي لا يلين» قبل أن يكون اسمه المعلن. راي پرينس لا غير حتى إذا حاول أن يكون في ذلك اليوم لطيفاً معه، بل اجتهد لكي يمنح الانطباع أمامه والرجل اللبناني بأن كل شيء بينه وبين الأوفيسير دانييل بروكس على ما يرام ولكي يثبت ذلك استقبله بالترحيب وقال له بأنه جاء مع صديقه أبو ديغول لكي يُعبّر عن شكره الجزيل لأبي ديغول فلو لم يأت ذلك اليوم ليودعه ويطلب منه البحث عن متعهد جديد لما عرف بأنه هنا، «ماي بست سولجير إز هير» نعم «ثانكس گد» الشكر للّه، وإلا لما عرف كيف ستستمر تجهيزات التموين بعد ذهاب أبي ديغول وكم هو مطمئن الآن بالعثور عليه. الآن يستطيع أبو ديغول أن يذهب مرتاح الضمير لأنه يعرف أن العمل في المخازن سيكون على ما يرام «ووت أ ديزازتير كود بي، إف وي دونت هاف يو» ثم التفت إلى أبي ديغول «گريت مان لايك دانييل ويل دو ذه جوب آيام شور» ثم ربّت على كتف دانييل وقال له «أپ تومورو يو وورك إن ظهران» ثم أضاف جملة لم تخلُ من الخبث «يو سي، دانييل، وي آر لايك آن كاثوليك ميريج..فور أيفير..توگذير» رغم أنه قال تلك الجملة مع ضحكة قصيرة لكن مهما بدا راي پرينس لطيفاً في ذلك اليوم ومهما طمأنه المقاول اللبناني شادي أبو ديغول إلا أن أمراً واحداً عرفه دانييل

في تلك اللحظة بأن پرينس لم يصدق مرة في حياته مثلما صدق في ذلك اليوم وأن الاثنين دانييل بروكس وراي پرينس مثل زوج كاثوليكي لن يفرقهما غير الموت. ربما حمل قوله ذلك بعض العزاء لأنه لم يقل، مثل «أولد كاثوليك ميريج» زواج كاثوليكي قديم، أمر يعني حسب اعتقاد جماعة المذهب «الكاثوليكي القديم» أنهما سيلتقيان حتى بعد الموت في السماء أيضاً؟

لم يولد دانييل بروكس في الصحراء بل في مدينة امتلأت بالسكان، في نيو أورلينز. المدينة الخليطة بسكانها، لكن بأغلبيتها الزنجية، المدينة الرائدة باختراع موسيقى الجاز، فضلاً عن ذلك نما في حي كوينز الخليط بسكانه هو الآخر في نيويورك وكلما حاول تذكر المرة الأولى التي سمع فيها بالصحراء فإنه لن يتذكر غير تلك الصور التي أراها له جده، في أكثر من ألبوم ظل جده محتفظاً بها وكان يخرجها كلما جلسا لوحدهما في الغرفة التي جمعت الجد مع أحفاده الثلاثة وفي كل الليالي تلك التي جلس فيها الاثنان ساهرين (لأن أختاه لم تبديا مثله اهتماماً بالصور). يفتح الجد الألبوم ويتفحصه صورة تلو الأخرى والصبي الصغير يجلس إلى جواره، أسند وجهه إلى يديه، عيناه مفتوحتان على سعتهما التي تزداد مع تصفح كل صورة جديدة، يطلق من حين إلى آخر صوتاً خافتاً أشبه بالصفير تعبيراً عن دهشته أو إعجابه. الجد يروي ويروي عن الصحراء

وعن السنوات التي قضاها هناك مع أبيه وجده، عن العائلة التي لم تعرف في حياتها غير الصحراء قبل أن تنتقل أولاً إلى نيو أورلينز حيث وُلد دانييل ثم إلى نيويورك. سنوات عديدة لم تصبح غابرة للجد وحسب بعيدة المنال كأنها مرت في حياة أخرى، بل للصبي الصغير أيضاً الذي بدت له الأماكن تلك في الصور أماكن بعيدة لا علاقة لها بعالمه الحالي، لكن كيف لا يفكر بذلك والجد لم يبخل بخياله؟ لم يبخل بإضفاء الغموض على كل القصص التي رواها ويعتقد أنها جرت في تلك السنين؟ الصبي الصغير لم يسأل. صحيح أن القصص تلك فاقت الخيال بالنسبة له مثل قصة القوم أولئك الذين غادروا الأرض مباشرة إلى الجنة على عكس الجد وعائلته الذين للأسف بدل أن يرافقوا جيرانهم أولئك بالذهاب للعيش في تلك الجنة السماوية التي اختاروها، انتقلوا أولاً إلى نيو أورلينز فهي مدينة صغيرة نسبياً لكنها تظل مدينة. وليس كما عاشوا سابقاً في قرية صغيرة عند حدود إيريزونا ثم إلى مدينة كبيرة، إلى نيويورك في هذا الحي التعيس «فكينگ كوين ديستريكت» صحيح أن محطة البنزين التي امتلكها الجد في القرية الصغيرة تلك لم تعد مربحة أبداً، لسنوات منذ أن غيرت الشاحنات طريقها وراحت تسير على طريق هاي وَي جديد بُني بعيداً عن الطريق القديم، صحيح أن البيوت القليلة التي سكنها ذات يوم جيرانهم تحولت هي الأخرى إلى خرائب أو إلى بيوت

أشباح، إلا أنه ولو تُرك الأمر لجده لما ترك محطة البنزين التي ورثها عن أب وجد، ليلحق نداء ابنه إلى نيو أورلينز أولاً وبعدها إلى نيويورك، أو لكان بقي على الأقل في نيو أورلينز رغم مشقة الطريق الذي كان يقطعه كل نهاية أسبوع بسبب انتقال العائلة إلى هناك. وكم حاول أن يقنع ابنه بأن يذهب لوحده أولاً لأن الجد يريد أن يموت هنا في الصحراء، أن تُوارى جثته التراب إلى جانب زوجته المدفونة هناك. لقد وافق مرة واحدة على الانتقال معه إلى نيو أورلينز بسبب البحث عن عمل ولن يعاود الكرة وينتقل إلى شمال أميركا، إلى نيويورك لكنها رغبة ابنه «بِگ دانييل» الذي بدأ بالعمل في الجيش فهو الذي ألحّ عليه أن يأتي معه. كانت وحدته التي أرسل إليها في مرفأ نيوڤاك القريب من نيويورك. انضم الجد إلى العائلة على مضض. كانت أختاه ما تزالان صغيرتين وكان هو «سمووول دانييل» قد وُلد للتو. كان عمره لم يتجاوز الأسبوعين وكان عليهم أن يبحثوا عن شقة بإيجار رخيص وبسرعة. في حي كوينز كانت الإيجارات دائماً رخيصة ولو عرف الجد في حينه أن ابنه لن يبقَ في نيوڤاك طويلاً لما وافق بالقدوم إلى هنا ولفضّل العيش في قريته الصغيرة إلى جوار محطة البنزين العاطلة، إذ مباشرة بعد انتقالهما إلى كوينز بشهرين أو ثلاثة انتقلت وحدة «بـگ دانييل» إلى فيتنام. عندما كان الجد يصل في روايته إلى هذا الحدّ يقول للطفل الصغير «أند أفتير

ذات هي وود نَڤر بي باك». كانت الحرب على أوجها وكانت الإجازات قليلة، أحياناً ولمدة شهور طويلة لا يستطيع بعضهم الحصول على إجازة لزيارة عائلته. سعيد الحظ من يحصل ولو على أيام قليلة. لكن أباه «وود نيفير بي باك» تلك الجملة التي تردد بأن والده ذهب ذات يوم ولن يعود أبداً لأنه حسب الجدّ اختار الذهاب إلى أولئك القوم جيرانهم الذين يعيشون بين السماء والأرض في صحراء خاصة بهم لكنها على شكل «پارادايبس» كأن الجد في تفسيره ذلك أراد تحصين نفسه ضد سؤال الحفيد عن والده الذي فقده وهو صغير، بعد ولادته بشهرين أو أكثر فهو لا يعرف ملامحه إلا من الصورة وكان على دانييل أن يكبر أولاً، أن يصبح شاباً، رجلاً ناضجاً لكي يعرف أن والده سقط ببساطة قتيلاً في أحراش فيتنام. ولكن في حينه كان مخدراً بحكايات الجد، لماذا كان عليه ألا يصدقه، ألا يصغي لكل قصة يرويها؟ كان يحب أباه وكان من الصعب عليه تخيل مكانٍ أفضل يذهب إليه غير الجنة؟ ليس من الغريب أن ترتبط صورة الصحراء بالنسبة له مع صورة الجنة ولم يغير الأمر لاحقاً قراءته للإنجيل، على العكس، حتى اسمه يقول له، إن كل القصص التي سمعها عن الصحراء لها علاقة به هو دانييل وإلا فلماذا دخل النبي دانييل في الرواية القديمة إلى المغارة؟ أليست المغارات في الصحراء؟ لم يشأ جده تصديق أنهم لم يعودوا يعيشون في الصحراء وأن صحراء

لوزيانا أصبحت بعيدة عنهم ليس بالمسافة وحسب بل باختلاف نمط الحياة عنها في مدينة مثل نيويورك. جده هذا لم يجعله يعيش الصحراء وكأنها أمر واقعي، وليس مشهداً خيالياً يدور على شاشة مخ الجد وحسب بل جعله يشعر مذّاك بحنين غامض إلى ذلك المكان. ليس من المبالغة القول إن ذلك هو أحد الأسباب التي جعلته يرغب بالتطوع في المارينز، كأنه كان على يقين أنهم سيرسلونه إلى إحدى الوحدات العسكرية تلك العاملة في الصحراء. لم يكن هو الوحيد في ظنه ذلك بل شاركته فيه منجّمة سوداء في حي كوينز، ذهب إليها في اليوم الأول من لبسه بدلة المارينز، قال لها إنه يعرف المصير الذي ينتهي إليه لكنه قبل ذلك أراد التأكد إذا كانت الأوراق الخاصة به تؤكد الأمر ذاته، حدقت به المرأة العجوز التي كانت على مشارف الثمانين من عمرها وطلبت منه أن يجلس ويسحب ورقتين من تحت الأوراق المرمية على الطاولة أولاً، وعندما قرأت الأوراق وخلطتها مع الأوراق الأخرى قالت له «يو آر دانييل» ولم يفهم في البداية ماذا كانت تعني بجملتها تلك وقبل أن يسأل تابعت «يو ويل آند لايك هِم دانييل» الأمر الوحيد الذي نسي أن يسألها عنه في ذلك اليوم: ماذا تعني بـ «هِم»؟ أباه الذي سموه على اسمه ظناً أنها الطريقة الوحيدة لكي يجعلوه يعيش بينهم من جديد أم النبي دانييل الذي كان عليه ألا يخرج من المغارة التي أدخلوه إليها؟ لكن حتى عندما تفحص

الأمر لاحقاً في مخه كان الأمر بالنسبة له سِيان، ففي النهاية انتهى الاثنان، أبوه والنبي دانييل إلى مكان واحد: الجنة، ولن تكون نهايته مختلفة، وكم شعر بسعادة عندما عرف أن أول مكان سينتقل إليه بعد نهاية معسكره التدريبي هو المملكة العربية السعودية في القاعدة الجوية الأميركية في الرياض. وهي ليست عاصمة المملكة العربية السعودية وحسب بل مركز الصحراء الكبرى هناك. مدينة وسط الصحراء. وشكراً لصديقه دافيد باربييرو «وايتمان الأسود» الذي سهل له الأمر مرتين أو ثلاث، اصطحبه في سيارة جي أم سي مزودة بماطور خاص. لكن للأسف رآهما في المرة الأخيرة الرائد راي پرينس. كان الاثنان قد عادا للتو من الصحراء ولم يكتفِ پرينس بإلقائهما في السجن لمدة أسبوع بل حذّرهما من الذهاب مرة أخرى إلى هناك. كان على دانييل في البداية التنازل عن حلمه ذاك، وعبثاً حاول إقناع الرائد پرينس بأن علاقته بالصحراء قديمة وهو أحبها منذ طفولته عن طريق حكايات جده. سخر منه الرائد الصارم بل لم ينتظره حتى ينتهي من حديثه، قال له بالحرف الواحد: «نَيـگـر آي وورن يو»، ولم يعرف دانييل سبباً لتحذيرهما هو وزميله من الذهاب إلى هناك. هو كرهه للصحراء، فحسب اعتقاده لم يُخلق المارينز للحرب في الصحراء إنما خُلقوا فقط للحرب في الأحراش. ومنذ انتقاله إلى السعودية وراي پرينس لا يسامح أي جندي يذهب إلى الصحراء. فهِمَ دانييل

بروكس ذلك وعرف أن الطريقة الوحيدة هي التنكُّر، إذ ما إن تنتهي ساعات دوامه الرسمية والتي تصل أحياناً إلى أربعة عشر ساعة حتى يسرع إلى غرفته ينزع بدلته العسكرية، يلبس ملابسه المدنية ويضع نظارة راي بَين على عينيه وقبعة بيسبول على رأسه ويخرج، يذهب سيراً على الأقدام، يحمل حقيبة صغيرة على كتفه، غالباً ما حمل فيها قنينة ماء وكتاب، ولكن لقول الحقيقة، الإنجيل فقط، في تلك الأيام لم يعرف كتاباً آخر غير الإنجيل. عند أطراف الميناء يأخذ تاكسي، يطلب منه التوجه إلى الصحراء، ربما تردد بعضهم بتلبية رغبته في الوهلة الأولى ظناً منهم أنه يمزح أو أنه قادم جديد لا يعرف ماذا يريد وعندما يسأله أحدهم ماذا يعني بالصحراء؟ فالصحراء كبيرة أيها السيد، غالباً ما كان يجيبهم: «دَزينت ماتير»، كم أحَبَّ قراءة الإنجيل هناك، وقبل أن تغيب الشمس بوقت قصير يطلب من السائق أن يعود به. باستثناء السائق وجِمال سوداء أو بنية اللون، جمال سائبة في الصحراء، وفي حالات نادرة شاركه فيها صديقه دافيد باربييرو لم يشاركه أحد وحدته، ربما هو الوحيد الذي لم يزعجه حضوره، على العكس، كان يفرح عندما يراه معه رغم أنه لم يحب الصحراء مثل دانييل، لم يخفِ عليه خوفه منها كأنه عرف أنه سيموت ذات يوم هناك، إذ كلما ذهبا سوية قال له «آي آم أفريد تو داي ذَر» على عكسه هو، دانييل، كان يشعر بألفة مع الصحراء وازدادت إلفته معها أكثر

عندما انتقل إلى القاعدة الأميركية في الدمام، من هنا تمتد صحراء أخرى تُضاف إلى صحارى المملكة العديدة باتجاه شمال غربها حتى تلتحم مع صحراء حفر الباطن، ولو ترك الأمر له لوحده لجلس حيثما راح يذهب كل يوم دهراً طويلاً، لكنه ما إن يرى الشمس تميل للغروب وتهبط مثل كرة كبيرة حمراء تتقافز على التلال البعيدة وتسقط عند خط الأفق البعيد، حتى يعرف أنها ساعة العودة. البقاء في الليل في الصحراء عموماً، وهذه الصحراء لا تختلف عن الأخريات، هو ليس مغامرة غير معروفة العواقب وحسب، خاصة وأن السيارات التي جاء بها هي سيارات أجرة بسيطة غير مزودة بمحركات خاصة بالصحراء، بل إنه الطقس البارد الذي سيهجم فجأة على المكان، برد الصحراء قاسٍ ورهيب مثل حرّها. وعندما فكر ذات يوم بتغيير الاتجاه وسأل أحد سُوَّاق التاكسي الذين حملوه إلى الصحراء بأنه يريد أن يأخذه باتجاه الشمال الغربي وليس كما يفعلون دائماً باتجاه جنوب غرب الدمام، رفض هذا وأوضح له بأنه لن يعثر في الدمام على سائق تاكسي هندي أو باكستاني يغامر بالذهاب إلى هناك «ڤري دينجريس، سَير» قال له «يو نو ذي ديزيرت ذير إز آنبيليـڤيبيل» ولو لم يخبره أحد السوَاق ذات يوم بأن هناك سائق واحد يملك سيارة فيها كل تلك المواصفات التي تحتاجها سيارة لقطع الطريق الصحراوي الذي ينتهي عند الحدود الشمالية من المملكة لما عثر على الهندي راجو الذي كانت سيارته

مزودة بماطور خاص وبأضواء إضافية وبإطارات عريضة وسلاسل وبخزان ماء كبير وبكل ما تحتاجه سيارة لقطع الصحراء. هكذا أصبح راجو دليله الصحراوي، معه عرف كل أسرار الصحراء التي شقَّت المنطقة الشرقية من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال. كان دائماً حاضراً هناك حتى في أيام الأعياد والعطل الرسمية لم يخيِّب ظنه يوماً فهو منذ أن عرفه أصبح من الصعب عليه تخيل أيام نهاية الأسبوع في الدمام دون راجو، كما حصل معه في عصر يوم الخميس ذلك، فبدل أن يجده ينتظره هناك على عادته وجد المقاول اللبناني شادي أبو ديغول وإلى جانبه الرائد الصارم راي پرينس.

كانت بالفعل مرحلة جديدة من حياة دانييل بروكس. كان لا بد له أن يقبل بالمهمة التي كُلِّف بها الآن. إنه جندي في المارينز وعليه فقط: تنفيذ الأوامر، فبعد يومين من لقائهم ذلك كان على دانييل ترك القاعدة البحرية في مرفأ الدمام والانتقال إلى القاعدة الجوية الأميركية في الظهران «أم القواعد» كما سميت، وربما ظل طوال اليوم الأول من دخوله مكتبه الجديد حزيناً لو لم يدخل عليه المقاول اللبناني شادي أبو ديغول قال له «آي كَم تو سَي تو يو گود باي سمايلي مان» كان من الصعب عليه الذهاب دون السلام عليه «هو نوو؟» قال له أبو ديغول، فربما لن يريا بعضهما بعد الآن، ليس لأن مقاولاته كبرت بل ربما سيضطر للعودة يوماً إلى بلاده

لبنان «ذه بوليتيك كول مي سمايلي مان». صحيح أن دانييل لم يفهم، لماذا السياسة تنادي مقاولاً في البناء والتجهيزات؟ ما هي علاقة المقاولات بالسياسة؟ لكنه رغم ذلك ابتسم على عادته ونسي حزنه دفعة واحدة. شكر المقاول اللبناني على زيارته «گود لك، مستر شادي، يو آر فيري فريندلي مان» وقبل أن يودعه أبو ديغول ويصبح عند باب المكتب استدار له وقال له «آي نَـڤَر سو إن ماي لايف سَـچ سمايل لايك يور سمايلينـگ» ومن الصعب عليه أن يودعه قبل أن يقدم له خدمة عزيزة «دونت هيزيتيت بليز ووت أيـڤَر يو وونت سمايلي مان» قال شادي أبو ديغول وكان صادقاً فيما يقول «أوكي؟ واي نوت؟» صحيح أنه لم يفعل ذلك من قبل أن يطلب من أحد تقديم خدمة له لكن هناك دائماً المرة الأولى، ربما ذلك ما جعله يتردد قليلاً قبل أن يقول للمقاول اللبناني وبصراحة بأنه يطلب أمراً واحداً فقط، أن يسمح له الرائد راي پرينس بالذهاب إلى الصحراء من حين إلى آخر «وان تايم إن ذه ويك» فقال له شادي أبو ديغول وباللهجة اللبنانية «تكرم عينك، سيكون لك ذلك». في اليوم الثاني أرسل الرائد بطلبه، أخبره بأنه منذ الآن سيسمح له بالذهاب إلى الصحراء، عليه فقط ألا يذهب بملابس المارينز «تك كير پليز» ولم يقل له «سمايلي مان» كأنه أراد تجنب نطقها. كان على دانييل أن ينتظر بعض الوقت لكي يصدق ما جرى وعلى عكس ما ظن في البداية كأن العمل في القاعدة

العسكرية في الظهران بداية لعلاقة جديدة في «الزواج الكاثوليكي» الذي جمع بين الاثنين، بين الرائد راي پرينس وبينه، إذ لم يسمح له هذا هذه المرة بالذهاب إلى الصحراء وحسب، وذلك امتياز لم يشاركه فيه أحد من عسكريّي القاعدة بل حاول أن يمنحه الانطباع أيضاً بأنه شخص مرغوب فيه هناك، لا يمكن تصور مخازن القاعدة دونه. لقد تغير سلوك الرائد إزاءه تماماً ولا يدري إذا حدث ذلك بتأثير من شادي أبو ديغول أم لأن القاعدة العسكرية الجوية في الظهران وعلى عكس القواعد الأخرى، قاعدة كبيرة جداً، ليس من العبث أن يطلقوا عليها «أم القواعد» وأن الرائد آمر كتيبته مشغول بالكثير من المهام حتى زيارته له لأغراض تفتيش سير العمل في المخازن أصبحت شحيحة، وليس كما واظب على فعله في القاعدة الجوية في الرياض. أصبحت زياراته معدودة، لم تعد هناك زيارات مفاجئة ولا عقوبات بسبب تقصير ما أو سهو، كأن أمراً واحداً شغل الرائد، كما لاحظ دانييل، أن ينجح بالعثور على شخص بكفاءة وشخصية المقاول اللبناني شادي أبو ديغول؟ وعندما بدّد دانييل قلقه لم يسمع من الرائد كلمات المديح وحسب بل وافق مباشرة على اقتراحه بالتعاقد مع شركة الأحلام للاستيراد والتصدير حتى وقبل أن يلتقي بصاحبها غازي الجاسي شخصياً، والأكثر من ذلك، بدا في اليوم الثاني عندما زاره في مكتبه على عجلة من أمره كأنه أراد الانتهاء من قضية التجهيزات

بسرعة، لا يهم من يتحمل المهمة، لم يحتج دانييل بروكس إلى وقت طويل لإقناعه، إذ ما إن أخبره بأن الشخص الوحيد المناسب لسد الفراغ الذي تركه شادي أبو ديغول هو المقاول السعودي غازي الجاسي، حت انفتحت أسارير وجه الرائد وقال له مباشرة «أوكي سمايلي مان گو هيد أند فينيش ذه جوب» كم شعر دانييل بالسعادة عندما سمع الرائد راي پرينس يعطيه الإشارة الخضراء بالتعاقد مع غازي الجاسي. لم يصدق غازي الجاسي أذنيه عندما سمع خبر التعاقد من الضابط الأميركي الأسود «ثانك يو سمايلي مان» قال له وعلى عادته كما يفعل مع شخص يكن له الودّ، ربتَ دانييل غازي على كتفه وقال له «سي يو تومورو» من أين كان لدانييل أن يدري أن الرائد راي پرينس لم يملك الوقت الكافي للبحث عن مقاول آخر لأن أمراً واحداً شغله في تلك الأيام، الاستعداد بأكمل وجه لتنفيذ الأوامر التي وصلت للقاعدة الجوية في الظهران والتي ستغير أمر القاعدة العسكرية تماماً وتجعلها في حالة إنذار قصوى دائمة لأن الطائرات الأميركية الجديدة العشر المزودة بأجهزة الإنذار المبكر، طائرات أواكس كما يُطلق عليها العسكر والتي ستصل مساء ذلك اليوم ستكون الإشارة الأولى لحرب طويلة ستندلع شمال شرق المملكة في اليوم الثاني.

حروب منسية وأخرى ما تزال

سبع سنوات وعشرة شهور وأسبوعين وخمسة أيام دامت الحرب العراقية الإيرانية، وما كان دانييل بروكس عرف لا عن يوم نشوبها ولا يوم توقفها لو لم تكن قاعدتهم مأوى طائرات الأواكس العشر التي حلت ضيفة عليهم فجأة. ليس لأن الحروب بشكل عام لم تعنيه، كيف يفعل ذلك، وأبوه سقط قتيلاً في إحدى الحروب هذه حتى دون العثور على جثته، بل لأن الحرب هذه التي ربما شكلت للبعض هاجساً أو أثارت انتباههم في الأيام الأولى من اندلاعها، إلا أنها دخلت وبعد مرور وقت قصير في طيّ النسيان، لم تعد تتصدر النشرات الإخبارية كأن العالم لم يكن معنياً بها وكان يجب أن يحدث هجوم كبير أو يسقط آلاف القتلى لكي يتذكر أحد أن حرباً ما زالت تدور على جبهة طولها زاد عن ألف ومائتي كيلومتراً. حتى بالنسبة لهم في «أم القواعد»، القاعدة الجوية العسكرية في الظهران، ربما ظنوا في البداية أن نيرانها ستصل قاعدتهم لكنهم مع الوقت أسلموا أنفسهم لروتين عملهم اليومي، فماذا تعنيهم حرب تدور على جبهة بعيدة؟ وحتى العدد الصغير المحدود من أولئك العسكريين، جنود الرادار أو جنود شؤون هندسة الطائرات وصيانتها مثلاً الذين ربما وحدهم عرفوا المهمة التي جاءت من أجلها طائرات الأواكس العشر تلك. جمع المعلومات عن تحركات

الجيش الإيراني وتسليمها عن طريق حلفائهم السعوديين للعراق. وجدوا في عملهم ما يشبه القيام بتمارين يومية لها علاقة بالتعلم أكثر مما لها علاقة بحرب حقيقية. باستثناء ذلك لم يتكلم أحد عن الحرب أبداً حتى هو دانييل ما كان تذكرها لو لم يسمع عنها من متعهد تموينات الإعاشة الجديد غازي الجاسي الذي لم يخفِ عليه يوماً شعور الارتياح الذي سيطر عليه في حينه لأن الأمر واضح له جداً، كما قال له عندما دعاه للاحتفال معه بالعيد الأول لميلاد ابنته سارة، فلولا الحرب هذه لما حصل ربما بهذه السهولة على صفقة تجهيزات القاعدة الجوية في الظهران وهي هذه الصفقة بالذات التي فتحت أمامه التوسع بعمله لاحقاً «آي آم ڤيري هَپـي سمايلي مان» قال له وهما يجلسان في مطعم فندق شيراتون الدمام، ولم يخفِ عليه في تلك الجلسة أيضاً، أن الله مَنَّ عليه كثيراً سواء بولادة ابنته سارة في 22 سبتمبر/أيلول 1980 «سارة إز أ نايس ومِن فروم گود سمايلي مان» أو باندلاع الحرب في نفس ذلك التاريخ، وحسب تفسيره، الله هو الذي شاء ذلك. جعل ميلاد سارة واندلاع الحرب في نفس اليوم. لذلك فهو لا يقلق وليس لديه شعور بالذنب بأن الحرب سهلت عليه العمل وجعلت شركته تتوسع في النهاية «وي ثانك گَد» ولو لم يكرر غازي الجاسي كلامه مرات عديدة في 22 سبتمبر من كل عام كلما دعاه للاحتفال بعيد ميلاد ابنته في مطعم فندق شيراتون

الدمام سواء بحضور سارة نفسها كما حدث في سنوات عمرها الأولى أو دونها عندما بدأت سارة تحتفل في المدرسة مع زميلاتها الطالبات منذ أن توسط لها دانييل بروكس نفسه بالانتقال إلى مدرسة الصداقة الأميركية السعودية في قاعدة الظهران، لما تذكر أن «فاكينـگ وور» تلك اندلعت في ذلك اليوم من شهر سبتمبر/أيلول والتي لولاها لما أصبح تحت سيطرة الرائد راي پرينس. للمرة الأولى وبعد إعلان وقف إطلاق النار وتوقف الحرب المنسية تلك عرف أنَّ أمر انتقاله إلى قاعدة أخرى ليس مرهوناً بإشارة من الرائد راي پرينس وحسب بل أن عليه أن يقبل كل شيء، ألا يفتح فمه مثل زوجة «كاثوليكية» أم «مسلمة»، المهم زوجة مطيعة وهو يرى ما يحدث أمامه، قرابة ثماني سنوات وهو يرفع حسابات ويطلب أموال لبضائع ماركاتها مزورة أو لبضائع لم تُشحن على الإطلاق، كل ذلك قام به مغمض العينين وعندما اكتشف ذلك صدفة وهو يراجع صفقة تجهيزات ألف نسخة من القرآن مطلية بالذهب كما ثُبِّت في الصفقة لم يتذكر أنهم تسلموها يوماً. ظن أنه سيقوم بخدمة أو إنجاز سيحصل عليه على وسام بالتأكيد وهو لا يحتاج إلا أن يخبر رئيسه الرائد راي پرينس، فرائد صارم مثله، سيقول له، سنحقق بالأمر وسنعاقب المسؤولين عن ذلك. لكنه ولمفاجأته طلب منه أن يغض النظر عن ذلك «وي دو ذات فور أميركا» قال له الرائد «وي آر إن وور» دون أن

يوضح له ماذا يعني بجملته تلك؟ عن أي حرب يتحدث؟ الحرب العراقية الإيرانية انتهت، كما يعرف، لكن رئيسه يكشر عن أسنانه ويقول له ساخراً «يو آر نايـيـڤ، سمايلي مان ذه يو أس إز أول ذه تايم إن وور»، ولكي ينهي النقاش معه ولا حاجة لأن يوضح له لماذا أميركا دائماً في حالة حرب، قال له «أني هاو سمايلي مان يو آر إنـڤولـڤ إن ذه إشو» قال له، بلهجة لم تخلُ من التهديد «نو وَه فور يو سمايلي مان» وكان عليه أن يسأل صديقه غازي الجاسي لكي يعرف أن الحرب التي تحدَّث الرائد عنها ليست الحرب التي تدور رحاها شمال شرق المملكة السعودية. كلا، إنها حرب أخرى عليه أن يفكر بها منذ ذلك اليوم. ما يزال يتذكر كيف أنه طلب من غازي الجاسي توضيحاً لما يجري. لماذا يشحن بضائع بماركات رخيصة على أساس أنها بضائع من ماركات من الدرجة الأولى؟ كيف يفعل معه ذلك وهو وثق به كل هذه السنوات؟ وكان على غازي أن يبتسم أولاً قبل أن يصفن قليلاً ليقول له «سمايلي مان آي ثوت يو نو وَتس هاپن هير؟». صحيح أن ما سمعه من صديقه صعقه لكنه كان يعرف أن غازي الجاسي لم يكذب عليه، قال له، حسناً، إنه سيشرح له كل ما يدور لكن على شرط أن يعده بألا يذكر الموضوع أمام أحد حتى أمام الرائد پرينس «پرومِس مي پليز» وعندما أخبره بأنه لا حاجة أن يعده بذلك لأنه سأل الرائد عن الموضوع. حدَّثه غازي الجاسي عن الاتفاق غير المعلن

بين رئيس الهيئة والمنجر في المنطقة الشرقية الشيخ يوسف الأحمد وبين الرائد راي پرينس، أو بين القاعدة الأميركية في الظهران، وكيف أنه لا يدفع نصف المبلغ الذي يحصل عليه من المقاولات مع القاعدة الأميركية للهيئة وحسب، بل عليه أيضاً أن يزود القاعدة ببضاعة رخيصة من كوريا والصين، ويزوِّر ماركاتها على أساس أنها ماركات أصلية. تلك هي الوسيلة الوحيدة غير الرسمية لدعم تمويل حملة الشيخ يوسف الأحمد «ناڤَر هيرد ذات؟» سأله غازي الجاسي وهو يضيف، «الصحوات كامـڀِن» كيف لم يسمع بها وهي أشهر من نار على علم في المملكة؟ الآن يفهم السبب أيضاً الذي جعل الرائد الشيخ يوسف الأحمد أو الهيئة يأخذان النسبة المطلوبة عن طريق فارق المبلغ بين البضاعة الأصلية وبين والبضاعة المزورة، ربما ذلك هو السبب أيضاً الذي حمل الرائد على جلبه دانييل للقاعدة مجدداً. بالتأكيد كانت تلك هي فكرة المقاول اللبناني شادي أبو ديغول «ذاي نيد كلين مان» لأن رجلاً نظيفاً مثله يمكن التغطية عن طريقه على الكثير من الصفقات المشبوهة. إذن ذلك ما جعل الرائد الصارم جداً يفعل كل ما في وسعه لكي يمنحه الانطباع أنه راضٍ على كل ما يقوم به وأن القاعدة لن تجد جندياً مخلصاً لأميركا مثله. ربما ظن الرائد أنه عن طريق مديحه هذا سيدخل السرور إلى قلبه. لكنه لا يدري أن تلك الجملة بالذات هي أشد ما يمقته دانييل لكن ماذا على جندي في مكانه أن

يفعل؟ كان بلا حيلة وكان كلما خلى لنفسه كلما شعر بتأنيب ضميره هو اللويتنانت الثاني دانييل بروكس النظيف اليدين، المؤمن يصبح ملطخ اليدين؟ وكان كلما باح لصديقه غازي الجاسي بذلك كلما ضحك هذا منه قبل أن يقول له حكمته التقليدية، بأن اللّه هو الذي شاء ذلك وهو لا يفهم كيف أن جندياً في المارينز مثله يفكر بهذا الشكل التقليدي. إنها الحرب وفي الحرب كل شيء مباح، ألم يعرف بذلك عندما دخل الجيش وكان من العبث أن يحدثه دانييل عن ضميره وعن إيمانه الديني. نعم، إنه عسكري للدفاع عن بلاده وعن القيم الأخلاقية العليا ولكن هذه القيم تنتهي بالنسبة له عندما تتحول إلى دعم للباطل وإن أكثر ما يغيظه هو أنه يوافق على تنفيذ عمل لا يؤمن بصحته. كم كان يشعر بالغضب كلما تذكر الفخ الذي وقع فيه ولا يدري أن المقاول اللبناني شادي أبو ديغول كان على علم بالموضوع عندما اقترح اسمه على الرائد للقيام بالمهمة. إن الودّ الظاهري الذي أبداه له المقاول اللبناني ليس غير جزء من السمّ الذي دسه له وهو ينتظر اليوم الذي ينسى فيه الحرب التي تحدث الرائد راي پرينس عنها مثلما نسي الحرب التي دارت في شمال شرق المملكة.

هناك نوعان من العسكريين؛ النوع الأول يكتفي بلبس البدلة العسكرية والقيام بواجباته على أحسن وجه. النظام هو المهم بالنسبة له ومن غير المهم إذا عنى ذلك الواجب الذي عليه القيام به أم لا. يكفيه أنه هناك في

مكانه الذي اختاروه له ينتظر الأوامر من رؤسائه الأعلى درجة منه مثلما ينتظر العبد الأوامر من سيده أو مثلما ينتظر الإنسان ما يعتقد أنه يأتيه من الرب، ولا فارق عنده إذا عاش أيامه بسلام وهو يُسلِّم نفسه إلى روتين العمل اليومي أو إذا عاش حالة حرب ووحدته تقاتل على الجبهة. المهم أنه ينظر إلى نفسه بصفته عسكري مهمته تنفيذ واجباته. النوع الثاني من العسكريين هو الذي لا يكتفي بلبس البدلة العسكرية والقيام بواجباته على أحسن وجه بل ارتبط الجيش معه بالقيام بفعل عسكري، بالحرب في أحسن الأحوال أو بالتمارين العسكرية على الأقل. من الصعب عليه تخيل نفسه كما في حالة النوع الأول الجلوس في مكتبه، يقوم بعمله الوظيفي بانتظار الأوامر من رؤسائه أو من اللّه. لا ضير أن يخلق هو لنفسه التعليمات التي يوزعها على شكل أوامر على جنوده أو على الضباط الذين هم أقل رتبة منه. باختصار هو العسكري الذي ينافس الرب إن لم يضع نفسه في مكانه. إلى النوع الأول من العسكريين ينتمي اللويتنانت الثاني دانييل بروكس، وإلى النوع الثاني ينتمي الرائد راي پرينس فإذا كان دانييل لم يعر الانتباه لتلك الحرب أو إذا كان لا يتمنى نشوب حرب في مكان ما في العالم وأنه يجد العمل في الجيش لا يختلف عن العمل في مجالات أخرى فإن الرائد پرينس لا يستطيع تخيل الجيش دون الحرب، خاصة عندما نقلوه من فيتنام إلى المملكة العربية السعودية للعمل

في الشؤون اللوجستية. ربما ظن أولئك الذين نقلوه أنهم يساعدونه على استعادة رشده بعد الحالات الهستيرية التي مرّ بها أثناء خدمته في فيتنام والتي قدمت الكثير من الضحايا لكنهم لم يعرفوا أنهم بهذا الشكل صبُّوا الزيت على النار. فالسلام بالنسبة لضابط مثله انتهى في أحراش فيتنام. ضابط رفع شعار «سِرچ أند ديستروي» ابحث وحطم، أو عسكري بالنسبة له شجاعة الجندي، أيّ جندي، تعتمد على عدد الموتى من الأعداء على يديه، هو نوع من الانتحار البطيء. ماذا عليه أن يفعل. هل يجلس في المخزن ليل نهار يراجع سجلات التجهيزات التي يقدمها المتعاقد الأهلي للقاعدة؟ هل سيقضي حياته بجرد عدد شرائح الوجبات الأميركية مثل البيتزا والبرگر والفاصوليا الخضراء أو جرد عدد السيارات التي يستخدمها الجنود للمسابقة بواسطة أجهزة السيطرة اللاسلكية؟ أو معرفة عدد قناني الويسكي التي يشربها الجنود أو عدد قناني الشامبو التي يستخدمونها؟ أو عدد التامبونات التي يجهزها لسد فروج المجندات عند قدوم العادة الشهرية، بل عدد أجهزة الڤيبراتور الهزّاز البديل عن القضيب للمجندات والتي وافق أخيراً البنتاغون على تجهيز المجندات بها بعد إلحاح طويل؟ ماذا يفعل بالأسلحة المكدسة في المخازن؟ بخراطيش الطلقات؟ ماذا عن دروس تعلم الرماية؟ مئات الجنود دربهم على الرماية من أجل ماذا؟ من أجل أن يجلسوا في مطاعم وحداتهم

العسكرية ويملؤوا بطونهم بالبيتزا والبرگر والفاصوليا الخضراء؟ أم من أجل أن يجلسوا في بارات القاعدة، يكرعون كؤوس الجعة والويسكي، يسكرون بشكل مخيف أحياناً. يقاتلون بعضهم البعض، وإذا لم يفعلوا ذلك، يلجؤون لتعاطي الحشيش والمخدرات؟ أم لكي يضاجع المجندون المجندات أو يلجؤون جميعهم للإدمان على العادة السرية؟ كلا، السلام هو مقبرة الجندي وليس الحرب كما يدعي البعض. كل حياته شكّلها الرائد پرينس على مخرطة الحرب، ولو تُرك الأمر له لشارك في الحرب الإيرانية العراقية مباشرة ولما اكتفى بتزويد العراقيين بالمعلومات العسكرية فقط. وحتى هذا الدور لم يقدمه هو أو كتيبته مباشرة بل وصل العراقيين عن طريق حلفائهم السعوديين. لكنها الأوام، لا أميركا ولا «فاكينـگ كينـگدام» أرادا المشاركة الفعلية حتى عندما تعرض مواطنون أميركيون للاختطاف في السفارة الأميركية في طهران. لم يشأ أحد التدخل عسكرياً وبقوة، بدل ذلك أرسلو «فاكينـگ» كوماندو «آماتور» قام بإنزال فاشل في الصحراء. وكانت النتيجة معروفة للجميع بعد تنفيذ عملية إنزال الكوماندوز الهواة أولئك في الصحراء الإيرانية وعندما أصبح العراقيون في وضع لا يُحسدون عليه، عندما بدأت القوات الإيرانية تستعيد كل المدن التي دخلها العراقيون، تحتل أراضٍ وآبار نفط عراقية حتى تصبح قريبة من البصرة. لم يشأ أحد التدخل؛ السعوديون

قالوا إنهم لا يريدون التورط وتركوا العراقيين يقاتلون باسمهم. في البداية ساعدوهم بالمال والأسلحة لكن في النهاية تركوهم وحدهم. كلاهما، العراقيون والإيرانيون، انتهيا ـ بعد قرابة ثماني سنوات ـ عند النقطة التي بدأت الحرب عندها. ملايين من الجرحى وأكثر من مليون قتيل من كلا الجانبين، ناهيك عن الأسرى فهي قصة أخرى، حرب بدائية بالنسبة له. صحيح أنها ليست صورة الحرب التي يتخيلها لكنها مع ذلك حرب وليس كما يفعلون هم، قواعدهم منتشرة في «فاكينـگ كينـگدام» في السعودية. وهي لا تفعل شيئاً غير العناية بالأسلحة وصيانتها، دهنها بالزيت، تفكيكها وإعادة ترتيبها يومياً، بعضها سيغطّيها الصدأ. كم هذا مرعب بالنسبة له. أما الحرب التي كانت تدور في جبال الهندگوش والتي شغلته على الأقل بعلاقتها بمجالس الصحوات فقد انتهت هي الأخرى. وفي النهاية خرج الروس من أفغانستان. ها هو يرى صورهم في التلفزيون بعضهم كتب على المدرعة «مرحباً أيها الوطن» أو«الرفاق الذين سقطوا في المعارك يعيشون معنا»، دبابات الجيش الأحمر الصدئة موجودة في كل مكان يلهو بها الأطفال. من الصعب عليه التفكير أن الأمر سينتهي بهم هم المارينز إلى هذه الصورة، في المملكة العربية السعودية أو في غيرها، فما حدث في فيتنام لا يمكن أن يتكرر، وكان يظن أن الجنرالات في البنتاغون فهموا الدرس؟ لكن لا شيء من ذلك، كل

شيء هادئ على الجبهات، ليس هناك أتعس بالنسبة لجندي من أيام السلم «وي مست ستوب ذِس ستيوبيديتي!».

باستثناء تلك الجملة الأخيرة التي سمعها دانييل بروكس من الرائد راي پرينس لم يعرف منه المزيد. لكن سلوكه وكل ما قام به في الأيام التي تلت وقف إطلاق النار بين العراق وإيران أو بعد خروج القطعات العسكرية الروسية من أفغانستان بستة شهور من ذلك ما منحه الانطباع وكأن الرائد تذكر الشخصية التي كانها قبل نقله إلى المملكة السعودية. الرائد الصارم الذي لا يتسامح مع أي خطأ، الرائد الصارم الذي رفع شعار «سيرج أند ديستروي» لا بد وأن يعود إلى نشاطه السابق: البحث عن العدو وتدميره. طبعاً التقسيم الذي تحدث عنه دانييل فيما يخص العسكريين موجود عند المقيمين في القاعدة وحتى عند أولئك العسكريين المتزوجين منهم والذين جلبوا أغلبهم عائلاتهم معهم أو حرصوا على زيارة العائلة لهم من فترة إلى أخرى. أغلبية العسكريين الذين جلس معهم في مقهى القاعدة وخاصة أولئك الذين هم أكبر منه سناً وسبق لهم وأن اشتركوا في الحرب الفيتنامية أو أولئك الذين لا يعملون معه في الوحدة اللوجستية شكوا من ما أطلقوا عليه مضيعة الوقت بأداء الواجبات القاسية المضنية التي عليهم تنفيذها يومياً والتي لا تترك لهم حتى الوقت الكافي للجلوس في المقهى والتمتع بالجو الهادئ

والجميل رغم كل شيء، أو استنشاق الهواء النقي مقارنة بهواء ساحات التدريب وعواصف الغبار الدائمة. بعد التمارين ليس هناك غير النوم أو شرب بيرة والاسترخاء في الغرف أفضل حتى من زيارة دار السينما في القاعدة، وحسب رأيهم، الحرب أفضل من ممارسة تمارين لحرب افتراضية متخيلة. الحرب الحقيقية واجباتها واضحة. كلٌ في مجال اختصاصه. ثم إن الضباط يصبحون في الحرب أكثر طواعية حتى وإن لم يساهموا في الحرب مباشرة كما في الحرب العراقية الإيرانية والحرب في جبال الهندكوش. فما إن يشعروا بأهميتهم في تلك الحرب حتى ينشأ بينهم وبين جنودهم نوع من الزمالة والأخوة. لكن وتلك هي المصيبة فإن أغلب هؤلاء الضباط يتحولون بين ليلة وضحاها إلى وحوش كاسرة في أوقات السلام يرون الجندي هو العدو المفترض الذي عليهم مقاتلته إن لم يروا فيه العدو الذي يجب تدميره. حيرة. هل هم هؤلاء الذين عرفهم من قبل؟ فإن لم يكن دانييل متفقاً في الرأي مع تلك التفسيرات التي سمعها من الجنود ربما لأنه وبسبب عمله في الإعاشة لم يعش الحرب على خطوط الجبهة وربما لو كان أبوه على قيد الحياة لسأله عن رأيه في هذا الموضوع. لكن شعوره من الناحية الأخرى أن ما قالوه صحيح إلى حد ما في حالة الرائد راي پرينس أو كأنهم في حديثهم ذلك تحدثوا عن عسكري واحد وحسب: الرائد راي پرينس ولم يشأ البوح

بذلك لأحد في كل الأحاديث تلك التي دارت في المطاعم أو استراحة المقهى أو على مصاطب المتنزه في القاعدة الجوية. حافظ دانييل على صمته. كان يصغي فقط. ربما ظناً منه أنه يبالغ وأنها مسألة وقت وسيعود الرائد إلى صوابه. لكن عبثاً. راي پرينس لا يستطيع إلا أن يكون أميناً لنفسه. الرائد راي پرينس بكل ما يحمله في داخله من غلاظة واستبداد وعندما اضطر في النهاية إلى الحديث مع صديقه دافيد باربييرو «وايتمان الأسود» عن الموضوع فلأنه لم يجد شخصاً آخر يلجأ إليه، ربما ليساعده على الانتقال إلى قاعدة أخرى. القاعدة الأميركية في حفر الباطن مثلاً وإن كان من الصعب عليه تنفيذ ذلك بوقت سريع فهو يقول له ذلك لكي يكون على علم بما يمكن أن يحدث له في المستقبل ولأن ما حدث له في ليلة باردة وفي ساعة متأخرة من الليل في «أم القواعد» القاعدة العسكرية في الظهران، يمكن أن يتكرر ثانية أو يُمكن أن يحدث لجندي آخر. لم يأمل بذلك لأن الغضب أو الاحتقار الذي أظهره تجاهه من جديد الرائد پرينس كأنه أرجعه إلى الرائد الصارم كما عرفه قبل العمل في «أم القواعد». لم يره يستخدم مع جندي آخر غير الصرامة؟ نعم، خبرها جميع جنود الوحدة اللوجستية منه، لكن الاحتقار؟ كلا، حتى أنه تحول بين ليلة وضحاها من «سمايلي مان» إلى «شت مان» كأن الزواج الكاثوليكي بين الاثنين انتهى. على أحدهما

التنحي عن الآخر. ففي اليوم الذي تحدثت به وكالات الأنباء ومحطات الراديو والتلفزيون عن انسحاب الجنود الروس من أفغانستان سمع دانييل بروكس طرقات قوية على باب غرفته. كانت ساعة متأخرة من الليل وكان دانييل يغط في نومه حتى أنه بذل جهداً استثنائياً ليلقي بالبطانية عنه ويغادر السرير. كان شهر فبراير الذي يكون الجو فيه عادة بارداً جداً في هذه المناطق، خاصة أنّ قاعدتهم وقعت على هضبة عالية قريبة من الصحراء، وعندما فتح الباب ورأى الرائد راي پرينس يقف أمامه أراد أن يقول له للوهلة الأولى، لماذا لا يزوِّدون غرفهم بالتدفئة المركزية لكنه عدل عن ذلك. ليس لأنه ضحك في سره من سذاجته وهو يتذكر كيف عاقبه الرائد قبل سنوات في أول يوم التحاق له في الجيش بسبب شكواه من الحر في المخازن بل لأن الرائد لم يترك له مجالاً للتفكير. إذ ما إن رآه يفتح الباب حتى تهالك عليه ليمسكه من ياقة قميصه بكلتا يديه ويهجم عليه بكل ثقله قبل أن يتسنى له أن يفرك عينيه لكي يتأكد من أنه لا يحلم. إنها المرة الأولى التي يزوره فيها في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل بل هي المرة الأولى التي يراه فيها بمثل هذا الوضع ولو لم يسنده دانييل لسقط الرائد بكل ثقله على الأرض مباشرة. كان ثملاً. رائحة الويسكي القوية التي فاحت من فمه وبقايا قنينة الجوني ووكر التي حملها بيده اليسرى هي دليل على ذلك. كان يعرف أن الرائد يشرب

كثيراً مثل العديد من العسكريين في القاعدة. لكن أن يصل إلى هذه الثمالة وفقدان التوازن فذلك ما يراه للمرة الأولى. كان على دانييل أن يجمع قواه بسرعة وينسى البرودة في الغرفة وخارجها. في البداية حاول أن يدخله إلى غرفته المتواضعة لكنه وعندما شعر بيد الرائد تدفعه أيقن أن عليه أن يذعن لرغبات الرائد وإن كان ثملاً «شت مان تك كيرا!» قال له بصوت مترنح هو الآخر «آي ﮔِڤ أوردَر هيرا!». «أوكي، سَير» رد عليه وهو يأخذ التحية له رغم أن وضعهما هما الاثنين بدا مضحكاً، هو بسروال النوم والضابط بالبدلة العسكرية لكن بأزرار القميص المفتوحة وبأطرافه التي خرجت من جانبي البنطلون. كان لا بد له أن يذعن لرغبات رئيسه بغض النظر عن المهمة التي خبأها له. لم يفهم الكلمات التي خرجت من فم الرائد بعد ذلك بصعوبة «فَك أوف» إلا أن حركة يديه وسحبه له في البداية بكلتا يديه رغم صعوبة ذلك بسبب إصراره على الاحتفاظ بزجاجة الويسكي التي كان يكرع منها بين الحين والآخر، أجبرته أن يتبع الرائد حيثما شاء. كان عليه أن يحتال بطريقة أو بأخرى لكي يدخل إلى الغرفة مجدداً ويلبس بدلته العسكرية بسرعة. كانت غرفته مرتبة بشكل جيد. لم يحتج الوقت الطويل للعثور على البدلة. لبسها بسرعة وعاد إلى الرائد الذي أسند جذعه إلى الباب وظل واقفاً هناك ينتظر دانييل لكي يخرج له ببدلته العسكرية «فك أوف سولجير» ردد مترنحاً وسار أمامه.

وعندما أصبحا في الشارع المبلّط الذي يقطع القاعدة من الشمال إلى الجنوب رأى دانييل سيارة جيب صغيرة. سيارة الرائد الخاصة به والتي يستخدمها فقط لأغراض خاصة. قاده الرائد إلى مكان الجلوس في مقدمة السيارة وكأن دانييل هو السكران وليس الرائد. دفعه إلى الداخل وأغلق الباب «وي گِف أ ليتيل ترِپ أراوند». قال ذلك ثم دار دورة صغيرة حول السيارة وصعد ليجلس عند مقودها «فَك أوف» ربما ردد تلك الكلمة سبع أو ثماني مرات لكن في المرة هذه وهو يضرب بيديه على مقود السيارة ولم يتوقف إلا بعد فتحه قنينة الويسكي وشربه كل ما تبقى فيها دفعة واحدة، ورميها إلى خلف السيارة. ليشغل المحرك ويضغط على دواسة البنزين. لم يجد دانييل في تلك اللحظة سوى رسم علامة الصليب، لكن سماعه تعليق الرائد وهو يسخر منه «فَك ذَم ثريسوم» جعله يتمتم صلاته باسم الأب والابن والروح القدس بصوت خافت لا يُسمع «وي گو تو پلييـنگ وور شيت مان» قال له الرائد «ذِس تايم، آي ويل شو يو هاو تو بي ريلي سولجير». استحوذ الخوف في حينه على دانييل وهو يرى الرائد يدور في السيارة في القاعدة. كان ثملاً جداً. لم يعرف دانييل حتى تلك اللحظة هدف الجولة. إنَّ ما يراه الآن لهو مغامرة كبيرة للاثنين معاً. ماذا لو فقد الرائد السيطرة على المقود ودخلت سيارتهم في إحدى البنايات؟ كيف يقول للرائد أن ما يقوم به ليس حماقة

وحسب بل مخالفة إن لم يكن جنحة يُعاقب عليها القانون وإن عواقب الأمور ربما تكون وخيمة لكنه جندي في المارينز، لويتنانت ثاني عليه إطاعة رئيسه حتى إذا كان على خطأ. عبثاً حاول ثنيه عن ما يفعل ما جعل غضبه يتزايد لدرجة أن الرائد مد رأسه من السيارة مرات عديدة وصرخ وسط عتمة الليل «آي وونت تو شو ذِس سولجير ووتس أ فرينت إز» فيما كانت قدماه تضغطان على دواسة البنزين وكان على دانييل أن ينتظر قليلاً ليسمع صوت فرامل السيارة القوية ولينزل من السيارة ويسحبه من كم قميصه بالقوة. لحسن الحظ كان القمر بكامله يتوسط السماء وينير الساحة التي امتدت أمامه والتي بدت مثل البحر وهي تعكس أشعة فضية، بالضبط عند السور الذي تنتهي عنده حدود القاعدة ويبدأ الطريق الصحراوي القديم.

كانت هي المرة الأولى التي عرف فيها دانييل بوجود الموقع الأثري عندما ذهب إلى مدرسة الصداقة السعودية الأميركية من أجل التوسط لنقل سارة ابنة متعهد القاعدة الجوية غازي الجاسي إلى المدرسة. في ذلك اليوم لفتت نظره صورة وُضعت على طاولة مديرة المدرسة. كانت بالأحرى رسماً لفتاة جميلة مدفونة في سرير جنائزي. ربما ما كان أبدى هذا الاهتمام الاستثنائي للصورة التي وضعتها المديرة بعناية بإطار خشبي بدا ثميناً لو لم يفكر قبل الدخول في موضوع

تسجيل سارة بالتمهيد لما جاء من أجله بالحديث عن موضوع آخر. في هذه الحالة لم يكن هناك أفضل من الحديث عن تلك الصورة؟ «أوه ذِس ﭘيكـﭽر إز نايس إزنت إت؟» أخبرته المديرة كيف أنها تعتز بهذه الصورة التي رسمتها طالبة صغيرة موهوبة بالرسم والتي نقلتها عن صورة موجودة أصلاً في متحف الدمام ولأن دانييل بروكس من القلائل الذين يتركون الصدفة تمر هكذا، قرر في اليوم الثاني زيارة المتحف ليس بسبب الصورة تلك وحسب بل لأنه للمرة الأولى يعرف بوجود متاحف في مملكة الغبار ولدهشته وجد المتحف فارغاً من الزوار حتى أن العاملين الخمسة أو الستة أو ربما السبعة هناك استقبلوه بحفاوة مبالغة وكأنهم لم يصدقوا رؤية زائر بينهم كما كانت مناسبة لمدير المتحف لكي يدعوه لشرب فنجان قهوة عربية معه. خلال جلسته في غرفة المدير البسيطة وأثناء قيادته له في أروقة المتحف المتواضع تحدث المدير معه بلغة إنكليزية واضحة وإن تشبعت بلهجة أميركية واضحة مبدياً سعادته من استقباله له هناك «ذه ﭘـيـﭘول دونت بيليـڤ ذات وي هاڤ أني ميوزَيم» ثم أبدى تفهمه لذلك لأنه هو الآخر لا يصدق أحياناً أن عندهم متحف لأن كل ما يعثرون عليه من آثار عليهم تسليمه إلى إدارة المتحف المركزي في العاصمة الرياض كما أنهم لا يستطيعون التنقيب أو الحديث عن الآثار دون أخذ موافقة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك ما

جعل أغلب البعثات الأثرية تحزم أمتعتها وترحل «وِچ إكسـپَرت آكساپت تو وورك إن ذِس كونديشينس؟» تساءل المدير وهو يعرف أن أغلب المنقبين يتطلّعون إلى أن يكونوا رائدين سباقين بالاكتشاف «بَت آت أني رَث وي هاڤ سام پيسَس هير» نعم، متحفهم المتواضع يحوي للأسف على أشياء بسيطة. صور توثق الآثار التي عثروا عليها. صور نقوش على الجدران أو صور لقطع أثرية وهو سعيد رغم ذلك لأن الهيئة سمحت لهم على الأقل ببعض الصور. ثم شرح له كيف أن القطع الأثرية التي يراها في الصور تعود كلها إلى حضارة قديمة اسمها «حضارة العُبَيد» عاشت في المنطقة الشرقية في الألف الثاني قبل الميلاد، رغم أن علماء الآثار عثروا على آثار شبيهة في تل عكة في مدينة أريدو في جنوب العراق في الألف الخامس قبل الميلاد لها نفس الطريقة بصناعة أدوات الفخار أمر شجع على وجود نظريتين لمنشأ تلك الحضارة: النظرية الأولى تقول إنهم جاؤوا من العراق فيما تقول الثانية إنهم جاؤوا من المنطقة الشرقية، ثم سأله دانييل عن الصورة التي رآها على طاولة مديرة مدرسة الصداقة الأميركية السعودية، ولا يدري دانييل لماذا ابتسم المدير في حينه قائلاً «آي سي يو لايك ذِس پيكـچَر؟» فأجابه دانييل «يَس إتيز گريت وان»، «آي شو إت يو» قال له المدير وقاده إلى زاوية الغرفة. كانت الصورة محفوظة في مربع زجاجي خاص معزولة في مكان خاص كانت صورة لفتاة

مدفونة في سرير جنائزي مصنوع من الخشب والمعدن أرجله من أربعة تماثيل، كل تمثال مواجه للفتاة، أخبره المدير كيف أنهم عثروا عليه في موقع أثري مهم في شرق الجُبَيْل على الطريق التجاري القديم الذي ربط الجُبيل بالبصرة في جنوب العراق «يو سي؟» سأله وهو يوضح له الفارق بين القبور التقليدية الآن والقبور القديمة، التقليدية يكون فيها وجه الميت باتجاه القِبلة، مكة في الثانية يُدفن الجثمان من الشرق باتجاه الغرب. الأولى تمثل شمال جنوب فيما تمثل القديمة شمال غرب. أمر غريب أليس كذلك؟ «يَس فَري سترينج» لكن الأكثر غرابة بالنسبة لدانييل هو معرفته أن المقبرة الكبيرة التي عثروا عليها والتي تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، المقبرة التي أطلقوا عليها مدافن جنوب الظهران والتي حسب ما قال له مدير المتحف الشاب إنها كانت المقابر التي دفن فيها السومريون موتاهم. المقبرة هذه بُنيت عليها القاعدة الجوية الأميركية في جنوب الظهران في الجهة الجنوبية من القاعدة بالضبط عند السياج الذي يفصل القاعدة عن الطريق الصحراوي القديم وهو الموقع الذي أصبح مجرد ساحة لتمارين الرميّ في القاعدة. وهذا يعني أن دانييل وقف هناك وداس ببسطاله على موتى دُفنوا هناك! وعندما أخبر دانييل الرائد بالقصة وذكّره كيف أن اللّه طلب منهم في الإنجيل احترام الموتى أجابه الرائد أولاً وهو يحاول أن يضبط أعصابه «فورگَت ذه بايبِل پليز» فرد عليه دانييل

«ذاتز ذه لو سِير آي كان نوت فورگَت إت» وراح يذكره بما جاء في العهد القديم وكيف أن «كل من مسّ على وجه الصحراء قتيلاً بالسيف أو ميتاً أو عظم إنسان أو قبراً يكون نجساً سبعة أيام» (العهد القديم عدد 19 و20 صفحة 345) وهو لا يريد أن يكون أحد هؤلاء النجسين الذين تقع عليهم لعنة الرب لأن الأرض التي يتدربون عليها مليئة بعظام الموتى. تلك الجملة ومحاولة دانييل قراءة مقاطع أخرى من العهد القديم جعلت الرائد يزم حاجبيه ويفور بالغضب. ضرب الطاولة بكلتا يديه وبقوة قائلاً «آيام ذه گاد أوف ذه سولجَر شِت مان أند آي ويل سَند ذِس فاكينـگ موزيوم دايركتور تو ذه هيل» وما كان تهديداً تحول إلى حقيقة. إذ عندما ذهب بعد أسبوع إلى المتحف وسأل عن المدير تجنبه العاملون هناك جميعاً وعندما سأل غازي الجاسي أجابه هذا، لا أحد يعرف «أول ذه فاميلي دِساپير نو بادي نوز» وعندما سأله «بَت هاو يو نو» أجابه غازي «بيكوز ذه گَرل هو ديد ذه پيكچَر إز كلوز فرَيند أوف سارة». ليالٍ طويلة لم ينم دانييل جيداً وكان يرى العائلة جميعها على شكل أشباح، تزومبيز مثل تلك الهيئات التي ملأت كتب القصص القديمة. كم عذبه ضميره أن يكون هو مسؤولاً عن موتهم مثله أو عن دفنهم في المقبرة القديمة مع أجدادهم الأوائل، هناك حيث امتدت المدافن التي تحولت إلى ساحة تمارين للرماية، تُرى كم هو عدد الموتى الذين ازدحموا

هناك؟ حاول الرائد جلب دانييل للرماية هناك دون فائدة لكن حالة الإنذار التي عاشتها القاعدة الجوية بسبب الحرب بين إيران والعراق لم تسمح له أن يكون لوحده عند ساحة الرماية مع دانييل، دائماً مع الجنود الآخرين ومع ضباط مختصين بالرماية، لكن عسكري مثل الرائد پرينس يملك ذاكرة كل جمال الصحراء لا بد له أن يحقق ما نوى عليه، وإذا لم يفعل ذلك في حالة صحو فإنه سيفعل ذلك في حالة سكر «دو يو سي؟» صاح به في تلك الليلة بصوت يشبه الزئير «آي برينـگ يو تو ذه نَـگَيز دايناستي» وعبثاً صحح له دانييل كلمته، قال له بأن ما يقوم به تزوير للفظة «العُبَيد» الذي هو اسم علم عادي، كان يلفظها «العَبيد» ليصبح معناها «سِكْلَـڤ» وكما يبدو لم يكتف الرائد بجلبه إلى هناك وحسب بل أراد إهانته أيضاً، إذن تلك هي «جبهته» التي تحدث عنها؟ «نـَگَيَز فرينت»، حسب تعريف الرائد، وعندما رآه دانييل يذهب إلى صندوق السيارة ويخرج صندوق عتاد، عرف أن العتاد الموجود في الصندوق يكفي للرمي لليلة كاملة ومن يدري ربما احتفظ الرائد في صندوق السيارة بصناديق أخرى؟ كأنه أراد عن طريق ذلك التعويض عن كل تلك الأيام التي لم ينجح فيها بجلبه لوحده إلى ساحة الرماية «ناو أونلي يو أند مي شِت مان» قال له وهو يلقي الصندوق على الأرض وليس صوت ارتطام الصندوق الثقيل على الأرض الذي تردد في تلك الليلة لوحده في جنبات الليل بل صوت

الرائد وهو يصيح «يو سي شِت مان» قال له وهو يلهث مثل كلب مسعور «لوك ذَر» فهم دانييل الهدف الذي جاءا من أجله في هذه الساعة المتأخرة من الليل. أن يصوب باتجاه تلك القطع المعدنية الأسطوانية التي نُصبت في العمق على شكل أهداف لكنه ورغم ضوء القمر الذي انتشر هناك ورغم الإصرار الذي سيطر عليه في تلك اللحظة أن يظل محافظاً على صحوه بدت له الأهداف التي امتدت تحت مثل أشباح بشرية وقفت أو رُبطت هناك، أشباح سوداء كأن الدائرة السوداء التي رُسمت في وسطها تحولت كلها إلى «عَبيد» كما لفظها الرائد پرينس، نعم لا يدري لماذا تخيل أن ما يراه في تلك اللحظة حقيقة وليس هلوسة من هلوساته التي سيطرت عليه بعد اختفاء مدير المتحف وعائلته، وكان من العبث أن يطلب من الرائد السماح له بالذهاب إلى هناك والتأكد من الأهداف، بالتأكيد سيزيده الطلب غضباً وصراخاً، لا مفر. وعندما رأى دانييل الرائد ينهض من مكانه ويسلمه بندقية أخرجها من الصندوق ويصرخ به «يو هاف تو شو مي هاو تو شوت» وهو يشير ناحية الأهداف لم يفكر إلا بأمر واحد في تلك اللحظة: الهروب من المكان، وليكن ما يكون، من أين جاءت لدانييل تلك الطاقة أن يركض بكل قوته، لا صياح الرائد ولا العيارات النارية التحذيرية التي أطلقها خلفه في الهواء، جعلته يتوقف عن الركض.

رقد دانييل بروكس مريضاً قرابة شهرين أو أكثر. في

البداية في مستشفى شركة آرامكو لمدة أسبوع قبل أن يأمر الطبيب المختص بنقله إلى مستشفى مدينة خالد بن عبد العزيز العسكرية. الطبيب عرف بالقصة التي شاعت في اليوم الثاني على كل الألسن في القاعدة وكان من الصعب تفاديها لأن الرائد راي پرينس لم يكتف بإطلاق النار باتجاه دانييل بل حتى عندما اختفى هذا عن أنظاره بدأ هو بحفلة «شوتينـگ أورجيا» كما جاء في التقرير الذي أعدته المحكمة العسكرية ضده في اليوم الثاني. أفرغ كل صندوق العتاد على الأهداف التي انتصبت أمامه والتي لسوء حظه أخطأتها رصاصاته كلها. «ثاوسند أند وان شوت» و«نو وان لانديد إن ذه گول» قالت له هيئة المحكمة بسخرية. نعم حسبوا الخراطيش التي ملأت الساحة الخلفية عند الأهداف ولم تصل أية طلقة من ألف طلقة وطلقة أطلقها الرائد باتجاه الهدف، كيف يكون ذلك؟ سألته المحكمة. فأل سيء بالنسبة له، لأن الحرب التي أراد أن يريها لأحد جنوده أثبتت أن الكومندانت الميجر راي پرينس نسي فن إطلاق النار وأن الحجة هذه بالذات التي استخدمها ضد اللويتنانت الثاني دانييل بروكس عارية من الصحة. كما يبدو أراد هو التمرن على إطلاق النار وزجّ جندياً آخر في القضية، زائد عن اللزوم ولن يؤثر في قرار المحكمة لأنها تجد أن الرائد استخدم الجندي كحجة لكي يمارس إطلاق النار في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وهو يعرف ما يشكله ذلك من

جنحة؟ كانت تلك هي المرة الأولى التي يخضع فيها الرائد پرينس لمحكمة انضباط عسكرية عليا مثلما هي المرة الأولى التي يتعرض فيها إلى التوبيخ. أمر سيء بالنسبة لملفه العسكري فقد خدم فترة طويلة في المارينز، صحيح أنهم نقلوه من فيتنام إلى السعودية بسبب تهوره كلما شرب قنينة من الويسكي أو دخن الماريوانا، وخرج يدور بسيارة الجيب لإطلاق النار على المدنيين، وهو يزأر «سيرج أند ديستروي»، لكنهم لم يعاقبوه حتى عند قتله عدداً منهم أكثر من مرة. وهذه المرة بدل تحقيق حلمه بالحصول على وسام، حصل على ما يعيق ترفيعه درجة، ناهيك عن البند الآخر الذي تضمنه التوبيخ وهو التوصية بنقله إلى القاعدة العسكرية الأميركية في حفر الباطن، هذا يعني أنه لم يعد رئيساً على دانييل بروكس. كل ذلك عرفه دانييل لاحقاً في مستشفى مدينة الملك خالد بن عبد العزيز العسكرية بعد نقله إلى ردهة الأمراض العصبية. أخبره بذلك صديقه دافيد باربييرو الذي عمل في حينه في مكان قريب من المستشفى في قاعدة حفر الباطن.

غادر دانييل المستشفى بصحة جيدة، كان قد تعافى تدريجياً، أولاً من صدمة إطلاق النار، خاصة وأنه عرف أنه سيلتحق بوحدته هذه المرة دون أن يفكر بالرائد الصارم راي پرينس، وثانياً من الشعور بالذنب بسبب اختفاء مدير المتحف وعائلته، إذ من غير الممكن أن تتعرض عائلة كاملة للسجن أو الإبعاد هكذا بسهولة، لأن

أحد أفرادها تحدث بما لا يتفق مع نهج الحكومة؟ أخبره غازي الجاسي مرات عديدة بأن القضية أبعد ولا علاقة لها به أو بزيارته للمتحف. «ذه مَاتَر إز ڤيري دانجرَيس» لكنه لم يوضح له ماذا يعني بذلك، عندما سأله عن القضية الخطيرة التي يقصدها وكان عليه أن يلتقي بسائقه راجو من جديد ليسأله عن ذلك فحسب تفسيره، فإن ما حدث ليس بأمر جديد، من حين إلى آخر تختفي عائلات بأكملها بغض النظر عن اختفاء عائلات آسيوية لأن ذلك أصبح بمثابة روتين ثم «هو كير فور پور پيـپول لايك ذوس» كما قال راجو، بل يقصد عائلات سعودية «إيـڤري تايم إيكسـپلودِيرت بومب ذاي تَك نفرات مو مال وهابي» وكلما تحدث راجو عن اختفاء العائلات غير الوهابية، في حالة انفجار قنبلة أو حدوث هجوم إرهابي في مكان فإنه كان ينفخ نفسه ويعمل بوزة على طريقة سكان المملكة هو الآخر يتفاخر ويدعي أنه يعرف الكثير، لكن ربما كان هو على حق فمنذ اندلاع الثورة الإيرانية، والوضع تأزم في المملكة السعودية وخاصة في المنطقة الشرقية القريبة لإيران حيث تعيش أغلبية ليست على المذهب الوهابي. وإن لم يسمع ذلك على لسان الذين عرفهم مثل غازي الجاسي أو حتى الرائد راي پرينس الذي منذ حادثة الإنزال الأميركي الفاشل لتحرير الرهائن الأميركان المحجوزين في السفارة الأميركية في طهران ولم يترك مناسبة إلا وقال «وي هاڤ تو بومب فاكينـگ إيران...

أولل إيران» أو قراءته للجرائد التي تصل المعسكر، هيرالدون تريبون وواشنطن بوست مثلاً، نصحه راجو أيضاً أن يترك الحديث عن الموضوع. ألا يفكر به. على المرء ألا يدسّ أنفه فيما يعنيه في المملكة وإلا سينتهي إلى مصير مجهول «ذه كاونتري هاز بيـگ دِيزَرت» وهو رأى الصحراء تلك بنفسه «إنف تو بي ديسآپير ميليون أوف پـيـپول» نعم، تكفي لكي يختفي فيها ملايين البشر. ربما هو حديث راجو الذي جعله يتطامن مع ما قاله له غازي الجاسي الذي أقنعه أن يبعد فكرة أن له علاقة بما حدث للعائلة «يو دو ذه سَمْ وات سارة داس» قال له، بإشارة منه إلى الصدمة التي تعرضت لها ابنته عندما ذهبت إلى المدرسة ولم تجد صديقتها هناك، طبعاً سارة ما تزال صبية صغيرة «سمول بيبي» لا تفكر مثلما يفكر رجل ناضج بعمر دانييل والصغار ينسون بسهولة، إلا أن دانييل فكر ولكي ينسى الموضوع هو أيضاً حاول أن يحمل سارة على نسيانه وإلا لعاد وتذكرها، ففي كل المرات التي جاءت فيها مع أبيها إلى مكتبه ضمن زياراته الرسمية إلا استثناءات قليلة حملت معها رسماً من رسوم صديقتها وطلبت منه بلغة إنـگليزية بسيطة أن ينظر إلى جمال الرسم «هاو بيوتيفيل... يو سي؟»، كانت تعرف بحبه لرسومات صديقتها وكان دانييل يبذل جهداً استثنائيا لتغيير الموضوع ليس لأنه لم يشأ مدح الرسوم أمامها فهي تعجبه هو الآخر؟ إنما لأنه لم يشأ منحها الانطباع خطأ

بعدم إعجابه لأنها كانت كلما بدأت الحديث عن صديقتها كلما كان من الصعب إيقافها، وإن عرض الرسوم هو حجة لا غير، ولأنه لم يستطع إيقافها كان يلجأ إلى حيل أخرى كأن يطلب منها بيع رسومها له مثلاً أو أن يسألها، كيف هي دراستها، وإذا كانت مرتاحة في المدرسة؟ وفي كل ذلك لاحظ دانييل، كيف أنها تصفن كأنها عرفت ماذا يسعى إليه، وفي الحالتين كان جوابها إما بهزة من رأسها تعني رفضها بيع الرسوم أو بكلمة واحدة «گوود». فيما يخص دراستها أو وضعها في المدرسة. كان دانييل يحار بتكملة الموضوع وغالباً ما كان أبوها هو الذي يتدخل فينقذ الموقف «سارة إز گرَيت ستودَينت» وهو فخور بها ولا ينسى وهو يقول ذلك أن يسحبها إليه، يضعها في حضنه ويقبِّلها على رأسها «دو يو نو سمايلي مان، ذات سارة إز نامبَر وان ذه بَست إن ذه إنكلِيش لاسون؟» وكان دانييل يبتسم كلما سمع ذلك رغم أنه يلاحظ كيف أن الفتاة الصغيرة تلك تغيرت منذ غياب صديقتها، ربما هي مسألة وقت وستنسى ذلك، لكن عليه أن يفعل شيئاً، وعندما سأله صديقه غازي الجاسي ذات يوم، إذا كان لا يعتقد، بأن الوقت قد حان لكي يتعلم اللغة العربية، فمن غير الممكن، أنه وبعد طوال سنوات الخدمة هذه في المملكة لا يتحدث لغة أهلها بطلاقة، فكر، بأن الوسيلة الوحيدة التي ستشغلها عن موضوع فقدانها لصديقتها، هو أن يتعلم اللغة العربية على يدها، «أوكي»، قال دانييل

لغازي، «آي ويل دو ذات، بَت وان كونديشين؟»، «أند وات»، سأله صديقه، فأجابه «ما ي تيـچَير مست بي سارة» اقتراح لم يلقى الترحيب عند غازي الجاسي وحسب، بل عند سارة أيضاً، التي لم تنسَ أن تقول لدانييل جملة ستظل عالقة في ذهنه، وسيتذكرها بعد سنوات طويلة: «سارة ويل تيـچ يو...أند...» ثم أضافت وهي تؤشر على نفسها «آرامكو وِل لَرن فروم يو إنـگليش» في تلك الأيام لم يجد جواباً أفضل من الابتسام، وهو يسمع الفتاة تتحدث عن نفسها، كأنها شخصيتان.

أمر عجيب، ليست الموهبة التي ملكتها سارة لكي تكون معلمة نموذجية، بل أكثر من ذلك الموهبة التي ملكها دانييل بالتعلم، وبزمن قياسي لم يتجاوز ثلاثة شهور بدروس مركزة هي فترة العطلة المدرسية كما اشترط عليه صديقه غازي الجاسي وهو أمر منطقي، لأن سارة ما كان لديها وقتاً طويلاً. وعلى مدى شهور العطلة الثلاثة تلك، جلبها أبوها يومياً إلى القاعدة العسكرية في الظهران. يجلسون ثلاثتهم في مكتب دانييل. كان الدرس يستغرق حوالي الساعتين، وكلاهما، المعلمة الصغيرة والتلميذ الكبير أبديا مهارة فائقة، كل على طريقته. وغالباً ما رأى دانييل غازي الجاسي يراقبهما من جلسته هناك، بانت علامات الفخر على وجهه وإن امتزج بشيء من الشعور بالقلق. إذ كلما رأى دانييل عينيه تتسعان تعبيراً عن دهشته لموهبة ابنته

كلما رآه بعد قليل يقطب حاجبيه ثم يزم شفتيه. ربما تمتم بكلمات ما. ظلت كلمات غير مسموعة. أو ربما شغلته شخصية ابنته الفريدة الطراز وراح يفكر بالأخطار التي يمكن أن تتعرض لها في يوم ما. فتاة مثلها لن تكون قابلة للترويض. حاول أن يخفي ذلك على دانييل في الأيام الأولى لكنه لم ينجح بذلك، عندما سأله صديقه عما يشغله بالتحديد فهو يرى فرحته بابنته التي تتراجع بعد قليل. في البداية حاول التملص من السؤال وكان يكتفي بجوابه «ناثينـگ إسبيشَلل» ولكن عندما لم يترك له دانييل مجالاً للمراوغة اعترف له غازي الجاسي بما يدور في رأسه من مونولوج، قال له: إن البلاد هذه ليست مكاناً صالحاً للبنات وإنها لجريمة كبرى أن ينجب المرء بنتاً هنا، أميرة كانت أم فتاة تنحدر من عائلة بسيطة، رغم اختلاف وضعهما الاقتصادي لكنهما يشتركان في المصير وحتى هو لا يختلف في تفكيره عن تفكير بقية الرجال في المملكة فمن الصعب على امرأة أن تقنع الآخرين بموهبتها أو بشخصيتها «ناو إز سارة أ چايلد... كان يو إيماجين وَن شي وِل بي وومَين؟» يعرف دانييل ذلك فلو لم تكن بمثل هذه السنّ لما طلب منها أن تدرسه اللغة العربية بل كان اقتراحه نوعاً من المزاح، ولقول الحق لم يفكر في البداية بالأمر جدياً، ربما لإلهاء سارة أو جعلها تنسى حكاية رسوم صديقتها والحديث عنها. لم يظن يوماً أن فتاة صغيرة في مثل سنها، وهي في طور التعلم،

تستطيع التعليم. عندما مرت الثلاثة شهور سريعة واكتشف أن الفتاة الصغيرة هذه، هي أكبر من سنها بكثير من خلال طريقتها المحترفة بالتدريس حيث كانت صارمة معه تماماً، مثلما يفعل أي مدرس مع تلميذه الذي لا يقوم بتنفيذ واجباته أو تحضير دروسه بأحسن وجه، واكتشافه لقابليته السريعة بالتعلم. لذا أصبحت قضية التعلم قضية جدية بالنسبة له، ولم يتردد من سؤال غازي الجاسي، إذا كان يستطيع مواصلة تعلمه في العطلة الربيعية التالية. ضحك غازي، وقال له، علينا سؤال المعلمة أولاً: أجابت المعلمة دون تردد بـ «يس» فهي الأخرى وجدت في التدريس فرصة لها لتعلم اللغة الإنـگليزية بسرعة، وعندما اكتشف دانييل أن نهمه بالتعلم يزداد ويزداد أصر على مواصلة التعلم في العطلة الصيفية التي تلت. أما في الفترة ما بين العطلتين (العطلة الصيفية تبدأ من شهر تموز/يوليو من كل سنة وحتى شهر سبتمبر/أيلول، فيما تبدأ العطلة الربيعية في منتصف فبراير/شباط من كل سنة وحتى منتصف شهر أبريل/آذار) فقد أطلق عليها الفترة التطبيقية وهي الفترة التي توقف فيها تماماً عن جولاته الصحراوية مع راجو وراح يقوم بجولات في السوق، بعض الأحيان يشاركه فيها غازي الجاسي، وعلى الأغلب لوحده، فبعد نهاية دوامه الرسمي كل يوم يستبدل ملابسه، يلبس ملابسه المدنية وينزل إلى السوق. وكان يقلد بسلوكه الناس المحليين، يدور في السوق ويساوم

على أسعار ما يريد شراءه، وفي كل تلك المرات لم يتردد من الوقوف أمام دكاكين الباعة ليسألهم باللغة العربية، وليس من النادر أن تختلط بها لهجة لغة السكان المحليين. من كان يظن أنه سيقف يوماً هكذا ببساطة في السوق ويتحدث مع الناس بلغتهم. كان يقف حائراً بعض الأحيان عندما لا تسعفه ذاكرته بتذكر الكلمات المناسبة أو عندما لا يعرف كيف يكوِّن جملة معينة، لكن تعثره هذا بالذات هو ما دفعه للتعلم أكثر، كان يعرف أهمية التعليم الذاتي «آوتو ديداكتيك» وذلك ما تعلمه في أكاديمية المارينز. اشترى كتب التعلم المدرسية إضافة إلى كتب أخرى من السوق. بدأ بكتب الأطفال وعندما تطور مستواه اللغوي بدأ باقتناء كتب أخرى. كتب الطبخ والفلك، دووابن شعر وروايات، ليس ذلك وحسب بل طبق نصيحة معلمته في أن يتابع يومياً مسلسل أو برنامج «افتح يا سمسم» الخاص بالأطفال لكن لا عيب أن يشاهده الكبار وهي واثقة أنه سيتعلم الكثير من هذا البرنامج ومن الممثلة العراقية الرئيسة التي دبلجت عدد لا بأس به من شخصيات المسلسل: إنعام البطاط والتي تفضلها على غيرها بسبب وضوح نطقها وصحة لفظها النحوي للكلمات. عليه فقط أن يبحث في التلفزيون عن محطة الكويت ويعثر على البرنامج. يعرف أنها كانت على صواب فهو حتى عندما كان في كوينز، في نيويورك لم يفوت فرصة مشاهدة هذا البرنامج بنصه الأصلي. أما أن يراه بدبلجته العربية

فهذا ما لم يفكر به. وعندما كان يسمع كلمة لا يفهمها يبحث عنها في القاموس وإذا لم يجدها يسأل سارة أو غازي الجاسي أو أحداً في السوق. وما لفت نظر الناس إليه هو أنه كلما صعبت عليه كلمة كلما لجأ إلى القاموس الصغير الذي يحمله في جيبه ويطلب من البائع أن ينتظر حتى يعثر على معنى الكلمة. لذا لقبه الباعة في السوق برجل القاموس. كان نهمه بالتعلم يزداد ويزداد. تنتهي العطلة الصيفية فينتظر بلهفة العطلة الربيعية وكان مثل من اكتشف كوكباً جديداً. وقدماه وطأتا أرض اللغات. كان مخدراً بعالمه الجديد مصراً على التعلم. لم يهتم أن وحدته دخلت في حالة إنذار وليس زملاؤه الجنود وحدهم الذين بدأوا يتحدثون عن حرب قادمة بل حتى السكان المحليون. الجيش العراقي دخل الكويت ويجب إخراجه منها، هذا ما سمعه من الجميع. لم يهتم بوصول قطعات جيوش من مختلف بلدان العالم، من أربع وثلاثين دولة لهذا الغرض. كلا، لم يهتم أن كل شيء أشار بالفعل إلى أن حرباً جديدة ستنشب. المهم بالنسبة له مواصلة التعلم. كان دانييل مصراً على ذلك ولم يعرف أنه إذا نجح في العطلة الصيفية الأخيرة بالتحايل على وقته رغم حالة التأهب القصوى التي دخلت فيها قاعدته، أمُّ القواعد، القاعدة العسكرية في الظهران منذ دخول القوات العراقية إلى الكويت فإنه لن ينجح هذه المرة بمواصلة التعلم في العطلة الربيعية التالية. كما حصل له في

العطلة الربيعية قبل عام لأنه قبل العطلة الربيعية هذه وبأربعة أسابيع، بدأت حرب أخرى. حرب جديدة في شمال شرق مملكة الغبار. الحرب هذه المرة لن تحدث فوق أراض بعيدة بل هي حرب تتعلق بمصير كل دول الخليج، حرب ستقودها بلاده، الولايات المتحدة الأميركية، حرب ستقاتل فيها قطعات جيوش قادمة من مختلف بلدان العالم، وأحد تلك القطعات التي ستتقدم إلى الجبهة هي قطعته العسكرية المتواجدة في أم القواعد ليس غير والتابعة للقاعدة الجوية في الظهران. ولو كان الميجر الصارم راي پرينس هناك، لقال له، الآن لا مخرج لك، لا بد لك أن تعيش الحرب. لا بد لك أن تفعل ما طلبته منك دائماً: سيرج أند ديستروي.

الدخول إلى المغارة

على عكس الوحدات العسكرية الأخرى التابعة للجيش الأميركي ولقوات المارينز بالذات والتي قاتلت طوال فترة الحرب على جبهة واحدة أو في مكان واحد، كان على وحدة دانييل وعلى مدى الشهرين أو أكثر بقليل، الفترة التي استغرقتها الحرب، التنقل من جبهة إلى أخرى، من مكان إلى آخر، وكان دانييل وزملاؤه الجنود يعملون مثل خلايا نحل، يدورون الجبهات، يزودون الجنود بكل ما يحتاجونه من تجهيزات: من البسطال العسكري، الجواريب، وحتى البدلة العسكرية وشامبو غسل الرأس والوجبات الغذائية، باختصار كل ما يتعلق بتنظيم توزيع المؤونة والعتاد. وكانوا يتنقلون حسب الحاجة الملحة لبعض الوحدات في حالة نفاذ مؤونتها أو حاجتها لعتاد جديد. أما وسائل تنقلهم فكانت طائرات الهيليكوبتير الخاصة بالشحن والتي استخدموها عند تجهيزهم الوحدات العسكرية التي دخلت مدينة كويت سيتي أو تلك التي طاردت قطعات الجيش العراقي الهاربة باتجاه الحدود العراقية ومن هناك إلى البصرة. كما جهزوا وحداتهم عن طريق الناقلات الجوية، في الأماكن القريبة أيضاً وفي حالات استثنائية استخدموا الشاحنات لتجهيز الجبهة عند اقتراب الوحدة منها. كما حدث عندما كان عليهم تجهيز قوات المشاة من المارينز في الخفجي أولاً على

الحدود الكويتية، عندما قيل إن فرقة مشاة عراقية دخلت من هناك بداية لهجوم بري سيشنه العراق على المملكة السعودية أو عند تجهيز قوات المارينز التي قامت بإنزال في اللحظة الأخيرة لكي تصد قطعات عراقية دخلت من هناك. وفي الحالتين تلقى دانييل بروكس الأوامر بتجهيز عدد من الشاحنات لنقل التجهيزات المطلوبة، خاصة فيما يتعلق بالمؤونة والماء لأن المنطقتين هما صحراويتان تماماً. وإذا كانت الوحدات العراقية التي دخلت الخفجي قليلة العدد، حتى أنهم لم يفهموا سبب قيام العراقيين بهذه الخطوة الشبه انتحارية، زج الجنود المساكين هؤلاء لكي يقاتلوا قوات لا تفوقهم بعشرات المرات عدداً وحسب بل تفوقهم بالتقنيات والمعدات، فهي مواجهة غير متكافئة سلفاً. أي هراء، وحسب ما سمع من بعض الجنود الذين وقعوا في الأسر أو الذين سلّموا أنفسهم حالما رأوا القطعات الأميركية قادمة، أنهم جلسوا في خنادقهم منذ أكثر من ثلاثة أسابيع وأن الأوامر التي تسلّموها من بغداد نصّت على وجوب بقائهم هناك والقتال حتى آخر رجل، وعليهم ألا يصدقوا حتى إذا سمعوا صوت رئيسهم يدعوهم للانسحاب، كل ذلك من أجل التمويه فقط. العراق مصر على الاحتفاظ بالكويت ولن يتنازل عنها هكذا ببساطة. صدق الجنود هذا الكلام أو انطلت عليهم الحيلة ولذا ظلوا هناك في خنادقهم يعانون البرد والعزلة في الصحراء، مقطوعين عن العالم الخارجي،

يتغذون من بقايا علب المأكولات القليلة التي بقيت عندهم، ويروون عطشهم من بقايا الماء القليلة. ولم يعلموا حتى بتوقف الحرب واستسلام العراق. لقد رأى دانييل ذلك على وجوههم وكيف أن التعب والمرارة والعزلة حفرت أخاديدها عليهم. ولو لم يتحدثوا أمامه ويفتحوا أفواههم لظن أنهم قادمون من كوكب آخر، أو كأنهم رجال أهل الكهف في العهد القديم، «سَڤِن سليـﭙـِرس»، ومن لم يمت منهم كان محظوظاً لأنه لم ينته للأسر فقط، إنما لأنه عثر على جندي أميركي يمنحه شيئاً من الماء والطعام، والأكثر من ذلك، يتحدث معه بلغته العربية، من كان يظن ذلك؟ كما قال له أحد الجنود الشباب من الأسرى وهو الجندي هذا الذي أخبره أيضاً بأن وحدتهم هذه ورغم كل وضعهم السيء الذي كانوا فيه تظل في حال أفضل من حالة الكتيبة العراقية الأخرى التي نجحت بالانسحاب لكي تقاتل على جبهة حفر الباطن. إنهما كتيبتا المشاة الوحيدتان اللتان زجت بهما قيادتهما العسكرية إلى الخطوط الأمامية، وحسب ما عرف منه، أن بقاءهم في الخفجي هو للتغطية أو التمويه لهجوم بري آخر تنفذه الوحدة التي نجحت بالانسحاب من جبهة حفر الباطن. الجنود المساكين. إنهم يجلسون بالتأكيد الآن في خنادقهم هناك يقاتلون القذارة والعزلة والخوف، عددهم ثلاثة أضعاف عدد وحدة الخفجي، لا يعرف الرقم الحقيقي لكن بينهم البعض من أصدقائه، وما يزال يشعر بغصة عندما

يتحدث عنهم، يتذكر كيف أنهم ودّعوا بعضهم وكانوا على يقين أنهم لن يلتقوا ثانية. ويأمل أن يقع صديقه في الأسر إن لم يستطع النجاة بنفسه. ولا حاجة للجندي أن يقول لدانييل لماذا؟ فما قاله فيه نبرة صدق؛ كان سعيداً لوقوعه في الأسر، سعيداً لأنه لم يمت. لم يستطع دانييل الحديث مع الجندي مدة طويلة كان عليه أن يصعد إلى الشاحنة التي ستأخذ الجنود الأسرى إلى سجن عسكري في الظهران، لكنه وقبل أن يودّعه سأله عن اسم صديقه في الكتيبة المحاصرة في صحراء حفر الباطن ففي حالة أسر الكتيبة سيبحث عنه ويبلغه منه سلامه، فأجابه الجندي، اسأل عن الجندي المجهول هناك وسيدلك عليه الجنود الآخرون. اسم غريب لجندي، اسم غير حقيقي طبعاً، لكن صديقي لا يريد أن يطلق عليه أحدٌ غير هذا اسم، يقول، كل الجنود هم الجندي المجهول الذي يموت على جبهات الحرب. ابتسم دانييل بروكس وودّعه ولم يعرف بأن الجندي الذي لقب نفسه بالجندي المجهول سيتحول إلى عشرات الجنود المجهولين على جبهة حفر الباطن.

الصورة الأخيرة التي ظلت محفورة في ذهنه هي صورة جنود كان من الصعب عليه التكهن بعددهم، بعضهم رفع يده إلى الأعلى، البعض الآخر وضع يديه على رأسه ومن كان في حوزته منديلٌ أبيض أو قطعة قماش، أية قطعة قماش، أخرجها من جيبه أو عثر عليها هناك على الأرض المهم أن يكون لونها أبيض لكي

يرفعها إلى الأعلى. بعضهم الأغلب لم يتحمل كثيراً. خانته قواه فسقط على الأرض، البعض الآخر رغم سقوطه ظل محتفظاً بقطعة القماش البيضاء. كأنه أراد التأكيد على استسلامه أو التأكيد على أن بقية قوة أو حياة ما زالت فيه وهذا ما جعله ربما يتمتم «پليز دونت كيلل مي» عدد لا يحصى من جنود منهكين تعِبين، جنود ارتسم الذعر على وجوههم، ذعر اختلط فيه شعور باليأس والفقدان، جنود لا يعرفون في أي مكان هم ولا متى وصلوا إليه. هؤلاء الجنود الذين جاؤوا رافعين أيديهم للاستسلام، كأنهم أرادوا بتلك الصورة أن ينسوا أنهم أُرسلوا إلى تلك الناحية ممن حفّزهم: أنتم حماة الوطن في ساحات الحرب. كم كان عددهم؟ ألفاً أم ألفين؟ ثلاثة آلاف أم أربعة؟ لماذا لا يكونون خمسة، ستة، أو سبعة آلاف؟ فماذا يعني العدد بالنسبة للضابط الذي قرر إرسالهم دون أن يرمش له جفن، إلى هذا المكان؟ ماذا قال زميله الضابط الآخر على الجبهة وهو يجيبه عن عدد الجنود الذين يحتاجهم على الجبهات؟ وماذا يهم الضابط، إذا كان الفارق بين مائة جندي وألف هو صفر وحسب، ولكن أليس الجنود على الجبهات هم مجرد أصفار؟ الجندي في الحرب مثل أية قطعة تجهيزات. كم بسطالاً جديداً تحتاج؟ يسأل العسكري المسؤول في وحدة التجهيزات، كم قطعة غيار؟ وماذا عن المؤونة والعتاد؟ كم صندوق عتاد أو قنابل حسب الأصناف والأنواع؟ كم عدد الصابون وكم عدد

السندويجات؟ الجندي في الحرب، ممكن أن يكون قطعة غيار أو بسطال، صابونة أو علبة أعواد ثقاب؟ جلكان ماء، علبة سردين، قطعة خبز، أو علبة سجائر. لو كان الأمر بغير هذا الشكل لما تكدس حشد الجنود ذاك، جنود من الصعب معرفة عددهم، أو المكان الذي جاؤوا منه، أو المكان الذي يسعون للوصول إليه؟ كأنهم رُميوا هناك إلى الأزل وبلا رجعة، وذلك ما تفسره نظرات الدهشة التي ارتسمت على وجوههم كأنهم فوجئوا بوصول الجنود الأعداء، أو كأنهم استسلموا لقدرهم وسيظلون لوحدهم في خنادقهم منكفئين حتى تقوم الساعة؟ أو في أحسن الأحوال، سيأتي رسول من قائدهم يخبرهم أن الوقت قد حان ليغادروا مواقعهم تلك. الحرب انتهت، وانهزم الأعداء والكل مدين لهم، بالذات القائد وجنرالاته، البلاد وسكانها، يقدمون الشكر لهم على هذا الصمود، وليهللوا للقائد ولله رب السموات والأرض الذي منّ عليهم بالنعمة هذه، سيوزع القائد عليهم الأوسمة والنياشين، وستُنشر صورهم وتتحدث عن إنجازاتهم نشرات الأخبار في محطات الإذاعة والتلفزيون وسيدور موكبهم شوارع العاصمة وتزغرد لهم النساء، سينشد لهم المغنون وستنطلق حناجر الشعراء في البلاد، تتغنى بانتصاراتهم، هم الجنود الصامدين، فلولا صمودهم كل هذه الشهور في خنادقهم على جبهة حفر الباطن أخطر الجبهات على هذه الأرض لما انتصرت البلاد في حربها العادلة وألحقت الهزيمة

بفلول الأعداء، عليهم فقط أن ينتظروا مهما طالت إقامتهم. ستة شهور أو أكثر وهم يقاتلون الغبار والعفن والعزلة والحشرات، لا ضير أن يحاصرهم الأعداء على مدى ثلاثة وعشرين يوماً، لا يهم أن مؤونتهم نفدت، لا ماء ولا غذاء، لا ضير أن اتصالاتهم مع مركز فرقتهم أو أية فرقة أخرى انتهت منذ أكثر من ثلاثة أسابيع، لا يهم أن عدداً غير قليل منهم سقط صريعاً إن لم يكن بسبب الجوع أو العطش أو المرض أو قرصة عقرب أو عضة أفعى في الصحراء وعندما يخرجهم العدو من خنادقهم التي تحوّلت إلى جحور لا يملكون قوة لمدّ أيديهم إلى أسلحتهم التي ركنوها هناك، قواهم خائرة، وشعرهم غطاه الغبار، هم ليسوا جنوداً، إنهم زومبيز، كائنات خرافية تخرج من قبورها ليس على عادتها هذه المرة في وضح النهار، ومن ظلت به بقية من حياة رفع جسده قليلاً وسجد على الأرض هناك رافعاً يديه إلى الأعلى أو واضعاً إياهما على رأسه. حركة تعلمها بالتأكيد من الأفلام الأميركية بالذات، ومن احتفظ سهواً بمنديل أبيض أو أية قطعة قماش، المهم أن يكون لونها أبيض، لوح بها إلى الأعلى تعبيراً عن الاستسلام، ومن حصل على القليل من الماء أو بلل على الأقل شفتيه ببعض قطرات راح يتمتم «ڀليز دونت كيلل مي» أي رعب انحفر على وجوه هؤلاء؟ هل عرفوا المصير الذي انتظرهم في تلك اللحظة، أم كانوا أمواتاً سلفاً مثل بقية كل الجنود المجهولين؟ ذلك ما فكر به دانييل بروكس

في تلك اللحظة ولا يدري لماذا شعر برجفة قوية استحوذت على جسده كأنه عرف أن الصوت الذي كرهه طوال سنوات خدمته في الجيش سيصرخ به، سيطلب منه أن يتقدم ويبدأ بإطلاق النار «فاينيللي، آي هاف يو هير» قال له راي پرينس وهو يقهقه عالياً «يو سي، گاي، آي تولد يو، وي آر لايك أ كاثليك ميريج... فور أيـڤير» جملة الرائد التقليدية التي تذكره بزواجهما الكاثوليكي المزعوم. من أين كان لدانييل أن يعرف أن الوحدة العسكرية الأميركية التي حاصرت الكتيبة العراقية على جبهة حفر الباطن وعلى مدى أكثر من ثلاثة أسابيع هي ليست غير وحدة المشاة التي نُقل إليها شريكه في الزواج الكاثوليكي، كما يحلو له أن يفتخر، الرائد راي پرينس؟ آه لو عرف ذلك من قبل لاخترع عشرات الأعذار لكي لا يأتي في ذلك اليوم مع شاحنة التجهيزات، قيل له، إن هناك مجموعة عراقية تعيسة «ميزريبيل إراكي سولجيرس» سمحوا لأنفسهم بالاحتماء في خنادقهم ظناً منهم أنهم سينجون وأن الكتيبة الأميركية التي أخذت على عاتقها الانتهاء منهم هناك هي كتيبة رمزية أصلاً، عدد محدود من الجنود لأن العراقيين بأسلحتهم المتخلفة وبقواهم الخائرة، بجوعهم وعطشهم لا يحتاجون إلى كتيبة عسكرية كاملة العدد. بضعة جنود أميركان تكفي لكي يخرجوهم من مخابئهم. فبعد ثلاثة وعشرين يوماً من الحصار لم تعد لديهم لا القدرة على القتال ولا على المناورة، بل

على العكس عليهم أن يشكروا «أوير سولجيرس» جنودنا لأنهم بالأحرى سيحررونهم من خنادقهم، أي جحورهم قبل أن يسقطوا ضحية جوعهم وعطشهم، يموتون، تغطي جثثهم رمال الصحراء وتتفسخ حتى قبل أن تنهشها الطيور الجارحة التي تدور بحثاً عن غنيمتها كما تفعل عادة في المناطق تلك. لن ترحمهم الطيور، مثلما المارينز، قيل له، ولو عرف دانييل بروكس أن الرائد الذي يقود الكتيبة الرمزية تلك هو ليس غير راي پرينس، لقال لهم في الكتيبة «فورگيت إت ذِس تايم» لأن پرينس وحسب ما عرفه سينقض عليهم تماماً، ولأجل إنقاذهم كان لا بد من إرسال ضابط آخر، ولكن الوقت متأخر الآن فهو الآخر وقع في المصيدة. لا طريق إلى الأمام أو إلى الخارج أو إلى ما حول. الشاحنتان الأخريتان اللتان رافقتاه في ذلك اليوم كانتا قد غادرتا المكان، أولاً لأن عليهما متابعة الطريق إلى قاعدة حفر الباطن وثانياً وذلك هو الأهم، لأن الرائد نفسه طلب منهما ذلك، ما عداه «يو هاف تو ستِه» قال له في اللحظة التي أراد فيها دانييل مغادرة المكتب «آي نيد يور هَلپ هير». في البداية لم يفهم دانييل سبباً لبقائه؟ متى احتاج الرائد مساعدته؟ بل متى احتاج الرائد مساعدة أحد أصلاً؟ كان دانييل بروكس ما يزال يقف أمامه في خيمته التي كانت بمثابة المكتب عند الخطوط الخلفية للكتيبة أو ما يطلقون عليه في أي الاصطلاحات العسكرية، المقر، المركز اللوجستي للوحدة

العسكرية، لكنه وقبل أن يعلق بكلمة واحدة طلب الرائد منه أن يتبعه فوراً ويصعد معه في سيارة الجي أم سي. كأن بقاءه بصحبة الرائد أمر مفروغ منه، وعندما لم يخفِ عليه دانييل قلقه، قال له، إنهم ينتظرون عودته في القاعدة العسكرية، قال له الرائد، بأن عليه ألا يقلق لأنه اتصل قبل وصوله بمقر الكتيبة وأخبرهم عن حاجته الماسة للويتنانت الثاني دانييل بروكس «دونت ووري سمايلي مان» دون أن يقول له طبعاً، ماذا يعني بذلك؟ حتى تلك اللحظة لم يعرف دانييل ما الذي أراده منه الرائد؟ فأن يتصل الرائد بالقاعدة العسكرية في الظهران وقبل وصوله، أمر يدعو للريبة؟ إن استخدام جندي من وحدة ما في وحدة أخرى ولفترة مؤقَّتة هو أمر شائع في الجيش، حصل له شخصياً مرات عديدة. الاستخدام هو ليس النقل ولكن حتى الآن كان استخدامه لأسباب ضرورية بالفعل، الاستفادة من خبراته، ولكن هنا في الصحراء وعلى جبهةِ الكلُّ يعرف عبثيَّتها ويعرف القدر الذي انتظر هؤلاء «ذوس ميزرابيل سولجيرس» أية فائدة سيجلبها بقاؤه؟ ولكن جندي مثله وحتى لو كان في رتبته، لويتنانت ثاني، ليس عليه غير أن يسير خلف من هو أعلى رتبة منه. وبين الواجب والفضول، لم يجد دانييل غير أن ينفذ ما أراده منه الرائد. تبعه بصمت محاولاً تجنب إثارة غضبه أو النطق ولو بكلمة واحدة طوال الطريق الذي كان عليهما قطعه بين مقر الكتيبة والموقع المتقدم لها أو

الجبهة رغم أنها ما عادت كذلك لأنه وحسب ما عرف من بعض الجنود الذين التقاهم في المقر قبل دخوله إلى مكتب الرائد أن القتال انتهى عند الجبهة بعد تسليم الجنود العراقيين أنفسهم، هذا إن صحت تسمية ما حدث بالقتال؟ كما علق بعض الجنود ساخراً «أن نيسيسيري فرنت» هذا ما عرفه هو أيضاً «جبهة غير ضرورية»، كأن العراقيين حضّروا لمفاجأة كبيرة أو كأن الذي وضع الخطة تلك وأرسل الجنود إلى ذلك المكان فكر بأنه نابليون الذي يرسل جنوده إلى معركة واترلو لكي يُباغت الجنود الأميركان أو قوات التحالف كما أراد الجنرال الفرنسي مباغتة البريطانيين، وعلى عكس دانييل الذي بدا ساهياً في حينه وهو في جلسته في مقدمة السيارة بذل الرائد كل ما في وسعه لكي يظهر سعادته بلقائه، هو دانييل من جديد «يو وِل بي سَرپرايس» قال له وهو يربت على فخذه، حركة أربكت دانييل قليلاً، ربما جعله خوفه في تلك اللحظة يشعر بتوتر مضاعف. كيف وهو يعرف نزوات الرائد جيداً؟ وهو لا يحتاج لمهارة العارف لكي يشعر بكارثة قريبة «بي ريلاكس سولجَر» قال له الرائد وهو يحاول طمأنته، لكن أسارير وجهه المنشرحة وابتسامته التي لم تخلُ من شماتة، تطلُّعه به من حين لآخر، وكان يصفِّر من حين إلى آخر وهو ينشد نشيد المارينز أثناء قيادته للسيارة، ثم يردد «ويل كام سمايلي مان إن ذه مليتيري فايت» كأن ذلك ما انتظره دانييل طوال سنوات

خدمته، أن يكون في ساحة المعركة، كل ذلك أكد لدانييل أن المفاجأة التي هيأها الرائد له لا يمكن أن تكون سارة. كيف وهو عاش مع الرائد ويعرف كل حركة منه، يعرف في أية ساعة يتغير مزاجه، ولماذا؟ لكن ما شَغَل دانييل حتى اقترابهما من الخنادق الأمامية هو: إذا كان قد اتخذ قراره بالصدفة ولم يضع خطة مسبقة، فكيف عرف بمجيئه وهيأ له ما ظنه سيكون مفاجأة؟ فباستثناء اسم الكتيبة وكلمة السر وقائمة التجهيزات التي تحتاجها كتيبة ما، لم يُعرف بالضرورة اسم الضابط أو العسكري المسؤول عن الشؤون اللوجستية في الكتيبة التي سيجهزها، إذن لا بد وأن الرائد قرأ أسماء العسكريين الذين سيأتون من كتيبة التجهيزات. إن قوائم الأسماء وكلمة سر مرور الشاحنات تصل عادة قبل وصولهم إلى الكتائب التي عليهم تجهيزها، فهو يستطيع تخيل سعادة راي پرينس وهو يفكر، ها هي فرصته المناسبة لكي يأخذ منه ثأره القديم، ولا يغير من ذلك أن الأمر بدا وكأن الرائد كان بحاجة ماسة له بالفعل. لماذا لا يكون ذلك المشهد معداً منه وهو يعرف إلى أي مدى يصل الرائد بخياله إذا تعلق الأمر بتحقيق أمر شرير، وهو في كل ما سيقوم أو سيأمر به لن يقوم بشيء غير تأييد ما ذهب إليه دانييل في ظنونه. إذ مباشرة وبعد وصولهما الخطوط الأمامية أو ما أطلق عليه بالجبهة وحتى تلك اللحظة لم يدرِ إذا كانا ما يزالان في الأراضي السعودية في صحراء حفر الباطن

أم أنهما كانا دخلا الأراضي العراقية في صحراء السماوة. كل ما يعرفه هو أنه وبعد نزولهما من السيارة قد سمع الرائد ينادي على أحد الجنود لكي يأتي ويقود اللويتنانت الثاني دانييل بروكس إلى مكانه «تك هيم تو هيز رايت پليس» ولم يعرف دانييل في الوهلة الأولى أن ما عناه الرائد «مكانه الصحيح» هو بالأحرى حفّارة انتظرته هناك. كان الغبار يغطي المكان بغزارة. غبار هبّ من كل الجوانب، لا يعرف دانييل إن جاء هذا الغبار من عمق الصحراء كالمعتاد في هذا الفصل من السنة وفي شهر مارس/آذار الذي لا يبخل بعواصفه الترابية أم سببه حركة الحفّارات التي انتشرت في المكان وتحركت وسط العواصف الرملية مثل أشباح عملاقة. كم بدا له هذا السؤال عبثياً، بطراً، في علاقته بالمشهد الذي رآه أمامه كأنه سبق وأن رأى المشهد هذا في أحد الأفلام أو ربما تخيل ذلك بمحاولة منه للدفاع عن نفسه أمام المشهد الذي هو أقرب للخيال منه للواقع، لو لم يكن الضابط الذي تسلم مسؤولية ذلك القاطع هو الرائد راي پرينس، ومهما حاول دانييل التركيز والعودة بذاكرته إلى الوراء فإنه لم يجد الرائد بمثل الحماس الذي وجده فيه في ذلك النهار وهو يوزع الأوامر على سُوّاق الحفّارات والجنود الآخرين الذين حمَل بعضهم بدل الأسلحة أدوات الحفر. كان من الصعب عليه وسط عواصف الرمل التي لم تتوقف عن الهبوب والتي دخل ترابها عينيه معرفة عدد الجنود أو عدد الحفّارات التي

تحركت وسط الغبار، كم كان عددها؟ لا يعرف، عرف الحفَارة التي كان عليه التوجه لقيادتها فقط، كما أراد أو خطط له الرائد. ظهر الجندي الذي لبى نداء الرائد من وسط الغبار فجأة، مثل زومبي، ليقوده إلى المكان الذي أشار الرائد إليه، ولدهشته رأى الجندي يسير ناحيته كأنه عرف بمجيئه أو كأنه عرف ما سيحدث بعد الآن ولو لم يتحدث الجندي معه باللغة العربية وبلهجة أهل الخليج لظن أنه هو الآخر جنديٌ أميركي تابع لكتيبة المشاة وليس كما عرف لاحقاً أنه أحد جنود قوات درع الجزيرة التي كان مقرها في قاعدة حفر الباطن. «حيّاك اللّه» قال له الجندي الذي رأى أن لونه مثله أسود عندما أصبح ملاصقاً له «الجندي الذي قادها أغمى عليه» قال له وهو يشير ناحية حفَارة كانت الوحيدة التي تخلَّفت عن بقية الحفَارات «قطري وأنت تعرف القطريين مايعين مخانيث؟»، من أين له أن يعرف القطريين أو العرب الآخرين الذين شاركوا قوات التحالف في الهجوم. لم يُعلِّق على كلام الجندي. بماذا يُعلِّق وهو مشغول بأمر واحد وحسب، فبشكل ما بدا له وكأن المشهد الذي دار أمامه أُعِدَّ باتقان إن لم يكن المشهد كله أقرب أن يكون من الساينس فيكشين. حفَارات تحفر وسط عواصف الغبار تلك وجندي أُغمي عليه كما ادَّعى الجندي، دليله، هل عليه أن يصدقه مثلما أراد الرائد راي پرينس منه؟ ولو انتظر قليلاً حتى صعوده الحفَارة التي وقفت بانتظاره هناك وقيادته لها باتجاه مستقيم لكي

يلحق بالحفّارات التي عملت هناك لما ظن أن المشهد بهذا الشكل؟ أو لما وافق على الصعود أصلاً؟ ولكنه الآن وهو يقود حفارته محاطاً بحفارات أخرى من اليمين واليسار. حفّارات تحفر وتحفر في البريّة تلك، وهناك ليس بعيداً عنها بكثير، ربما على مسافة عشرين أو ثلاثين متراً تكدس حشد جنود أمامهم مثل جدار، بعضهم جثى على الأرض فيما ظل البعض الآخر واقفاً، أغلبهم نصف عراة، اكتسى شعرهم بالغبار، زومبيز خارجون من قبورهم، قادمون من أزمان سحيقة لا تُقاس. عرف أن المصيدة التي أعدها له الرائد راي پرينس هذه المرة حقيقة واقعة لا محال، لا حاجة له لأن يفكر طويلاً ليعرف ما انتظره هو وزملائه ومعهم الجنود المتكدسين مثل تلال رمل صغيرة هناك. عرف أن ما سيحدث سيغير حياته منذ ذلك اليوم وأن بينه وبين قدره الآن مسافة ثوانٍ من الزمن، مسافة من الصعب قياسها. لبرهة تلفت حواليه ربما بحثاً عن ثغرة أو منفذ ينقذه مما هو فيه لكنه حتى إذا ألقى بنفسه وترك الحفّارة تسير لوحدها لن يستطيع إنقاذ نفسه من المصير الذي كان ينتظره هناك. هل يعتقد أنه وحده خطرت على باله فكرة الهروب؟ هل يعتقد أنه وحده فكر بعدم تنفيذ الواجب المطلوب منه تأديته في ذلك اليوم؟ الحل الوحيد هو أن يلقي بنفسه في الحفرة التي حفرها بنفسه أو في حفرة أخرى حفرها زميله الآخر لكن كيف يفعل ذلك وها هي الدائرة أُغلقت عليه؟ لا

طريق إلى الداخل، إلى الخارج أو إلى ما حول، فمثلما يعرف هو دانييل بروكس كل حركة يقوم بها الرائد الصارم، يعرف الرائد أيضاً كل حركة من دانييل. هكذا يعرف الاثنان بعضهما حتى في ذلك اليوم. إذن لا مفر. بالتأكيد عرف الرائد ما دار في رأس دانييل، ألم يتهرب قبل سنتين أو أكثر من الرماية في ساحة التمارين لعدم رغبته بإهانة الموتى المدفونين هناك؟ ما الذي يمنعه في المرة هذه ألا يفكر أيضاً بالهروب من أداء المهمة التي ألقيت عليه؟ لكن ما لم يعرفه دانييل هو أن الرائد لن يترك له المجال بالهروب في المرة هذه ليس لأنه عرف عنه كل شيء، لم ينسه طوال هاتين السنتين، إذ منذ أن انتقل إلى وحدة المشاة فعل كل ما في وسعه لكي يعرف ماذا يفعل دانييل. جمع عنه كل المعلومات وهذا ما جعله يرسل له في ذلك اليوم جندياً صومالياً من قوات درع الخليج لأنه عرف أن دانييل تعلم اللغة العربية، كلا، وليس لأن الرائد اتخذ كل الاحتياطات اللازمة في ذلك اليوم لكي تظل الحفَارة التي يقودها دانييل محاطة ببقية الحفَارات وهذا ما طلبه بنفسه من الجنود الآخرين ألا يتركوا اللويتنانت الثاني هذا يغيب عن أبصارهم، كلا، ليس لهذين السببين بل لأن الرائد ببساطة هو المسؤول في حينه عن عمل الحفَارات على خط الجبهة ذاك، وأن حركة الجنود مرتبطة بإشارة منه وهي مشكلة دانييل الذي لم يعرف أن كتيبة المشاة التي قالوا عنها أميركية هي ليست غير قوات درع

الخليج. الضباط الذين أشرفوا على عملها فقط كانوا أميركان. عشرون ضابطاً بعدد الحفّارات وضباط المشاة أولئك ومعهم قوات الدرع المشاة خضعوا كلهم لأوامر الرائد راي پرينس والذي لم يكتف بإبلاغ الضباط والجنود بمراقبة دانييل بروكس بل وضعه تحت مراقبته شخصياً. لم يسد عليه طريق الرجوع بسيارته وحسب بل نزل من السيارة وسار خلفه وهو يشير له أن يتقدم كلما رآه يلتفت إلى الوراء، كأنه انتظر اللحظة تلك.

«وت كونسيدَر يور سَيلف» سأله الرائد راي پرينس «ناتان ذه وايز؟» كانت تلك اللحظة التي وقف فيها الرائد إلى جانب الحفّارة «كونتينيو سمايلي شِث» قال له بإشارة إليه بمواصلة الحفر «فيفتي گريـڤس» خمسون حفرة، خمسون قبراً، تسع عشرة حفارة بدأت بالحفر قبل وصوله هناك، وبحماس. أحصاها بأنفاس متقطعة رغم كثافة الغبار. هذا يعني أنهم سيحفرون ألف قبر في النهاية، قال لنفسه وهو يبلع ريقه فيما جحظت عيناه. هل يقول إنها المرة الأولى في حياته التي يجد نفسه فيها بلا حيلة، يُسلم فيها نفسه للحظات وهي تمر، هل يستدير ويقود الحفّارة باتجاه الرائد أو باتجاه الضباط الذين وقفوا متفرقين هناك؟ يعرف أنهم سيطلقون عليه النار، هنا على خطوط الجبهة مباشرة أو لاحقاً في الكتيبة، في القاعدة الأميركية في الظهران، أمَ القواعد، «احفر يو باستارد» قال له الرائد وكأنه تعلم

كلمة «احفر» لكي ينطقها باللغة العربية خصيصاً له «دونت هيزيتيت» صرخ به بصوت أشبه بالزئير «دو يو نو، واي آي چويز يو؟» سأله وهو يقهقه بصوت عال «نوت بيكوز يور آر سمايلي مان» ولكن هل هناك حاجة لأن يقول له لماذا اختاره هو بالذات؟ لماذا يكرر عليه ما يعرفه منه ومن الآخرين. الجميع سيقول له نفس الكلام وسينعته بنفس النعوت، سيعيبون عليه ضحكته، طيبته، سلوكه المسالم، تواضعه، بل سيعيبون عليه أيضاً عدم دخوله بتنافس مع الجنود الآخرين، زهده عن الصعود الوظيفي بكل الأثمان «أيتين ييرس» سيقول له مثلما أعاب عليه الآخرون ثمانية عشر عاماً وهو لم يتقدم درجة أكثر من لويتنانت ثاني. لن ينفعه أن يقول له مثلما قال لهم إنه لم يحب في حياته العسكرية أكثر من كلمة لويتنانت ثاني. مات أبوه في فيتنام وكان يحمل هذه الرتبة وهو منذ الطفولة لم يحلم بغير الرتبة هذه. دخل إلى الجيش جندياً بسيطاً، وكم هو سعيد أنه وصل إلى الرتبة التي حملها أبوه، لويتنانت ثاني. لم تهمه مغريات الرتب الجديدة، لا يريد رتبة أخرى. من الصعب أن يصف أو يوضح لهم شعور الارتياح الذي يستحوذ عليه كلما فكر أن أباه سيعيش معهم في البيت بهذا الشكل من جديد. لن يصدقه أحد بالتأكيد. لذلك فضّل أن يصمت ويقول ليس هناك رتبة في العالم أجمل من لويتنانت ثاني، لا تهمه تعليقات الآخرين أو إعابتهم له، نعم إنه متواضع وهو يشكر الله الذي وهبه التواضع

هذا وعلى الآخرين أن يتعلّموا الدرس، حتى الرائد راي پرينس نظر إلى تواضعه بأنه نقطة ضعف ولم يفهم لماذا جندي مثله لم يفكر بالصعود الوظيفي «كارير إز ذه مَن ماتير فور أني ميليتر» قال له ذات يوم. لكن هل هناك صفة أخرى فيه أثارت إعجاب الرائد الصارم هذا، قدره اللعين، ذات يوم؟ يستطيع التكهن بكل كلمة سيقولها له في ذلك اليوم. لقد سمع هذا الكلام مرات عديدة ولماذا عليه أن يخطئ الظن في ذلك اليوم بالذات. لن يعيب عليه تواضعه وحسب بل سيعيب عليه طيبته أيضاً، سيقول له إنه اختاره للمهمة تلك بالذات للتخلص منه، يريد أن يري العالم ويريه هو دانييل قبل كل شيء أن الطيبة التي يفتخر بها لا مكان لها في الجيش، ليس ذلك وحسب بل سيعيب عليه أنه الجندي الأميركي الوحيد الذي لم يجرؤ طوال خدمته في الجيش على إطلاق طلقة واحدة من رشاشه أو مسدسه الصغير، الجندي الوحيد الذي تحصن في مستودعات الإعاشة والتجهيزات، قضى خدمته يعمل بين الرفوف والسجلات والحيطان، والأنكى من كل ذلك، جندي بتأنيب ضمير ما زال يخاف من الحرب لم يدخل مع عدو في صراع، أي جندي هذا، لم يقتل عدواً يوماً أو يجرحه على أقل تقدير؟ أين حدث مثل هذا وفي أي جيش؟ في كل تاريخ الجيش الأميركي لم يعرف حالة بالمستوى هذا، وبالذات بين صفوف المارينز. جندي لم يعرف القتل يوماً لا يستحق شرف

لبس بدلة الجيش، أياً كانت الرتبة التي تقلدها ولا عدد النجمات التي التمعت على كتفه ولا عدد النياشين التي زينت صدره «أول ذه سولجَر سَد ذات أباوت يو شيت مان دو يو نو ذات؟» ليس لأن هذا قراره، هو الرائد الصارم من أجل أخذ الثأر من دانييل أو إرضاءً لنفسه، كلا، لأنه على قناعة تامة أن ما يقوم به في النهاية يصبّ في مصلحة دانييل لكي يطرد الخوف عنه، لكي يصنع منه جندياً حقيقياً «آي دو ذات تو ميك يو ريلي سولجير» كما قال له في ذلك النهار، وفي المرة هذه ليست هناك محكمة عسكرية تتدخل في شؤونه أو تثنيه عن القرار، فمن أجل التكفير عن ذنوبه جعله يقود الحفّارة تلك. كل ما يقوم به هو لصالحه في النهاية فلكي يصبح جندياً أميركياً حقيقياً ويفتخر بذلك سيصبح جندياً مستعداً للقتال والدفاع عن شرف أميركا «توينتي ييرس إن ذه آرمي، مان»، نعم، قال له وهو يضيف سنتي دراسته العسكرية لسنوات خدمته المارينز، عشرون عاماً في الجيش، وهو لا يريد أن يحصي أمامه عدد أيامها وأسابيعها وشهورها؟ لكنه يستطيع أن يثبت له أن حسابها سهل جداً كيف ينسى أن لكل سنة 12 شهراً، ولكل شهر أربعة أسابيع، في السنة 48 أسبوعاً، في بعضها يمكن أن يكون خمسين أو أكثر، كل عشر سنوات 480 أسبوعاً، في العشرين سنة 960 أسبوعاً، وعلى عدد هذه الأيام يجب أن يكون عدد الأعداء الذين عليه قتلهم «دو يو أنديرستاند سولجَر؟

يو هاف تو كيل ذه إنيميس ذير» وإذا لم يستطع قتل هذا العدد في ذلك اليوم، إذا لم يُبقِ له الجنود الآخرون حصته المقررة فعليه أن يأخذ ذلك في الحسبان. إن ما يزال أمامه مستقبل لتسديد الحساب المتبقي عليه، «إڤري ثينـگ إز إن ذه چيوب» كل شيء تحت السيطرة، قال له الرائد «آي پـلاند إيـڤري ثينـگ فور يو» هذا ما فهمه دانييل من الرائد في ذلك النهار الحار وسط عواصف الرمل والتراب، وسط جنود على عكسه قادوا حفّاراتهم بحماس، جنود بمختلف الأعمار، جنود من مختلف القوميات والأجناس، سوريون ومصريون، كويتيون وإماراتيون، بحرانيون وقطريون، عمانيون ويمنيون، سودانيون وجزائريون، أردنيون ولبنانيون، وعسكريون أميركان مارينز، أربعة وعشرون عسكرياً أميركياً بالتمام، وستة ضباط آخرون لم يرهم دانييل إلا بعد الانتهاء من المهمة التي كان عليه تنفيذها في ذلك اليوم، ضابط فرنسي وآخر بريطاني، ضابط دانماركي وآخر هولندي، ضابط كندي وآخر إسباني، وهم الضباط الستة هؤلاء الذين رآهم يقفون في النهاية إلى جانب الرائد راي پرينس كأنهم أرادوا أن يكونوا شهوداً عليه، أن يروه تسمَّر في جلسته في الحفَّارة فوق، أن يروا تردده، أن يروا وجهه الشاحب وأعصابه المرتعشة، قواه الخائرة وعينيه الغائرتين، أن يروا الخوف المرتسم على وجهه، وهو يعرف ما هو مقبل عليه، كأنه كان متأكداً من صعود الرائد راي پرينس إلى جانبه على الحفّارة

ولكي يجبره لم يبقَ واقفاً أمامه وهو يرى تردُّده، خوفه من أن يقتل أحداً، أن يخرج مسدسه ويصوبه إلى صدغه ثم يصرخ به «ناو يو مست گو هيد!» الجملة التي ستكون النقطة التي ستتغير فيها حياته.

صلوات للجندي غير المجهول

لِلإِنْسَانِ تَدَابِيرُ الْقَلْبِ، وَمِنَ الرَّبِّ جَوَابُ اللِّسَانِ. كُلُّ طُرُقِ الإِنْسَانِ نَقِيَّةٌ فِي عَيْنَيْ نَفْسِهِ، وَالرَّبُّ وَازِنُ الأَرْوَاحِ. أَلْقِ عَلَى الرَّبِّ أَعْمَالَكَ فَتُثَبَّتَ أَفْكَارُكَ. اَلرَّبُّ صَنَعَ الْكُلَّ لِغَرَضِهِ، وَالشِّرِّيرَ أَيْضًا لِيَوْمِ الشَّرِّ. مَكْرَهَةُ الرَّبِّ كُلُّ مُتَشَامِخِ الْقَلْبِ. يَدًا لِيَدٍ لاَ يَتَبَرَّأُ. بِالرَّحْمَةِ وَالْحَقِّ يُسْتَرُ الإِثْمُ، وَفِي مَخَافَةِ الرَّبِّ الْحَيَدَانُ عَنِ الشَّرِّ. إِذَا أَرْضَتِ الرَّبَّ طُرُقُ إِنْسَانٍ، جَعَلَ أَعْدَاءَهُ أَيْضًا يُسَالِمُونَهُ. اَلْقَلِيلُ مَعَ الْعَدْلِ خَيْرٌ مِنْ دَخْل جَزِيل بِغَيْرِ حَقّ. قَلْبُ الإِنْسَانِ يُفَكِّرُ فِي طَرِيقِهِ، وَالرَّبُّ يَهْدِي خَطْوَتَهُ. فِي شَفَتَيِ الْمَلِكِ وَحْيٌ. فِي الْقَضَاءِ فَمُهُ لاَ يَخُونُ. (أمثال: الإصحاح السادس عشر)

ذَبِيحَةُ الأَشْرَارِ مَكْرَهَةُ الرَّبِّ، وَصَلاَةُ الْمُسْتَقِيمِينَ مَرْضَاتُهُ. مَكْرَهَةُ الرَّبِّ طَرِيقُ الشِّرِّيرِ، وَتَابعُ الْبِرِّ يُحِبُّهُ. تَأْدِيبُ شَرّ لِتَارِكِ الطَّرِيقِ. مُبْغِضُ التَّوْبِيخِ يَمُوتُ. اَلْهَاوِيَةُ وَالْهَلاَكُ أَمَامَ الرَّبِّ. كَمْ بِالْحَرِيِّ قُلُوبُ بَنِي آدَمَ! اَلْمُسْتَهْزِئُ لاَ يُحِبُّ مُوَبِّخَهُ. إِلَى الْحُكَمَاءِ لاَ يَذْهَبُ. اَلْقَلْبُ الْفَرْحَانُ يَجْعَلُ الْوَجْهَ طَلِقًا، وَبِحُزْنِ الْقَلْبِ تَنْسَحِقُ الرُّوحُ. قَلْبُ الْفَهِيمِ يَطْلُبُ مَعْرِفَةً، وَفَمُ الْجُهَّالِ يَرْعَى حَمَاقَةً. كُلُّ أَيَّامِ

الْحَزِينِ شَقِيَّةٌ، أَمَّا طَيِّبُ الْقَلْبِ فَوَلِيمَةٌ دَائِمَةٌ. اَلْقَلِيلُ مَعَ مَخَافَةِ الرَّبِّ، خَيرٌ مِنْ كَنْزٍ عَظِيمٍ مَعَ هَمٍّ. أَكْلَةٌ مِنَ الْبُقُولِ حَيْثُ تَكُونُ الْمَحَبَّةُ، خَيرٌ مِنْ ثَوْرٍ مَعْلُوفٍ وَمَعَهُ بُغْضَةٌ. اَلرَّجُلُ الْغَضُوبُ يُهَيِّجُ الْخُصُومَةَ، وَبَطِيءُ الْغَضَبِ يُسَكِّنُ الْخِصَامَ. طَرِيقُ الْكَسْلاَنِ كَسِيَاجٍ مِنْ شَوْكٍ، وَطَرِيقُ الْمُسْتَقِيمِينَ مَنْهَجٌ. اَلابْنُ الْحَكِيمُ يَسُرُّ أَبَاهُ، وَالرَّجُلُ الْجَاهِلُ يَحْتَقِرُ أُمَّهُ. الْحَمَاقَةُ فَرَحٌ لِنَاقِصِ الْفَهْمِ، أَمَّا ذُو الْفَهْمِ فَيُقَوِّمُ سُلُوكَهُ.

(أمثال: الإصحاح الخامس عشر)

اَلرَّجُلُ الْمُثَقَّلُ بِدَمِ نَفْسٍ، يَهْرُبُ إِلَى الْجُبِّ. لاَ يُمْسِكَنَّهُ أَحَدٌ. اَلسَّالِكُ بِالْكَمَالِ يَخْلُصُ، وَالْمُلْتَوِي فِي طَرِيقَيْنِ يَسْقُطُ فِي إِحْدَاهُمَا. اَلْمُشْتَغِلُ بِأَرْضِهِ يَشْبَعُ خُبْزًا، وَتَابِعُ الْبَطَّالِينَ يَشْبَعُ فَقْرًا. اَلرَّجُلُ الأَمِينُ كَثِيرُ الْبَرَكَاتِ، وَالْمُسْتَعْجِلُ إِلَى الْغِنَى لاَ يُبْرَأُ. مُحَابَاةُ الْوُجُوهِ لَيسَتْ صَالِحَةً، فَيُذْنِبُ الإِنْسَانُ لأَجْلِ كِسْرَةِ خُبْزٍ. ذُو الْعَيْنِ الشِّرِّيرَةِ يَعْجَلُ إِلَى الْغِنَى، وَلاَ يَعْلَمُ أَنَّ الْفَقْرَ يَأْتِيهِ. مَنْ يُوَبِّخُ إِنْسَانًا يَجِدُ أَخِيرًا نِعْمَةً أَكْثَرَ مِنَ الْمُطْرِي بِاللِّسَانِ. السَّالِبُ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ وَهُوَ يَقُولُ: «لاَ بَأْسَ» فَهُوَ رَفِيقٌ لِرَجُلٍ مُخْرِبٍ. اَلْمُنْتَفِخُ النَّفْسِ يُهَيِّجُ الْخِصَامَ، وَالْمُتَّكِلُ عَلَى الرَّبِّ يُسَمَّنُ. اَلْمُتَّكِلُ عَلَى قَلْبِهِ هُوَ جَاهِلٌ، وَالسَّالِكُ بِحِكْمَةٍ هُوَ يَنْجُو. مَنْ يُعْطِي الْفَقِيرَ لاَ يَحْتَاجُ، وَلِمَنْ يَحْجِبُ عَنْهُ عَيْنَيْهِ لَعَنَاتٌ كَثِيرَةٌ. عِنْدَ قِيَامِ الأَشْرَارِ تَخْتَبِئُ النَّاسُ، وَبِهَلاَكِهِمْ يَكْثُرُ الصِّدِّيقُونَ. (أمثال: الإصحاح الثامن والعشرون)

نعم بهلاكهم يكثر الصدِّيقون، قال دانييل لنفسه وهو يصغي للقس الجديد الذي تلا عليه ما قاله الإنجيل، والذي كان من القسسة الذين بدأوا بالتوافد على الوحدات العسكرية الأميركية منذ نهاية حرب الكويت. وحدها القاعدة الجوية الأميركية في الظهران استقبلت ثماني قسسة حتى الآن. لم ينتظر أغلبهم حتى قضاء شهر يمر على إقامتهم قبل أن يقرروا الرحيل. البعض أرجع ذلك للجو الحار في أغلب فصول السنة أو لقلة الاهتمام الذي أبداه الجنود برجال الدين أو ليأسهم من شفاء الجنود المرضى. وحده دانييل لم يصدق ذلك فهو يعرف صعوبة المهمة التي أخذها القسسة هؤلاء على عاتقهم، كيف يمكن إعادة القلب الفرحان لجندي ويبتهج وجهه؟ ماذا يستطيع أن يفعل قس لقلب حزين مسحوق؟ كل أيام الحزين شقية. وهو يعرف وحده درجة الشقاء التي وصل إليها منذ ذلك اليوم الذي صعد فيه إلى الحفارة على جبهة حفر الباطن. «سمايلي مان» كما نعتوه، وهو كلما تطلع في المرآة كلما رأى أن الابتسامة تلك لم تعد. لا طبيب ولا علاج، لا قس ولا صديق يستطيع إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء «نو كود برينـگ مي ذه سمايل أگين» قال للقس في أول يوم التقى به، وكان في جملته تلك يعيد نفس الكلام ليس إلا. كل القسسة الذين مروا هنا، السبعة الأوائل سمعوا منه الجملة ذاتها، ربما بدا لهم ما يقوله مجرد عذر لا غير لم يصدقوا أنه عبثاً حاول الهروب من ذنبه، ما عدا هذا

القس الذي أصغى له باهتمام، قال له «اتز ذه وور» ثم وضع يده على كتفه وهو يواسيه «يو وول بي سَيـڤ اتيز كويسشين أوف ذه تايم» وأن كل ما يريده منه هو أن يأتي إلى زيارة الكنيسة كل يوم. سيقرآن يومياً بعض الصفحات المختارة من الإنجيل، عليه أن يضع يده على الإنجيل قبل أن يفتح القس الصفحة «وين وي فينيش ريدينـگ ذه بَيبِل، يو ويل بي أوكي» قال له القس. وافق دانييل في البداية، فماذا تبقى أمامه؟ كان مثل غريق يتعلق بأية قشة إنقاذ، فلماذا لا يصدق القس الشاب وكان يجد في صوته نبرة صدق وإصرار حتى عندما رأى الشك في عينيه، ابتسم القس له وقال «دونت ووري آي ويل ستيَ» ذلك هو مبدؤه، سيبقى «تل ذه كوميشين أنديد» وبالذات لهذا السبب، لكي لا يُلقي كل أولئك المثقلين بدماء قتل البشر في الجب؟

لا زيارة الكنيسة الصغيرة في القاعدة ولا قراءة الإنجيل، سواء قراءة المقاطع التي اختارها لنفسه أو تلك التي اختارها له القساوسة الذين تعاقبوا على القاعدة، لا الإجازات الطويلة وزيارة العائلة الصغيرة ولا الرحلات إلى الصحراء، لا الأحاديث الطويلة مع غازي الجاسي ولا الذهاب إلى العاهرات في حي العدّامة أو حي الزهور (وهذا هو الجديد في حياته) كلا، لا شيء من كل ذلك استطاع إرجاع البسمة إلى وجه الرجل الذي أطلق عليه ذات يوم «سمايلي مان» كأن ما حدث في منتصف شهر مارس/آذار عام 1991 اسفنجة

امتصت كل ما في داخله من دانييل بروكس القديم، دانييل الودود صاحب الابتسامة التي لا تغيب. في البداية ظن أن الأمر يتعلق بأيام محدودة، عليه أن ينتظر قليلاً وسينتهي الأمر، سيشفى من شعوره بالذنب، إنها الحرب، وفي الحرب يعيش الجنود القصص المرعبة، قصص تظل تطاردهم بصورها زمناً طويلاً، فمن عاش صدمة ما عليه أن يبذل الكثير من الجهد لكي يشفى، لكي يتحرر من الذكريات التي عاشها هناك على الجبهة، بعضهم يحتاج إلى وقت طويل، البعض الآخر إلى أسابيع قليلة فقط، الكبرياء والصبر ورباطة الجأش تكفي لطرد اليأس، الحزن يحطم الروح، يعرف دانييل ذلك، ليس لأنه قرأه في الإنجيل، الإصحاح الخامس عشر، بل لأن الوخزات التي ملأت صدره بدأت منذ تركه الحفّارة في ذلك اليوم، فمثلما توزعت بقايا الجنود العراقيين ـ البقايا التي تشير إليهم في كل مكان؛ كل ما خصهم من أشياء صغيرة أو كبيرة، مناديل الاستسلام أو الملابس الممزقة، ظروف رسائل وأوراق، كارتونات صغيرة، علب وخراطيش، كل ما بقي من عدّتهم، أو كل ما أشار إلى أنهم كانوا أحياء ـ نعم، مثلما توزع كل ما عاد لهم ذات يوم توزعت ذكرى بقايا ذلك اليوم في كل مناطق صدره على شكل وخزات ولسعات، كأن قلبه انفجر ووزع شظاياه هناك، غصة وحرقة في البلعوم، قطع حديدية حادة مثل سكاكين في الصدر، حتى سماعه خبر وقوع صديقه دافيد باربييرو في الأسر بعد

إصابة الطائرة التي أقلته مع ضباط أربعة وكولونيل لم يخفِّف عنه شعوره بالذنب ذلك، كان من الصعب عليه أن يقول لنفسه «أوكي مان ألم يأخذوا صديقك في الأسر؟ صديقك الذي يعشق الشعر، هل يمكنك تخيله في أسره الآن يقرأ الشاعر الذي أحبه وايتمان؟ أليست تلك هي الحرب، لا تميز بين الجنود؟» إن تصور صديقه أسيراً وحيداً في زنزانة قذرة في الصحراء أو في بغداد جعله يفكر بالجنود الأسرى العراقيين وكلما فاق من نومه، هذا إذا أغمض له جفن، كلما شعر أنه ما يزال جالساً على الحفَّارة تلك وقد جثى أمامه حشد جنود وضعوا أيديهم على روؤسهم مستسلمين، يستغيثون «پليز دونت كل أس» الرحمة «وي نيد ميرسي» لكن عبثاً تخرج من أفواههم الكلمات وتطير عالياً في الهواء وسط ذرات الغبار التي غلفت الفضاء تختلط مع صيحات جنود عرب فرحين، حفروا بحماس «ادفنوهم» كيف ينسى الصيحة تلك، الصيحة التي زأر بها الرائد راي پرينس مثل أسد اخترقت سمعه مثل «ادفنوهم» كأن الرائد راي پرينس تعلم الكلمة تلك مهيئاً للمناسبة تلك. كانت أعلى الصيحات التي ترددت في المكان وقتها والتي ظلت مصاحبة له طوال الطريق وعندما وصل الكتيبة ذهب مباشرة إلى غرفته نزع ملابسه بسرعة ودخل الحمام. فكر، أنها قضية وقت وسينسى ما حصل هناك، ليأخذ دوشاً سريعاً ويذهب لينام وعندما رمى بجسده التعبان إلى الفراش اكتشف عبث ما فكر

به، ها هي الصيحات تبدأ تعلو من جديد، كأنها وجدت طريقاً لها في الهواء وجاءت لتزوره في غرفته في القاعدة الأميركية في الظهران، كأنها أرادت أن تقول له إنها هناك عليه أن يسمعها قبل أن ينام، هذا إذا تركته ينام لأنها ومنذ الليلة هذه ستظل عالقة في أذنيه، تزوره في الصحوة والأحلام، وإذا شاء النوم ليلاً والعمل في النهار فعليه أن يتمرن على سماعها ليل نهار، عليه ألا يستغرب من زيارة الجنود الذين أطلقوها له في الأحلام، ألا تتملكه الحيرة، أن من الممكن أن يكون أولئك الجنود ما زالوا أحياء، لا حيلة لهم ولا عزاء، ماذا تبقى منهم بعد أن تحولت خنادقهم إلى قبور؟ حتى تلك الأشياء الصغيرة التي حملها معه، لم يستطع الاحتفاظ بها، لا الأوراق المبعثرة ولا الدفتر الأسود السميك. في البداية ظن أن من الأفضل الاحتفاظ بها، فربما هرب الجنود الذين تعود لهم تلك الأشياء وإلا ما كان عثر عليها مبعثرة في خندق فارغ، كأن أحداً تركها عمداً هناك، ربما ما زالوا أحياء وإذا حالفهم الحظ وهربوا فسيلتقي بهم ذات يوم، من يدري؟ الحياة كلها مصائب وصدف ومفارقات، ألم تتغير حياته هو أيضاً؟ ألم يتحول من «سمايلي مان» إلى «كيلَر مان»؟ أسابيع طويلة، احتفظ بها في كارتون ووضعها على الطاولة القريبة من الفراش، أعاد النظر إليها مراراً، قلبها بيديه حتى قبل أن ينام، وكلما تطلع بها وأراد قراءة الأوراق المبعثرة أو الدفتر السميك، كلما عدل عن ذلك، كأن يداً

تمسكه من معصمه وتمنعه من فعل ذلك. يد تقول له «توقف» إن ما تمسكه في يدك لا يعود إليك، وما ظن أنه سيساعده على النسيان أضاف له المزيد من الكوابيس. لكن حتى بعد إبعادها عنه وحفظها في رزمة في صندوق صغير ورثه عن أمه لم يساعد على التخفيف من ألمه، مع تلك الأشياء أو دونها، أصبح الأمر سِيّان. لقد نسيت عيناه النوم، وكلما حاول غلق جفنيه كلما شعر بهما ثقيلين بثقل الأرض؟ كيف ينام وفراشه ذاته تحول إلى خندق أو قبر، إلى هاوية بئر عميق «الرجل المثقل بدم نفس يهرب إلى الجب» قال له الإصحاح الثامن والعشرين في أمثال الإنجيل، وهو إذا هرب فإلى أي جب سيكون مثواه؟ القلب الفرحان يفتح أسارير الوجه، وهو يعرف ذلك حتى قبل أن يقرأ الجملة تلك في الإصحاح الخامس عشر في أمثال الإنجيل، لكن من أين يأتيه الفرح والقلب غادر مكانه في صدره هناك؟

إنها سارة التي أثار انتباهها ما طرأ على دانييل من تغيير، وفي أحد تلك الأيام التي طلبت فيها من أبيها أن يصطحبها معه إلى القاعدة العسكرية في الظهران، فكرت أن عليها أن تتصرف بطريقة ما، لا بد لها أن تساعد دانييل بروكس بالخروج من حزنه مثلما ساعدها ذات يوم بالتسجيل في مدرسة الصداقة الأميركية السعودية «دانييل لا يصلح لأن يكون ذه ساد مان» قالت لأبيها. في تلك الأيام لم يعد أبوها يصطحبها معه، ليس لأن زياراته للقاعدة الأميركية في الظهران

أصبحت شحيحة، إن لم تكن توقفت (لأنه حتى في تلك الزيارات التي لا تتعدى عدد أصابع اليد كانت لزيارة صديقه وحسب) وليس لأن أعماله سلفاً وقبل أن تندلع حرب الكويت تركزت كلها تقريباً في قاعدة حفر الباطن، بل لأن سارة لم تعد تلك الطفلة التي يمكنها التنقل معه بسهولة لقد كبرت وأصبحت فتاة ناضجة «جاهزة للزواج» كما قال له العديدون ممن رأوها معه، السنّ التي تثير فضول الناظرين إليها أينما ذهبت. ربما غضّ الطرف عن جلبها معه لو تعلق الأمر بالقاعدة الأميركية فقط، فهنا الجنود الأميركان وعائلات أميركية، هي أقرب لمدينة أميركية صغيرة بكل ما حوته من شوارع وبيوت وأحياء سكنية ومخازن ومحلات وبارات وسوبرماركات، لكن في قاعدة حفر الباطن يتجول هناك فقط رجال عرب وخليجيون بلا عائلات. جنود ترى عطشهم للنساء في عيونهم. وهو يتذكر عندما جاءت معه سارة في المرة الأخيرة كان هو دافيد باربييرو الذي اتصل آنذاك بصديقه دانييل بروكس وطلب منه أن ينصح صديقه بعدم جلب ابنته معه بعد الآن، حتى أن غازي الجاسي ضحك عندما سمع دانييل ينقل له ما قال له دافيد باربييرو «عندما كانت طفلة لم يسمحوا بدخولها، قالوا إن الأطفال ثرثارون والآن لا يريدونها أن تأتي معه لأنها كبرت رغم أن عمرها اثنتا عشرة سنة لا أكثر» لكنه رغم ذلك يشكر اللويتنانت الأول دافيد «ابن الحلال» كما قال لدانييل ولسارة لاحقاً لأنه قال

الحقيقة فهو رأى الجوع للنساء عند هؤلاء الجنود وكيف كان لعابهم يسيل وعيونهم تجحظ كلما عرفوا بوجود أنثى هناك وهم لا يحتاجون لأن يروها، يكفي أن يشموا رائحتها وهي قادمة من بعيد «الجنود هؤلاء مثل الوحوش» وهي الجملة ذاتها التي سمعتها سارة منه أيضاً. الجملة التي كررها حتى عندما غادرت وحدات الجيوش العربية من مصريين وسوريين ولبنانيين ومغاربة وسودانيين تلك التي شاركت في الحرب البرية في حرب الكويت وبقيت وحدات قوات درع الجزيرة فقط، في القاعدة التي بُنيت لهم أصلاً، «هؤلاء أتعس» قال غازي ذات يوم لسارة عندما ظنت أن بإمكانها مواصلة مرافقته كما فعلت في الماضي «لكن الجنود الذين ظلوا في القاعدة هم من الخليج، بابا»، قالت له، وإذا رفض طلبها في المرة السابقة بشكل قاطع فإنه لم يجد غضاضة من أن يعمل استثناء لها في المرة هذه لأن الأمر يتعلق في المقام الأول بصديقه دانييل بروكس، وإن سارة هي الوحيدة التي تستطيع إقناعه بتكملة دروسه باللغة العربية. كم طلب منه غازي أن يفعل ذلك «القرآن هو الحل» قال له ذات يوم وهو يرى الحزن الذي هجم على صديقه، وعندما أخبره دانييل «إذا كان الإنجيل لا ينفع فلماذا ينفع القرآن». كانت تلك الأيام التي توقف فيها عن زيارة الكنيسة وقبل أن ينتهي من قراءة الإنجيل أحزنه أن يقضي الساعات وحيداً في غرفته لكن لا بديل لذلك، نعم، رغب من كل

قلبه أن يواصل زياراته للكنيسة وقراءة الإنجيل لكن ما أغاظه أو ما جعله يشك بما يفعله هو أنه كلما وضع يده على الإنجيل كلما فتح القس نفس المواضع التي تتحدث عن الذنب في الإنجيل. هكذا وبدل أن ينسى ذنبه راح يتذكره من جديد «ماذا سيفعل القرآن، إذن؟» صحيح أنه لم يُحدِّث غازي الجاسي عما حصل له على جبهة حفر الباطن بالتفصيل لكنه نَوَّه له أن الألم الذي يعصره جاء من هناك، ولأنه رأى على جبهات الحرب ما تجنَّبه في كل سنوات خدمته. رفضه هذا، وقلق غازي الجاسي من تردِّي حال دانييل جعله يسأل رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حماه الشيخ يوسف الأحمد، عما يمكن فعله للعسكري الأميركي المسكين هذا «يجب أن نساعد ابن الحلال هذا» قال لحميّه، طبعاً كان جواب حميّه جاهزاً. ماذا كان ينتظر من رئيس هيئة اسمها هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «ندخله أولاً إلى مدرسة الهيئة»، قال له «سيأتي إلى طريق الهداية في مدرستنا» ثم أوضح له «عندنا أميركان كثيرين أسلموا» وكاد غازي الجاسي أن يفرض على دانييل الذهاب إلى هناك، لكن سارة التي سمعت الحديث الذي دار بين خالها وأبيها في صالون البيت فكرت أن عليها الآن أن تبذل وسعها لكي لا يقع في قبضة خالها الذي لا تكن له أو لهيئته أو مدارسها الودّ. في اليوم الثاني طلبت من أبيها أن يأخذها إلى دانييل. لم تخبره بالخطة التي لمعت في ذهنها، ليس في ذلك

اليوم بل وقبل ليلة، عندما كانت جالسة في الصالون قالت لأبيها إنها تريد فقط أن تسأل دانييل إذا كان يرغب بتكملة دروسه باللغة العربية ليس على يديها وإنما على يدَي معلمة جديدة اسمها كنزة من تونس، وكما عرفت أنها تعطي دروساً للبالغين، جميعهم مهندسون أجانب والقسم الأكبر منهم أميركان، حماس المعلمة الذي لمسته فيها وهي تعمل، حمَلَها على التفكير بأنها هي من يصلح لكي يطور مستوى دانييل في اللغة العربية ويلهيه عن الهم الذي تحدثت أنت عنه، وعندما قال لها أبوها إنه غير متحمس للفكرة لأن وضع دانييل في الفترة الأخيرة يشير إلى أنه يحتاج إلى أمر واحد: تعلم القرآن. لكن سارة المعروفة بعنادها عرفت كيف تجيب أباها، قالت له، بالذات لهذا السبب فلكي يتعلم قراءةالقرآن بصورة صحيحة ويحفظه عن ظهر قلب لا بد له أن يتمكن من اللغة العربية أولاً، وثانياً أن يكون ذلك على يد امرأة مؤمنة، وليس هناك أفضل من المعلمة الجديدة: كنزة. إن التحاقه بالمدرسة وتعلمه على يد كنزة لن يجعله يهتدي إلى الإيمان وحسب بل سيجلعه ينسى حزنه «المهم أن ينسى حزنه»، قالت له سارة «أن يعود كما عرفناه سمايلي مان». فكرت أنها مسألة وقت وسيعود دانييل إلى وضعه، حتى خالها الشيخ يوسف الأحمد قال لأبيها في تلك الليلة وهم يجلسون في صالون البيت إن جندياً أميركياً مثل دانييل بروكس هذا لن تثبط عزيمته. إنهم جميعاً

مقاتلون مقدادون بالنسبة له، وهو يحسدهم على عزيمتهم وقوة بطشهم «يا ريت عندنا في المملكة جنود مقاتلين مثلهم على عكس شبابنا المايعين الذين يهمهم شرب الويسكي ومغازلة البنات أكثر من صون الإسلام»، قال وهو يهز برأسه. لكنها على عكس الآخرين فمنذ أن جاءها وحدثها أبوها كيف أن دانييل بروكس المسؤول عن الإعاشة والتجهيزات لجأ في البداية إلى الكنسية وراح يزور القس يومياً ظناً منه أن ذلك سيشفيه ولكن القس لم يستطع البقاء رغم أنه على عكس القسسة الآخرين قاوم كل هذا الوقت الطويل. قالوا له لا أحد يزور الكنيسة، وحتى الجندي الوحيد الذي يزورك، اللويتنانت الثاني دانييل بروكس انقطع عن المجيء، لهذا عليك الذهاب «يو مست گو». لكنه بالرغم من تلك القصة فهو لا يظن أن القس كان سيشفيه «دانييل بروكس، صاحبنا حزين جداً» قال لها أبوها «كيف لا يحزن» قالت له سارة «وفي الحرب هذه حدث ما يشيب له الرأس» ربما لم تفكر بالمعلمة كنزة لو لم تسمع خالها يتحدث عن مدرسة هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كل شيء باستثناء مدارس الهيئة قالت سارة لنفسها، هي التي تكره هذه المدارس بشدة عليها أن تنقذ دانييل بسرعة، ألم ينقذها هو من مدارس الهيئة بتسهيل تسجيلها في مدرسة الصداقة الأميركية السعودية في آرامكو؟ الآن جاء دورها لكي تساعده. كلا، قالت لنفسها، ليس كما قال خالي «الإسلام هو

الحل» بل كما تعتقد هي: «كنزة هي الحل».

إلى حين لقائها بدانييل بروكس ظنت كنزة أنها ستنجح بالفصل بين العمل الوظيفي وحياتها الخاصة، على الأقل كان ذلك هو القرار الذي اتخذته مع نفسها منذ طلاقها من زوجها السابق الذي دام زواجها منه خمس سنوات وكانت حتى مجيئهما إلى المملكة السعودية سعيدة في تلك الأيام وقد مرّ على زواجها ثلاث سنوات. ظنت أن سعادتها الزوجية ستدوم سنوات أخرى إن لم تدُم مدى الحياة فهي اختارت الزواج من إسماعيل بحرية وحرص ولم تكن مضطرة لذلك. كانت لها حياتها وكانت مرتاحة في ممارسة وظيفتها في قسم الترجمة التابع لمنظمة الأمم المتحدة في نيويورك والراتب الذي كانت تحصل عليه ثلاثة أضعاف الراتب الذي تحصل عليه الآن كمعلمة للبالغين في شركة آرامكو لكنها عندما التقت بإسماعيل في زيارتها الأولى إلى بغداد في جلسة ليلية في بيت مخرج سينمائي عراقي، لا تدري لماذا سحرها ذلك الرجل منذ أول لحظة. كانت قد جاءت قبل أيام ضمن فريق تابع للأمم المتحدة وكانت الحرب العراقية الإيرانية قد توقفت للتو وكانت مهمة الفريق تنظيم عملية تبادل الأسرى بين العراق وإيران. فى تلك الليلة التي جمعتها مع معارف وأصدقاء آخرين، بعضهم عرفته من البعثة الدبلوماسية العراقية في نيويورك، والبعض الآخر في زيارتها تلك. كان يمكن أن تفكر بكل شيء

باستنثاء أنها ستدخل في علاقة مع رجل، وأي رجل، مع رجل شرقي؟ وحتى اليوم من الصعب عليها أن تنسى تلك الليلة، ليس لأنها الليلة التي غيَّرت مسار حياتها، بل أكثر، لأنها كانت ليلة استثنائية جداً. فمن ناحية كان الحديث عن العراق والحرب وتدهور الحياة في البلاد هذه، خاصة بعد عودة الجنود من جبهات القتال على الحدود الإيرانية، ومن الناحية الأخرى الجلوس عند مسبح كبير توسَّط قِلا ضخمة وسط مدينة بغداد على نهر دجلة لم يبخل صاحبها المخرج السينمائي العراقي من توفير كل سبل الراحة والترفيه والمتعة في تلك الليلة، من مشروبات ومأكولات، ليس ذلك وحسب بل أحضر لهم فرقة غجرية عزف رجالها الثلاثة على آلاتهم فيما تمايلت أمامهم عند المسبح فتياتها الخمس، شابات لم تكمل واحدتهن حتى الثامنة عشر من العمر، تمايلن بخصورهن، تدلى شعرهن الطويل حتى الخصر، يرقصن رقصات شرقية أو غجرية. كان الجو مليئاً بالغناء والضحك والشرب والأكل، ولم تعرف إذا كان هو الويسكي الذي شربته أم هو الجو الساحر الذي بدا لها خيالاً أبعد من أن يكون حقيقة، ما جعلها تدوخ بكلمات إسماعيل. كانت ليلة اكتمل فيها القمر بدراً. لم تكن درجات الحرارة قد ارتفعت بعد في شهر نيسان/أبريل على ما تتذكر وكان إسماعيل يجلس إلى جانبها عندما لمس ذراعها في إحدى تلك اللحظات الاستثنائية من تلك الليلة العذبة في كل الأحوال. كانت تلك هي المرة

الأولى التي تلتقي بها إسماعيل، قال لها، إنه حصل قبل فترة قريبة على وظيفة الملحق الصحفي في السفارة العراقية في واشنطن وإنه سعيد بالتعرف عليها لأنه بالتأكيد سيقضي أغلب أيام عمله في مقر الأمم المتحدة في نيويورك. ربما ما كان إسماعيل أثار انتباهها لو لم يلمس ذراعها فجأة في ساعة متأخرة من تلك الليلة قائلاً لها «أنت أجمل امرأة رأيتها في حياتي». لم تكن تلك هي المرة الأولى التي سمعت فيها كنزة مثل هذا الإطراء. كانت تعرف أنها جميلة ولذا لم تبخل بإظهار جمالها هذا أو بزيادته خاصة في رحلاتها الخارجية، ففي زياراتها للبلدان العربية وكلما ذهبت في مهمة رسمية ملأت نصف حقيبتها بالعطور والشامبوات والأكسسوارات ومواد التجميل، أما الملابس فقد حرصت على شرائها من فايـڤ أبينو في نيويورك حيث أحدث الموديلات، ناهيك عن الملابس الداخلية التي كانت تختارها بعناية من محلات ڤكتوريا سِكريت، وفي كل الرحلات تلك كانت ترى نظرات الرجال الشرهة لها، بعضهم حاول كتم رغبته بها، فيما لم ينجح البعض الآخر. في مرات عديدة كان عليها أن تدافع عن نفسها من تعرض بعض المسؤولين أو هجومهم المباغت، كما حدث لها قبل أسبوع من جلستها تلك عندما دعاها وزير الثقافة العراقي هي ووفدها إلى بيته الخاص وكما يبدو كانت الدعوة من أجل نصب كمين لها لا غير، ففي ساعة متأخرة من الليل وبينما جلس الفريق الذي جاءت معه

في الحديقة، طلب منها الوزير أن تأتي معه إلى داخل البيت، قال لها، إنه يريد استشارتها بأمر خاص لأنها العربية الوحيدة من ضمن وفد الأمم المتحدة. في البداية لم تفهم الأمر، لكن عندما طلب منها الوزير وبعد أن أصبحا في صالون البيت أن تتبعه إلى غرفة في نهاية الصالون، عرفت أنها غرفة النوم وخمنت ما فكر به، إذ ما إن دخلا الغرفة حتى أغلق الوزير الباب ثم توجه إلى الكوميدين الصغير القريب من السرير ورفع علبة صغيرة مفتوحة حوت على قطعة حلي بسيطة، قال لها وهو يضع العلبة في يدها إنها هدية لك، وقبل أن ترد الهدية له هجم عليها الوزير ولم تتخلص منه إلا عندما بدأت بالصراخ. صحيح أن الوزير قال لضيوفه إن كنزة صرخت بسبب رؤيتها لفأر دخل صالون البيت إلا أن الخبر شاع، حتى إسماعيل قال لها عندما تعرَّفا على بعضهما في جلستهما عند المسبح في بيت المخرج السينمائي إنه سمع بما حدث في بيت وزير الثقافة ولم تسأله كنزة إذا كان يقصد بكلامه ما حدث لها في غرفة نوم الوزير أم ادّعاءه برؤيتها الفأر؟ لكنها فضّلت تغيير الموضوع وقالت لإسماعيل، لكن المكان هنا في البيت هذا والجلسة حول المسبح مع الأصدقاء هما أحلى من الجلسة تلك، أمر جعل إسماعيل يبتسم ويضع إصبعه على شفتيه بتلميح منه لتحذيرها من الحديث عن الوزير. كان من الممكن طبعاً أن تغير مكان جلستها كما فعل البعض من حين إلى آخر للتعرف على ضيوف

آخرين أو أن تنهض من مكانها وتبدأ بالتجول في الحديقة أو حول المسبح لكنها لم تفعل، حتى عندما سألها البعض من زملائها أو زميلاتها بالعمل بين الجدّ والهزل إذا كانت عندها رغبة بالتجول في الحديقة، لا تدري ما الذي جعلها تجلس مسمَّرة في مكانها في تلك الليلة؟ لا تدري إذا جاء ذلك بسبب حذرها من الآخرين الذي اتخذته بعد ما حدث لها في بيت الوزير أم هو الأمان الذي شعرت به وهي جالسة إلى جانب إسماعيل؟ لا تدري، كل ما تتذكره من تلك الليلة هو أنها شعرت براحة غير عادية في جلستها تلك، لم تنسَ تعب ذلك اليوم وحسب بل سيطر عليها استرخاء لذيذ، حتى أنها أغمضت عينيها مرات عديدة وكلما فتحتهما رأت إسماعيل يدير وجهه فجأة كأنه خاف أن تضبطه وهو يتأملها في غفواتها القصيرة تلك، وفي المرة الوحيدة تلك عندما التقت عيونهما شعرت بيده تلمس ذراعها وبصوته يهمس في أذنها كأنه أراد تجنب أن يسمع الآخرون ما يقوله أو كأنه لم يشأ منحها الانطباع أنه مثل الوزير. حتى في تلك اللحظة حاول إشاحة وجهه عنها كأنه خجل من جملته تلك أو فكر بها ملياً في تلك اللحظة وندم. ربما فكر أن الوقت غير مناسب وأن ما زال عليه الانتظار أياماً أخرى حتى تنسى ما حدث لها مع الوزير لكي تكون حرة لاستقبال جملته تلك. إنها حركاته تلك وردود أفعاله المتواصلة هو ما جعل كنزة تشعر باسترخاء أكثر عند سماعها كلمات الإطراء تلك

«لم أرَ امرأة جميلة بهذا الشكل من قبل في حياتي» كأنها كانت بحاجة لتلك الجملة في تلك الليلة، كأنها انتظرت أن ينطقها أحد بهذا الشكل، بتلك النبرة الهادئة لكن الواثقة أيضاً، لكي تعرف وكأنها المرة الأولى التي تسمع فيها مثل هذا الإطراء، كأنها لم تسمع الجملة هذه آلاف المرات، ماذا جرى لها؟ لا تدري لماذا هي الأخرى تصرفت بشكل آخر في تلك الليلة. كأن تشكره على مجاملته قبل أن تنهض وتغادر مكانها، كأن تطلب من زميلة لها أو زميل أن يسير معها في نزهة صغيرة في الحديقة وحول المسبح، أو كأن تعتذر، تقف وتطلب من صاحب البيت أن يطلب من سائقه لكي يوصلها إلى الفندق. بدل كل ذلك وجدت نفسها تمد يدها للمرة الأولى بهذا الشكل العذب وتلمس ذراعه مثلما فعل ولتفاجئ نفسها وهي تقول له وباللغة الإنكليزية «يور آر ڤري تندر أند سويت» ثم «يو آر بيوتيفيل تو».

لم يتزوج إسماعيل وكنزة في بغداد كما اقترح عليهما المخرج السينمائي بقوله: سأعمل لكما حفل زواج استثنائي ـ ربما تصرف معهما بهذا الكرم لصلة قرابة ربطته بإسماعيل أو كما عرفت لاحقاً لشراكة عمل بينهما ـ إنما تزوجا في نيويورك مانهاتن. حفلة زواجهما تلك ما زالت عالقة في ذهن العديد من زملائها الذين عملوا معها في ذلك الوقت في قسم الترجمة التابع للأمم المتحدة. لم يكتفيا بالاحتفال في مطعم قريب من مكتب الزواج في دار البلدية، على الأقل لأن كنزة

حملت الجنسية الأميركية وكان لا بد لها (رغم أن ذلك سيظهر لاحقاً أنه لحسن حظها أنها فعلت ذلك!) أن تسجل زواجها رسمياً، إنما انتقلا مع جميع زملاء العمل في قسم الترجمة إلى مبنى الأمم المتحدة ليزفهما الزملاء من جديد في كافتيريا الأمم المتحدة. أما قمة الاحتفال فكانت ليلاً حيث ذهبا مع مجموعة صغيرة من الأصدقاء إلى حانة يونانية قريبة من مبنى الأمم المتحدة. هناك شربا الأوزو وأكلا اللحم المشوي السوفلاكي ورقصا على إيقاع موسيقى زوربا وأنغام البوسوكي وكانا سعيدين، نثرا سعادتهما على الملأ الذي أحاطهما في تلك الليلة، كل الذين رأوهما قالوا إنهما لم يريا زوجين عاشقين سعيدين لهذه الدرجة، ليس في تلك الليلة وحسب، بل وفي كل الأيام والليالي التي لحقت. عاشا في البداية في كوينز في الشقة الصغيرة التي سكنت فيها كنزة في ذلك الوقت قبل أن ينتقلا إلى شقة أكبر في مانهاتن، وكانا طوال عيشهما في نيويورك لا ينفصلان عن بعضهما إلا عند الضرورة القصوى، حتى أن كنزة قالت لمديرة قسم الترجمة في الأمم المتحدة بأنها ستقدم لها خدمة لن تنساها في حياتها إذا أعفتها من الرحلات الخدمية خارج أميركا، على عكس ما كانت تفعله كنزة سابقاً. كانت في الماضي لا تترك مناسبة إلا وأبدت رغبتها بالسفر، زملاؤها عرفوا ذلك حتى أن بعضهم وجد فيها البديل المناسب للقيام بالرحلة بدلاً عنه. كنزة المسافرة، أو السائحة كما لقبها

زملاؤها أصبحت لا تغادر نيويورك إلا نادراً، وإن غادرتها فبصحبة إسماعيل. نعم، كان من الصعب عليها الانفصال عنه مثلما كان من الصعب عليه العيش من دونها. وكان الآخرون يراقبون ذلك، منهم من حسدهم ومنهم من وجد في ذلك مبالغة. ولم يمر وقت طويل على زواجهما حتى أطلق عليهما زملاؤهما روميو وجوليت، بعضهم لم يخفِ سخريته قائلاً إن عليهما الحذر وألا ينتحرا يوماً على طريقة العاشقين التاريخيين، وكان الاثنان يضحكان لتلك التعليقات، منتشين بحبهما، لم يعتقدا أن لحظة ما ستأتي على العاشق فيها الانفصال عن معشوقه، وحتى إذا تحدَّثا عن ذلك أو فكَّرا به فإنهما لم تمر بهما لحظة شك واحدة أو تمييز مَن فيهما العاشق ومَن هو المعشوق؟ نعم، مخدَّران في حبهما لا ينفصلان، مخلصان لبعضهما. هذا ما تعاهدا عليه، انتقال أحدهما للعمل في مكان آخر يعني انتقال الآخر معه، وذلك ما جعل كنزة تقدم استقالتها من العمل في الأمم المتحدة بعد ثلاث سنوات من زواجهما عندما طُرد إسماعيل من عمله في السفارة العراقية في واشنطن لعدم نجاحه بكسب الصحافة الأميركية والأجنبية العاملة في الأمم المتحدة إلى جانب العراق في حقه باسترجاع الكويت «عودة الفرع للأصل» كما جاء رسمياً و«شخص يُغَلِّب مصالحه الشخصية على مصالح الوطن هو شخص لا يصلح لخدمة بلاده» كما جاء في حيثيات قرار تسريحه من العمل الصادر عن مجلس قيادة الثورة في بغداد.

تلميح واضح لاهتمامه بحياته مع كنزة أكثر من اهتمامه بعمله الرسمي كناطق صحفي للحكومة العراقية في السفارة العراقية، خاصة وأنه قضى أغلب وقته في نيويورك وليس في واشنطن، وحسب القرار نفسه كان عليه بعد فقدانه وظيفته العودة فوراً إلى بغداد، وكان إسماعيل يعرف ماذا يعني ذلك؟ بالتأكيد سيُعتقل فور وصوله مطار بغداد، فلماذا يعود وفي المرة هذه لن ينقذه أنه ليس كردياً أو شيعياً؟ بدل ذلك قدَّم إسماعيل إلى السلطات الأميركية طلباً باللجوء السياسي رغم أنه لم يكن بحاجة إلى ذلك، فلأنه كان متزوجاً من مواطنة أميركية كان من الممكن أن يحصل تلقائياً على حق الإقامة، لكنه فضَّل الحصول على الاثنين معاً «اللجوء السياسي والإقامة الشرعية» كما قال لكنزة. ربما كانت تلك بداية تراجع العلاقة بين الاثنين. لم تشأ كنزة أن تفهم تصرّف إسماعيل على أنه لم يكن يثق بها تماماً إن لم يعنِ أنه أراد حماية نفسه في حالة حصول مشكلة بينهما، انفصالهما مثلاً، بل كل ما فكرت به كنزة هو أن حصول إسماعيل على اللجوء السياسي سيمنحه حصانة أكثر في الولايات المتحدة الأميركية. لماذا كان عليها أن تفكر بشكل آخر وهي لم تشك بحبه لها أو حبها له لحظة واحدة، حتى أنها لم تتردد بالاستقالة من عملها عندما جاءها إسماعيل ذات يوم يخبرها بقرار انضمامه للمعارضة العراقية وأنه لكي يعمل بصورة فعالة وافق على تنفيذه المهمة التي كلفوه بها؛ تأسيس إذاعة توصل

صوت المعارضة إلى داخل العراق. وعندما سألته كنزة عن المكان الذي ستبث منه الإذاعة أجابها إسماعيل: «المملكة العربية السعودية»، ثم أوضح لها بأنه سيكون سعيداً إذا رافقته لتكون إلى جانبه في العمل هناك. لم تسمع كنزة لا نصيحة مديرتها ولا نصيحة زملائها في العمل، قالوا لها إنهم لا يعترضون على مصاحبتها لزوجها لكن عليها فقط أن تؤجِّل فكرة الاستقالة إلى وقت آخر «خذي إجازة لمدة سنة دون راتب» قالت لها مديرتها بمحاولة منها لإقناعها، قالت لها أيضاً إنها ستفعل كل ما في وسعها لكي تقنع المسؤولين في الأمم المتحدة ليوافقوا على تلك الإجازة، وحتى إذا انتهت فهي تعدها بأنها ستبذل الجهد من جديد لكي تمدِّدها سنة أخرى. عليها فقط أن تُجرِّب أولاً؛ «الحياة في المملكة السعودية صعبة جداً» قالت لها المديرة المصرية الأصل، وكذلك زملاؤها القادمون من بلدان عربية مختلفة. لكن كنزة المخدَّرة بحبها لم تكن متأكدة من مشاعرها وحسب بل وثقت بإسماعيل عندما وعدها أنها ستعمل إلى جانبه في الإذاعة. كيف لا وهم سيكونون بالتأكيد بحاجة إلى مترجمة محترفة «الإذاعة في بداياتها» قال لها. لكنها لم تعرف بأنها ما إن تصل إلى هناك حتى تبدأ بسماع الأعذار والحجج منه، المنطقية وغير المنطقية. في الأيام الأولى التي سكنا فيها في جدة وقبل أن يبدأ البثّ الرسمي للإذاعة ترجمت كنزة للإذاعة العديد من الوثائق من اللغة الإنكليزية إلى اللغة العربية ولكن عملها

هذا لم يستغرق وقتاً طويلاً إذ ما إن انتقلا بعدها إلى مبنى الإذاعة الذي وضعته الحكومة السعودية تحت تصرف المعارضة العراقية في حفر الباطن حتى توقفت عن العمل. وعندما شكت لإسماعيل قال لها إن عليها أن تصبر فهم في بداية التأسيس وفي العمل يشاركه عراقيون آخرون عليه أن يتحدث معهم. وعندما طال الأمر ذكّرته بوعده لها بالعمل في الإذاعة فهي إذا كانت تقضي الوقت في جدة بالخروج مع بعض النساء اللواتي تعرَّفت عليهن هناك، فإن المدينة هذه على عكس جدة المنفتحة نسبياً لا يمكن لها فيها الخروج. كان عليها أن تقضي الوقت جالسة في البيت، فهما لا يسكنان حتى في المدينة. صحيح أن السلطات المحلية أعطتهما بيتاً كبيراً، فِـلا مثل الـفِلَل التي حصل عليها المعارضون الآخرون، لكن الـفـلا كانت أشبه بالمنفى، وقعت خارج المدينة في قرية صغيرة قريبة من الحدود العراقية، وفي أيام هبوب العواصف الرملية وهي كثيرة، ينقطعون فيها تماماً عن العالم ولو لم يكن مبنى الإذاعة على بعد كيلومترين من القرية لما كان وصل إليه أحد وعندما قال لها إن عليها أن تصبر حتى نهاية الحرب، العراقيون الذين يعملون معه، شركاؤه يصرون على عمل العراقيين فقط في الإذاعة، يقولون إن ذلك مهم الآن «بعد تحرير الكويت سيختلف الأمر» سيجد لها مكاناً في الإذاعة بالتأكيد. لم تعرف كنزة أن تلك كانت مجرَّد حجج ووعود فارغة منه وأن عليها أن تقبل بها،

والأنكى من ذلك عليها أن تدرك تغيُّر إسماعيل منذ انتقالهما إلى السعودية رغم أن في جدة مكان إقامتهما. في البداية وبسبب انفتاح المدينة لم يُظهر من شخصيته الخفية الكثير ولكن هنا في حفر الباطن أو في ضواحيها بدأ يتصرف معها مثل بقية الرجال، بل وأكثر. انتبهت كيف تستشيط نظراته غضباً عليها كلما رأى رجلاً ينظر إليها، حتى أنه طلب منها أن تتوقف عن تقديم الشاي أو المرطبات عند زيارة ضيف لهما في البيت سواء كان الضيف عراقياً أم سعودياً بل حتى إذا كان أميركياً وهو أحد أولئك الضباط الأميركان العاملين في قاعدة حفر الباطن. تحررت الكويت (كما كان يحلو له أن يقول) وتسلَّل الآلاف من اللاجئين العراقيين الذين هربوا من بطش النظام في بغداد. العمل في الإذاعة توسع ورغم ذلك ظلت هي جالسة في البيت بلا عمل. حتى عمل البيت كان عليها التخلي عنه. قال لها إن عليهم مثل بقية العراقيين والعرب الذين يعيشون هنا تشغيل خادمة آسيوية في البيت. مانعت في بداية الأمر لكنها ومثلما فعلت في أمور أخرى أذعنت لاقتراحه في النهاية. لم تذعن في أمر واحد فقط: أن تلبس الحجاب، ليس لأنها لم تعرف أية «نعمة يمنحها اللّه ربنا للمرأة عند لبسها الحجاب، وكيف يُطهِّر روحها» بل لأنها أرادت الاعتراض عليه، الوقوف في وجهه عندما خيَّرها بين لبس الحجاب والخروج إلى المدينة، أو عدم لبسه وهذا يعني الجلوس في البيت. فضَّلت

ذلك ولم تخرج إلى السوق إلا نادراً عندما يكون هو في رحلة مثلاً. كانت تكتفي بتغطية رأسها بإيشارب بسيط. وكان عزاؤها الوحيد هو أن يرحلا ذات يوم عن بلاد الذكور هذه كما أطلقت على المملكة في ذلك الوقت ويبدأا حياتهما من جديد كما قال لها في إحدى لحظات وجده النادرة، وإن راتبه الضخم والأموال التي يحصل عليها من السعوديين في عمله في الإذاعة ستكفيهما للعيش بعد سنوات في أوروبا أو في أي مكان تشاء، سيشتريان ڤِلتين ضخمتين واحدة في المدينة والأخرى على البحر ولن يبقى شيء تحلم به إلا وتستطيع تحقيقه وسينجبون أطفالاً. عليها فقط أن تصبر. سيؤسسان محطة تلفزيونية فضائية في لندن مثلاً، ألا ترين كيف بدأ زمن الفضائيات؟ «أحلف لك بكل الرسل والأنبياء أنك أنت مَن ستدير المحطة، فقط اصبري عليَ». وصبرت كنزة، وماذا كان عليها أن تفعل غير أن تصبر، أن تصدق وعوده ولكن عندما انتهت الحرب وعادت جيوش أربع وثلاثين دولة إلى بلادها اكتشفت كنزة أن كل ما قاله لها عن مشاريع عظيمة في المستقبل ومحطات فضائية كلام ليس له صحة لأنه في النهاية لن يغادر الإذاعة الحقيرة هذه في المملكة العربية السعودية، إذاعة لم تصمت عن ضرب بغداد بالصواريخ في ليلة شتائية باردة وحسب، بل سكتت أيضاً عن دفن جنود كتيبة كاملة وهم أحياء على جبهة حفر الباطن باستثناء دمعة أو دمعتين ذرفهما إسماعيل

أمامها وهو يروي ما حدث للكتيبة. لم يرفّ له جفن وحتى تلك الدمعتين ما كانتا خرجتا من عينيه لو لم يكن لحظتها تحت تأثير قنينة الويسكي التي شربها كاملة في تلك الليلة. ربما عذّبه ضميره وجعله يشرب كثيراً ويروي لها قصصاً. لأنه في اليوم الثاني أنكر أنه حدّثها بالقصة تلك أو أخرى مشابهة، قال لها «أحذرك من رواية الإشاعة تلك أمام أحد». كم رغِبَت أن تبصق في وجهه في حينها وتقول له: دفن الكتيبة العراقية أحياء أصبح إشاعة، والعديد من جنود درع الجزيرة الذين عادوا من الجبهة تحدّثوا عن الجريمة هذه؟ لكنها جمعت قواها. كان لا بد لها من المحافظة على أعصابها لكي تجد حلاً للمعضلة التي هي فيها. كانت في شهرها الرابع من الحمل. لم تشأ ولادة طفل من أب مثله. بعد أيام قليلة أجهضت الطفل في منطقة الثقبة القريبة من مدينة الخُبَر على يد عجوز هندية حصلت على عنوانها من معلمة سعودية التقت بها صدفة في إحدى تلك المرّات النادرة التي خرجت فيها إلى السوق. ولم تعتقد أن الإجهاض سيسبب لها كل ذلك العذاب وعلى مدى شهور طويلة وطوال كل تلك الفترة لم تستطع النوم، وكلما رأت طفلاً ميتاً أو جريحاً كلما تذكرت كتلة اللحم التي أرتها لها المرأة التي أجهضتها، كأنها أرادت أن تريها ما ارتكبته من ذنب، هي التي لم تظن يوماً أنها سترتكب إثماً بسبب الإجهاض، أو أن الإجهاض سيسبب لها نزيفاً لاحقاً جلب معه أرقاً مرهقاً جعلها لا تنام إلا مع كوابيس

ترى فيها دائماً الطفل الذي أجهضته أو كتلة اللحم التي ألقتها العجوز الهندية أمام عينيها، ربما فعلت ذلك لكي تختبر شجاعتها أو ربما لكي تبين لها كم كانت على حق عندما حذَّرَتها، وأن طفلاً بهذا الحجم لا بد وأن يسبب لها نزيفاً، قالت لها، أنت في شهرك الرابع ولا تعتقد أن الأمر سيمر عليها بسلام. في البداية ظنت كنزة أن العجوز كانت تبالغ أو أنها لا تملك الأدوات اللازمة التي يستدعيها الإجهاض وتنظيف الرحم بعدها لكن عندما بدأ الطفل يزورها ليلاً في نومها، مرة على شكل قُبَّرة، مرة أخرى على شكل طفل غزالة، مرة على شكل دب وفي مرة أخرى على شكل ملاك حتى تحوَّل نومها إلى عذاب لا يرحم، عرفت أن المرأة العجوز كانت على حق. فهي لو لم تتوسل بها وتمنحها مبلغاً إضافياً من المال لما وافقت على إجهاض كنزة. في الشهرين الأوَّلَين وحتى منتصف الشهر الثالث نعم. لكن في الشهر الرابع، أمر صعب، قالت لها العجوز. مرَّات عديدة فزَّت كنزة مذعورة من نومها، الكوابيس من جهة والنزيف من جهة أخرى. في بعض المرات شعرت بأحشائها تتمزق تحت، حتى أنها فكرت بالموت ومن يدري ربما ما كانت ظلَّت على قيد الحياة لو لم تزرها ذات ليلة في النوم أمُّها وهي توصيها بزيارة ضريح سيدي الصحبي «أسبوع واحد وسيكون كل شيء على ما يرام» همست لها الأم في الحلم وهي تمسد على جبهتها. حتى تلك الليلة كانت تظن أن كل تلك هي مجرد خرافات. لم تكن تلك

هي المرة الأولى التي طلبت أمها منها ذلك. مرات عديدة في الماضي وكلما ذهبت لزيارة أهلها اقترحت عليها الأم زيارة ضريح الشفيع كما سمته لكي تصلّي في حضرته وتطلب منه أن يهديها الزوج الصالح. في كل تلك المرات كانت تضحك من كلام أمها، وترد عليها برِقَّة وهي تداعبها في خدها، أمي متى تبطلين من هذه الخرافات. وهي المرة الأولى التي لم تجد في ما قالته الأم لها في الحلم أية غضاضة. كم شعرت بالوحدة في تلك الليلة. باليأس. كانت الحمى قد جعلت جسمها يغرق بالعرق ليلاً. بل جعلتها تهذي أيضاً. لكن ولمفاجأتها شعرت براحة غير عادية عند استيقاظها في صباح اليوم التالي. شعرت بأنها ليست وحيدة. وهي الراحة هذه ولا شيء غيرها ما شجعها على الحديث مع إسماعيل «أنا بحاجة لزيارة أمي»، قالت له، اقتنع إسماعيل فهو رأى سهرها ونُحولها وكان كلما سألها عمَّا تشكو منه، إذا كانت حاملاً مثلاً؟ أجابته، لا شيء إنه فقر دم قديم يعود لها من جديد. طبعاً لم تخبره بالإجهاض، لكان بالتأكيد رفض ذلك. وعندما حدَّثت كنزة أمها بما جرى لها طوال هذه السنوات وبإجهاضها ولولت أمها، ضربت على خدها وعلى صدرها وبكت بحرقة ولم تهدأ إلا بعد أن حدَّثَتها كنزة عن زيارتها لها في الحلم وكيف أنها جاءت لزيارة أهلها هذه المرة لكي تطلب من أمها أن تصحبها لزيارة ضريح الشفيع سيدي الصحبي في القيروان، مسحت أمها دموعها، حضنتها

وأخبرتها كم هي سعيدة أخيراً لأن ابنتها اهتدت للطريق الصحيح. لا بد لك من غسل الإثم يا بنتي، قالت لها الأم. باتت الاثنتان عند قبر القديس. لم تكونا الوحيدتين هناك طبعاً، إنما عشرات النساء، مرضى وأصحاء، لكن الأغلبية نساء وإذا كان هناك رجال فهم بعمر الشباب. وخلال الأسبوع الذي استغرقته إقامتهما سمعتا العديد من الحكايات التي تتحدث عن المعجزات التي وراء حدوثها الشفيع سيدي الصحبي، وعن الشعرات الثلاث من لحية الرسول التي احتفظ بها الصحابي هذا وحلّاق الرسول، منذ أن جاء من شبه الجزيرة العربية ليستقر في القيروان. الأمر الوحيد أنّ على من يطلب مساعدته أن يتحلّى بالصبر. هي الأخرى كنزة لم تيأس. صحيح أن نزيفها توقف مثلما توقفت عن زيارتها الكوابيس. حتى الألم غادر جسمها. لكن كان عليها أن تنتظر نهاية اليوم السابع لكي تتلقى الإشارة التي انتظرتها من الشفيع. وفي ساعة متأخرة من الليل وفيما هي في عمق النوم على حصيرة بسيطة في الضريح شعرت بيد خفيفة تهزها وبصوت رقيق يهمس في أذنها يلقي عليها ما يشبه الخطبة القصيرة، قال لها، منذ اليوم أنت مباركة أيتها البنت. اذهبي ببركة اللّه ولا تنسي تعاليم الشريعة. ستعيشين أيامك القادمة دون تأنيب ضمير وعذاب، البسي الحجاب وطبِّقي الفرائض الخمس التي أمرك بها ربك، الشهادتين، قومي بالصلوات الخمس، صومي شهر رمضان، وآتي الزكاة، والحج إن

استطعت إليه سبيلاً، وعندما فتحت عينيها لكي تقول له إنها ستطبِّق كل ما طلبه منها رأته يمرر يده على جفنيها ويطلب منها النوم من جديد. كم كان رقيقاً معها، نعم، كل شيء كان فيه رقيقاً، قامته الطويلة الناحلة، مشيته البطيئة وهو يغادر المكان. كم شعرت بالأمان والطمأنينة مع كل ضربة من ضربات قدميه على الأرض وما كانت صدَّقت كل ذلك لو لم ترَ سيدي الصحبي بعينيها نصف المغمضتين فعلاً. في اليوم التالي عادت إلى العاصمة تونس، اشترت ملابس الحجاب في القصبة القديمة، وعندما حطت الطائرة بها في مطار الظهران في المملكة العربية السعودية بعد أسبوع لم تصدق شرطة المطار أن المرأة المكشوفة الشعر وذات الوجه المليء بالمساحيق كما في الصورة التي على الجواز هي نفسها التي وقفت أمامهم لابسة الحجاب مغطاة من رأسها حتى قدميها، حتى إسماعيل لم يصدق عينيه عندما رآها في صالة المطار، ظنَّ في البداية أنها تمزح معه، لكن عندما مرَّ أسبوعان أو ثلاثة عرف أن كنزة تغيرت وأنها عادت هذه المرة إلى المملكة العربية السعودية وكلها حماس لتنفيذ ما طلبه منها سيدي بلعباس، تطبيق الفرائض الإسلامية الخمس، ثم الدعوة للجهاد!!! وعندما سخر منها إسماعيل قائلاً «وهل ستذهبين للقتال في أفغانستان من أجل الجهاد؟» لم يعرف أنها ستجد طريقاً آخر للجهاد عندما تقرأ إعلاناً بالصدفة عن حاجة مدرسة الصداقة

الأميركية السعودية في القاعدة الجوية في الظهران إلى أميركية تتحدث اللغة العربية للعمل في مجال تعليم الكبار. ليس هناك أفضل وسيلة للجهاد مثل العمل في مهنة التعليم، قالت ذلك لنفسها قبل أن تقول لإسماعيل. عن طريق عملها هناك ستسعى ليس لتعليم الأميركان البالغين لغة القرآن وحسب، بل إرشادهم إلى طريق الهداية، إقناعهم بقوة القرآن، ليصبحوا مسلمين. كأنها انتظرت ذلك اليوم لكي تقول لنفسها، إنها ولكي تسير على الطريق المستقيم تماماً عليها أن تتحرر من العبء الأخير، من آخر إثم علق بها، أن تتطلّق من إسماعيل. نعم، إن أبغض الحلال عند الله هو الطلاق. لكن بقاءها زوجة لإسماعيل هو أمر بغيض بالنسبة لها وبالنسبة لربّ العالمين أيضاً. لم يعد هناك ما يربطها بإسماعيل، بل لم يعد هناك ما يربط بينهما هما الاثنان. الإذاعة الحقيرة تلك أصبحت حياته كلها، زوجته وأخته، أمه وابنته. كأن طرده من العمل بالسفارة جعله لا يصحو من الكابوس، ألا يعثر على وظيفة أخرى. أو لقنه الدرس أن عليه ألا يهمل العمل كما فعل ذات يوم في عمله في واشنطن، عليه أن يبذل جهده لكي لا يُطرد من عمله. كل يذهب إلى طريقه وحده، وشاهِدُنا الله الذي فوق رؤوسنا، قالت له كنزة ثم طلبت منه أن ينطق كلمة الطلاق بالثلاث، والباقي ستوكل محامي لها للانتهاء منه. أجابها إسماعيل «طالق، طالق، طالق» كلمات ثلاث لم يتخيل العاشقان اللذان أطلق عليهما ذات يوم،

روميو وجوليت، أن تنطق شفتا أحدهما بها، أن تسمعها أذنا أحدهما من الآخر. لكن ذلك هو القدر يضرب ضربته كما يشاء، على الأقل، هذا ما اعتقدته كنزة. في اليوم الثاني حزمت حقائبها القليلة لأنها رمت ملابسها القديمة غير المحتشمة. انتقلت إلى الظهران. أقامت في القاعدة الأميركية وبدأت بالتعليم. منذ ذلك اليوم وهي تشعر بالطمأنينة، إيمانها يزداد يوماً بعد يوم، وهي على ثقة أن الله سيكافؤها بالجنة، ستلتقي بابنها الذي أجهضته، ستعيش معه هناك، ستراه يكبر ويكبر حتى يتزوج من حورية، كم تتشوق لرؤية ذلك اليوم.

وهو؟ دانييل؟ ألم تبدأ الكوابيس ذاتها بزيارته منذ دفنهم جنود الكتيبة العراقية تلك أحياء؟ لا يريد أن يعرف عدد الجنود الذين تركهم مدفونين هناك وراءه وهم أحياء. لم يصدق أنه سينتهي من المهمة التي ألقيت على عاتقه وعندما انتهى من عمله أراد العودة بسرعة. ترك الشفل عند مقر كتيبة المشاة مثل من يهرب من نفسه، من كل شيء. وعندما ربت الرائد على كتفه قائلاً له «برافو، ناو يو آر ريلي سولجير نوت أونلي سايـلاي أدمينيستريتير أور أوبيريشين كليرك» أشاح بوجهه عنه إلى البعيد «آي آم گوينـگ» قال للرائد وبصوت لا يكاد يُسمع وكان أكثر ما أخافه أن يطلب منه الرائد البقاء فترة أطول في قاعدة حفر الباطن، لكن الرائد كان مشغولاً بانتصاره في ذلك اليوم ولم يعنِه بقاؤه بعد الآن. ما أراده من دانييل حققه في النهاية،

قال له، كم يؤسفه أنه لا يستطيع الاحتفال معه في حانة الكتيبة بهزيمة العراقيين لكنه تمنى له الحظ «گَد بلَس يو». كانت تلك المرة الأولى التي سمع بها كلمة طيبة من الرائد راي پرينس لكن بماذا سيساعده ذلك. لاحظ أنه بعد اليوم لن يكون وحده، سيكونون معه، كلهم، كل أولئك الجنود الذين رآهم أحياء قبل أن يصعد إلى الشفل. ما يزال يتذكر آخر الجنود الذين دفنهم، ألقى عليه التراب بسرعة لكي لا يرى نظرته المتسائلة التي تدينه؟ طوال الطريق من حفر الباطن وحتى القاعدة الجوية في الظهران والصورة تلك لا تفارقه. في البداية ظن أنها مسألة وقت وسينتهي من القصة، ستختفي صور الجنود العراقيين لكنه لم يعرف أن التوسلات التي سمعها من الجنود انغرست في داخله ولن يستطيع منها فكاكاً. منذ ذلك اليوم وهو يحمل أصواتاً في أذنيه تسأله بتوسل، لماذا قتلتَنا؟ كيف سمحت لنفسك بإطلاق النار علينا، لأصابعك أن تضغط على الزناد؟ في الصحو والنوم، دائماً الأصوات نفسها، وعبثاً ظنَّ أنها ستغادره يوماً. راجع عشرات الأطباء ومن مختلف الاختصاصات. مختصون بالعلاج النفسي أو بأمراض الأعصاب. لقد فعل كل شيء، من الوودو حتى المعالج النفسي لكي يشفى لكن عبثاً، حتى الكنيسة لم تسعفه، القس الأخير الذي بقي من أجله اضطر في النهاية للمغادرة كان دانييل زبونه الأخير. ماذا يفعل قس دون مؤمنين؟ بعد تعرفه على كنزة بدأ

يشعر ببعض الراحة. بدأ يشعر بالتبدل مع كل درس، تدريجياً ودون وعي منه أو تعمد أو لهدف التبدل بحضور دروسها. كلا، لم يلحظ ما حدث له. تبدل نومه، لا كوابيس عادت تثقل عليه، لم تختفِ الكوابيس تماماً لكنها قلّت. تحسنت صحته، كلما نهض صباحاً وتطلع بوجهه في المرآة رأى خيطاً من ابتسامته القديمة ولم يبقَ أمامه غير أن يصارح كنزة بما يشعر، وهذا ما فعل، كم فرح عندما عرف أنها هي الأخرى فرحة به وتكن له نفس الشعور. فلماذا لا يتزوَّجان؟ وعندما تزوَّجا كان على يقين أنه سيشفى من شعور الذنب الذي أثقل عليه، سيكونان معاً مثلما قالت له في اليوم ذلك الذي روت له قصتها في مكتبها، بعد الانتهاء من الدروس، وبعد أن عرفت بحبها له كيف «أنهما موحَّدان في جريمتهما» مثلما يقول المثل الأميركي وكيف أن توحُّدهما بالشعور بأنهما ارتكبا جريمة، كل على طريقته، سيجعلهما يساعدان بعضهما على النسيان. وهذا ما فكرا به طوال السنوات التي عاشا فيها زوجين سعيدين، أو هذا ما ظنه الاثنان على الأقل. شخصيَّتُها، حركة يديها، البريق الذي يشعُّ من عينيها، هدوؤها، وليس أخيراً ثقتها بالنفس. كل ذلك جعله يشعر بالاطمئنان وهو لم يرتكب حماقة عندما قال لها في ليلة عرسهما، كم ذكرته هي به. ليس به هو قبل أن تحدث المصيبة تلك عندما كان ما يزال «سمايلي مان» وحسب، بل بعد ذلك أيضاً، وسماعه لقصتها الاستثنائية. لم يفعل غير أن عمَّق

معرفته تلك وكم يشكر الرب على ذلك، كثيراً ما قال لنفسه، آه يارب كم نحن متشابهان، في الخير وفي الشر، في السلم وفي الحرب. ومثلما كانا موحَّدَين في شعورهما بالذنب ذلك في البداية، مثلما شعرا بعد معرفة ماضي كل منهما بتحررهما من كل إثم، فبعد كل ما جرى لها وله، الآن، وبعد أن تعلَّم على يديها الخروج من مغارة الألم التي رماه فيها الرائد راي پرينس، بعد أن وجد ما كان يبحث عنه من سلام، عرف أن اللّه أخضعهُما كليهما لهذا الامتحان، نعم لا بد وأنها كانت إرادة اللّه فلو لم تشعر بأنها قتلت طفلها وهو ما زال يسبح في رحمها في شهره الثالث، ولو لم يدفن هو جنوداً أحياء، لما تزوَّجا بالسرعة تلك، لما أحبَّا بعضهما بهذا العمق، لما اتَّفقا على العيش دون أطفال، ولادة طفل في هذا العالم يعني إلحاق الأذى به «وي آر فري فرنت أوف آسّ إز أونلي گّد»، هما الاثنان بمواجهة اللّه لوحدهما فقط. ما يزال يتذكر تلك الجملة التي قالتها له في ليلة زواجهما وكررتها عليه لاحقاً عشرات المرات. اثنا عشر عاماً دامت سعادتهما تلك. لم يبقيا في المملكة السعودية. انتقلا بعد سنة من زواجهما إلى نيويورك بعد انتهاء عقد عمله في المارينز. هذه المرة لم يجدِّد عقد العمل كما فعل في المرات السابقة كل خمس سنوات. لا مارينز بعد اليوم ولا جيش، لا حرب ولا قتل أو إجرام، كلا، العيش بسلام، هذا كل ما كانا يسعيان إليه. عادا للعيش في حي كوينز في البيت الذي عاش فيه مع

أهله سابقاً. هي تدرّس في مدرسة تابعة للجالية الإسلامية في الحي وهو يعمل في شركة للتجهيزات في ميناء نيويورك. هكذا كان حالهما حتى يوم التاسع من أبريل 2003 كان يوم أربعاء وكان يجلسان على الصوفا في صالون البيت وكانت كنزة انتهت للتو من صلاتها أما هو فكان يهمّ للتو لأداء صلاته عندما شاهدا على شاشة التلفزيون مشهد دخول قوات المارينز إلى بغداد، مشهد وصول الدبَّابات الأميركية ساحة الأندلس في بغداد بالتحديد. وكاد المشهد يمر عادياً مثلما مرت المشاهد الأخرى التي شاهداها في الأيام السابقة طوال أيام الحرب على مدى العشرين يوم الماضية، من 19 مارس/آذار وحتى 09 أبريل 2003، القطعات العسكرية الأميركية تدخل العراق من جهة الكويت، تسير على الخط السريع باتجاه بغداد والحافلات العراقية التي تحمل ركّابها تسير في الاتجاه المعاكس جنوباً. كأن الحرب التي دارت هناك لا تعني الناس هناك. كأنها دارت على أراضٍ أخرى وليس على أرض العراق. لكن في ذلك اليوم وفي ساعات المساء الأولى وهو يرى الصور المنقولة والمعادة طوال ذلك اليوم، لكنه يراها للمرة الأولى في المساء أمامه على شاشة التلفزيون لم يستطع كتم الغصة التي انتابته فجأة، لم يستطع وقف الرعشة التي سيطرت على أوصاله، البرد الذي بدأ يسري في جسمه، شلَّه كل شيء حتى أنه لم يستطع النهوض لأداء الصلاة. كأن كل السنوات التي عاشها مع كنزة

سعيداً، خبأت له تلك اللحظة لكي تلقي به من جديد في المغارة المظلمة التي خرج منها، لكي تعيد إلى ذاكرته كل ما ظن أنه نسيه. قرابة عشر سنوات مرت وكان على يقين أنه شفي من كل شعور بالذنب. من أين له أن يعرف أن اللحظة تلك ستأتي، اللحظة التي تجنَّبها كل هذه السنوات ستقفز فجأة مثل ومضة نيزك أمامه أو مثل ضوء برق قوي لتكشف له كم أخطأ في الظن. وأنها مسألة مؤقتة وسيسقط من جديد في دوامة تأنيب الضمير. كأن كل ما فعله لحماية نفسه وتحصن به سينتهي حالما يظهر في حياته الرائد راي پـرينس مرة ثانية، ليس قادماً من الماضي كما عرفه في تلك السنوات بل سيأتيه هذه المرة بصورة حية، سيحضر أمامه برتبة عسكرية أعلى، ليوتينانت كولونيل، مُقدَّم، يرى النجمات التي لمعت على كتفه، بل في صنف آخر، صنف الدروع وليس في مستودعات الإعاشة أو في مستودعات السلاح. كأنه حقَّق حلمه أخيراً بالترقية، بالوصول إلى ما كان يسعى إليه، نعم إنه لويتينانت كولونيل راي پـرينس وليس غيره ذاك الذي يراه هذه المرة في ساحة الأندلس في بغداد ينزل من دبابة تقدَّمت سرب الدبابات التي أحاطت الساحة وسدَّت الشوارع المحيطة بفندق فلسطين، الصبيان ساروا في عمق المشهد يُسقِطون أضخم تمثال للديكتاتور، والمقدَّم، اللويتينانت كولونيل، راي پـرينس يسير خلف البريـگادير جنرال، العميد أو قائد لواء القوات العكسرية

التي دخلت بغداد، يؤدي التحية له أولاً ثم يسير وراءه حالما يراه يتجه ناحية بوابة الفندق الذي تجمَّع فيه الصحفيون. ربما ظن اللويتينانت كولونيل راي پـرينس أنه سيعثر مع العميد، البريـگادير جنرال على الديكتاتور المخلوع أو على أحد أعوانه مختبئاً في سرداب فندق فلسطين. ربما أراد أن يكون شاهداً على توثيق وثيقة الاستسلام. لكن لا أحد باستثنائهما البريـگادير جنرال، قائد اللواء في قوات المارينز واللويتينانت كولونيل راي پـرينس، وجوقة من الأطفال وصحفيين طلوا برؤوسهم من الطوابق العليا للفندق وآخرين من سكان البنايات العالية المنتشرة عند الساحة، بعضهم جرُؤ ونزل إلى الشارع والبعض الآخر أخفى رأسه خلف ستائر الشبابيك ربما شكَّ قليلاً بما يراه، ربما فكر أنها هلوسة من هلوساته القديمة تعود إليه. من غير الممكن أن أحداً يملك ملفاً عسكرياً غير مشرف مثل الملف الذي ملكه راي پـرينس يصعد إلى الرتبة تلك بمثل هذه السرعة، بل ويُنقل إلى صنف الدُروع. ربما أراد دانييل بروكس أن يدفع عن نفسه ذكرى يعرف أنها إذا هجمت عليه فسيكون هجومها شرساً أشبه بالوباء، ربما أراد أن يحمي نفسه بهذا الشكل ولم يشأ تصديق أن الذي وقف أمامه عند عتبة الفندق هو الرائد السابق، راي پـرينس، لكن كيف يشك، وهو يرى وجهه بكل هذا الوضوح وهو يقف عند عتبة الفندق إلى جانب العميد، قائد اللواء، البريـگادير جنرال، وفي تلك اللحظة التي خرج فيها

مدير الفندق ليحيّي البريـگادير جنرال فقط، تذكَّرَ اللويتنانت الثاني السابق دانييل بروكس الرُّزمة الصغيرة التي احتفظ بها طوال كل هذه السنوات. اثنتا عشرة سنة وشهر وستة أيام، مائة وأربعة وأربعين شهراً وستة أيام، مرَّت على عثوره على الرُّزمة تلك في جبهة حفر الباطن. كم أخطأ الظن بأنه قد نسي. في ذلك اليوم المعتدل الحرارة وحتى قبل أن ينهض ويخرجها من الصندوق الصغير الذي ورثه عن أبيه، تذكَّر دانييل بروكس كيف كانت الرزمة بالضبط، لونها الأسمر وكل ما علق بها من غبار، كل ما حوته من قصاصات ورق كُتب عليها قصائد باللغتين العربية والإنكليزية للشاعر الأميركي والت وايتمان، قصاصات صُفَّت بعناية إلى جانب رسالة ظلت على حالها في مظروف أزرق أنيق، ودفتر سميك صغير أسود اللون حوى مائة صفحة بالضبط، على كل واحدة منها كُتب اسم جندي وتحته الأمنيات والأحلام التي أراد تحقيقها. اليوم يأخذ الجنود الكاميرات معهم أو على الأقل أجهزة الموبايل يصوِّرون أو يوثِّقون ما يعيشونه في الجبهة. في الماضي حرص الجنود على حمل الكتب معهم أو دفاتر يسجِّلون فيها يومياتهم، صحيح أنه لم يحمل دفتراً شبيهاً وأنه باستثناء الإنجيل لم يأخذ معه أي كتاب لكنه رأى ذلك عند صديقه دافيد باربييرو، خاصة كتب الشعر ودواوين والت وايتمان ووليم بلوك وغيرهم. الجندي العراقي لم يختلف عن صديقه، هو الآخر سار على

تقاليد الجنود القدامى، حمل معه الشِّعر ودفتراً لتسجيل الأحلام. وشكراً له أيضاً أن صديقه عاد لقراءة الشعر لأنه يتذكر كيف أن دافيد باربييرو قال له مباشرة بعد اندلاع حرب الكويت بأن قراءة الشعر لم تعد مجدية سألجأ لقراءة الكتب الحربية، ربما ستسعفني أكثر لفهم ما يجري. لا بد أن يشكر الجندي العراقي إذا التقاه. اثنتا عشرة سنة وشهر وستة أيام، مائة وأربع وأربعون شهراً وستة أيام، والرُّزمة التي عثر عليها مثل كنز ثمين استقرَّت هادئة في الصندوق الخشبي الصغير في القاعدة البحرية في الظهران آنذاك ثم في بيته في كوينز. لم يفتح الرسالة التي حملت عنوان المرْسَل إليه، كيف يقرأ رسالة لا تخصه؟ لكنه قرأ القصائد والدفتر الأسود السميك بطبيعة الحال، حتى في ذلك اليوم، في يوم التاسع من أبريل/نيسان 2003 عندما أخرج الدفتر وأراه لكنزة لم يفعل شيئاً غير قراءة القصائد والدفتر الصغير، مرة لها ومرات عديدة له لوحده. من الصعب عليه أن يحصي أو يتذكر عدد المرات التي قرأها في تلك الليلة وفي الأيام والليالي التي تلت. لكنه يتذكر أنه في ذلك المساء الذي رأى فيه العميد راي پرينس نسي صلاته، بل نسي حتى تناول العشاء وعندما حلّ الليل لم يستطع النوم. فزَّ من نومه مذعوراً أكثر من مرة. كأن الكوابيس عاودت زيارته كما في الماضي وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي ورأى وجهه المتورم من جديد فكَّر بأن الوقت حان لأن يفعل ما أراد منذ عثوره

على الزُزمة تلك. الذهاب إلى بغداد والبحث عن الشخص الذي كُتب عنوانه على المظروف الأزرق المغلق للرسالة تلك. كيفما كان عليه الوضع الأمني الذي عاشته المدينة في تلك الأيام والمخاطر التي يمكن أن يتعرض لها أي زائر غريب. المهم بالنسبة له العثور على الشخص ذاك، وليكن ما يكون، حتى زوجته كنزة لم تجد حلاً آخر له غير الذهاب إلى بغداد بعد أن رأته يتقلّب في فراشه، يفزّ مذعوراً، يصرخ في بعض الأحيان، وحتى في النهار وفي كل جلساتهما، في المطبخ أو في صالون البيت على الصوفا أمام التلفزيون، كانت تراه يسرح بعيداً. هكذا استمر الحال قرابة ثلاثة أسابيع، فها هم يعودون من جديد، كل الموتى يُطِلُّون عليَ بوجوههم، كأنهم أمامي الآن، أية حماقة، ظننت أنهم ذهبوا إلى الأبد، وأن القصة كلها أصبحت في طي النسيان، قال لها، لا بد لي أن أذهب إلى الرجل صاحب الرسالة أطلب منه أن يدلّني على كاتبها ويأخذني إلى ذوي الجنود الموتى هؤلاء. لا بد له وأن يطلب الصفح منهم. يخبرهم بأنه لم يقتلهم، قتلهم رائد الخراء هذا راي پرينس وهو عندهم في بغداد إن أرادوا أخذ الثأر منه. نعم لا بد أن أذهب، قال لها. ربما انتابها الخوف في البداية، فكيف يذهب إلى بغداد ولا أحد يدري ماذا يدور هناك بالضبط، لكنها عندما رأت وجهه يذبل وقواه تخور، قالت له، نعم يا دانييل لا بد لك أن تذهب إلى بغداد. لا حياة لك ولا تزال تشعر بالذنب. حدث ذلك في 1 مايس/آيار 2003

بالضبط عندما كانا يجلسان أمام التلفزيون وهم يشاهدون الرئيس الأميركي يلقي خطبته على متن حاملة الطائرات أبراهام لنكولن ويقول جملته المشهورة التي تعلن نهاية الحرب «ميشين آكومبليشيد» المهمة أنجزت. كأن دانييل تذكر تلك الساعة وما قاله رئيسه أمر خصَّه وحده. لكن ما خصّ دانييل بوركس وما خصّ بقية الجنود، الموتى والأحياء بل وأولئك الذين سيموتون لاحقاً؛ لم تُنجز المهمة بعد. حتى كنزة أدركت ذلك. فلكي يطهِّر نفسه من كل إثم ويقتنع أنه أنجز المهمة على عكس هذا الرئيس القبيح ذي الوجه الأبله المقيت، الرئيس الذي كرهَتْهُ بشدة والذي كان بالنسبة لها مثل طاعون هجم على البلاد، اقترحت على دانييل أن يبدأا سوية بجمع تبرعات لعائلات الجنود الذين كُتبَت أسماؤهم في دفتر أحلام الجنود كما أطلقت على الدفتر الذي عثر عليه. اذهب وابحث عن عائلات الجنود هؤلاء. لا بد أن لهم أبناء كبروا الآن، وآخرون ما زالوا أطفالاً. قالت له سيساعدك الشخص المُعنوَنة الرسالة إليه. قرابة سنة كاملة دار الاثنان كلٌّ في جهة. دارت هي على جوامع كوينز وبروكلين وجوامع ولايات أميركية أخرى ودار هو على كنائس نيويورك والولايات وعندما ودعَ كنزة، قالت له، وداعك ذكّرني بالألياذة وبهكتور الذي ودّع زوجته قبل أن يذهب إلى الحرب، وعندما فتح عينيه ووجد نفسه في هذا القبو الحار التعيس عرف أن حدسها لم يخطئ وأنه هو الآخر ذهب

إلى الحرب رغم أنه لم يلبس هذه المرة ملابس المارينز. والآن يا صديقي، قال لي، بلغة عربية صافية، كلّ ما جمعناه من مبالغ وتبرعات هي في حوزة الرجال الملثّمين، حتى المظروف الذي أردت أن أسلمه لك احتفظوا به، قالوا، إنهم سيسلّمونه إليك. ربما أرادوا التأكد من كلامي، لذلك حملوك على المجيء إليّ، من يدري بماذا يفكرون؟ لكن استحلفك باللّه بغض النظر عما سيحدث لي، أرجوك، أخبر صديقك الذي كتب لك الرسالة الحزينة تلك، أخبر عائلات الجنود الموجودة أسماؤهم في دفتر أحلام الجنود، أن دانييل بروكس حاول كل ما في وسعه لكنه لم ينجح. كان هناك دائماً من يسعى للشر فقط. تلك هي الجملة الأخيرة التي سمعتها من دانييل بروكس قبل أن أخرج من القبو الذي رموه فيه، ربما حوى صوته على نبرة تفاؤل، ظن أن حضوري سيحرره أخيراً من قبضة مُختطفيه، ولم يدرِ أن ما حدث هو العكس، وأنهم أرسلوا إليّ أنا بالذات لكي أقتله. نعم أنا وليس غيري. أنا من جاء أصلاً للبحث عنه لكي يساعده بالتحرر من إثمه، لكي نذهب سوية للبحث عن عائلات كل الجنود الذين دوّنَ سلمان أحلامهم في دفتره. نعم، أنا وليس غيري صديق شريكه في الجريمة. ولا يهم أنه لم يقرأ ما كتبه سلمان لي في الرسالة المغلقة تلك. ترى ماذا سيقول لو عرف الطريقة التي مات بها صديقه اللويتنانت الأول دافيد باربييرو ومعه الأسرى الآخرون؟ هل سيظل على شكره للجندي

العراقي الذي جعله يعرف مصير صديقه، لقد مات وهو يرتّل الشعر مثلما قال له ذات يوم. إذا مت فليكن آخر ما أنطق به قصيدة لوالت وايتمان؟ ترى ماذا سيقول إذا عرف أن صديقه مات على يد صديقي، شريكه بالجريمة؟ الاثنان موحّدان بجريمتهما. مثلما قالت له زوجته كنزة ذات يوم، في ليلة عرسهما، هل أقول له ذلك؟ لا أدري، كل ما أدريه هو أنني في اليوم الاستثنائي ذاك لم أعرف إن كنت شعرت إزاءه بالشفقة أم بالتضامن؟ هل كان ساذجاً بالفعل، يقطع آلاف الكيلومترات من حي كوينز في نيويورك وحتى بغداد؟ يقطع المسافة هذه كلها لكي يعثر على الشخص الذي كتب عنوانه الجندي الذي هرب من مجزرة حفر الباطن، صديقي سلمان، وأن الشخص هذا الذي هو أنا بالذات سيتفهم ما قام به. سيقول له: أنت لم ترتكب جريمة، كنت مجبراً على ذلك مثلما أُجبر صديقي سلمان. أو هل انتظر أن أقول له إن كل الجنود مجبرون بهذه الطريقة أو تلك، أو إن كل الجنود موحّدون بالذنب بهذا الشكل وبغيره؟ فمَن يذهب إلى جبهة الحرب، من يذهب إلى القتال يعرف ماذا ينتظره هناك. ليس هناك بين بين، إما أن يَقتُل أو أن يُقتَل. وماذا عني أنا، نعم، ماذا عني أنا؟ ألم أبعث أنا أزهار إلى الموت؟ سبع سنوات وهي تتوسل بي، تريد طفلاً وأنا أتبجّح بقولي: العالم، عالمنا هذا لا يصلح للأطفال، ولادة طفل جريمة مع سبق الإصرار، وفي النهاية عندما يأست مني لم تجد حلاً غير

الذهاب إلى بيت أهلها، قالت، على الأقل سأقضي سنوات اليأس في بيت أهلي أفضل من أن أقضيها عند رجل لا يمنحني طفلاً. كانت تلك هي المرة الأولى التي فعلت بها ذلك، ظننت أنها بهذا الشكل وعن طريق غيضها أو غضبها مني ستعيد لي الصواب. في النهاية ماتت مقتولة بصاروخ طيّار أميركي. لماذا لا أقول له بأنه هو الآخر له عذره أيضاً. سيقول إنها الحرب وإن أحداً أرسله إلى هناك، رئيسه الجالس في غرفته المحصّنة من كل هجوم؟ دانييل بروكس أرسله إلى جحيمه الرائد أو اللويتينانت كولونيل، المقدم لاحقاً راي پرينس. ترى ماذا يفعل هذا الذي أصبح يقود وحدة عسكرية من صنف الدروع، وحدة مدجّجة بالسلاح. ماذا سيقول لجنوده الآن في بغداد؟ كم عدد المقتولين، ضحاياهم الآن؟ ألسنا كلنا بهذا الشكل قتلى ومقتولين؟ هناك دائماً من يجلس في خلفية المشهد ويأمر بإطلاق النار؟ والآن دارت دورة قرص الروليت أو القرص الروسي عليّ لكي يطلب مني الرجال المسلحون أو الرجال الملثّمون هؤلاء ومباشرة ما إن انتهوا من استجوابي أن أطلق النار على ضحيّتهم، دانييل بروكس، وليس الأميركي الأسود كما أطلقوا عليه بازدراء. اختاروا حتى طريقة القتل لا محالة، ربما أرادوا مني أن أنحره بالسكين كما في صور الفيديو التي يعرضونها على صفحات الويب والتلفزيون. الآن وقع الدور عليّ، فإلى مَن سألجأ بعد الآن؟ من سأروي له لكي يحررني من إثمي أنا، كما فعل

سلمان أو كما فعل هو دانييل بروكس، هل أقول ذلك لدانييل أم أصمت. أودعه وأتركه مع ابتسامته لوحده؟ هل أقول له، إنه مثل حكومته التي جاءت إلى بلاد لا تعرف عنها شيئاً أم أواسيه وحسب؟ سمايلي مان، أتذكّر أنني قلت له وأنا أربِّت على كتفه وأرى دمعة شقَّت طريقها على خديه، لا عليك، سأرتب الأمر مع الأوغاد هؤلاء. كنت أعرف أن ما قلته حماقة لا غير لأنني أعرف عجزي أمام الذين جلسوا بانتظاري عند باب السرداب، أتذكر أيضاً أنني قلت له وقبل أن أخرج وأودعه: أي قدر أحمق «سمايلي مان» جحيمك بدأ مع المستودعات والإعاشة وانتهى إلى مستودع في بغداد. لا أظن أنه فهم ما قصدته. لا أظن أنه عرف أنه ملقى في مستودع، بل لا أظن بأنه عرف أنه ودون أن يدري ألقى بي أنا في المرة هذه إلى جبهات الحرب؟

ما بعد دانييل بروكس:

كل الطرق تقود إلى السماء

روبن هود يودِّع مهنته

هل تعرف أن الصدفة هي أمر غريب. أعرف أننا سمعنا وقرأنا عنها الكثير لكنها رغم ذلك لا تقدم عزاءً أو تفسيراً لمن تحدث له، ولا أقصد هنا عثور دانييل بروكس على الرزمة الصغيرة التي فقدها صديقي سلمان على جبهة حفر الباطن، وفيها كل ما احتفظ به في أيام وحدته هناك؛ الدفتر الصغير ذي الغلاف الأسود السميك والذي كان بمثابة يوميات سجل فيها أحلام الجنود زملائه، القصائد التي قرأها مع الأسير الذي أصبح مع الوقت شريكه بالشعر، اللويتنات الأول دافيد باربييرو صديق دانييل بروكس الحميم أو وايتمان الأسود كما أطلق عليه هو، والرسالة التي كثيراً ما حدثني عنها سلمان والتي أراد إرسالها لي بيد الجندي نهاد، بل أقصد بحديثي عن الصدفة هنا هو أنني سمعت بخبر اختطاف الرجل الذي سيغيِّر حياتي إن لم يكن غيّرها أصلاً ودون علم مني، ليس في نشرات الأخبار أو في الصحافة بل في مقهى بسيط قريب من منطقة الميدان، مقهى حسن عجمي بالذات؟ كان من الممكن تخيُّل كل شيء باستثناء أنني سألتقي بشخص ظننت أنه لن يظهر مرة أخرى في حياتي، أن ألتقي بمحمد باريس بالذات، وأين؟ في مقهى حسن عجمي ليس غيره، المقهى الذي تحوَّل منذ أواسط الثمانينات (ومنذ إغلاق المقهى المشهور الأخير القريب منه، مقهى

البرلمان الذي حولته سلطات الأمن إلى مطعم للدجاج!) إلى مقرّ يومي يلتقي فيه كل أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم بالأدباء. أتذكر أننا كلما مررنا به أنا وسلمان، سمعته يقول لي: انظر إلى الجثث المحنَّطة الجالسة على التخوت خلف الزجاج؟ ألا ترى معي أن أغلبهم منهمك بالتفكير بقصيدته القادمة التي سيمجِّد فيها الطاغية وحزبَه والحرب، وكنت أنا أضحك على تعليقاته متسائلاً أنا الآخر كلما نظرت إلى هؤلاء، هل من المعقول أن يجلس المرء كل الساعات الطويلة هذه في مقهى شارد الذهن، مشغول باستلهام الأساطير القديمة الموجودة في الكتب لكي يستخدمها في نصِّه الجديد، وحوله على بعد أمتار في منطقة الميدان وأزقة الحيدرخانة مثلاً تدور الحياة بقضِّها وقضيضها؟ طبعاً عرفنا بعض المقاهي التي جلس فيها المرء ساعات طويلة يقضيها بالتفكير والصفنات، مقهى أم كلثوم عند نهاية شارع الرشيد مثلاً، أو مقهى فريد الأطرش. الأولى جلس فيه الشباب الذين وقعوا في الحب توّاً، والثاني جلس فيه رجال في متوسط العمر أغلبهم بان صلعهم بوضوح، عُزَّاب طلَّقوا الحياة، لم يشاؤوا الزواج على طريقة مطربهم فريد، أو أبو وحيد كما لقبوه، لكن أن يجلس الأدباء طوال ساعات النهار في مقهى؟ أمر صَعُبَ علينا فهمُه، وخاصة سلمان. كم كره المقهى. هذه المرة الأخيرة التي جلس فيها هناك. كان قبل ذهابه إلى الجبهة في حرب الكويت وفي كل جولاتنا التي قمنا بها

عبر منطقة الميدان وسوق الشورجة، كان وكلما أصبحنا قريبين صدفة منها يطلب مني التحوُّل إلى الجهة الأخرى، حتى وجبة إفطاره المفضلة التي اعتاد على تناولها في الماضي، عصيره المحبَّب، عصير الزبيب مع الجبن الأبيض أبو الضفيرة وقطعة خبز تنازل عنها، رغم ما سبَّب له ذلك من حزن، كلما مررنا من هناك ورأيته يتطلَّع بالقطعة التي عُلِّقَت فوق المحلّ الملاصق للمقهى والتي كُتب عليها «عصير زبالة»، وبعد 9 أبريل 2003 فقط، وعندما كفَّ أولئك الأدباء عن جلوسهم هناك، استبدلوه هذه المرة بجلوسهم في مقهى الشاهبندر وفي مقاهي شارع المتنبي المجاور، توقَّف سلمان عن حثّي على الانتقال إلى الجهة الأخرى من شارع الرشيد، الجهة الملاصقة لجامع الحيدرخانة، كلَّما اقتربنا من هناك في مرات كثيرة يقترح عليَ الذهاب لتناول فطورنا المعتاد في محل زبالة، وفي بعض الظهيرات، وإذا أكلنا في مطعم صغير في الشورجة أو سوق الهرج، يقول لي: لنشرب الشاي في مقهى حسن عجمي. كم عشق السماور الذهبي الذي اشتهرت به تلك المقهى. كل ذلك لم يعرف به محمد باريس، لكن عندما طلب منه الرجال الملثَّمون الذين احتلُّوا بيتي أن يبحث عني ويأتي بي إليهم لم يعرف في الوهلة الأولى أين يمكنه العثور عليَ إلا عندما أشار له أحدهم، بأن يذهب إلى شارع الرشيد من جهة منطقة الميدان ويسأل عن مقهى حسن عجمي أو ما شابه. المقهى الذي هو أشبه بمقر

يومي للأدباء والكتّاب العراقيين. قال له الرجل الملثّم ذاته (ربما ظنه محمد باريس في البداية) إنهم يريدون إعادة بيتي لي فهو لم يفهم سبب احتلالهم لبيتي أنا بالذات، فشخص «محترم» مثلي من غير الممكن أن يتعرض لهذا العدوان ولو كانوا من المقاتلين العرب الذين وفدوا عبر الحدود إلى البلاد لمقاتلة الأميركان وكانوا بالآلاف لفهم الأمر، لكنهم وكما عرف من نبرة صوتهم عراقيون أكدت لكنتهم له ذلك وكان على محمد باريس أن ينتظر سماع الرسالة التي أرادوا إيصالها لي أن يقول لي إن الأميركي الذي جاء للبحث عني، الأميركي الذي رآه هو أيضاً يدق على جرس بيتي هو في حوزتهم وأنه يريد أن يراني الآن. لكي يعرف أن القضية أبعد مما ظن.

حدث ذلك في يوم قائض ما أزال أتذكره بالضبط، 21 أبريل 2005 ليس لأنه اليوم الذي جاءت فيه أحلام تخبرنا عن وقوعها في حب رئيس المحكمة هذا وعندما سألناها من تقصد، قالت جون نـگروبونتي فعلقنا، لكن جون نيـگربونتي هذا عاد إلى أميركا، واليوم بالذات تناقلت وكالات الأنباء والنشرات الإخبارية خبر تتويجه رئيساً لمجلس الأمن القومي في واشنطن. أعرف بالقصة لأنني رأيت صوره في التلفزيون وأول ما وقع نظري عليه وقعت في حبه، حب من أول نظرة، قالت لنا أحلام ثم تداركت، كلا ليس لهذا السبب. هذه طرافة أحلام وغرابتها فيما تقوله أحياناً. في هذا اليوم الذي

دخل التاريخ قُتل عدد من رجال حمايته (هو جون نـگروبونتي وليس غيره، سفير أميركا السابق في بغداد) السابقين وهم في طريقهم من المنطقة الخضراء في بغداد إلى مدينة تكريت على متن طائرة هيليكوبتير نوع أم آي ثمانية بلغارية الصنع، استأجرتها منظمة بلاكووتر للمرتزقة. كان عددهم أحد عشر: ستة مرتزقة أميركان كانوا يعملون بعقد مع مكتب الحماية الدبلوماسية الأميركية، ثلاثة مرتزقة بلغاريون هم طاقم الطائرة، واثنين من المرتزقة القادمين من جزر فيـچي. قرابة الساعة الثانية إلا ربعاً ظهراً عبرت الطائرة أجواء مدينة الطارمية الواقعة في المثلث الذي أطلقوا عليه المثلث السئي على مسافة 20 كيلومتراً شمال بغداد. الطيارون حلّقوا على بعد واطئ تطابقاً مع التكتيك العام لحماية أنفسهم ضد أي هجوم قوي، رغم ذلك وعلى سطح أحد البيوت القريبة من المدينة جلس قنّاص عراقي ينتظر منذ ثلاثة أيام مرور طائرة أميركية، ما إن أصبحت الطائرة ضمن هدف نيران رشّاشه حتى أطلق القنّاص عليها أحد صواريخه الباحثة عن الحرارة من نوع ستريلا الروسية الصنع، أصاب الطائرة وانفجرت في الجو ثم ليسقط حطامها في السهوب القريبة. المهاجم ورفاقه صوّروا الحادث كاملاً بالكاميرا حتى عندما ركضوا إلى مكان سقوط الطائرة وبصقوا وركلوا الجثث المتفحّمة التي انتشرت على الأرض قبل أن يقتلوا طيّارها البلغاري الذي كان ما يزال

على قيد الحياة وقد عثروا عليه راقداً في دغل كثيف، سألوه إذا كان يحمل سلاحاً وعندما أجاب بالنفي طلبوا منه أن ينهض، قال لهم إنه لا يستطيع لأن ساقه مكسورة «هيلب مي پليز» رفعوه بقوة وسحلوه ثم أطلقوا عليه النار، 18 طلقة ثقبت كل جسمه. وأنا أذكر القصة هذه ليس لأن الفلم الذي صوَّره المهاجمون بكل تفاصيله وعرضته القنوات التلفزيونية قد أثبت مرة أخرى وبالأدلة الملموسة أن الرجال الذين تحدَّثت عنهم منظمة بلاكووتير بصفتهم «مسافرين على متن طائرة تجارية تابعة لشركة سكاي لِنك» هم ليسوا غيرَ مرتزقة متعاقدين مع الجيش الأميركي وكانت مهمَّتُهم تلك هي مهمة عسكرية وليست «مدنية» أو لأن عمل المرتزقة في الجيش الأميركي بديلاً عن الجنود أصبح حقيقة واقعة ستسير على تقاليدها جيوش أخرى في العالم. بل أذكره لأن الجملة الأولى التي سمعتها من محمد باريس عند دخولنا أنا وسلمان المقهى في الظهيرة القائضة تلك، هي: إذا كان القناص جلس على سطح البيت في الطارمية لمدة ثلاثة أيام بانتظار مرور طائرة أميركية قريبة منه فإنه هو الآخر انتظر ثلاثة أيام أن يقنصني وأنا أدخل مقهى حسن عجمي، قال ذلك مازحاً طبعاً وهو يشير إلى شاشة التلفزيون التي عرضت الفلم أمامنا جميعاً. أمر غريب، قلت لنفسي، ما الذي جعل محمد باريس يظهر في المقهى فجأة وكان يمكنني تخيل كل شيء باستثناء أنه هو الذي تخصص بعمليات

الاختطاف جاء يبحث عني بصفته رسولاً لكي ينقل لي خبر اختطاف دانييل بروكيس أو الرجل الأميركي الغامض حتى تلك الظهيرة. حاول محمد باريس أن يبدو طبيعياً للوهلة الأولى. سلّم على سلمان بودّ، لكن طريقته بالكلام وحركة يديه لم تبعد الاضطراب الذي سيطر عليه. شرب الماء خمس مرات على الأقل. نسي الشاي على الطاولة الصغيرة. لم يحرك حتى الملعقة. ذهب إلى التواليت ست مرات وربما أكثر رغم أن القذارة والرائحة التي تجمعت في المرحاض مع الرائحة التي فاحت قوية لا تشجع على الذهاب إلى هناك حتى إذا كان المرء مضطراً. وكلما عاد واجهنا بابتسامة مفتعلة بانت على محياه بصعوبة وعندما رأيته يتلعثم في الحديث قليلاً ويحك شعره بتكرار، قلت له، حان الوقت يا محمد لتخبرني بما حصل وما سبب مجيئك للمقهى. حدق بي لبرهة ثم أشار ناحية سلمان. لم أفهم معنى إشارته في الوهلة الأولى لكنني طمأنته بقولي: لا أسرار بيني وبين سلمان، فقال لي همساً جملة كان عليّ تذكُّرها بعد قرابة ثلاث سنوات «لا أمان في البلاد هذه حتى الأخ يخون أخاه»، ثم رأيته يجمع شجاعته ويعتذر من سلمان لأنه سيتحدث معي بصوت واطئ، لكن ما ظنه همساً كان مسموعاً وعلى بعد أمتار، فلماذا يدّعي الحذر بقوله «حتى الحيطان لها آذان»؟ فقد سمعه سلمان وهو ما جعله لاحقاً لا يصدق محمد هذا. بالتأكيد أراد الشاب هذا السخرية منك أو ينصب لك

فخاً بالاحتيال، ليس هناك أميركي ولا بطيخ. القصة اخترعها خيال عصابات. على أية حال عاتبني محمد باريس في البداية لأنني لم أصدّقه في المرة الأخيرة، ثم سألني إذا كنت سأصدقه الآن؟ وعندما سألته عما يقصد أجابني أن الرجل الأميركي الذي جاء يبحث عني ذات يوم اسمه دانييل وهو بحوزة الرجال الذين احتلوا بيتك، أظن أنهم اختطفوه وهو يريد أن يراك، من يدري، من الجائز أنها أمنيته الأخيرة قبل أن يموت ومن الجائز أيضاً أنه يملك سراً يريد البوح به لك وحدك وعندما رآني أحدق به، نظر إلي بنظرة متوسلة وقال لي: لا تظن يا أستاذي أن لي علاقة بالموضوع، كل ما أقوم به مجاناً. ولّى زماني، أصبح ماضٍ. اليوم أحمد اللّه إذا بقيت دون أن يحدث لي مكروه، أن يختطفوني مثلاً، صدقني أرجوك. صدقته في المرة هذه لأنني عرفت بقصة الرجل الأميركي وبحثه عني قبل أن يأتيني إلى المقهى بيومين، بعد ما تحدثت مع حسن عامل المكتب لكي أطمئنه بشأن الرواتب التي يستحقها وأدله على المبلغ الذي أخفيته خلف إطار الصورة التي جمعتني بأزهار والتي وضعتها على طاولتي في المكتب.عشرون ورقة كما يطلق الناس عندنا على فئة المائة، ألفي دولار، وهو الذي أخبرني بالتفصيل عن زيارة دانييل بروكس، كلا، لم أصدق محمد بسبب دانييل بروكس وحسب، إذ عليّ أن أشكره بالذات لمجيئه إلى المقهى ففي النهاية لا بد أن أعرف ما يريده هذا الرجل مني، بل صدقت أيضاً

ما قاله بخصوص علاقته بقضية اختطاف دانييل بروكس. كنا تقريباً في نهاية أبريل 2005. لقد ولّى زمن محمد باريس بالفعل وجاء زمن الحيتان الكبيرة والوحوش. الكل يعرف اليوم أن قصص الاختطاف والقتل التي شاعت كانت وراءها مافيات وعصابات لها علاقة بشخصيات متنفّذة، شخصيات لها اعتبار اجتماعي أو تلك التي جلست في قمة هرم السلطة. تذكّرت القصص التي تحدث محمد باريس عنها مرات عديدة، قصص عمليات الاختطاف التي قام بها، لكن في تلك الأيام وبداية انتشار الفوضى في مدن البلاد وخاصة في العاصمة بغداد انتعش زمن اللصوص والمجرمين الصغار أمثال محمد باريس. لقد انتهى هذا الزمن. ولا أدري إذا كان لذلك علاقة بانشغال هؤلاء بأمور أخرى ثانوية وليس بأمور تطوير وسائل إجرامهم، الانشغال بشراء الملابس الأنيقة والسيارات الفخمة قبل كل شيء، كما فعل محمد باريس الذي اشترى سيارة پورشة مثلاً، والتي أخذني فيها إلى بيتي في ذلك اليوم. أو ربما لم يحملوا نزعة الإجرام التي سادت عند ورثتهم من اللصوص والمجرمين، كل أولئك الذين شكّلوا المافيات والعصابات، أولئك الذين جعلوا من أنفسهم الناطقين الرسميين باسم الطوائف والقوميات دون أن يكلّفهم أحد بذلك. كان لا بد لجيل محمد باريس وهو الجيل الأول من «الحواسم» أولئك الذين نهبوا كل ما وقعت أيديهم عليه بعد دخول قوات

المارينز إلى بغداد من التنحي في النهاية وترك المجال لطبقة جديدة من اللصوص والمجرمين والقتلة، الجيل الخفي من «الحواسم» الذي انتظر فترة لكي يطل برأسه وينهب بنهم وفي وضح النهار، طبقة لا مثيل لها في الفساد واستباحة دم الآخر الذي يختلف معها، بل هي طبقة لا يهمها السعر الذي تدفعه أو تستلمه لتصفية أي شخص، «صِك» عليه، أطبق عليه أو اخنقه، لا تجعله يتنفس الهواء، اقتله، ذلك هو الاصطلاح الذي بدأ يسود، من غير المهم أن يكون الشخص الذي قُتل بريئاً (لأن قول ذلك هو إهانة للموتى) وليس لأنه لم يرتكب ما يستدعي القتل، بل لأنه ببساطة ليس هناك قانونٌ سمح لأحد، لا في الماضي ولا في الحاضر، لا في المستقبل ولا في المطلق، أن يضع نفسه في مكانة الله (هذا إذا كان الله موجوداً في العراق أو كان من المسموح له أن يفعل ذلك!) ويصدر أحكام الموت على الآخرين. لقد سمعنا ذلك كل يوم. أخبار القتل والاختطاف تحولت إلى روتين يومي على ألسن الناس وفي النشرات الأخبارية. فلماذا عليّ ألا أصدق محمد باريس؟ في ذلك اليوم، لم أصدقه وحسب بل للمرة الأولى شعرت بالتعاطف معه، نظرت له بعين الشفقة وعندما ودّعت سلمان وطلبت من محمد باريس أن يأخذني إلى بيتي، قلت له: لقد ولى زمنك يا روبن هود وجاء زمن القتلة. ولا أدري إذا كان فهمني أم لا لأنني رأيته وقبل أن يضغط على دواسة البنزين يستدير نحوي ويبتسم، بل

لا أدري إذا عرف أن الرجال الذين احتلوا بيتي واختطفوا دانييل بروكس هم من صنف القتلة الجدد الذين سيحتلون المشهد إن لم يكونوا قد احتلوه!

أليس من الغريب أن تدخل بيتك وتلتقي بمَن يحتله دون أن تعرف مَن هو؟ بل دون أن تعرف لماذا؟ أليس من الغريب أن تدخل بيتك ولا تستطيع التحرك فيه بحرية أو الإقامة فيه ولو لساعات محدودة؟ أليس من الغريب أن تدخل بيتك وتشعر أنك غريب فيه كأنك لم تعش هناك ذات يوم؟ أليس من الغريب أنك تدخل بيتك وتجد كل شيء فيه ليس كما تركته هناك، كل شيء تغير، الحديقة، الأثاث، أواني المطبخ، جهاز التلفزيون؟ أليس من الغريب أن تدخل إلى بيتك وترى أن كل ما وضعته ورتبته لا علاقة له بذوقك الذي أردت أن يكون مميزاً عن أذواق الآخرين؟ أليس من الغريب أن تدخل بيتك وتشعر بالخوف. من سمح للمحتلين هؤلاء استباحة بيتي؟ أليس من الغريب أن الأميركان يحتلون المدينة والبلاد كلها، شاركهم في ذلك البريطانيون وبلدان أخرى، وأن هؤلاء المجهولين لا همّ لهم غير احتلال بيتي؟ اليوم أعرف هويتهم ولماذا اختاروا بيتي أنا بالذات وأعرف ماذا كانوا يفعلون هناك، لكن في ذلك اليوم الذي دخلت فيه بيتي بعد قرابة سنة تقريباً من طردهم لي منه كنت مثل شخصية اخترعها روائي أراد تقليد كافكا لا غير. صديقنا هارون والي مثلاً الذي لم أعرف أكثر منه خبلاً بكافكا حتى الآن. قلت لنفسي. لم

أكن أعرف في الحقيقة ماذا كان يدور أو كنت مثل عالم الرياضيات الأميركي ناش الذي أراد أن يحل لغز الأعداد الأولية فلم يجد حلاً غير الجنون، أو أنه لم يدرِ أن دراسة الأعداد الأولية تعني منذ البداية اضطراب المخ والشيزوفرينية لأنها تعني استفزاز اللّه، واللّه لا يسمح لأحد باللعب معه أو استفزازه. لحسن الحظ أنني لم أصَبْ مثله بالشيزوفرينية أو بالجنون فالملثمون هؤلاء في النهاية هم ليسوا اللّه. وباستثناء الألم الذي نهش روحي شعرت بغرابة كل ما يدور حولي، منذ أن أوصلني محمد باريس وأنزلني أمام البيت، أو بالأحرى منذ اللحظة الأولى التي تقدمت فيها قدماي باتجاه البيت. كنت مثل من يعود من المنفى ويجد كل شيء تركه وراءه تغيَّر، فكرت، هل من المعقول أنني عشت في هذا البيت سنوات شبابي منذ انتقال أهلي إلى بغداد، هل من المعقول أن أزهار عاشت معي هنا سبع سنوات؟ أتذكر اليومَ الذي وطأت فيه قدماها عتبة البيت وسارتا على ممر الحديقة، كيف أنها لم تدخل مباشرة إلى البيت، قالت لي، أرجوك اسمح لي أن أتمتع قليلاً بمنظر الحديقة. كان أبي قد زرع في الحديقة ثلاث نخلات وشجرة ليمون وشجيرات ورد صُفَّت إلى جوار بعضها في كل مكان وفي الزاوية البعيدة من الحديقة زرع أنواعاً من الخُضر، النعناع والريحان والرِشاد والبقدونيس، حتى الطماطم والخيار زرعها في بعض الأحيان ومن دخل البيت لزيارتنا لا بد وأن لفت

نظره أولاً منظر الحديقة أو شمَ رائحة ورد تجبره على التوقف قليلاً ومعاينة شجيرات الجوري والياسمين والرازقي والقرنفل حتى عندما مات أبي واصلت أنا نفسي العناية بالحديقة، تعلّمت منه كل شيء، من نثر البذور وزراعتها إلى قصّ الأغصان والعناية بالأشجار، سقايتها بانتظام وقطفها قبل أن تتحول إلى لقمة دسمة للطيور. أتذكر كيف أن دورية أميركية من المارينز مرت في نهاية شهر سبتمبر/أيلول عام 2003، طوقت بيوت الحي بحثاً عن مطلوبين، كما قالوا، وذلك هو ديدنهم كلما باغتوا الناس وأرادوا تفتيش بيوتهم، وعندما دخلوا بيتنا ورأوني أسقي الحديقة وأعتني بشجيرات الورد والأزهار قالوا لي: «ڤري سترينج ووت يو آر دوينـگ». قلت لهم، لا غرابة فيما أعمل لأنني لا أعرف في حياتي غير الرغبة بالعيش في سلام. هزوا رؤوسهم وتابعوا تفتيشهم. تُرى ماذا سيقولون لو رأوني الآن أتحرك باتجاه بيتي الذي تحول بين ليلة وضحاها ملكاً لآخرين لا أعرف هويتهم. الذين يحتلون العراق نعرف هويتهم. لكن الذين يحتلون بيتي، وبالتأكيد احتلوا بيوتاً أخرى لا أحد يعرف هويتهم، ليس ذلك وحسب بل أنا لا أعرف ماذا خططوا لأن يفعلوا بي أو بالأميركي الذي اختطفوه، ولا أدري إذا احتلوا بيتي لكي يكون مكاناً للمخطوفين؟ أم أنهم اختطفوا الأميركي بسبب علاقته المفترضة بي؟ إنه لأمر غريب بالفعل، قلت لنفسي وأنا أضغط على جرس الباب ثلاث مرات متتالية ثم ثواني

فاصلة، مرتان، فاصلة ثم مرة واحدة كما قال لي محمد باريس وهو ينقل وصيتهم لي. حتى محمد باريس طلب مني الحذر، قال لي إنه على استعداد لمساعدتي إذا طلبت منه ذلك. أنت شخص محترم وروبن هود العراق لن يبخل بما يملكه من قدرات لكي يخلّصك من بطش الغادرين، لكن هؤلاء لا ينفع معهم لا روبن هود الاسكوتلندي ولا بوني وكلايد الأميركيين ولا حتى الكاوبوي بيلي ذه كِد أو زميله جانـگو، قال لي وهو يحصي أمامي كل نماذجه التي أراد تقليدها كما في الأفلام، لا يفيد إلا الصبر والدعاء إلى الله أن يمر كل شيء بسلام، قال لي لكي يمنحني العزاء وأنا أصدقه في المرة هذه أيضاً. كانت في صوته رجفة وارتعاش كأنه وبنظرته المتوسلة تلك طلب مني الاعتذار عن كل قصص المغامرات السابقة التي رواها في محل بيع الخمور القريب. عرفت أنها المرة الأولى التي وضعته فيها أو وضعه قدره فيها للامتحان، ألم يتحدث عن نفسه بفخر وعن قصص اختطافه للآخرين؟ ربما خشي أن يصفّيه هؤلاء. خاف منهم بسبب معرفته باختطاف الأميركي لأنني عندما تطلّعت في الشارع قبل أن أدخل بعد أن انفتح باب البيت لي وجدته اختفى من المكان الذي أنزلني فيه، اختفى بلمح البصر، ليس من الشارع وحسب بل من الحي كله كما عرفت بعد أيام، ولم يعرف أن ما فعله كان زائداً عن اللزوم لأن الرجال الملثّمين هؤلاء، الرجال المسلّحين الذين احتلوا بيتي كانوا

واثقين مما يفعلون لا يخافون وشاية أحد بهم أو تجرُّوءه على بيع المُخْتَطَف إلى عصابة أخرى في الحي أو في حي آخر كما شاع في السنوات تلك. ليس لأنهم يعرفون أن محمد باريس لا ينتمي إلى الطبقة التي لا تزال معروفة في البلاد. الطبقة التي مارست مهنة العلّاس؛ الشخص الذي يوشي بالمرشح للاختطاف، الغريب والطفل مثلاً ويبيعه بسعر إلى عصابة في الحي تبيعه هي الأخرى إلى عصابة أخرى وهكذا دواليك حتى يرتفع سعره دون أن يدري الشخص المعني أنه مرشح للاختطاف بل لأن الرجال غليظي القسمات هؤلاء، وكما عرفت منهم، منظَّمين بشكل محكم. كل عصابات الحي والأحياء المجاورة تحت قبضتهم، كما قال لي أحدهم، نحن الذين نجهِّزهم بالسلاح، الويل لمن يتعرض لنا أو يلحق بنا أضراراً وهو الرجل ذاته الذي فتح لي الباب. لكن من أين كان لمحمد باريس أن يدري أنني أنا الآخر وحتى جلوسي في صالون البيت، بيتي، الصالون الذي جلست فيه ليال وأيام، لم أعرف أن الرجال الملثمين الستة أو السبعة ـ لم ينضم سابعهم إلى رفاقه الستة في بداية جلوسي قبالتهم بل راقب المشهد من بعيد، رأيت ظله فقط وهو يقف متنصتاً لما دار بيني وبين رفاقه خلف الجدار الذي فصل الصالون عن بقية غرف البيت ـ هم بالفعل، جزء من ماكنة رعب كبيرة إن لم يكونوا هم الماكنة هذه ذاتها. ماكنة ستطحن دانييل بروكس وتطحنني بل وستطحننا جميعاً، حتى صديقي سلمان،

ليس لأنهم رفضوا في البداية أن يسمحوا لي برؤية دانييل بروكس، على الأقل لأعرف منه شخصياً ماذا يريد مني أنا بالذات، فهل من المعقول أن أحداً جاء من الولايات المتحدة الأميركية من أجلي وأنا لا أعرف لماذا؟ قالوا لي، نحن نعرف وما ستفعله زائد عن اللزوم ولو لم يشر سابعهم الذي أخفى نفسه خلف الباب بحركة من رأسه بالموافقة لما أخذوني لاحقاً إلى السرداب الذي أخفوا دانييل فيه. عصبوا عيني بعد خروجي معهم وصعودي في السيارة. لحسن الحظ لم يعصبونني بالكيس الذي شاع في تلك الأيام. استخدمه الأميركان قبل أن يستخدمه المُختَطِفون مع ضحاياهم أيضاً، عصبوني بقطعة قماش سوداء. أزالوها عني عند نزولي سلم السرداب ولو لم يفتحوا الضوء وهم فوق لما تعرفت في السرداب على الكتلة الملقاة هناك على الأرض، لما عرفت أنه دانييل بروكس لا غير. كم كان منظره تعيساً، أوثقوا يديه ورموه على الأرض الصلبة دون فراش أو حصيرة يريح عليه جسمه الضخم. ليس لأنهم بعد أن يعيدونني إلى البيت، بيتي، سيستجوبونني على مدى ساعات. طريقتهم بالاستجواب ذكّرتني بكل القصص التي سمعتها عن الاستجوابات التي تعرض لها المعارضون للسلطة في أقبية مديرية الأمن أو في دهاليز جهاز المخابرات أو في زنازين مديرية الاستخبارات في مبنى وزارة الدفاع القديم، وحدها القصص التي رواها لي صديقي سلمان

تكفيني لكي أعرف أن الملثمين هؤلاء الذين احتلوا بيتي سبق لهم وأن عملوا في أحد الأجهزة الأمنية تلك، بأنهم تمرّنوا على عملهم، ذلك هو ديدنهم، إذلال من يرون فيه الخصم لهم أو الندّ أو ليس لأنهم سيلقون بي في ساعة متأخرة من الليل في ساحة الميدان قريباً من أطنان القمامة التي تجمَّعت هناك على شكل تلال. نأمل أن تحدد مصيرك الكلاب السائبة هنا، قالوا لي بسخرية وبقهقهات خدّدت فضاء الليل. من أين جاء هؤلاء بالسادية هذه، تساءلت مع نفسي وأنا أبعد عني الكلاب السائبة التي طوَّقتني مباشرة بعد رؤيتها لي أو شمها رائحتي. أعرف الكلاب هذه التي تجد في منطقة الميدان مأوى لها في أواخر الليل تأتي من مناطق شتى من المدينة كلاب عرجاء أو دون إذن، كلاب بعين واحدة أو بنصف ذيل، كلاب امتلأ جلدها بالخدوش، كلاب تبقى تتجول على راحتها حتى الساعات الأولى من الفجر، تفتش في المزابل دون نباح عادة بسبب خوفها من مهاجمة كلاب المنطقة المقيمة لها والتي لا تشبعها عضاً ونهشاً وحسب بل وتجبرها كل مرة على الفرار. لكنها وعلى غير عادتها في الليلة تلك راحت تعوي وبصوت عال ربما أرادت عن طريق سلوكها هذا أن تثير انتباه الكلاب المقيمة لظهوري المفاجئ، ربما أرادت أن تقدِّمني هديَّة لها، نوع من الرشوة قلت لنفسي، حتى في عالم الكلاب هناك رشوة ووشاية وفساد، أو ليس لأنهم يتحركون في المدينة أو في

الحي وبحرية ليل نهار، وفي كل المرّات يحملون الأسلحة معهم، أسلحة بكميات كبيرة وبأنواع مختلفة، مسدّسات ورشّاشات، قاذفات صورايخ آر بي جي محمولة، وأخرى لضرب الطائرات بل حتى منصة متحركة لإطلاق الصواريخ رأيتها في زاوية الحديقة عند دخولي البيت، أو ليس لأنهم أخفوا دانييل بروكس في مكان قريب من المعسكر الأميركي الواقع عند أطراف الحي، صحيح أنهم عندما أخذوني إليه استغرق طريقنا حتى دخولي إلى السرداب الذي وضعوه فيه قرابة نصف ساعة على الأقل لكنني ورغم قطعة القماش السوداء التي عصبوا بها عينيّ عرفت أنهم داروا بي بضع دورات في الحي نفسه، فقط للتمويه لأنني سمعت أحدهم يقول همساً وقبل نهاية الرحلة بدقائق، ذاك هو محل المشروبات الذي يشرب فيه بطلنا، وهو قصدني أنا بالتأكيد، ثم ليقول له آخر وبنفس الصوت الواطئ، في المرة القادمة سنصيد الأميركان هنا. المسافة التي قطعتها السيارة التي أقلّتنا من بوابة الدخول وحتى الباب الثاني الذي قادني للسرداب أوحت لي أنهم ألقوا بدانييل بروكس في البناية القديمة لمستودعات وزارة التصنيع العسكري السابقة. أية حكمة باختيارهم هذا المكان، قلت لنفسي بعد لقائي بدانييل. فدانييل بدأ حياته العسكرية في مستودع وسينهي على حياته المدنية في مستودع أيضاً، وأخيراً وليس آخراً ليس لأنهم وفي كل ما فعلوه معي في ذلك اليوم بدوا

واثقين من تنفيذي اقتراحهم الذي ألقوه عليّ مثل أمر بل لأنهم وببساطة فاوضوني على ارجاع البيت، إنهم سيرجعون بيتي أنا لي، كما قالوا. سنتنازل عن البيت وكأن البيت بيتهم وليس بيتي وعندما سألتهم عن الشرط الذي يساومونني عليه، قالوا لي، شرطنا بسيط جيداً، عليك أن تقتل أنت الأسير (لم يقولوا الرهينة). نعم أنت ولا أحد غيرك مَنْ سيقتل الأميركي الأسود هذا، دانييل بروكس لا غير!

ـ اسمك؟

كيف تسألونني عن اسمي وأنتم احتلَّيتم بيتي وأرسلتم مَن يجلبني من المقهى، حتى عنواني تعرفونه. تعرفون أين أتحرك وأين أقيم وأين أتنقَّل فلماذا تسألونني عن اسمي؟

ـ سنك؟ (قاطعني أحدهم بإشارة من يده)

لا جواب عندي، طالما أنا رهينة عندكم أترك لكم تقدير سني، كما تشاؤون؟

ـ مكان الولادة؟ (سألني الشخص نفسه بتأفف)

لا أدري، فالقرية أو المدينة الصغيرة التي وُلدت فيها توسعت، بيتنا الذي وقع على نهر الفرات لم يعد هناك، على ضفتي النهر بُنيت فِلل جديدة، أغلب أصحابها ضُبّاط بمراتب عالية. لم أتعرف على المكان عندما زرته في المرّة الأخيرة، باختصار: مكان ولادتي ذكرى قديمة ضاعت في وادي النسيان.

ـ المهنة؟

مهنتي الآن هي أنني رهينة أو أسير، من يدري؟ وغداً، هذا إذا كان هناك غد، ستكون مهنتي قاتل مأجور، أليس هذا هو هدفكم؟

ـ نسألك عن مهنتك وعليك أن تجيب بدقة؟ (قال لي الشخص الذي جلس على يسار زملائه متذمراً)

تقصدون مهنتي القديمة في الماضي القديم عندما مارست مهنة الجزار، كلا، هذه المهنة تركتها منذ سنين طويلة، لم أشأ أن أنعت بالجزار والجزارون الحقيقيون يدورون حولي طليقين، يدورون في كل مكان.

ـ ماذا عن مهنة المقاولات؟

ـ مهنة ورثتها عن أبي. لو لم يكن أبي مقاولاً لما فعلت ذلك. لحسن الحظ، صراحة، فشكراً له أنني لم أحتج الوقت الطويل للبحث عن مهنة أخرى. أنا مثل ولي عهد ورث مملكة جاهزة. لكن حتى هذه المهة إذا كان يعنيكم الحديث عنها بصراحة كرهتها. كان هدفي هو مثل هدف أبي البناء، الإعمار، لكن في البلاد هذه لا أحد يعنيه البناء. الخراب هو المبدأ السائد، حتى في أعمال البناء. هل أورد لكم أمثالاً؟ مثلاً في أول عمل مقاولات لي بنيت جسوراً على الحدود العراقية الإيرانية في بداية سنوات الثمانينات ولم أدرِ أن الجسور تلك بُنيت لكي يعبر عليها آلاف الناس، رأيتهم بعيني، شيوخ وأطفال، رجال ونساء، ذنبهم الوحيد أنهم ليسوا عرباً، قيل لهم أنتم أكراد فيليّة وبلادكم هي إيران. لو كان الأمر بيدي لهدمت الجسور من جديد. الجسور لربط

الوشائج بين الناس وليس لفصلهم عن بعضهم. الصفقة الثانية كانت حسب العقد بناء مدرسة كبيرة، قيل لي مجمع دراسي فيه كل التخصُصات، إعدادية تجارة وإعدادية زراعة، إعدادية صناعة وإعدادية صحة إلى جانب روضات للأطفال. في النهاية وعندما انتهينا من البناء لم أدرِ أن البناية تلك ستكون مجمَّعاً للسجون. ليست تلك هي المرة الأولى، مرة بنينا جامعاً ظهر أنه زنازين تعذيب. انسوا هذه المهنة أرجوكم.

ـ لكنك عدت لمزاولة مهنة المقاولات، مكتبك ما يزال مقابل معمل البسكويت؟

نعم عدت. نوع من العناد أو نوع من الرغبة بالبناء. أنا نظرت دائماً إلى نصف القدح المملوء ولم أعر الاهتمام لنصفه الفارغ ذات يوم، لكن عالم المقاولات اليوم أسوأ من الماضي، كله فساد في فساد، مسح مؤخرات كما يقول المثل. لكي تكون مقاولاً عليك أن تؤجر بادي گارد، يعني دفع مبالغ طائلة على رجال الحماية. كل مرة خرجت فيها للعمل وضعت يدي على قلبي، وعندما قتلوا أحد الحراس المساكين قررت التوقف عن العمل. في البداية قلت لفترة مؤقتة لكنني مع الوقت يأست أردت الإبقاء على ذكرى أبي. أن تبقى شركته على قيد الحياة لكنني فشلت.

ـ لكنك بهذا الشكل أسأت لأبيك، لم تحافظ على الأمانة التي سلّمك إياها؟

ومن أنتم لتتحدثوا معي بهذا الشكل، شؤون العائلة

تظل بين العائلة، هذا الشأن اتركوه لي أنا وأخي.

ـ الخدمة العسكرية؟

لا أدري ماذا تعنون بذلك، ولا أدري ماذا عليّ أن اختار لكم منها، في أي زمن أو مكان، في أية وحدة أو حرب، لكي تطلقوا عليها الخدمة العسكرية؟ هل يرضيكم أنني خدمت طبيباً مهتماً بالحمير على طول جبهات الحرب العراقية الإيرانية. كنت أنا المسؤول عن إرسال آلاف الحمير إلى جبهات الموت. أم يعنيكم أنني خدمت في كتيبة الاستمكان في سد دوكان في السليمانية، هذه المرة طبيباً مهتماً بشؤون البغال؟ لكن على الأقل كانت مهمتي إنقاذ البغال، ليس حباً بها، معاذ اللّه، فإذا كان الإنسان بلا قيمة في هذه البلاد فلماذا الرفق بالحيوان، كلا، كان يجب العناية بالبغال لأنها الوحيدة التي تتحمل أعباء النقل في الجبال ولا يهمها حر صيف أو برد شتاء، لكن في النهاية وأقول لكم الحق: انتصرت البغال علينا. قررت الانتحار لأنها لم تتحمل منظر الموت الذي رأته في حرب الشمال.

ـ ألم تخدم في مكان آخر؟

آخ نسيت. خدمت في مديرية شؤون الحيوانات في وزارة الدفاع. كانت فترة تعيسة حقيقة. أصدقائي يقاتلون على جبهة الحرب في السعودية والكويت وأنا أرتب سجلّات الحيوانات في بغداد؟ أي عبث؟

ـ ألم تقتل جنوداً من العدو الإيراني؟

كل الذين قتلتهم هم من صنف الحمير.

ـ ألم تقتل أكراداً في حرب الشمال؟

كانت مهمتي إنقاذ البغال.

ـ ألم تقتل ولو عدواً واحداً في حياتك؟

ليس لي أعداء ولا أطمح أن يكون لي منهم في المستقبل.

ـ وماذا عن المحتلين الأميركان؟

الأميركان يعاقبهم التاريخ كما هي الحال دائماً.

ـ وماذا عن عقاب اللّه؟

لو كان اللّه موجوداً لما احتل الأميركان العراق ولما اختطفتم أنتم أميركي أعزل ومسكين وهو رهينتكم وتقولون عنه أسير؟

ـ ومن نصَّبك أنت لكي تصبح حاكماً

أحلام

ـ من هي أحلام هذه؟

أحلام البنات... أحلام العشاق... أحلام العابرين... أحلام الأولاد... أحلام المدارس... أحلام الحقول... أحلام الأجداد والجدات... أحلام الأحفاد... أحلام القتلى والموتى والمنفين..أحلام النخيل والأنهار والمساجين... أحلام الأصدقاء والأيام... أحلام البلاد التي كانت والأخرى التي لن تكون... أحلام الخراب.

ـ لم نطلب منك أن تقرأ الشعر... نريد منك أن تقول من هي أحلام هذه؟

امرأة وُلدت في الزمن الخطأ، في المكان الخطأ، كان

عليها أن تغادر البلاد هذه منذ زمن. إنها إحدى ضحاياكم بالتأكيد، إن ليس بالأمس فغداً لا محالة!

ـ أنت تتحدث كما لو أردت أن تأخذ مكان اللّه؟

على الأقل مكان اللّه الذي يُحيي، فأنتم كما يبدوا لا يعنيكم اللّه إلا في لحظات القتل. اللّه تحول عندكم ببساطة إلى جزَّار لا همَ له إلا قتل الناس ليل نهار.

ـ وهل تظننا قتلة مثل الأميركان؟

نحن لا نناقش هنا وجهات نظر، مَنْ قتل مَنْ. القتل هو واحد لا يعرف هوية أو جنس أو دين. ليس هناك سببٌ يستوجب قتل إنسان، أياً كانت هويته ومهما كان سلوكه.

ـ أنت لا تعترف إذن بقصاص اللّه؟

لكنكم أنتم الذين لم تتركوا للّه مكاناً. طردتم اللّه من التاريخ.

ـ الرجولة هي الشجاعة، لماذا أنت جبان؟

الشجاعة هي أن يعترف كل إنسان منا بذنبه. هل تطلَّع أحدكم بوجهه في المرآة؟

ـ ماذا تقول عن نفسك وأصدقائك من الخونة دائماً؟

إذا كنتم تقصدون صديقي سلمان فقد قاتل أكثر منكم على جبهات السعودية والكويت في معركة الخفجي ومعركة حفر الباطن.

ـ وماذا عن صداقتك مع المحتلين الأميركان؟

حتى اليوم لم أعرف أن عندي صديق أميركي. لكن

بعد تعرفي على دانييل بروكس وسماعي قصته، أستطيع القول، نعم أنا عندي صديق أميركي بل وهو أكثر من صديق حميم.

ـ هل تعرف أن صديقك الأميركي الأسود هذا قاتل مثله مثل بقية القتلة الأميركان؟

لا أعرف. لكنني أعرف أن القتلة يدورون طليقين في كل مكان وهذا القاتل الذي تتحدثون عنه جاءكم للتكفير عن ذنبه. جمع ملايين التبرعات لمساعدة عوائل الجنود، ألم تكونوا جنوداً؟ من يدري ربما كنتم ضباطاً؟ هل نسيتم مَنْ يذهب إلى الجبهة ليس أمامه أما أن يُقتَل أو يَقتُل؟

ـ هل تريد أن تُبرِّر دفن كتيبة كاملة وهم أحياء؟

وماذا عن المقابر الجماعية في العراق؟ عشرات الآلاف دُفنوا وهم أحياء، ذنبهم الوحيد أنهم من عِرق ومذهب آخر، هل نسيتم ذلك؟ متى كان الأطفال والنساء جنوداً في الحرب لكي يُقتلوا بصفتهم أعداء؟

ـ أنت تردِّد كلاماً مثل الببغاء. كل ما تقوله كلام يردِّده الأعداء العملاء، نسمعه كل يوم؟

على الجبهة الأميركية هناك الآلاف من صنف الرائد أو اللويتينانت كولونيل، المقدم لاحقاً راي پرينس. نفس الشيء ينطبق على الجبهة العراقية، هناك الآلاف من النقيب حيدر ملا كريدي والعقيد حاجم صالح التكريتي، هل نسيتم ذلك، دائماً هناك ضباط لا هم لهم إلا القتل. يصحون كل صباح بشهية أكبر للقتل؟

ـ ضبّاطنا يقومون بواجبهم، معركتنا عادلة، نحن ندافع عن شرف الأمة والوطن. هل نسيت ذلك؟

أية عدالة لا تميز بين الشيخ والطفل، المرأة والرجل، المدني والعسكري، بل لا تتردد في قتل الأبرياء؟

ـ إذا كنت تقصد أسيرنا، فسنترك لك مهمة قتله؟

تقصدون الرهينة، لكن حسناً، أنا لن أقتل دانييل بروكس ولا أي شخص آخر عراقياً كان أم أميركياً. في النهاية أنتم تريدون تحويلي إلى قاتل مثلما حوَّله الرائد أو اللويتينانت كولونيل لاحقاً، المقدم راي ﭙرينس.

ـ نحن لا نقتل. نحن نأخذ الثأر لموتانا. إذا نسيث موتانا الجنود فكيف تنسى موت زوجتك وابن أخيك؟

ـ ذلك لا يبرر تحويلي إلى قاتل. نحن جميعاً ندخل المعركة بهذا الشكل أو ذاك مجبَرين. كما أنا مجبر بينكم الآن، لكن ذلك لا يعني أن علينا التلوث بقذارتها. أن نخرج جرحى، نعم، لكن علينا ألا نتلوث.

ـ هذا ما سنراه.

ذلك كان الاستجواب الذي خضعت له على أيدي المختطفين وعلى مدى ساعتين أو أكثر لأنهم كانوا وقبل أن يلقوا عليّ أي سؤال جديد يتوقفون. لا أسمع إلا بسبستهم فيما بينهم أو في ذهابهم إلى سابعهم الذي وقف يتنصّت عند الباب، لا أدري إذا كانوا طلبوا منه الموافقة على إلقاء السؤال أم أنهم نقلوا ما أملاه عليهم من سؤال. فباستثنائه وشخص آخر جلس على الطرف الأيمن من الرجال الملثمين تبارى الآخرون بإلقاء الأسئلة

عليّ، كلهم عناد وحماس، لكن ولقول الحق مهما بدت أسئلتهم غريبة، مهما بدا سلوكهم غريباً، طريقتهم بنطق الكلمات (باستثناء ثلاثة منهم، أحدهم لهجته سعودية والثاني لهجته أردنية والثالث سورية على ما أظن فإن الثلاثة الآخرون كانت لكنتهم قريبة من لكنتي!) عدوانيتهم وهم يلقون الأسئلة عليّ، حتى أن سابعهم الذي وقف أولاً يتنصت خلف الباب لم يستطع السيطرة على كبح الشرر الذي تطاير من عينيه والذي كان يمكن رؤيته في لمعان عينيه رغم لثامه المحكم مثله مثل الرجل الذي جلس عند الطرف الأيمن. كل ذلك لا يهم فهم بدوا في النهاية مرنين معي بعض الشيء، أمر حيَّرني بالفعل. التفسير الوحيد الذي فكرت به في حينه هو أنهم أرادوا الاحتفاظ بي في كل الأحوال لكي أكون قاتل رهينتهم أو أسيرهم كما كانوا يريدون. كانوا واثقين بأنني سأكون القاتل في اللعبة هذه، لعبتهم، وليس القتيل، طوال الساعتين تلك وقت الاستجواب لم يبخلوا بجلب الماء لي، بل سألني أحدهم إذا كنت جوعاناً، صحيح أنني رفضت حتى استكان الشاي الذي وضعوه على الطاولة أمامي، تركته لحاله يبرد. لم أشأ تناول الماء أو الشاي ولا حتى الأكل. أعرف قصص التحقيقات القديمة التي جرت في أقبية أجهزة الأمن والاستخبارات. في أقبية الأمن الخاص والمخابرات، كل تلك القصص التي سمعتها أو تلك التي رواها أخي، ضابط المخابرات السابق بافتخار، كلما جلسنا في

صالون البيت. روى كيف أن السجناء من أصحاب الرؤوس العنيدة يلينون ويسترخون وينفذون ما يطلبونه منهم. يلينون حالما تناولوا المواد المخدرة التي كانوا يضعونها لهم في الأكل أو في الشاي. هذه هي التكنولوجيا، كان يقول، العالم يتقدم في علم التعذيب ونحن ما نزال متأخرين. تخيلوا، كان يقول لنا أن مسحوقاً أبيض بسيطاً أو قرصاً صغيراً بألوان مختلفة يكفي للتأثير على مجرى التحقيق، وحتى عندما ييأسون من أحدهم تماماً يُطلقون سراحه ويدعونه لشرب الشاي معهم في المكتب، يعاملونه بلطف دون أن يدري أنهم خلطوا له في شايه مادة الثاليوم، مادة كيميائية تُستخدم في إبادة الجرذان لكن طعمها «أكسيلينت» ممتاز من الدرجة الأولى، بعد أربعة أيام أو خمسة يموت السجين السابق في بيته. صحيح أنني لم أخف أن يضعوا لي المادة هذه، أقصد الثاليوم، في الشرب أو في الأكل ففي النهاية هم بحاجة لي لأن ألعب دور القاتل في مسرحيتهم المرعبة لكنني خفت أن أتناول ما يجعلني ألين في عرفهم أو ما يجعلني أرتكب حماقة أو جريمة بعرفي أنا. لقد رفضت تناول أي شيء قدَّموه لي لكنني طلبت منهم أن يعطوا بدلاً عني لدانييل بروكس الماء والشاي وشيئاً من الأكل. كيف تعاملون أسيركم كما تقولون بهذا الشكل وفي الحرب يجب احترام الأسرى؟ وما أثار استغرابي أكثر أنهم وافقوا على اقتراحي، رأيت ذلك من إشارة رأس الذي

وقف يتنصت خلف الباب وكانت هي تلك اللحظة التي أدركت فيها أن الرجل ذلك الذي لم أسمعه ينطق بكلمة لا بد وأن يكون رئيسهم لأنهم لم يتحركوا إلا بإذن منه. ولا أدري عندما رآني أتطلع به حتى عندما التقت عيوننا أزاح برأسه وعندما طلبت الحديث معه هو بالذات، قلت لهم، إذا كان هو رئيسهم فلا بد لي من الحديث معه، الحديث عن عبث ما يريدون توريطي فيه، عن عبث الإصرار على اختطاف دانييل بروكس، إذا كان رهينة أم أسيراً، فهو بالتالي جاء ومعه التبرعات، ملايين الدولارات بالتأكيد جلبها لعائلات الجنود الذين دُفنوا أحياء في جبهة حفر الباطن وهم سيشترون بها أسلحة ومتفجرات لتفخيخ السيارات بينما يمكن أن يستفيد منها أطفال هذه العائلات. ليكتفوا بسرقة الأموال تلك ويطلقون سراحه. ألا يفعل بقية المختطفين من زملائه الشيء ذاته، يُظهرون رهائنهم في أشرطة فيديو يوجهون نداء استغاثتهم إلى بلدانهم، علناً، يدعون لانسحاب القوات الأميركية أو إطلاق سراح السجناء العراقيين، لكنهم يطالبون سراً بدفع فدية من ملايين الدولارات عن كل رهينة. لبرهة وكأن الرجل عرف وهو في وقفته خلف الباب أنني سأتوجه إليه، رأيته يشير إلى الرجال الملثمين الآخرين أن يتوقفوا عن التحقيق معي، أن يفكوا وثاقي ويخرجونني من البيت ويعودوا بي إلى المكان الذي جئت منه، إلى منطقة الميدان، إلى مقهى حسن عجمي، رغم أن في تلك الساعة المتأخرة

من الليل لم يكن هناك مقهى ولا هم يحزنون!

-٨-

الرجل الغريب في البلاد الغريبة

أكثر من سنتين ونصف وأنا أتنقل من مدينة إلى أخرى، من مكان إلى آخر، من مهنة إلى أخرى. لم أكن أعرف لا ماذا عليّ أن أفعل ولمن أقدم شكواي فالبلاد بدأت تغرق في الفوضى تدريجياً، وليس كما قيل بعد نسف القبة الذهبية في سامراء في 22 شباط 2006 بل قبل ذلك بكثير. تحوّلت الفوضى إلى روتين يومي، لا توجد شرطة ولا جيش كانت فقط مليشيات غزت شوارع وأزقة المدينة كل يوم أكثر. هل أذهب إلى الأميركان وأقول لهم أن بيتي محتل وأن هناك مواطناً أميركياً أسيراً في المستودعات القديمة لوزارة التصنيع العسكري؟ أعرف تلك المستودعات جيداً. كنت ما أزال صبياً عندما بدأوا تشييدها وكانت إحدى المقاولات الكبيرة التي حصل عليها أبي. عن طريق خالي الذي كان ضابطاً كبيراً في وزارة الدفاع. كنت أذهب لزيارة أبي فيها كلما احتاجني. أعرف سراديبها وطرقها السرية لكن هل سيصدقنني الأميركان، هل سيصدقون أن مواطنهم هو الرهينة رقم 150 ممن اختطفتهم العصابات والميليشيات خلال الاثني عشر شهراً الماضية؟ أم سيعتقدون أنني أريد أن أنصب لهم فخاً ويلقون بي في أحد سجونهم السيئة الصيت لا محالة، في سجن كامب كروبير مثلاً، سجنهم الفخم في المطار إن ليس في سجن أبي غريب؟ كنت مثل هارب من

الخدمة العسكرية. لم أشأ الذهاب إلى الجبهة لكي لا اختار بين أن أقتُل أو أن أقتَل؟ وماذا يفعل الهارب غير الهروب على الدوام من مطارديه؟ وجدت نفسي بلا حيلة غير قادر على اتخاذ قرار باستثناء الهروب من الرجال الملثّمين. لم أفكر بحل آخر ساعتها ولم أفكر مثلاً بالذهاب إلى أكبر سوق للتزوير، وهو سوق مريدي لشراء هوية جديدة من أحد مزوّري الوثائق هناك، كلا، كل ما فكرت به هو الهروب بأسرع وقت إلى أي مكان لكي لا يجبرني أحد على القتل. أعرف أنه جبن مني لكن ماذا تريد من أعزل مثلي أن يفعل؟ هل أبحث عن أحد أطلب منه المعونة لمواجهة هؤلاء؟ هل أذهب إلى أخي مثلاً وأقول له بأن البيت لا يخصّني أنا وحسب بل يخصنا جميعاً، وهو إرث أبينا، ألا تريد أن تأتي معي لاسترداده؟ لكن كيف أذهب إليه، وهو الذي انقطع عني منذ صفعتي له تلك أو منذ مساعدتي لأمي برمي السلاح الذي تركه أبي بعد موته. لم يسامحني أبداً. أنا خائن للعائلة، خمّار وصديق للشيوعيين ولو سنحت الفرصة له لانتقم مني. أعرف جيداً من أي نوع من البشر كأننا لم نرضع الحليب من الأم ذاتها، كأننا لسنا بالأخويين أو كأني لست بأخيه الأكبر ورأيته ينمو أمامي وهو صغير. حتى ضابط أمن الكتيبة في سد دوكان حاجم صالح التكريتي قال لي إنه يقدر شجاعة وتفاني أخي وشكراً لأخيك، قال لي ذات يوم، لأنني أغض الطرف عما تفعله في وحدتك العسكرية. ضابط

غيرك كانت تعرضت غرفته للتفتيش منذ زمن طويل. قراءة الكتب المترجمة وشرب الخمر وصداقة جندي شيوعي وشروگـي (بتلميح منه لصديقي سلمان) لن تمر دون عقاب؟ أم ألجأ إلى أخ زوجتي الذي لم يكن يوماً يودّني وقد قطع علاقته بأخته ولو كان الأمر بيده لمنعها من الزواج مني، لكنه أخوها الأصغر، يصغرها بست أو سبع سنوات، قال لها، زوجك يشرب الخمر ويصادق الشروگـية والشيوعيين كأنه لم يولد في مناطقنا، كأنه لا ينتمي إلى عشائرنا. كم أحزن أزهار ما سمعته منه بل كم أحزنها أنها تقيم في بغداد وهو لم يزرها ولا مرة واحدة وكانت تسمع أخباره وأخبار صعوده في الحزب الحاكم آنذاك كلما زارت أهلها، وعندما ذهبت لأحضر مأتم عزائها طردني أمام الحاضرين، قال لي، الآن أفهم لماذا يقولون عليك إنك عميل للأميركان، زوجتك يقتلها الأميركان بدم بارد وأنت جالس في البيت تشرب الخمر وتصادق الشروگـية الخونة (هذه المرة لم يقل على الأقل وتصادق الشيوعيين) عملاء إيران ولا تقاوم الاحتلال. أنظر إلى أخيك كيف رفع راية المقاومة ولم يثنِ عزمه مقتل ابنه خطأ بسبب صاروخ أطلقه المقاومون؟ أعرف أنني لو زرت أياً منهما سيهلل، سيفرح وسيقول لي وما هي المشكلة إن قتل أميركي هو واجب على كل رجل شريف، اصطلاحهم الذي يحبوه لأنهم يظنون أنهم شرفاء بل سيذهب معي إلى البيت للحديث مع

المختطفين ويطلب منهم، أن يسمحوا له بقتل دانييل؟ ذلك ما فكرت به في تلك الليلة، في اللحظة التي طوقتني فيها الكلاب ورأيت الرجال الملثمين ما زالوا ينتظرون في سيارتهم لكي يستمتعوا بمشهد الكلاب السائبة وهي تنهشني أو تعضني بكل تأكيد. في تلك اللحظة وقبل أن أراهم يختفون في عتمة الليل تذكرت الجملة التي قالها طارق بن زياد لجنوده بعد عبورهم المضيق الضيق الذي ربط شمال أفريقيا بالأندلس «الموت من أمامكم والبحر من ورائكم» وفي حالتي تلك ما كان علي إلا أن أقول: الكلاب من أمامي والكلاب من ورائي. وربما كانت الكلاب السائبة أرحم من الكلاب التي جلست خلفي خمس دقائق أو أكثر من ذلك بقليل في سيارة پاجيرو تراقب المشهد من خلف زجاج معتم. هم يرونني وأنا لا أراهم كأنهم لم يكتفوا بالمهلة التي أعطوني إياها «أمامك أسبوع لكي تقرر، تذكَّر جيداً، نحن في حرب إما أن تقتُل العدو أو تُقتَل» قالوا لي دون أن يزيلوا اللثام عن وجوههم حتى في تلك اللحظة. لكنت عرفت سبب طلبهم مني أنا بالذات تنفيذ هذه المهمة. الكلاب لم تكن ملثّمة، قلت لنفسي، تنبح علناً ودون مواربة تباغت فريستها. المضيق الذي عبر منه الجنود في التاريخ القديم أطلقوا عليه لاحقاً مضيق جبل طارق، تمجيداً للقائد العسكري الذي أرسل جنوده إلى الموت. فهل أطلق على المزبلة التي توسّطت الساحة والتي سأخترقها باتجاه أزقة الميدان، مزبلة

الرجال الملثمين أم ساحة الجندي الهارب، أنا؟ أمر غريب، قلت لنفسي، كأن الكلاب عرفت أنني لم أكن في الساحة رغم أن جسمي كان موجوداً هناك وكان يمكن سماع ضربات أقدامي على إسفلت الشارع إلا أنني كنت غائب الذهن تماماً. ربما ظنت الكلاب أن ما قمت به شجاعة مني وإلا فهل من المعقول أنني تحركت في الساحة بحرِّية، مشيت طريقي من وسطها، مررت بها دون أن أعير لها اهتماماً، دون أن أظهر أمامها رعشة أو اضطراب، دون أن يتصبَّب عرق جسمي، بل دون أن أرفع حجراً وأرميه باتجاهها؟ لكنها الكلاب غير الملثمة هذه لم تعرف أن فكرة واحدة استحوذت عليَ في تلك اللحظة وهي أن أرمي بأقدامي بعيداً، ألا أنظر خلفي، أن أسير باتجاه واحد إلى الأمام، باتجاه الفنادق التي انتشرت هناك. كنت أعرف أن النوم هناك مغامرة كبيرة فمن الصعب تسمية الأقبية تلك بالفنادق لأن غرفها مليئة بالقمل أو مستعمرات سرية للقمل، كما أطلق عليها سلمان ذات يوم، قيل إن وزارة الصحة لم تضع تلك الفنادق على لوائحها. لكن في تلك الليلة لم أجد غيرها، من يحميني ولحسن الحظ أن بعضها يفتح أبوابه عند منتصف الليل. أمر حدث قبل دخول الأميركان إلى بغداد واستمر حتى الآن وليس من النادر أن يستيقظ المرء في الصباح ولا يجد جسمه إلا وقد امتلأ بالقمل، أو لا يجد محفظة نقوده إلا وقد سُرقت، فالسرقة كما يبدو أمر مسموح به وهو أشبه بالاتفاق غير الموقع رغم

أن بناية مديرية الشرطة العامة ليست بعيدة، لكن متى كانت الشرطة في بلادنا مثلها في بقية البلدان؟ ألم يُلقِ بي الرجال الملثمون قريباً من البناية ذاتها أيضاً؟ كل ذلك غير مهم، قلت لنفسي وأنا أتحسس بقية العشرة آلاف دولار في بطانة سترتي. المهم ألا أعود لا إلى حانة الجنون ولا إلى غرفتي فوق. أن أكون أنا المهدد، نعم، لكنني لا أريد زجّ الآخرين معي. لا أريد أن ألحق أضراراً بوليم أو بأحد آخر، وقبل كل شيء ألا ألحق أضراراً بسلمان. القضية كبيرة جداً، معقدة، أكبر من أن تكون لجسده التعبان، كم كان بودي أن أخبره أنه ليس كما ظن أن الشاب محمد باريس أراد السخرية مني أو نصب فخ بالاحتيال عندما سمع كلامه «الهامس» في المقهى. ليس هناك أميركي ولا بطيخ، القصة اخترعها خيال عصابات. كلا، ليس كما ظن، فأنا رأيت الرجل الأميركي بنفسي وإن هذا الأميركي وليس غيره مَنْ عثر على الرزمة الصغيرة التي نسيها في خندقه على جبهة حفر الباطن. أية مفارقة أن تصبح الرزمة هذه لا في حوزته ولا في حوزتي كما شاء، بل هي الآن في حوزة رجال غرباء في بيتي، قتلة مع سبق الإصرار. وأنهم قرؤوا كل ما في الرزمة وسخروا منه وإلا لما قال أحدهم: مَن والت وايتمان هذا، أكيد أميركي، سألني وأجاب بنفسه ثم أضاف، ألا ترى معي أنكم عملاء للأميركان؟ كم كان بودّي أن أخبره أن الرسالة التي كتبها لي بكل ما حملَته من تفاصيل هي الأخرى هناك إلى جانب قصاصات

قصائد والت وايتمان والدفتر الذي دوّن فيه أسماء الجنود وأحلامهم. كم كان بودّي أن أقول له إن الأميركي الذي حدثته عنه والذي جاء يبحث عني هو صديق شريكه في الشعر أيام الأسر في جبهة حفر الباطن، اللويتينانت الأول دافيد باربييرو وأنه ملقى الآن في مستودع قريب من بيتي وللمفارقة قريب أيضاً من معسكر الأميركان. كم كان بودي أن أسأله، من كان بإمكانه التكهن بأن يتحول بيتي أنا بالذات إلى مكان روائي يقيناً سيحسدني عليه كافكا لو كان على قيد الحياة، بل وحتى صديقنا هارون والي البعيد القريب. كما فكرت في اللحظة تلك. كم كان بودي أن أقول له لو لم تكن القصة هذه حدثت لي لما صدقها أحد. لظن أنها اختراع روائي وحسب، روائي أراد تقليد كافكا لا غير، هارون والي مثلاً؟ لكنني أعرف سلمان أعرف عناده، وقِلّة صبره، أعرف غضبه واندفاعه الذي يجعله على وشك الانتحار أحياناً. يقيناً سيخرج في الليلة ذاتها حالما يسمع ذلك مني يؤجر تاكسياً إلى عنوان بيتي وهو يعرف البيت، زارني فيه مرتين أو ثلاث وعندما يصل إلى هناك لن يثني عزمه لا الساعة المتأخرة من الليل ولا أنه في حي غريب، في حي رغم أن القتل على الهوية لم يصل إلى بيوته بعد لكنه على الأقل أصبح مأوى للمسلحين والمختطفين. سيصرخ بالرجال الملثمين ويطلب منهم أن يأخذوه إلى المستودعات ويحرروا دانييل من سجنه في السرداب، سيطلب منهم

أن يسلموه دفتره، دفتر الأحلام ومعه كل الأوراق وسيصرخ بهم أيها الأوغاد من غيركم قتل هؤلاء الجنود، فكيف تقتلون رجلاً جاء يطلب الرحمة منكم؟ هل ذهبتم إلى الحرب يوماً؟ هل عرفتم الشعور بالذنب ذات يوم؟ عل عرفتم بماذا يفكر الجنود؟ وهي معرفتي هذه التي جعلتني أتجنَّب الذهاب إلى غرفتي بعد أن رموني في ساحة الميدان. خِفت ملاحقتهم لي ليتمكنوا من الوصول إلى الشقة ويأخذوا سلمان بدلاً مني، كان لا بد أن أهرب منهم في الليلة تلك، أن أبيت في أحد تلك الفنادق ولم تهمني قذارتها قلت لنفسي لأنام هنا على الأقل ليلة واحدة ثم أفكر بما سأفعله في يوم غد وعندما تناولت الفطور صباح اليوم التالي في محل عصير الحاج زبالة، تساءلت مع نفسي ماذا سأقول لسلمان لو ظهر فجأة ليتناول فطوره هو أيضاً هناك؟ لكنت حفرت حفرة في الأرض ورميت فيها بنفسي. في ذلك الصباح انتابتني رعشة لا توصف، رعشة سرت في جسمي كله، جعلت أسناني تصطك. شعرت ببرودة رغم حرارة الجو حتى أنني لم أكمل فطوري. نهضت باتجاه مقهى سوق حسن عجمي أولاً، طلبت من عامل المقهى ورقة، كتبت عليها رسالة صغيرة لسلمان، قلت له، إنني قررت مغادرة بغداد بسرعة وسأخبرك عن الأسباب لاحقاً. وداعاً أيها الصديق، عليك الاعتناء بنفسك. سلمت الورقة للعامل وقلت له أن يعطيها لسلمان حالما يزور المقهى. بعدها اتصلت من تلفون المقهى بحسن حارس

المكتب، ودَّعته وقلت له إن عليه العناية بنفسه ثم أوصيته بالاحتفاظ بالعشرين ورقة من فئة المئة كلها له وتسليم المحل لمالكه. كأنه عرف ما حصل؛ لم أسمعه يعترض أو يعلق على القرار، قال إنه سيفتقدني. أناس مثلك نادرون في هذه الأيام ثم أخبرني أنه ممنون لي وسيعود إلى أهله في قريته على نهر الفرات، سيساعده هذا المبلغ للبدء بعمل جديد. أتذكر أنني غادرت المقهى وقطعت شارع الرشيد باتجاه الشورجة، تذكَّرت الحريق الذي التهب في السوق قبل أسبوعين وظلَّ مشتعلاً خمسة أيام بلياليها. كل المحلات القديمة التي أحببناها أنا وسلمان انهارت، أصبحت خرائب. أنا الآخر، قلت لنفسي، لم يعد عندي بيت أو مكتب أو مكان آوي إليه وأنا أدفع بأقدامي إلى الأمام لا على التعيين. أعرف أن السوق أصبحت خلفي لكنني لم أدرِ في أية أزقة دخلت أو بأيَ شوارع مررت أو بأي أحياء كأن قدماي هما اللتان قادتاني، كأنني لم أعد الشخص الذي كنت عليه، وعندما وصلت محطة سيارات النقل، قلت لنفسي، بالفعل لا بد لك من مغادرة بغداد.

هل تعرف أنَّ مَنْ تُثقِل على نومه ليلاً كوابيس وأحلام يظن أنها مسألة وقت وسيعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي. صحيح أنه سيفزَ مذعوراً، ريقه جاف وأطرافه ترتعش، لكنه ما إن يسمع قلبه يضرب بقوة ويسمع لهاث أنفاسه حتى يشعر أنه يعيش وهذا يمنحه الشعور بأن كل شيء سيكون على ما يرام. أعرف

الكوابيس أو الأحلام الثقيلة هذه، عرفتها على جبهات الحرب العراقية الإيرانية وأثناء فترة الخدمة في سد دوكان، وأكثر من ذلك عرفتها بعد موت أزهار. كلما نمت كلما هجمت عليّ كأنها انتظرت اللحظة التي أغفو فيها، لكن في كل المرات تلك بتكرارها أو قوتها كنت أقول لنفسي: لا بأس عليك غداً ستتغير الأمور ويصبح ما تعيشه ماضياً وما يحدث لك هو في النهاية لا شيء، مقارنة لما يحدث لآخرين تعرفهم. ما حدث لأصدقائي الشيوعيين في أيام الدراسة الجامعية مثلاً أو لما حدث لسلمان على وجه الخصوص. تعرض سلمان للاعتقال مرتين أو ثلاث في سجن مديرية الاستخبارات العسكرية في وزارة الدفاع، ليس بعيداً عن الفندق الذي نمت فيه، لكن الآخرين وهم ليسوا بالعدد القليل اختفوا تماماً، ولا أدري إذا اختفى كل أثر لهم في السجون أم أنهم تنقلوا مثلي من مدينة إلى أخرى، لأنني أعرف كل الذين غادروا إلى خارج البلاد وهم في الحقيقة قليلون قياساً للآخرين الذين أصروا على البقاء هنا. معرفتي تلك خففت الألم عندي وقتها، جعلتني أتطامن مع الكوابيس مهما كان رعبها، كلما زارتني في الليل كلما قلت لنفسي، إنها ليلة أخرى وستنقضي. كان ذلك ديدني ولسنوات طويلة، لكن المعضلة الآن ومنذ أن انتهت مهلة الأسبوع التي منحني إياها الرجال الملثمون لقتل دانييل بروكس هي أن الكوابيس الجديدة لم تصبح أكثر رعباً وحسب بل أنها وللغرابة بدأت تزورني ليلاً

ونهاراً، في كل مدينة انتقلت إليها أو كل مكان لجأت إليه. كانت تُصاحبني ليل نهار. في الليل أجد نفسي وما أن أنام أدخل إلى مدينة خُط عند مدخلها «مدينة الأموات» مدينة كل سكانها أموات، من غير المسموح لأحد فيها أن تعود له الحياة إلا لدقائق معدودة لكي يعود ويجرب موته من جديد وكان صحوي في اليوم الثاني هو الآخر مثل فاصل قصير لكي أعود وأجرب الموت في الليل من جديد، لكن حتى هذا الفاصل، أقصد النهار الذي عليّ أن أقضيه انتابني هذا الشعور الغريب أن أحدهم مرة بلثام وأخرى دون لثام، ينتظرني في مكان قريب عند زاوية الشارع أو في المقهى الذي أجلس فيه عند محطة باصات النقل أو في السوق الذي أسير فيه، في معرض للسيارات (خاصة في معارض السيارات، لأنها تلك هي المهنة الأولى الجديدة التي اكتشفتها لكي أعيش، اشتريت بجزء من المبلغ الذي تبقى عندي سيارة ورحت كلما دخلت مدينة جديدة، بدأت بشراء وبيع السيارات) أو في الفندق الذي أقيم فيه بل وحتى على الطريق السريع، في كل الأماكن تلك رأيت أحدهم ينتظرني ويطلب مني أن أقتل شخصاً جرجره بيديه «لماذا ترفض وأنت تعرف أنك في الليل ستدخل مدينة الأموات؟» كأن المختطفين عرفوا ما يحدث لي كل ليلة أو كأنهم لم يكتفوا باختطاف دانييل بروكس بل اختطفوا كل من وقع نظرهم عليه، صدقني لو كنا في زمن آخر لأثار منظري الشك عند الآخرين،

لظنوا أنني لست مهدداً من قبل مطاردين يطلبون مني بأن أقتل أحداً، بل لظنوا أنني سفّاح هارب من مطارديه، ولكن لحسن الحظ، البلاد كلها غرقت في النسيان، لا أحد يريد أن يعرف ماذا فعل أو يفعل الآخر، ربما لم يلفت نظري ذلك من قبل في مدينة كبيرة، عاصمة مثل بغداد، لكن في كل المدن الأخرى التي درت فيها، صغيرة كانت أم كبيرة نسبياً، ناسها يعيشون في محيط أضيق، كل منهم يعرف ماذا فعل الآخر في الماضي، إن لم أقل، كل واحد يعرف قسمات الآخر، حركات يديه، نبرة صوته كل منهم في حوزته ما يمكن أن يلحق أضراراً بالآخر، جاره القريب أو ذلك الذي يسكن في حي بعيد، لكن لا أحد يريد الحديث لا عن العهد السابق ولا عن العهد الجديد، كما لو أنه لم يعرف شيئاً. الناس يتبادلون جهلهم حتى في الحاضر لكي لا يطالبهم أحد بشيء، كأنهم صدفة اكتشفوا أدبهم وحسن سلوكهم في تعاملهم مع بعضهم، وحتى عندما يسمع أحدهم أصوات عيارات نارية أو إطلاق صاروخ يسكت، لا يعلق على مقتل مسؤول سابق أو تعرض دورية بريطانية أو أميركية للهجوم، نوع من الاتفاق السري على تجاهل كل شيء خاصة في مدن الجنوب، كلما اشتريت أو بعت سيارة كلما مارست مهنة جديدة. خفت أن يكتشف أحد هويتي بسبب لقبي أو مكان ولادتي لكنني تطامنت مع الوقت وهي وجوه الناس التي طالعتني ببرودها وحياديتها وعلّمتني ألا أعير للأمر أهمية طالما أن ليس

في حوزة أحد ما يجعله يطلب الثأر مني، لا أحد يعنيه هويتي أو مكان ولادتي، هم لا يتحدثون حتى عن القتلى من مواطنيهم، عن الضحايا الذين يقعون في أيدي عصابات الاختطاف فلماذا يشغلهم أمر شخص مثلي؟ مَنْ يعنيهم أمري هم الرجال الملثمون، مختطفوا دانييل بروكس وهم هؤلاء الذين كلما شعرت بالتطامن ولو لوقت قصير كلما شعرت بهم ينتظرونني عند مكان قريب أو شعرت بأنهم هم من يرسلني في الليل إلى مدينة الأموات. وفي كل تلك المرات تساءلت مع نفسي، ترى ماذا سأفعل إذا ظهروا بالفعل أمامي ومعهم «سمايلي مان»، دانييل بروكس؟ ماذا إذا قالوا لي في المرة هذه، الآن عليك أن تختار بين أن تقتل الأميركي الأسود هذا أو نجعله هو الذي يقتلك؟ لو أردت الصراحة، كان ذلك أكثر ما يرعبني، لأنني لم أعرف ماذا عليّ أن اختار؟

سنتين ونصف أو ربما أكثر بقليل وأنا أطوف مدن البلاد، أغير الوظائف، أستبدل مهنة بأخرى. عزائي الوحيد هو أنني على الأقل وحتى ذلك الحين لم أجد نفسي بعد مضطراً لتغيير الهوية أو الاسم أو تاريخ ومكان الميلاد كنت أنا مثلما كنت، حتى ملابسي ظلت كما هي، سنتين ونصف أو أكثر بقليل، كلما تأمّلتها الآن من المكان البعيد كلما بدت لي بعيدة كأنها قدمت من أزمان سحيقة وأن الشخص الذي عاشها هو شخص آخر غير الشخص الذي يرويها الآن، سنتين ونصف أو أكثر

بقليل لم أعرف بها البلاد التي عشت فيها وقضيت فيها نصف عمري تقريباً وحسب بل عرفت فيها الناس خلال كل تطوافي ذلك عبر مدن البلاد، ومهما حمل معه من مخاطر ومغامرات في تلك السنوات فقد منحني صورة واضحة للفوضى، للخراب، للمصير المجهول الذي بدأنا بالسير إليه جميعاً أو المصير الذي سارت باتجاهه البلاد، فمن يخرج مثلي من عاصمة المزابل والقتل والاغتيالات، من يغادر بغداد، إن توجه ناحية الجنوب أم ناحية الشمال، ناحية الشرق أم ناحية الغرب سيرى مزابل تراكمت على جانبي الطريق، جبال قمامة عالية فاضت بها الأحياء السكنية فلفظتها إلى الأطراف، مزابل لا ينافسها في فوضاها غير شوارع وجسور محفورة بالأسفلت، وبوابات على شكل مداخل للمدن عند الطريق السريع لم يكتمل بناؤها ومدارس مخلوعة الأبواب، مستشفيات دخولُها كارثة ومدعاة للمرض، وساحات لعب على شكل مستنقعات. كأن البلاد كلها تحولت إلى خرابة، إلى مزبلة فريدة الطراز، رغم أن من الممكن أن يتحمَّل المرء كل المنظر ذلك خاصة إذا كان مارس مهنة المقاولات مثلي وعرف أن كل صفقات المقاولات التي تمّت، حصل عليها موقّعوها بشكل فاسد ومشبوه، نعم بالرشوة والاحتيال، لكن ما لا يستطيع تحمُّله هو القتل على الهوية الذي انتشر في البلاد فجأة مثل الطاعون. سنتين ونصف أو أكثر بقليل كان عليَ فيها ليس الهروب من مطاردة الرجال الملثمين لي

وحسب بل كان عليّ التعود على الهروب من حقيقة ما أراه أمامي من خراب لأن المزابل والتلوث والخراب تظل أقل وطأة من القتل على الهوية والتطهير العرقي الذي طال قرى وقصبات ومدن البلاد. كان عليّ التعود على ما يحدث أمامي من قتل ودمار. في بداية هروبي واظبت على شراء الصحف اليومية أتابع أخبار ما يحدث علّني أعثر يوماً على خبر يتحدث عن الرهينة الأميركي دانييل بروكس. كل الرهائن ظهروا على أشرطة فيديو في المحطات التلفزيونية باستثنائه هو أو هذا ما ظننته في ذلك الحين، 150 رهينة على الأقل من مختلف الجنسيات ومختلف المهن، رجالاً ونساء. أحتفظ حتى الآن بقائمة حوت على أسماء بعضهم وتواريخ اختطافهم. المتعاقد البريطاني كينيث بيـگلي ومعه عمال إغاثة إيطاليين ومتعاقدان أميركيان قُتلوا كلهم لاحقاً. الرهائن الأربعة الإيطاليون الذين قُتل أحدهم مباشرة على أيدي مختطفيه، مَنْ أطلقوا على أنفسهم «الكتيبة الخضراء» فيما أُطلق سراح الباقين مقابل دفع فدية بالملايين. الرهائن الثلاثة اليابانيون الذين اختطفتهم مجموعة أطلقت على نفسها «سرايا المجاهدين» قبل أن تلحق وتختطف يابانيين اثنين آخرين، الأول صحفي ياباني اسمه جوبتاي ياسودا والمراسل الخاص لصحيفة «طوكيو شيمبون» والثاني اسمه نوبوتاكا واتانابي.ماذا؟ لماذا ما أزال أحفظ اسم اليابانيين رغم صعوبة حفظ اسم ياباني؟ أقول لك

لماذا، لسبب بسيط هو أن الاثنين كانا قد توجَّها إلى العراق قبل الحرب كمتطوعين في حملة «الدروع البشرية» لحماية بغداد من القصف الأميركي البريطاني، وأية ضيافة لائقة حصلا عليها إذن من «سرايا المجاهدين»؟ على أية حال، ما زلت أحفظ أسماء أخرى: الصحفي الفرنسي ألكسندر جوردانوف أثناء تصوير فلم وثائقي لقناة كنال ﭙلوس الفرنسية (أطلق سراحه ولحسن حظه بعد يوم) الرهينة الأميركي إيبان الياس، مهندس أميركي اختطفته مجموعة أطلقت على نفسها «سرايا الغضب الإسلامي» (مرة أخرى سرايا!)، الصحفية الإيطالية جوليانا سجرينا مثلاً، التي اختُطفَت قرب جامعة بغداد والتي عملت مراسلة للصحيفة الإيطالية الشيوعية المانيفستو وبعد شهر من اختطافها حررها خاطفوها بعد دفع فدية عنها، لكن مرافقها وقائد سيارتها ضابط المخابرات الإيطالي قُتل برصاص الجيش الأميركي على طريق المطار كما صرحت الصحفية ذاتها لاحقاً، الصحفية الفرنسية فلورانس أوبيناس ومرافقها العراقي مثلاً والتي ظلت أكثر من سنتين تحت رحمة مختطفيها، أو روي هالامز وهو مواطن أميركي عمل في إحدى الشركات في بغداد رأيته في شريط فيديو يجلس القرفصاء ويفرك كفيه ويطلب المساعدة للإبقاء على حياته ومن ورائه خلفية سوداء وكان الرجل الذي غطَّى الشيب لحيته الكثيفة يتحدث بوضوح وإن بدا عليه الخوف والتوتر وهو يأتي

بحركات عصبية بقبضتيه وكان يلبس ملابس مدنية، أو رجل الأعمال التركي كهرمان صادق أوغلو مثلاً فقد أطلق سراحه لاحقاً أيضاً بعد فدية، أو الأميركي جيفري أيك مثلاً الذي اختُطِفَ في بغداد أو رئيس الحزب الديموقراطي المسيحي العراقي ميناس إبراهيم اليوسفي مثلاً والذي حمل الجنسيَّتين العراقية والسويدية، أو البريطانية مارغريت حسن مثلاً المتزوجة من عراقي رئيسة منظمة كير الدولية في العراق، صحيح أنها اختطفت في 19 تشرين الأول (أكتوبر) 2004 وقُتلت بعد شهر من ذلك، لكنني تذكرت عاملة الإغاثة الدولية في يوم الأحد 1 مايس/ آيار 2005 من جديد بعد سماعي خبر اعتقال الشرطة للعصابة التي اختطفتها قرب بلدة المدائن على بعد نحو 40 كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من بغداد، أحد عشر شخصاً كان عدد أفراد العصابة، قال لي سائق التاكسي ونحن نمرُّ بالمدائن في ذلك اليوم، اعترف خمسة منهم بالتورط في قتلها. أنت تعرف لم تؤثِّر حالة اختطاف وقتل رهينة مثلما أثر قتلها، فمارغريت الإيرلندية الأصل، والتي قُتلَت ولها من العمر 59 عاماً كانت معروفة على نطاق واسع في هيئات الإغاثة بأنها عضوة نشطة عملت في العراق لأكثر من 20 عاماً في خدمة الفقراء والمهمشين أو اختطاف ثلاثة كنديين أسماؤهم سقطت للأسف سهواً مني، أو المدني الأميركي الشاب نيكولاس بيرغ الذي أعدم يوم خميس، ذُبح بالسيف

حقيقة على يد رئيس مختطفيه وأسماء أخرى وأخرى لا أريد أن أذكر لك القائمة الطويلة وأدوخ رأسك بكل تلك التفاصيل لأنها كثيرة فمنذ شهر أبريل/نيسان، منذ مرور الذكرى الأولى على سقوط بغداد وظاهرة الخطف التي لم يعرفها العراقيون من قبل في ازدياد لدرجة أن المجموعات تلك لم تتفنن بإطلاق أسماء «إسلامية» رنانة على نفسها لكي تغطي على هدفها الأصلي: الابتزاز من أجل الحصول على الأموال، كما حصل في حادثة اختطاف الألمانية سوزانة أوستهوف التي دام اختطافها من 25 نوفمبر/تشرين الثاني إلى 18 ديسمبر/كانون الأول 2005، والذي ظهر بأنه اختطاف مفبرك بكل ما حمله معه من ملابسات خاصة بعد تسلم المختطفين «سرايا الزلازل» (أيضاً سرايا!) مبلغ 5 ملايين يورو أو دولار، كما قيل، بل راحت المجموعات هذه تخترع قصصاً للاختطاف مثل خبر الاختطاف المضحك المبكي ذلك الذي دونته أيضاً في قائمتي عندما ادَّعت منظمة عراقية أطلقت على نفسها اسم «كتائب المجاهدين» بأنها تحتجر جندياً أميركياً يدعى جون آدم وهددت بقطع رأسه في حال لم يفرج الجيش الأميركي عن جميع السجناء العراقيين. المفارقة هو أن الفلم الذي نُشر على موقع إسلامي في الإنترنيت اجتذب منسق التسويق في شركة دراگون موديلز آي آي للألعاب الذي أكد أن الجندي آدم مطابق للعبة بلاستيكية أنتجتها الشركة عام 2003 ويحمل اسم الجندي في غرفة

العمليات الخاصة كودي مشيراً إلى المسدس المستخدم في الفلم المعروض على الإنترنيت كذلك هو أحد الأسلحة البلاستيكية المرافقة للّعبة. كما ترى كان خبراً مضحكاً مثل هذا ظهر في الصحف ووسائل الإعلام لكن لا خبر عن خطف «سمايلي مان» دانييل بروكس. كدت أعتقد أنهم قتلوه وانتهى الأمر عندما قرأت بعد سنة ونصف أو سنتين من تطوافي. في كل الأحوال قبل توقفي عن قراءة الجرائد، قرأت خبراً يتحدث عن العثور على جثة أميركي مسلم اسمه دانييل حسين. عثر عليها أولاً أحد الفلاحين عند جسر حجري قديم على نهر صغير متفرع عند نهر الفرات بين مدينة الحبانية ومدينة بغداد في قرية صغيرة هناك. كانت الجثة مقطوعة الرأس وعندما أبلغ الفلاح عن الجثة لم يعره أحدٌ الانتباه، لا الشرطة المحلية ولا مدربيهم الأميركان الذين يقيمون في أكبر قاعدة أميريكية في الجوار، قاعدة «عين الأسد» في ناحية البغدادي. لماذا كان عليهم أن يفعلوا ذلك ويومياً يُقتَل العشرات، إن لم يكن المئات من الناس، ولكن عندما عُثر على أوراق بعضها مكتوب بالإنكليزية والأخرى بالعربية يلعب بها الأطفال في شوارع القرية قيل إنهم عثروا عليها عند الجثة، ذهبت الشرطة ومعها المدرِّبون الأميركان إلى مكان الجريمة وعندما رفعوا الجثة عثروا على جواز سفره الأميركي تحت. لا أظن أن الصحيفة ذكرت تفاصيل أخرى، طبعاً فكرت في البداية أنه من الممكن

أن يكون صديقي الأميركي دانييل بروكس، لكن باستثناء الاسم الأول لم يكن هناك ما يشترك به الاثنان، ليس فقط لأن دانييل بروكس مسيحي، بل ومسيحي مؤمن كما أظن («فكيف له أن يحمل اسم مسلم: حسين»؟) بل أيضاً لأن الجريدة لم تكتب أنه أسود البشرة أو أنه أسمر اللون ثم إنهم عثروا عليه في مكان بعيد عن المكان الذي تركته فيه. لم يعثروا عليه في المستودعات والأكثر من ذلك أنهم لم يتركوا شريط فيديو أو رسالة. باستثناء الخبر الغريب ذاك لم أقرأ خبراً عن دانييل بروكس أبداً كأنه دخل إلى البلاد وتبخَّر فيها بسرعة بل لم أقرأ حتى ولو خبر صغير يتحدث عن بيتي أو ما آل إليه، لا شريط فيديو ولا رسائل صوتية، أمر غريب أليس كذلك؟ كأن المختطفين أخذوا الرهينة دانييل بروكس من أجلي أنا فقط، ليس لهم مطالب مالية أو أية شروط؟ نعم، المجموعات الأخرى والتي لم تختص باختطاف الأجانب وحسب بل راحت تختطف حتى الأطفال العراقيين والمأسورين، تطالبهم بفدية دسمة. مجموعة الرجال الملثمون هذه فقط، تختطف رجلاً أميركياً دون أن تطلب فدية أو على الأقل تعلن عن الاختطاف. هل من المعقول أنهم قاموا بذلك من أجلي أنا فقط؟

في البداية لم أشأ أن أسلِّم نفسي لليأس، قلت لأتابع قراءة الصحف فربما أقرأ خبراً عن تحرير الرهينة الأميركي صاحبي بعد دفع فدية له أو عنوة، كأنني

استعجلت الانتهاء من القصة، قصته، أو ربما سأقرأ في صحيفة قصيدة أو عموداً كتبهما صديقنا سلمان، وفي الحالتين سأقدم العزاء لنفسي. سأنتهي من العبء الذي ألقي عليّ، وفي الثانية سأفرح لعودة سلمان إلى الكتابة. رحت أتابع الصحف اليومية على مدى أكثر من سنة ونصف مسكوناً بهذا الهاجس لدرجة أنني لم أفوِّت يوماً لم أشترِ فيه صحيفة حتى في أيام الجمعة وأيام العطل الرسمية. كنت أشتري منها ست أو سبع على الأقل وفي بعض الأيام عشر، الصحف المحلية والعربية ولو لم يكن ذلك هدراً لما في حوزتي من مال لاشتريت كل الـ 180 صحيفة يومية التي بدأت بالصدور بعد 9 أبريل 2003 ولحسن الحظ توقف صدور أغلبها بعد فترة قصيرة بسبب إفلاسها. على أية حال وعندما راحت الصحف التي أشتريها أو تلك التي استبدلتها بأخرى (ظناً مني أنها ربما ستختلف عنها) تملأ صفحاتها بأخبار الخطف والقتل والانفجارات توقَّفت عن شرائها، ليس لأن اختطاف دانييل بروكس طال أمده حتى بدا لي أكثر غموضاً ولا لأنني لم أشأ أن أقرأ خبر قتله ذات يوم مرمياً مقطوع الرأس ذبحه أحد أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم بالمجاهدين أو بسرايا الإسلام والذين كثروا في حينه مثل نبات الفطر ولا لأنني لم أقرأ ولو سطراً واحداً لسلمان أو خبراً عنه بل ـ وهذا ما أنا متأكد منه الآن مئة بالمئة ـ لأنني لم أشأ أن أقرأ ما يؤيد تكرار نفس الأخبار. ما هي حاجة قراءة صحف لا

تتحدث غير عن أخبار الموت والذبح والقتل والتفجير وقد أصبح الموت على كل لسان، قلت لنفسي تصعد في الحافلة، تمشي في الشارع، تذهب إلى السوق، تشتري البضاعة هذه أو تلك، تجلس في المقهى أو في عيادة الطبيب، تدخل إلى صالة الفندق، تسلِّم على جارك، ولا تسمع غير أخبار القتل وبأنواعه، كأن الناس كتموا ساديتهم. من أين جاء كل العنف هذا؟ العديد من القصص ما تزال ماثلة تلتصق بي، تلك التي قرأتها أو التي سمعتها أو التي عشتها شخصياً، العديد من القصص المرعبة المليئة بالدم والغدر والنذالة، بالاغتصاب والوحشية والسفالة حاصرتني في كل مكان، كأنها أرادت تذكيري بما هو مطلوب مني، الكل يقتل، الكل وأنا هارب من رجال أرادوا مني أن أكون أحد هذه الجموع التي أصبح القتل لها مثل رياضة يومية أو لعبة تسلية تدور بصورة حيَة. أتذكر أنني قرأت ذات يوم عن باص للنقل أقَلَّ أكثر من ستين راكباً، كان قادماً من الناصرية في طريقه إلى بغداد لكنه ما إن وصل إلى المثلث أو الهلال ذلك الذي أطلقوا عليه مثلث أو هلال الموت، شمال بابل والذي تشكله مدن جبلة ومويلحة والحصوة والبحيرات والجرف والاسكندرية حتى تعرض لهجوم مسلحين أخرجوا الركاب جميعاً وقتلوهم، لم يستثنوا أحداً لا شيخاً ولا رجلاً أو امرأة، قطعوا رؤوسهم كلهم ورموهم في مجرى النهر المجاور. ماذا ترى سيحصل لو عرف الاسكندر المقدوني أن

المكان الذي سيموت فيه في يونيو/حزيران 323 قبل الميلاد سيدخل التاريخ وبعد ألفين وثلثمئة وستة وعشرين عاماً من موته بصفته مكاناً للموت بامتياز، فهل اختار هذا المكان لموته هو بالذات؟ أتذكر أيضاً أنني ذات مرة أخذت تاكسي من مدينة الكوت باتجاه مدينة الديوانية، سائق التاكسي الشاب بدا هادئاً جداً على عكس سائقي التاكسي الآخرين الذين واظبت على تأجير سياراتهم من حين إلى آخر. كنت أفضل دائماً تأجير تاكسي لوحدي لأن تلك هي فرصة ثمينة لي للحديث مع سائق التاكسي عن السيارات، عن تجارة السيارات، أسعارها، أماكن بيعها، خاصة وأن تجارة بيع وشراء السيارات كانت أكثر المهن التي لجأت لممارستها في السنة والنصف الأولى من تطوافي ثم إنها أيضاً فرصة جيدة للحديث عن المدينة التي كنت في طريقي إليها، وهل هناك من يعرف المدن أفضل من سُوَّاق سيارات الأجرة أو سُوَّاق التاكسيات؟ لكن سائق التاكسي الشاب هذا بدا واجماً صامتاً لم يبدِ رغبة بالحديث، كان عليّ أن أنتظر حتى وصولنا منطقة مزارع كبيرة شبيهة بمناطق غابات لأعرف منه، أنها ناحية اللطيفية. في تلك اللحظة فقط انطلق السائق بالحديث كما لو كان يستعيد ذكريات طفولته المجيدة، ليصعقني بقوله: هنا قتلوا عمي، قال لي وهو يشير بيده ناحية اليسار، ناحية غابات المزارع التي امتدت هناك، لكن نظره ظلَّ مسمَّراً نحو الأمام على الطريق، قتلوا

عمي أمام عيني، قال لي، ثم راح يسرد لي القصة. في اللطيفية التي كان وعمُه يعملان سائقين على طريقها ليلاً أصرَّ سائق شاحنة النفط الذين تعرفوا عليه عند استراحة في الطريق على استضافتهم على العشاء، السائق الشاب ظن أن لابأس من دعوة عشاء وينتهي الأمر وهكذا جلس الجميع أمام مائدة عامرة بشتى أصناف الأكل. كان طبق الثريد أمامهم، قال مضيفهم: تفضَّلوا كلوا لحمكم! العم الذي مد يده عميقاً تحت الثريد أخرج يداً بشرية، نعم يداً آدمية مقطوعة ومدفونة تحت قطع الخبز المغمسة بالمرق، العم المسكين انتفض رافضاً الأكل، قال للمضيف هل أنت مجنون تريدني أن آكل لحم البشر؟ أخرج المُضيِّف مسدسه وضربه طلقتين برأسه، سألت الشاب مقاطعاً وأنت؟ قال: أكلت. كان علي أن آكل يدا كاملة وأكلتها نعم أكلت اليد كلها لأنجو بجلدي وأعود بجثة عمي. ثم أكمل سياقته وهو يعاين الطريق. أتذكر أيضاً أنني رأيت بعيني 25 شخصاً يموتون أمام عيني وإلى جانبهم ثلاثين جريحاً في هجوم بسيارة ملغَّمة استهدفت أحد شيوخ القبائل في تلعفر غرب الموصل، لحسن حظي كنت في مكان بعيد بأمتار قليلة عن موقع التفجير. أتذكر أنني سمعت من سائق تاكسي ونحن نمر في منطقة الصويرة 60 كيلومتراً جنوب شرق بغداد كيف أنهم قبل أسبوع من رحلتنا عثروا على أكثر من 20 جثة متفحمة تعود لسائقين عراقيين كانوا ينقلون

شاحنات من السكر لصالح وزارة التجارة كانوا قادمين من ميناء أم قصر في طريقهم إلى بغداد. أتذكر أنني سمعت وبينما أتناول الفطور في باب الطوب في الموصل كيف أن ضابطاً برتبة عقيد في الجيش العراقي قام في السابق بقتل جميع أفراد أسرته، في بادئ الأمر قتل الرجلُ - الذي كان عقيداً مهندساً - ابنتَه ثم زوجتَه ليقوم بعدها بقتل والد زوجته وليجهز على جميع أفراد عائلة زوجته حيث قتل شخصين آخرين وطفلاً. أتذكر أنني قرأت أيضاً كيف أن الشرطة عثرت في أحد أيام الأربعاء على 15 جثة مقطوعة الرأس لرجال ونساء في قاعدة عسكرية سابقة في اللطيفية جنوب بغداد. أتذكر أيضاً كيف أنني فررت مباشرة من مدينة القائم قرب الحدود العراقية السورية بعد أن سمعت بأن الشرطة عثرت قبل يوم من وصولي إلى هناك على 30 جثة تعرَّفوا على امرأة وشرطيين بينهم أما الباقون فكلهم رجال مجهولو الهوية. أتذكر كيف أن مسلحين قتلوا ثماني عشرة عامل بناء بعد أن استدرجوهم إلى مدينة الموصل بحجة العمل في إحدى القواعد الأميركية لقاء أجور تفكُّ عنهم ضيق العيش، وهم جميعهم من مدينة الكاظمية، أقرباء القتلى الذين وقفوا عند باب الطب العدلي في باب المعظم ليس بعيداً عن ساحة الميدان، أوضحوا أن القتلى جاؤوا أصلاً من قرية البيضة قرب منطقة الرفاعي التابعة لمحافظة ذي قار على نحو 375 كيلومتراً جنوب بغداد. أتذكر... وأتذكر. أتذكر الكثير

ناهيك عما قرأته على الحيطان في مدينة البصرة وفي أكثر من مكان «نحذر من السفور والتبرج ومن يخالف سوف يتعرض للقصاص، اللّهم أشهد إننا بلغنا» التحذيرات تلك التي كتبتها المليشيات الدينية لم تكن مجرد كلمات بل جرائم كانت نتيجتها مقتل أكثر من 100 امرأة في المدينة أتذكر وأتذكر... أتذكر الكثير، لكي لا أحدثك عن المخطوفين العراقيين الذين قُطعت رؤوسهم أو حُرقوا وهم أحياء. أعرف أنني سأتعبك بهذه القصص. كما أتعبت نفسي بها في تلك الأيام. وحده في شهر نيسان/أبريل الذي غادرت بغداد في نهايته قُتِل 567 شخصاً وأصيب 668 آخرين بجروح بعد أن كانت الحصيلة في الشهر من قبله في شهر مارس/آذار 383 قتيلاً و494 جريحاً، ولا أدري إذا كانت النساء المقتولات ضمن الإحصائية تلك. كل ما أعرفه هو: لم يكن يمر يوم أو أسبوع ولا يموت فيه عراقيون، والقتلة من كل مكان، عراقيون وعرب. الحصيلة هي أن عدد القتلى ازداد حصراً من 9 أبريل 2003 يوم دخول قوات المارينز إلى بغداد وحتى يوم قرار مغادرتي بغداد بعد قرابة خمس سنوات من احتلال بغداد حيث قُتِل أكثر من 100 ألف شخص، ناهيك عن القتلى اللاحقين.

لم تكن مهنة شراء وبيع السيارات المهنة الوحيدة التي مارستها رغم أنها أكثرها سهولة بالنسبة لي. اضطررت لممارسة مهن عديدة أخرى حسب المدينة

والمال الذي جمعته حتى تلك المهن التي نسيتها والتي مارستها في فترة صباي بنوع من الفضول عدت إليها أو اكتشفتها من جديد وفي هذه المهن خاصة شعرت بنوع من الفرح والراحة، كأنني استرجعت سنوات مضت، سنوات ـ كما ستكتب عنها صحفية ألمانية التقت بي لاحقاً ـ كانت فيها بغداد أقرب إلى باريس. كنت مستعداً لممارسة كل مهنة حتى إذا وجب عليَ تعلُم مهنة جديدة، نعم كل مهنة باستثناء مهنة الجزَّار التي فعلت كل ما في وسعي لكي أنساها، لكي أمحيها من ذاكرتي. البلاد كلها تحولت إلى مجزرة ولم تعد بحاجة لمجزرة إضافية حتى إذا كانت مجزرة حيوانات وحسب. هكذا عملت ميكانيكياً للسيارات وتلك مهنة تعلَّمتُها من خلال شراء وبيع السيارات أو مصلح أدوات كهربائية أو مصلح تلفونات، وتلك هي أكثر المهن التي أحببتها، ولقول الحق، صحيح أنني تعلمت تصليح التلفونات منذ كنت صبياً صغيراً. أذهب مع زملائي الصغار إلى المزابل القريبة من الثكنة العسكرية عند أطراف مدينتنا الصغيرة لجلب كل ما نعثر عليه من أجهزة كهربائية وأجهزة تلفونات تالفة كانت ترميها الوحدات العسكرية التي عسكرت هناك، لكنني مدين أكثر لشاب اسمه ماجد كريم من مدينة العمارة سهَّل لي ممارسة المهنة هذه. تعرفت عليه بالصدفة في طريقي من البصرة إلى العمارة. لقد سمعت عن المدينة كثيراً وظل عندي الفضول لزيارة مدينة الشروگية هذه، كما أطلقوا عليها،

لكنني لم أجرؤ على دخولها يوماً وخاصة في الفترة الأخيرة. قالوا عنها إنها تحولت إلى تكريت أو عوجة العراق. أغلب رجال السلطة أو قادة الأحزاب الحالية أصلهم من العمارة مثلما كان أصل أغلب رجالات السلطة السابقة من قرية العوجة وتكريت لكن ماجد الشاب اللطيف هذا والذي أكد لي ظنوني به لاحقاً. لم ينتمِ إلى أي من هذه الأحزاب كان عنده محل في السوق المسقوف في المدينة وهذا ما عرفته منه مباشرة في أحد أيام شهر أكتوبر/تشرين الأول بعد سنة ونصف تقريباً من تجوالي. كان يجلس إلى جانبي في مطعم صغير على الطريق السريع الذي يربط البصرة بالعمارة، وضع ثلاثة أو أربعة تلفونات موبايل على المائدة وعندما سألته مازحاً إذا كان صاحب شركة تلفونات قال لي وهو يضحك، ياريت، ثم أضاف، إنها تلفونات عاطلة وإنه حار بتصليحها. طلبت منه أن يسمح لي بفحصها وعندما رآني أتعثر بفكّها وتصليحها ضحك، وقال، مثلما أشوف أنك هاو تصليحات. تحدثنا بعدها قلت له: أنا تاجر سيارات ثم أشرت إلى السيارة الواقفة قريباً من المطعم، قلت له، شوفرولية أحدث موديل جلبتها للتو من ميناء أم قصر إدخال گمرگي مؤقت كما ترى، أفكر ببيعها في العمارة. وعندما أدرك أنني لا أعرف ماذا أفعل بعدها قال لي: لماذا لا تأتي للعمل في محلي الصغير فأنا أريد ترك المحل في كل الأحوال. كان قد تسلم للتو أمر تعيينه في شركة النفط في منطقة الطيب عند الحدود

العراقية الإيرانية. بعد أسبوع تعلمت على يديه تصليح التلفونات بشكل مضبوط وهكذا بدأت بالعمل في محله الصغير أصلح التلفونات في النهار حتى أصبح عندي زبائن عديدين وفي المساء نسهر سوية أما في الشقة التي عثرت عليها وأجرتها بمساعدته في الزاوية التي ربطت شارع التربية بشارع بغداد أو في المحل الصغير. وفي بعض الأحيان كان ينضم إلينا أصدقاء له أصبحوا وبزمن قصير أصدقائي أيضاً. كانوا كلهم لطفاء حتى أولئك الذي تبوأوا مناصب عالية في المدينة مثل ذلك الشاب مجيد الذي حمل رتبة لواء (تخيل جنرال برگادير، بنفس رتبة الضابط الأميركي قائد فرقة المشاة الثالثة للمارينز التي دخلت بغداد رئيس راي پرينس الذي حدثني عنه دانييل بروكس!) ومات بعد شهر من تعرفي عليه. أصيب بزكام بسيط لكنه ما إن دخل المستشفى حتى سمعنا بخبر وفاته. أما الدكتور غالب لطيف طبيب مختص بالأمراض العصبية في المدينة حقيقة، فكان شخصاً أريحياً وودوداً فعلاً، حلم بتكملة دراسته في اليابان، حفظ كل شيء عن اليابان حتى عدد جزرها وأسمائها بل حتى عدد الهزات الأرضية التي تعرضت لها في تاريخها أو تلك التي يعتقد أنها ستتعرض لها في المستقبل، لماذا دراسة الأمراض العصبية في اليابان؟ لأنه لا يعرف شعباً اشتهر بقوة أعصابه مثل اليابانيين. يجب التعلم منهم، قال لي، ولو تُرك الأمر له لتزوج امرأة يابانية أيضاً لكن ذلك كان في

حينه ضرباً من المستحيل، فكيف تأتي يابانية إلى العراق وإلى العمارة بالذات والفارق بين اليابان والعراق آلاف السنوات الضوئية؟ ليس أنا من قلت له ذلك بل واجهه به ماجد بتكرار، كلما سمعه يعيب عليه عدم زواجه رغم تعديه منتصف الأربعين من عمره وكان ماجد يقول له: اعثر أولاً على امرأة يابانية وسأعثر أنا على بديل لامرأة الأحلام. لا أدري إذا كنت تعبت من الدوران في المدن بعد عام ونصف وقلت حان الوقت لي أن أستريح خاصة وأن الأحاديث التي سمعتها من أصدقائي الجدد، من ماجد وغالب وقبله أيضاً من مجيد والتي دارت عن كل شيء باستثناء ما يحدث خارجنا من قتل ودمار أنستنى كل الكوابيس التي هاجمتني ورافقتني ليل نهار وهذا ما جعلني أقرر الإقامة هناك وألا أفكر بالانتقال إلى مدينة أخرى بعد الآن أو ما يطلقون عليه القدر وفي هذه الحالة قدري الذي حاولت الهروب منه عبثاً هو الذي جعلني ألجأ إلى ذلك القرار؟ لا أدري، لكن كل ما أستطيع قوله الآن هو أن ما حدث لي بعد أكثر من سنة وشهرين من اقامتي القصيرة تلك أكد لي مرة أخرى ومن جديد أن حياتي كلها مجموعة من المصادفات لاغير، كأن اللّه ـ هذا إذا كان اللّه موجوداً ـ خلق الصدفة أولاً قبل أن يفكر بخلقه الثاني: خلق إنسان مثلي وبعثه إلى الأرض.

كما قلت: سنة وشهرين ونحن على ديدنا هذا، ماجد ينتهي من العمل في الساعة السادسة مساء، يأتي

مباشرة لزيارتي في المحل أو في شقتي في شارع المعارف، يجلب معه دائماً قنينة عرق زحلاوي أو ويسكي دون أن ينسى جلب حزمة من الصحف والمجلات، عشرة على الأقل وعندما كنت أعلق بقولي: المشروب أوكي، عظيم لكن الجرائد أرجوك أبعدها عني. يبتسم ويقول لي: أعرف أنك أنت والصحف في عداء. أنا أتسلى بقراءتها في الطريق، كان يقول لي أو هذا ما ظننته على الأقل في ذلك الوقت لأنني لم أره يقرؤها يوماً لا في المحل ولا في شقتي وغالباً ما رأيته يرميها في زاوية المحل أو في تل قمامة على الطريق. في البداية ظننت أنه يقوم بنوع من العبث أو أنه جاد في قراءتها لكنه كان يضطر لرميها احتراماً لي بسبب كرهي للجرائد الذي لم أخفِه يوماً عنه ولا عن الدكتور غالب لطيف. من أين كان لي أن أعرف أنه كان يشتري الجرائد لكي يقرأ منها خبراً أو خبرين، نعم فقط، عدا ذلك لم يهمه ما حملته تلك الصحف والمجلات من تحقيقات أخرى وأخبار وعن أي شيء دارت ومهما كانت أهميتها. كما يبدو تعلقت كل حياته في السنوات الأخيرة بالخبر ذلك أو الخبرين اللذين انتظرهما. كأنه أعاد ما فعلته أنا ذات يوم. عرفت ذلك من الدكتور غالب فإن ماجداً قد حرص وطوال كل الستة شهور تلك على منحي الشعور بشخصية المتوازن، شخصية المتطامن مع وضعه الذي لا همّ له غير مواصلة العيش مع محيطه بسلام. كان الجميع في المدينة يحترمه،

وكنت لاحظت ذلك بسرعة. نمر بالسوق فيرحب به الجميع ويدعونه لشرب الشاي معهم، ندخل إلى دائرة حكومية لإنجاز معاملة ما فأرى كيف أن الجميع يهرع له ليسأله إذا كان محتاجاً إلى مساعدة، حتى المثقفين في المدينة يُحَيونَه بحفاوة كلما مررنا بمكتبة عبد الرحمن الرحماني، مكتبة صغيرة لكن قديمة لبيع الكتب والصحف والقرطاسية تقع في السوق المسقوف عند تقاطعه مع شارع التربية. هو أرجع ذلك إلى فترة تصليحه أو بيعه للتلفونات في زمن كان الحصول فيه على تلفون مثل معجزة، امتياز لا يحصل عليه أي شخص لذلك حاول الناس التقرب إليه للحصول على جهاز أو خط تلفون. وأنا أرجع ذلك لسلوكه، لابتسامته التي لا تفارق وجهه، لصوته الهادئ الذي يشيع الثقة والدفء عند من يسمعه ولم أعرف أن وراء التوازن والهدوء ذاك اختفى عذاب وخراب. لم أعرف أنني وماجد سنصبح شريكين نتقاسم كعكة يأس واحدة. كل واحد منا على طريقته بالطبع، يا إلهي كأن البشر يولدون وتولد الصدفة معهم ففي ليلة ما وبعد أن كنا أتينا على نصف قنينة ويسكي، دخلنا في موضوعنا المفضل بالحديث عن النساء، صحيح أن لكل واحد منا نظريته أو تجربته في هذا الشأن إلا أننا الاثنان كنا متفقين في أمر واحد وهو أن العثور على امرأة الأحلام ليس بالأمر السهل أو القابل للاستبدال كما فعل صديقنا الدكتور غالب لطيف الذي تزوج من امرأتين والذي

حسب تبريره بأنه أمر لم يحدث لو لم تخيب ظنه زوجته الأولى، حبيبته، امرأة الأحلام التي عاش معها قصة حب عميقة قبل الزواج. لقد توقفت ببساطة عن حبه، كما قال لنا في كل مرة، وفي كل مرة كان يلقي جملته ببرود يستفزنا نحن الاثنين، أنا الذي فقد زوجته امرأة الأحلام من غير المهم أنها هجرتني قبل موتها وماجد الذي لم يكن متزوجاً حتى ذلك الحين وحسب بل لم أسمعه يتحدث عن علاقة حب أو عن ميله لامرأة معينة كما فعل صديقه المتوفي جنرال بريـگادير، اللواء مجيد والذي لم يمر يوماً من الأيام الثلاثين التي عرفته فيها ولم يتحدث عن لقائه بامراة جديدة ووقوعها في حبه، رغم أنه هو الآخر كان متزوجاً، حتى أنه وقبل يومين من موته روى كيف أنه ذهب مع حبه، صديقته الجديدة في سيارته الباجيرو إلى البصرة، أقاما في فندق هناك في شارع الوطني وكنا نضحك لقصصه. على أية حال في كل أحاديثنا تلك وإذا كنت أنا أرد على الدكتور غالب فكنت أقول له، من الصعب على المرء البداية من جديد فكيف هو الحال مع العثور على بديل أو تعويض لحلم ضاع وتبدد؟ واحدنا لا يصدق أنه عثر يوماً على امرأة الأحلام فكيف سيهضم بسهولة هجران أو فقدان حلمه هذا. بالتأكيد يحتاج الكثير من الوقت لكي يصحو من الصدمة، لكي يستطيع النظر إلى أمامه أو التلفت حواليه، لكي يقول ها أنا أعثر على حب كبير جديد، على حلمي الذي سعيت إلى تحقيقه. أما ماجد

والذي انتظرت رده بتلهف فكان على الأغلب يصمت أو يقول جملة واحدة أو جملتين فقط: على الإنسان أن ينتظر وإلا فإنه سيخون نفسه. كان ذلك أقصى ما يقوله. في تلك الليلة لم أظن لحظة واحدة أن أحاديثنا ستأخذ مدى آخر. كنت على يقين أنها ستنتهي مثلما بدأت كل مرة وسنصمت دقائق قليلة لا يُسمع فيها غير صوت ملاعقنا وهي تغرف من صحون المَزة أو لا يُسمع فيها غير صوت رشفاتنا ونحن نأتي على ما تبقى في كؤوسنا أو لا يُسمع غير صوت السائل عرقاً زحلاوياً كان أم ويسكي وأحدنا يصبه لنا في كؤوسنا وإذا لم نبقَ حتى ساعة متأخرة من الليل على هذه الحالة وكل واحد منا قد أسلم نفسه إلى مونولوجه الداخلي لنسمع صوت إطلاق نار أو انفجار قنبلة وليذهب كل واحد منا إلى بيته إذا كنا سهرنا في المحل أو يذهب الآخران إلى بيتهما في حالة الجلوس في شقتي. فإن من الممكن أن يقطع الصمت ذلك وخاصة في الليالي التي يشتد فيها تبادل إطلاق النار سواء عند إلقاء تلك القنابل المصنعة محلياً في العمارة البومبات أو عند تبادل النيران بين المسلحين والقوات البريطانية التي عسكرت في الملعب البلدي في معسكر أبو ناجي، كما سماه البريطانيون، عند الجهة الغربية من نهر دجلة أو أن يقطع الصمت ذلك الدكتور غالب وهو يلقي علينا إحدى نظرياته عن القتل: كل شيء له علاقة بالتحليل النفسي «پسيشو أناليسيس» كان يقول وليس بالجينات كما يدعي

النازيون أو النظريات الطبية العنصرية الأخرى ولأن العراقيين مُخَربون نفسياً ولأن كل واحد منهم بحاجة إلى محلل نفسي يلجؤون إلى القتل، القتل هو «تيراپـي للعراقيين» كان يقول، ودليله على ذلك هو ما يفعله الأميركان «أنظروا إلى الأميركان؟» كان يسألنا «أليس لكل ثاني واحد منهم محلله النفسي؟» ثم يرتشف جرعة من كأسه بلذة العارف ويواصل «ماذا يفعل أولئك الذين يرفضون العلاج النفسي؟» يسأل هو مثلما يجيب «يذهبون إلى قتل الآخرين، هل هناك قومية محاربة في العالم مثل أميركا؟ إنهم يحاربون في كل مكان وإذا لم تكن هناك حرباً، يخترعونها». بتلك الكلمات كان يختم خطبته المعروفة، كما أطلق ماجد على كلامه. في كل تلك الليالي وهو يكرر كلامه عشرات المرات لم أرد عليه أو لم أقل له أنني طبيب بيطري وأعرف مثلاً أن الحيوانات تقتل بسبب الحاجة لكن الإنسان يقتل دون سبب والقضية أكبر من أن يحلها «پسيشو أناليسيس» أو«تيراپـي» ليس لأنني لم أشأ أن أتحدث عن مهنتي الأصلية أو دراستي بل لأنني خفت أن أذكر له دليلاً على كلامي ما حدث لصديقنا سلمان أو ما حدث لدانييل بروكس فأي مكان يحتله الاثنان في نظريته؟ أو ماذا عن حالتي أنا؟ كيف يصنفها؟ أين يضع ما طلبه الرجال الملثمون مني؟ من هو المريض؟ هم أم أنا؟ لماذا يظنون أنني سأقتل الرهينة، رهينتهم؟ أو ماذا يفسر ما حدث قبل يوم من جلستنا تلك عندما اختلطت أوراق الكتب

المتناثرة مع الدماء والجثث المتفحمة على جانبي شارع المتنبي العريق في قلب بغداد؟ كيف سمح أحدهم لنفسه بتفجير سيارة مفخخة فيه؟ أكثر من ثلاثين قتيلاً واثنين وأربعين جريحاً، ناهيك عن المكتبات التاريخية التي اشتهر بها الشارع بعد أن التهمتها النيران؟ أي «پسيشو أناليسيس» أو«تيراپـي» يفسر تدمير شارع يعود تاريخه إلى العصر العباسي حيث كان يُسمى شارع الوراقين قبل أكثر من اثني عشر قرناً؟ كل ذلك كان من الممكن أن يحدث في تلك الليلة أيضاً ولم أعرف أن الأمر سيختلف في تلك الليلة عن كل ليالينا السابقة، وبعد دقائق من الصمت سيكون على عادته كل مرة، كما كان ديدننا، لكنني لا أدري إذا كان الدكتور غالب قد ملّ اتهام ماجد له بالخيانة، خيانة نفسه طبعاً، أم أنه لم يشأ أن يسمع الجملة الأخرى التي قالها له ماجد مازحاً منه كما أظن: إذا كان زواجه من امرأتين تعويضاً عن عدم عثوره على فتاة الأحلام اليابانية فإنه لن يستغرب إذا سيتزوج غالب ذات يوم عشيرة من النساء، اربعة وثمانين كما فعل العجوز النيجيري الذي رأينا تحقيقاً تلفزيونياً عنه قبل يوم والذي قال إن اللّه هو الذي اقترح عليه زواج هذا العدد الكبير من النساء وهو فعل ذلك لأنه لم يشأ عصيان أمر اللّه! في تلك اللحظة فقط رأيت الدكتور غالب يرفع كأس الويسكي المملوء تقريباً ويأتي على كل ما فيه بجرعة واحدة ثم يضعه على المائدة بقوة. في الحقيقة

بطريقة أقرب للضرب ثم يمسح شاربيه بأطراف أصابعه، يأخذ قطعة خيار، يأكلها، يخرج سيجارة من علبته الموضوعة على الطاولة، يشعلها ولبرهة يحدق في البعيد، ينفث دخان سيجارته ثم يعاين ماجد ويخاطبه بصوت هادئ: إذا كان انتظار امرأة الأحلام على طريقتك مدى الحياة فمن الأفضل أن يتحول الإنسان إلى الدين الكاثوليكي ويصبح قسيساً أو من الأفضل أن يصبح هومو سيكسويل. كانت تلك الجملة التي خرجت من فمه، صحيح أنني لم أفهم معناها لكن التعابير التي ارتسمت على وجه ماجد كريم وشحوبه المفاجئ أرتني وقع تلك الجملة عليه. لكنه صوت الدكتور غالب الهادئ الذي منح اللحظات تلك نوعاً من الحميمية، لبرهة رأيت يد الدكتور غالب تمتد وتلمس كتف ماجد الذي جلس عند زاوية قريبة منه تربت عليه بحنان ثم ليعاينني ويقول، لا بد لك أن تسمع قصة ماجد مني، أولاً: لأنني أعرف أنه لن يرويها لأحد ما يوماً، وثانياً: لكي تحكم بنفسك كم هو على خطأ وأنه يتصرف مثل مَنْ حكم على نفسه بالإعدام.

المرة الأولى التي رأى فيها ماجد ميعاد كان له من العمر تسع سنوات وفي المرة الأخيرة كان له من العمر اثنتي عشرة سنة، لكن الثلاثة أعوام تلك التي تعرف فيها عليها كانت كافية لكي تظل صورتها عالقة في ذهنه إلى الأبد فمهما طال الزمن، ومهما كان عدد السنوات التي مرت من الصعب عليه إن لم يكن من

المستحيل أن ينسى اليوم الأول الذي رآها فيه. لا يحتاج المرء أن يسأله عنها فسيروي له القصة، قصتها أو قصته بالتفصيل. كان لا بد أن يكون أول أيام العطلة الربيعية، ليس لأن الطقس كان جميلاً في ذلك اليوم وكانت الشمس مشرقة بعد مطر خفيف أما الحرارة فكانت معتدلة كما هي العادة في بداية الربيع، بل لأنه كان عائداً من المدرسة مهرولاً في طريقه إلى أبيه لكي يريه شهادة نتائج امتحانات النصف الأول من العام الدراسي لكنه ما إن وصل إلى محل والده مصلح ومؤجر الدراجات حتى رآه منشغلاً على غير عادته بتصليح دراجة لم تختلف بحجمها وحسب، كانت دراجة صغيرة حجم 22 على ما يتذكر، بل بشكلها أيضاً فهي وعلى عكس الدراجات الأخرى التي ازدحم بها دكان الأب أو تلك التي اصطفت عند مدخله، خاصة تلك التي اعتاد الأب على تأجيرها للصبيان. لم يكن في وسط هذه الدراجة عموداً حديدياً. ولن يعرف إلا عندما سيرى الفتاة التي وقفت في داخل المحل لبست تنورة قصيرة بضفيرتين جميلتين. إن الدراجات المصنعة على هذا النمط هي للنساء فقط، ليس ذلك وحسب إذ لم يعرف ماجد أيضاً أن الفتاة ذات العينين الخضراوين والبشرة البيضاء والشعر الأسود هي الابنة الوحيدة لمعاون ضابط الشرطة والتي سكنت عائلتها قريباً من بيتهم قبل أسبوع من وقفتها تلك قادمة من العاصمة بغداد. كان فارق السنّ بين الاثنين كبيراً فقد كبرته ميعاد بأربع

أو خمس سنوات على الأقل وخاصة في تلك السنّ يلعب فارق العمر دوراً كبيراً! إلا أن الصبي الصغير ذي العينين الخضراوين والبشرة البيضاء والشعر الأسود أيضاً وقع في حب الفتاة فوراً أو لنقل جذبه منظرها بشدة فهو للمرة الأولى يرى فتاة بهذه الأناقة وبهذا الجمال في حيِّهم إن لم يكن يرى للمرة الأولى فتاة تركب الدراجة. ليس في ذلك اليوم وحسب عندما انتهى والده من تصليح عجلتها التي تعرضت للتلف بل في الأيام التالية أيضاً. عندما اعتادت الفتاة بعد انتهاء العطلة الربيعية وبداية النصف الثاني من العام الدراسي الذهاب إلى مدرستها على الدراجة، في البدايةً إلى متوسطة البنات القريبة من الحيَ ثم لاحقاً إلى إعدادية العمارة للبنات عند نهاية شارع التربية أو شارع المعارف كما سُمي آنذاك. نحن نتحدث هنا عن نهاية سنوات الستينات وحتى بداية سنوات السبعينات. لم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي جاءت فيها الفتاة إلى محل أبيه لتصليح دراجتها إنما مرات عديدة. بعض الأحيان كانت تأتي بتنورة أو قميص ممزق أو بظهور كدمات على وجهها أو جسمها بسبب سقوطها. لم يكن من السهل بالنسبة لدراجة حديثة الصنع السير على طرق المحلة غير المبلطة والمليئة بالحجارة وفي بعض الأماكن بالنفايات أيضاً. ليس من الغريب أن تصطدم عجلة الدراجة بحجارة مدببة فتثقبها أو تسير على مسمار أو قطعة زجاج ملقاة في الطريق فتمزقها أو تجعلها

تتعرض للسقوط، لكن زيارة الفتاة لأبيه كانت بمثابة كرنفال بالنسبة للفتى الصغير والأكثر من ذلك هو اهتمام الفتاة به. لم تداعبه ميعاد كلما جاءت وحسب بل طلبت منه أن يصاحبها، أن يصعد إلى دراجتها وأن يجلس على المقعد الخلفي وكانت تلك من أجمل اللحظات في حياته. كان يمكن له أن ينسى كل شيء في حياته، ينسى أمه وأباه، ينسى أخوته الثلاثة وأختيه، ينسى عماته الثلاث، أعمامه الخمسة، أن ينسى سكان المحلة والمدينة كلها، الأصدقاء والصديقات، المدارس والوظائف التي عمل فيها بل يمكن أن ينسى لاحقاً سنوات العسكرية التي خدمها بكل ما حوته من وحدة وعذاب، ينسى أيام خدمته على الجبهة الإيرانية العراقية وعلى مدى ثماني سنوات، أن ينسى أيام خدمته على جبهة الكويت وما عاشه في تلك الحرب من رعب، أن ينسى زملاءه الجنود في الخنادق التي دفنوا أنفسهم أياماً وليال، أن ينسى بعضهم الذين رآهم يموتون أمامه، أن ينسى الموت الذي رآه بعينيه وشعر به جلده وهو يحصي الساعات في طريق عودته، الطريق الذي أطلقوا عليه طريق الموت بعد انسحابهم من الكويت باتجاه البصرة، كم كان عدد الجثث التي تكومت على الطريق؟ نعم كان من الممكن أن ينسى كل الحياة التي عاشها بعد ذلك. من الإجحاف أن يُطلق عليها حياة. كان عليه الكفاح من أجل تسديد لقمة العيش سنوات طويلة لإعالة أخته الصغيرة الأرملة التي

مات زوجها في حرب الكويت وترك لها أربعة أطفال. كان يمكن له أن ينسى وفاة أبيه وأمه بل أن ينسى حتى دخول الجيش البريطاني إلى العمارة في 7 أبريل 2003 واستسلام حامية الجيش وهروب قادتها العسكريين دون إطلاق أية طلقة، أن ينسى ما يستحق النسيان وما لا يستحق. نعم أن ينسى الله وأنبياءه، أن ينسى البلاد كلها، أن ينسى كل شيء لكنه لن ينسى اللحظات تلك التي جلس فيها على المقعد الخلفي لدراجة ميعاد. ما زال كلما تذكر الصورة تلك كلما مثلت بكل تفاصيلها أمامه: هو الصبي الصغير يجلس على المقعد الخلفي للدراجة يده تمسك بخصرها كما طلبت منه بين ردفيها ونهاية العمود الفقري. كلا من المستحيل أن ينسى استدارة ذلك الخصر، والأكثر من ذلك أن ينسى رائحتها. رائحة ملابسها النظيفة في الحقيقة والتي استبدلتها كل اليوم. ما تزال الرائحة تلك عالقة في أنفه لحد الآن وكأن أمها كانت تستخدم مسحوقاً أو ملطفاً لغسيل الملابس مختلفاً كل مرة. هي الرائحة هذه التي جعلته لا يشمّ رائحة العفن في الثكنات التي خدم فيها ولا رائحة البارود على الجبهات. كما من المستحيل أن ينسى شعرها الذي نزل على ظهرها وقد ضفرته بضفيرتين أو تركته ينساب على كتفيها وظهرها بحرية. من المستحيل أن ينسى صوتها الرقيق. وهي تسأله إذا كان مرتاحاً في جلسته وإذا كان كل شيء على ما يرام. كم كان يعجبه سؤالها له.

وعندما تدور به. ثم يعودان بعد أن تكون طافت به على الأقل نصف ساعة تقرصه من خده وهو ينزل ثم تقول لأبيه كيف أنها سعيدة بوجود ماجد معها وكم تمنت في حياتها أن يكون لها أخاً مثله وكانت تضحك وتقرصه أكثر عندما ترى تقطيب حاجبيه بعد سماعه جملتها تلك «لا تريد أن أكون أختك؟ خسارة يا حبيبي» وفي تلك اللحظة فقط حين يسمع كلمة حبيبي تنفتح أساريره، فيسألها إذا ستأتي غداً ليقومان برحلة أخرى فتعده قائلة: سآتي على شرط، وكان يعرف شرطها هذا، أن يكون مجتهداً في المدرسة. اليوم وكلما تأمل سنوات الدراسة كلما ثبت له بأنه في تلك السنوات وصحبته مع ميعاد فقط كان أكثر زملائه التلاميذ اجتهاداً. كان الأول عليهم وكان المعلمون ينادون عليه في الامتحانات الشهرية أو في امتحانات نصف السنة ونهايتها ويطلبون منه الذهاب إلى البيت، يمنحونه الدرجة الممتازة، عشرة من عشرة دون امتحان. لكن التلميذ المجتهد هذا سيصبح كسولاً في سنوات لاحقة بعد أن يفقد فتاته. نعم، كانت ميعاد هي فتاة الأحلام التي بدأ الصبي الصغير في ذلك الوقت بنحتها بتشكيلها على هواه لسنوات قادمة حتى أنه لم يخفِ ذلك على والديه اللذين كانا يضحكان كلما سمعاه يقول ذلك. ولم يخفِ ذلك على ميعاد هي الأخرى كانت تضحك كلما سمعته يقول ذلك لكنها لم تضحك لسخرية منه بل كانت تقرصه من خده وتقول له إنها تشكره على اختياره هذا

وإنها هي الأخرى تعده بأن تكون وفية له في المستقبل دون أن يدري أنها لم تقصد بكلمة وفاء أن تكون زوجة له كما ظن هو. عندما يكبر ويتذكر تلك السنوات يعرف عبث تفكيره دون شك طبعاً، لكن كل شيء كان في ذلك الوقت عصياً عليه فهمه. لم يفكر بعقله بقدر ما أسلم نفسه للحواس وكثيراً ما تساءل مع نفسه إذا كان أخطأ في تفكيره ذلك. لا يدري، كل ما يدريه أن كل شيء دار في حياته في حينه حول ميعاد ولم يعرف أن الكارثة ستقع. كان هو ذلك الشاب الصغير. له من العمر ستة عشر أو سبعة عشر عاماً. صحيح أنه رأى الشاب للمرة الأولى بعد سنتين ونصف أو أكثر من تعرفه على ميعاد لكنه وفي المرات المعدودة تلك أو المتباعدة زمنياً، بين كل واحدة وأخرى شهر أو شهرين. في كل المرات تلك رآه ماجد يلحقهما بدراجة أو يقف عند زاوية أحد الأزقة ليقطع عليها الطريق وفي كل المرات تلك سمعه ماجد يطلب من ميعاد أن تتوقف، أن تنتظره، أن تسمعه لأنه جاء من بغداد من أجلها وأن ما سيقوله لها هو الإنذار الأخير. كل مرة الإنذار الأخير. وفي كل المرات كانت ميعاد تطلب منه أن يبتعد ويتركها لحالها وإلا فإنها ستخبر أباها بذلك. مرات سمعها تقول له عليه أن يبطل التفكير إنها ستكون خطيبته أو زوجته في المستقبل. من أين كان لها أن تعرف أن المجلس العائلي، أعمامها، الأخوان الثلاثة لأبيها الذي طلب نقله من بغداد أصلاً لكي يبتعد عنهم من أجل ألا يلحوا عليه لتزويج ابنته

لابن عمها اتخذوا القرار، قرار قتلها، من أين لها أن تعرف أن الإنذار الأخير الذي ردده الشاب عليها في تعرضه الأخير لهما كان جاداً. بل من أين كان لها أن تعرف أنه ولأنها لم تذعن لطلبه المتكرر بالزواج منها كذب وأخبر أباه وبعد ذلك عميه الآخرين وقال لهم بأن لها علاقة مع شاب من العمارة، شروگـي وشيعي وشيوعي، أي شين تكعيب (كما كان يحلو لتسمية المعارضين من أهالي الجنوب علناً) وأنه رآها تسير معه خلف المقبرة الهندية وتختفي هناك في كوخ صغير لإحدى القوادات في المدينة، افطيم الحِظِي، أشهر قوادات المدينة وعاهراتها القديمات. نعم لم تعرف لا هي ولا أبوها بذلك. كل ذلك ظهر لاحقاً عندما صرح به الشاب أمام محكمة الجنايات في بغداد بعد هروبه من العمارة وإلقاء القبض عليه في بغداد. ما حدث في أحد أيام الخريف في العمارة تناقله الناس لسنوات وخاصة في محلة المحمودية حيث أقامت عائلتها وأهل ماجد. في اليوم ذلك وفي ساعات الصباح الأولى وكان يوم سبت على ما يتذكر ماجد، أول أيام الأسبوع وكان جلس على عادته خلفها على الدراجة. كانا في طريقهما إلى المدرسة، هي إلى إعدادية البنات وهو إلى مدرسته متوسطة المرتضى للبنين، عندما ظهر الشاب ذاته ليقطع عليهما الطريق ويرمي نفسه فجأة على الدراجة. لقد مرّ كل شيء سريعاً كما روى ماجد ذلك سريعاً أيضاً لأنه لم يشأ تذكر ما حدث بكل تفاصيله. ولم يشأ أن يرى ذلك الشاب

ثانيةً وهو يشهر سكيناً كبيرة وينهال بها على ميعاد. لم يحص عدد الطعنات لكن الناس تحدثت بعدها عن اثنتين وخمسين طعنة. ما تزال صيحات ميعاد وطلبها النجدة تصرخ في أذنه. وعندما هرع الناس إليها كان الوقت متأخراً. كانت هي سقطت إلى الأرض، جثمت تنزف دماً إلى جانبه هو الذي لم يستطع الوقوف مباشرة بعد سقوطه من الدراجة. ليال طويلة، كلما تذكر ماجد نظراتها الأخيرة له، صوتها المتهدج، ابتسامتها رغم آلام الطعنات، كلما فزّ من نومه مذعوراً، كلما بكى، كيف ينسى جملتها الأخيرة التي قالتها له وكان الدم يسيل من فمها، ها أنت ترى يا صديقي لم أستطع تحقيق حلمك، قالت له، وكان هو يبكي، رغم أنه يعرف أن لا بكاء ينفع. كان من الصعب عليه معرفة سبب ما حدث، سبب أن يصدر حكم الموت على أحد، سبب أن يقتل أحدٌ أحداً ما. الحيوانات تقتل بسبب الحاجة للعيش، فلماذا يقتل الإنسان؟ سؤال لم يعثر له على إجابة. كان من الصعب عليه أن ينسى ما حدث. والأكثر صعوبة من ذلك معرفته أن الشاب الذي قتل ميعاد حصل على عقوبة بالحبس لم تزد عن سنة وستة شهور، سنة وستة شهور فقط للقاتل والموت للأبد لفتاة الأحلام. كيف يُسامح القضاة الذين أصدروا الحكم المخفف ذلك؟ كأن ميعاد فتاة أحلامه قُتلت مرتين، مرة على يد ابن عمها الذي قيل إنه قتل ابنة عمه غسلاً للعار كما جاء في حيثيات الحكم الصادر من المحكمة عليه،

ومرة أخرى لأن القاتل حُكم عليه بهذا الشكل المخفف لأنه وحسب قانون العقوبات ما يزال صغيراً، لم يبلغ سن الرشد. لهذا حبسوه في سجن الإصلاحية وليس في سجن الكبار، والأكثر ألماً بالنسبة له هو إطلاق سراحه بعد ستة شهور حتى قبل أن ينهي محكوميته لحسن السلوك أو الرشوة كما سمع لاحقاً من أبيه. سنوات طويلة لم يستطع ماجد نسيان ما حدث أو نسيان فتاة الأحلام. كبر، أنهى دراسة الإعدادية، اعدادية الصناعة ولم يستطع الدراسة في الجامعة، دخل الخدمة العسكرية ودار على جبهات الحرب العراقية الإيرانية وجبهات حرب الشمال في كردستان ثم على جبهات الحرب في الكويت لكنه وفي كل حياته تلك لم يستطع نسيان ميعاد، فتاة الأحلام. كل صور الموت التي رآها لاحقاً في الحروب لم تنسه صورة الفتاة المضرجة بالدم تعتذر منه وهي في أنفاسها الأخيرة لأنها لم تستطع الوفاء بالعهد الذي قطعته له سواء كان اعتذارها بسبب حبها له أم بسبب الوَد الذي كنته لذلك الصبي الصغير الذي كانه. عبثاً حاول أهله إقناعه بالزواج. لم يمل قلبه إلى أية امرأة. وكان يطلب منهم أن ينتظروا، ظناً منه أنه ربما سينسى القصة ذات يوم أو ظناً منه، أنه ربما سيعثر ذات يوم على فتاة شبيهة بها، تقول له: أنا ميعادك المفقودة، أنا حلمك المذبوح، من يدري؟ الحياة تخبئ المفاجآت دائماً لكنه لم يدرِ أن المفاجأة ستأتيه هذه المرة على شكل خبر

يراه في التلفزيون قبل أن ألتقي به على الطريق السريع بشهر ويقرأ عنه في الصحف والمجلات وفيه يرى الشاب ذلك الذي قتل فتاة أحلامه ميعاد يتحدث أمامه على شاشة التلفزيون لابساً بدلة أنيقة وقد صبغ شعر رأسه الأبيض بالتأكيد بصبغة رخيصة مثلما يفعل بقية السياسيين في هذه البلاد، يتحدث ليس بصفته الناطق باسم حزب إسلامي معروف بل وبصفته الناطق الرسمي باسم قائمة كبيرة في البرلمان، حامد اخطاب. كيف ينسى هذا الاسم. حامد اخطاب الذي قتل ميعاد بدم بارد وبوحشية، قتل امرأة كما قيل غسلاً للعار أو كما قال هو نفسه أمام القاضي. حامد اخطاب الذي لم يصدق أن تراه عيناه من جديد. صحيح أن سنوات طويلة مرت على الحادثة تلك لكنه لم ينسَ حامد اخطاب، لم ينسَ عينيه اللتين امتلأتا بالكراهية والغضب ولا نبرة صوته التي ما زالت ترن في أذنيه «سأقتلك أيتها القحبة» كان يصرخ بميعاد مع كل طعنة طعنها بها. ولأنه لا يعرف ماذا يفعل قرر ماجد أن يتابع أخبار القاتل هذا ويعرف سيرته. أراد أن يعرف عنه كل صغيرة وكبيرة، أين درس وأين عاش. ولو عرف أن كل معلومة يقرؤها عنه ستزيد الحزن والإحباط، ربما لما بدأ بفتح بنك للمعلومات عن حامد اخطاب. فماذا يساعده أن يعرف أن الرجل هذا درس في كلية الاقتصاد في بغداد ودخل ـ وذلك ما لم يفهمه حتى اليوم ـ إلى صفوف الحزب الشيوعي لاحقاً قبل أن يفرّ إلى خارج

البلاد مع موجة فرار الشيوعيين في نهاية السبعينات ويسكن في أحد بلدان أوروبا الشرقية، في بولندا على وجه التحديد؟ نعم، ماذا يساعده أن يعرف أن حامد اخطاب هذا بالذات الذي قتل امرأة غسلاً للعار يصبح مالكاً لدار سينما لعرض أفلام البورنو الإباحية في إحدى المدن البولندية الصغيرة، وأنه سيعود بعد عامين أو ثلاثة من التغيير الذي حصل في البلاد، ليعمل ناطقاً لحزب إسلامي بالذات. أية سيرة عجيبة! ليس ذلك وحسب بل أن رئيس حزبه كان ضابطاً سابقاً وبدرجة عليا في جيش الديكتاتور الذي هرب هو منه وأنه هو الآخر يملك السحنة ذاته. سحنة قاتل، سفاح مع سبق الإصرار؟ ماذا سيساعده ذلك غير أن يضاعف ألمه أن يجعله يغسل يديه من مستقبل البلاد هذه؟ ماذا ينفعه أن يهدئه صديقه الدكتور غالب لطيف ويقول له: حامد اخطاب نموذج واحد من عشرات النماذج من نمطه تحكم البلاد اليوم. أي عزاء يقدم له ذلك؟ ألا ترى، يا صديقي، قال لي الدكتور غالب وهو يربِّت على كتف ماجد بمواساة ألا ترى لماذا يشتري ماجد الصحف والمجلات؟ كل ذلك بسبب حامد اخطاب فهو يريد أن يعرف كل صغيرة وكبيرة عنه كأنه لم يكفيه كل ما عرفه عنه حتى الآن، فكيف تريده أن ينسى فتاة الأحلام؟ كيف تريد منه أن ينظر إلى المستقبل وشبح الماضي ما يزال يطارده حتى اليوم؟

في تلك الليلة من شهر مارس/آذار بدا ماجد مرتاحاً

رغم الألم الذي شعر به بالتأكيد، كأن اعادة رواية القصة، قصته التي رواها لي الدكتور غالب في حضرته جعلته يتنفس قليلاً. كأن صديقه حرره من عبء أن يروي لي هو القصة وليس أحد غيره أو كأن صديقه حرره من الشعور بالذنب أو الحرج أمامي. منذ اليوم يستطيع شراء الصحف والمجلات التي يرغب وبالعدد الذي يريد دون أن يجد نفسه مرغماً على تقديم توضيح لي أو الاعتذار عن قراءتها أمامي رغم معرفته بكرهي لها وهو ظني ذلك الذي جعلني أحاول منحه الانطباع بأن عليه ألا يعير للأمر أهمية ليقرأ الصحافة متى شاء لكنه لو أراد سماع رأيي الحقيقي في الموضوع لطلبت منه التوقف عن متابعة أخبار الرجل هذا، حامد اخطاب. ففي النهاية كان الدكتور غالب على حق، كما قال له في تلك الليلة بعد الانتهاء من رواية القصة. الدولة العراقية تزدحم بأنواع القتلة من أمثاله، بعضهم سفاحون. ولو شئت لأعطيتك العديد من الأمثلة والأسماء. قال له بحسرة، رجال أمن ومخابرات، قتلة وانتهازيون، مزورون ولصوص يتحكمون برقابنا ويتجولون بحرية في كل مكان. والأدهى من ذلك لقب الدكتور الذي حملوه زوراً وبهتاناً. ألا يلفت نظرك هو أننا البلاد الوحيدة في العالم التي تتنافس فيها الفئات والأحزاب المعارضة على تقسيم الغنيمة؟ ألا يلفت نظرك هو أننا البلد الوحيد في العالم حالما يختلف حكامه فيما بينهم حتى يهددون بعضهم بإخراج ملفات تدين الآخرين

بالقتل؟ هذا يعني أننا محكومين بجماعات قتلة! لكن ماجد مثل من أدمن على شيء، كما قال لي، وهو يرد على كلامي أو على كلام الدكتور غالب. من الصعب عليه التوقف عن العادة تلك فلكي يتوقف لا بد من حدوث مصيبة كبيرة أو شيء غير متوقع ما يجبره أو يجعله ييأس على الأقل من مواصلة ذلك، كما قال لي وللدكتور غالب من قبل. كأنه عرف أن الكارثة التي قصدها ستحدث بالفعل. بعد ثمانية شهور تقريباً من جلستنا تلك. في منتصف شهر كانون الأول/ ديسمبر وقبل نهاية العام بأسبوعين تقريباً. وكما أتذكر كان يوم أحد عندما دخل ماجد المحل في أول العصر على غير عادته عند الساعة الرابعة عصراً على ما أظن. لم يأتِ من عمله قبل الساعة السادسة عصراً يوماً إلا باستثناءات معدودة بعدد أصابع اليد ولم أعرف أن مجيئه في ذلك اليوم سيكون الاستثناء الكبير الذي لم يغير حياته وحسب ويجعله يتوقف عن قراءة الجرائد والمجلات بعد ذلك، بل سيغير حياتي أنا أيضاً. لم يدخل ماجد المحل مبكراً على غير عادته وحسب بل دخل والغضب واضح على وجهه. في البداية ظننت أنه ما يزال تحت صدمة الكارثة التي حدثت يوم الأربعاء الماضي قبل أربعة أيام من مجيئه المبكر ذلك عندما تعرضت المدينة إلى أكبر هجوم إرهابي في تاريخها وأكبره في تلك الأيام بعد هدوء أمني نسبي سيطر على كل البلاد. أكثر من 40 شخصاً قُتلوا وأصيب أكثر من

125 بجروح، بعضهم سقط صريعاً بعدها بأيام، في تفجير ثلاث سيارات مفخخة بالتتابع. معظم القتلى سقطوا في التفجيرين الثاني والثالث حين تجمع المارة بعد وقوع الانفجار الأول في ساحة لوقوف السيارات. ماجد كان في حينه في موقع عمله في منطقة الطيب لكنه سمع الخبر من أحد العمال الذين تسلموا نوبة العمل في الليل. أتذكر أنه في يوم الأربعاء ذاك، اليوم الذي حدث فيه انفجار السيارات المفخخة دخل المحل مرعوباً كأنه لم يصدق أن يراني هناك ولم ينتظر أن يلتحق بنا الدكتور غالب على عادته بل ذهب إلى عيادته في شارع الصيادلة لكي يتأكد بنفسه من عدم تعرضه أو تعرض إحدى زوجتيه إلى مكروه. في جلستنا تلك الليلة ظل ماجد صامتاً. الحزن الذي لفه لم يتركه حتى في اليومين التاليين. ليس لأنه يحب العمارة ويحزن لكل ما تتعرض له من مكروه فقط بل كان العديد من الضحايا يعرفهم ماجد، ناس بسطاء يعملون في السوق بعضهم عرفه منذ طفولته. كان مصعوقاً مما حدث. لحد الآن ظلت مدن الجنوب بمنأى عن التفجيرات في مدن أخرى وخاصة في بغداد التي كانت فيها تفجيرات القنابل والسيارات المفخخة والهجمات بالصواريخ روتيناً أو اعتياد يومي. ربما لأنه توجس حدوث ذلك بعد تسليم البريطانيين مسؤولية الأمن للسلطات المحلية في المدينة في 18 نيسان/أبريل الماضي خاصة وأنه يعمل في النفط ويعرف الصراع على الثروة النفطية في

المدينة، ففي منطقة الطيب لوحدها أكثر من عشرة حقول. أتذكر أنني سألته عندها، لماذا لا يطلب إجازة ليوم أو يومين لكي يرتاح. أجابني بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك فإنهم بحاجة إليه في موقع العمل. لا أحد غيره يستطيع إصلاح أجهزة الاتصال إذا حصل فيها عطل ما لذلك عندما دخل عليَ بوجهه الغاضب في يوم الأحد ذلك وبعد أربعة أيام من انفجار السيارات المفخخة الثلاث تلك ظننت أنه ما زال تحت وقع الصدمة تلك ولم أعرف أن الغضب الذي ارتسم على وجهه هذه المرة مصدره آخر سببه الجرائد التي اشتراها على عادته في ذلك اليوم. عند دخوله المحل وقبل أن يلقي عليَ التحية، قال لي مباشرة وهو يرمي حزمة الصحف والمجلات على الطاولة أمامي، هل في هذا شيء من العدالة؟ وعندما رآني أتطلع به مستفسراً عما يقصد، قال لي وهو يلقي بجسده الذي بدا منهكاً جداً في ذلك اليوم بل بدا لي وجهه مثل وجه شيخ هرم، أرجوك أن تعمل استثناءً هذه المرة وتقرأ ولو الصحيفة هذه، ثم مدّ نصف جذعه الأعلى نحوي. كان يجلس بمواجهتي لكن الطاولة التي جلست أنا إليها كانت على يمينه، لبرهة رأيته يزيح بعض التلفونات التي استقرت على الطاولة والتي لم أستطع إتمام تصليحها حتى تلك الساعة إلى جانب ليفتح لي أول صحيفة استقرت فوق، الصحيفة الحكومية على ما أظن، صحيفة الفجر ويضرب بيده على الصفحة التي

فتحها أمامي ثم قال وهو يشير إلى صورة رجله حامد اخطاب: اقرأ الخبر بنفسك أرجوك. كان خبراً صغيراً بالأحرى يتحدث عن تعيين أو ترشيح حامد اخطاب. لم أعد أتذكر تماماً في أي منصب وزاري ربما وزارة الدفاع أو الأمن أو ما شابه، على أية حال منصب حكومي عالي. أزعجني الخبر طبعاً لكنني لم أعرف سبباً يستدعي كل هذا الاستغراب من الخبر ولم أفهم لماذا غضب ماجد بهذا الشكل فالبلاد كما يعرف تكتظ بأشباه الرجل هذا. على الأقل هذا ما ظننته في تلك اللحظة أو ما أردت قوله لكنه ماجد الذي قطع عليّ كل استطراد كأنه عرف ما دار في ذهني أو كأن الابتسامة التي ارتسمت على شفتي جعلته ألا يتردد بالرد على أي ظن أو شك كان من الممكن أن يصدر مني. قال: انتظر ولكي تحكم بنفسك، ثم ورّق لي الصحيفة ذاتها وضرب على صفحة التحقيقات، قال لي، أرجوك اقرأ التحقيق هذا واحكم بنفسك ثم نهض وقال: إنه خلال هذا الوقت سيذهب لشراء علبة دخان. أنت تعرف أنني توقفت عن التدخين، قال لي وهو يلقي عليّ نظرة فاحصة لكن عندما تنتهي من قراءة التحقيق سيثير استغرابي إذا ما عدت أنت الآخر إلى التدخين؟

هل تعرف؟ كان من الممكن أن أقول لماجد أنه يبالغ كثيراً، فما عاد هناك بالنسبة لي ما هو مدعاة للدهشة في البلاد هذه. الواقع فيها يفوق الخيال وما يعوزنا في الحقيقة هو رواة واقعيين، ألا تتفق معي؟ واقعنا من

الغرابة ما يكفي، لو رميت بحجر في مكان ما سيقع على شخص، على قصة. كل إنسان هنا هو رواية لوحده وللأسف لا أفتقد موهبة الكتابة وحسب بل ما حدث أمامي من قصص ومصائب وأحداث، من قتل ودمار أفقدني الرغبة بالقص، فكيف أروي والرغبة هي أساس القصّ؟ من قال ذلك؟ صديقنا هارون والي أم قاله كاتب آخر نعرفه سوية؟ لم أعد أتذكر: من أجل كتابة رواية لا يحتاج المرء إلا إلى موضوع جيد ورغبة في القص. لا أدري إذا كان تصرفي أمامك بهذا الشكل له علاقة بما أقول لأنني لا أريد أن أخيب ظن أحد وبالتحديد أنت؟ وعندما قررت أن أروي القصة لك وليس لأحد غيرك، لم أفكر حقيقة إذا كان موضوع القصة جيداً أم لا، إذا كان ما أرويه قصة كبيرة أم لا؟ كلا، الأمر الوحيد الذي استحوذ على ذهني هو أن أروي لك ما حدث لي بالضبط بعد ظهور دانييل بروكس «سمايلي مان» وكيف أن حياتي أخذت منحى آخر أو ربما هي كانت كذلك ولم أنتبه لها إلا بعد دخول الأميركي الغريب هذا إلى حياتي، نعم، كانت لي حياة قبل ذلك يمكنك أن تطلق عليها ما تشاء، حياة مليئة بصدف ومغامرات وغرابة وروتين، فيكفي أنني كنت صديقاً لسلمان أو يكفي أنني لم أشأ الدخول في الحزب الحاكم رغم الضغوط والمغريات التي تعرضت لها. بل يكفي أنني تزوجت عن حب وأنني أنا وليس غيري من قتل هذا الحب، لكن في النهاية كان من الممكن أن يصبح كل

ذلك روتيناً لو لم يظهر دانييل بروكس. الانقلاب الذي حدث في حياتي كبير. ولكنني غير متأكد إن كان هذا الموضوع يستحق الروي فعلاً؟ أترك القرار لك وأثق بقدرتك على الاختيار، المهم أنني أعرف فضولك على الأقل وأعرف أنك ستفكر وتفكر بالموضوع. ألا ترى كيف أنني ألفُ وأدور عليك كأنني لا أريد منك أن تعرف ما جرى لي في ذلك اليوم بسرعة، كأنني مثل مَنْ يريد أن يسلمك رسالة حب ويتردد في البوح بما فيها، كأنني أخجل من الاعتراف، كم كان ماجد على حق فأنا ومنذ ذلك اليوم لم أعد إلى التدخين وحسب بل رحت أدخن كل ما وقعت عليه عيناي من سجائر حتى لو كانت سجائر بغداد القديمة التالفة والتي لحسن الحظ لم يعد لها وجود، هل تتذكرها؟ آخر علبة عندي سلمتها إلى سلمان قبل أن يذهب إلى جبهة حرب الكويت، لكن لو حصلت على واحدة منها في حينه لدخنتها، ليس ذلك فقط، بل رحت أشرب بنهم، قنينة ويسكي أو كونياك يومياً على الأقل أو ربما قنينتين، رغم أن شربي وحتى تلك العصرية أو الأمسية من ديسمبر/كانون الأول كان معتدلاً، ربع قنينة ويسكي أو كونياك لا أكثر في اليوم ولكن كيف لا ألجأ وفي ذلك اليوم مباشرة لشرب قنينة كاملة أو قنينتين، والصفحة التي فتحها ماجد أمامي وتركني معها دون أن يدري والمفاجأة التي هيأها لي ستتركني في الوهلة الأولى مسمراً في مكاني ثم لبرهة تجعلني أنهض وأدور مثل ثور معصوب العينين قبل أن

أعود وأجلس وأقرأ التحقيق الصحفي المنشور في الجريدة ثانية مثل المصعوق. كان من الصعب عليَ تصديق ما رأته عيناي هناك. أن ترى صورتيهما هما الاثنين لكن قبل كل شيء أن ترى صورتها الكبيرة التي احتلت نصف الصفحة العلوي. صورة أحلام. لأن صورة سلمان نُشرت بحجم صغير ولو لم تواجهني صورة أحلام لما انتبهت إلى صورته في أسفل الصفحة. نعم أحلام هي وليس غيرها، أحلام التي لم أنسَ أي ملمح من ملامح وجهها، أحلام التي لم يمنعني منظرها الذي ظهرت فيه في الصورة من التعرف عليها جيداً: لا التجاعيد المحفورة على وجهها ولا شعرها المنثور الذي بدا وكأن أحداً سحبها منه قبل قليل، أقصد قبل أن تقف أمام الكاميرا ويأخذوا الصورة لها، بل ولا الملابس السوداء الرثة الممزقة التي لبستها. المهم هي التي أمامي في الصورة أحلام بابتسامتها. كما عرفتها في المرة الأولى في كركوك في سوق الهرج، كما عرفتها في المرات التي جاءت فيها إلى صديقي سلمان أو كما عرفتها في المرة الأخيرة التي رأيتها لكنها لم تراني وأنا أتناول فطوري الأخير في بغداد عند محل شربت الحاج زبالة في شارع الرشيد. كان يوم جمعة وكانت تمر بجامع الحيدرخانة قادمة من منطقة المحكمة (أية محكمة؟) في طريقها إلى منطقة الميدان. الآن كم أندم، بل كم أخجل وأنا أتطلع بصورتها وبصورة صديقي الشاحبة أنني لم أنادِ عليها ولم أعطها الرسالة التي

كتبتها لسلمان، بدل ذلك أعطيتها لعامل مقهى حسن عجمي لكي يُسلمها لسلمان. آه يا أحلام، الآن ذهبتي أنت وقبلك ذهب سلمان، قلت لنفسي، أو قلت أخاطبها وأنا أتطلع أكثر بالصورة، صورتها، وأقرأ العنوان العريض الذي خُط تحتها بخط سميك أسود «مجنونة تقتل قاضي» ثم تحته بخط نحيف، «سلمان ماضي شاعر عبثي ومجنون اشترى لها السلاح يسقط صريعاً في تبادل إطلاق النار مع الشرطة» الآن أعرف وأنا أقرأ قصتها في التحقيق المنشور في صحيفة ذلك اليوم ماذا قصدت في كلامها كلما تحدثت عن المحكمة والحكام ولماذا أصرت على أن أعمل موظفاً في إحدى محاكم البلاد كأنها ظنت أنني الوحيد من يساعدها بالعثور على القاضي الذي بحثت عنه، أكثر من خمسة عشر سنة ولم تيأس من العثور عليه، هي الأخرى لديها حامد اخطابها، قلت لنفسي وأنا أقرأ القصة، قصتها، ألم أقل لك: نحن نلتقي بالناس ولا ندري أن وجوههم مثل لحاء شجر قديم حفر الزمن عليه القصص الكثيرة، ونحن؟ نقرأ القصة الوحيدة التي نراها أمامنا في الوجه. أنا الآخر أخطأت معها. رأيت فيها وجه البلهاء من الحب فقط. وجه أحلام الذي رأيته في ساعات المساء الأولى من يوم ديسمبر/كانون الأول ذلك روى لي بسرعة كل ما لم أقرأه في الريبورتاج، حتى ملامح القاضي الذي قيل إنها قتلته بسلاح دبره لها سلمان ارتسمت أمامي بوضوح رغم أن الصحيفة الحكومية لم

تنشر له صورة على صفحة التحقيقات كأنهم ظنوا أنهم سيدنسونه بنشر صورته إلى جانب أحلام، حتى اسمه لم يكتبوه كاملاً. اكتفوا بذكر الحرفين الأولين من اسمه الأول والثاني (ألف. ش) دون ذكر عمره أو مدينته، ولا حتى منصبه. هل هو قاضي وحسب أم هو عضو في مجلس القضاء الأعلى؟ هل هو قاضي في محكمة مهمة أم هو رئيس قضاة؟ لا شيء من ذلك. ذكروا أنه قاضي وحسب ولا أحد يعرف الأسباب التي جعلتها تقتله كأنهم أرادوا التغطية على الفضيحة لشريك في القضية دون أن يدرون أنهم لا يستطيعون تغطية الشمس بغربال فمن يريد تجميع المعلومات المذكورة في التحقيق، فسيصل إلى الباعث الذي جعل أحلام تقتل القاضي ألف. ش، كما ذُكر اسمه في التحقيق. هي الأخرى رفضت أن تذكر اسمه كما جاء في التحقيق حتى عندما سألها قاضي التحقيق، قالت له إنها قتلت موظفاً في الحكومة لا غير وهي فخورة بذلك وليست خائفة من الحكم عليها حتى بالموت. المهم أنها عثرت على الرجل الذي خدعها وأوقع بها، وعدها بالزواج وتركت أهلها وجاءت معه إلى كركوك منذ أن عمل موظفاً صغيراً هناك، لكن عندما استدعوه للعمل في بغداد في درجة وظيفية أعلى هرب منها في جنح الليل، تركها وحيدة مع قدرها كل هذه السنين، ربما كانت نسته لو لم ترَ وجه ابليس هذا قبل ثلاث أو أربع سنوات يظهر في التلفزيون بصلعته اللامعة وهو يتحدث عن العدالة

وإنزال العقاب بالمجرمين، لو لم تسمعه يكرر كلمة «القصاص العادل» أكثر من ثلاث مرات لما فكرت بترك كركوك والانتقال إلى بغداد. سلمان ماضي لا علاقة له بالقضية أبداً، قالت لقاضي التحقيق ثم أكملت، القاضي الذي يتحدث عن العدالة والقصاص لا بد أن يكون مرتاحاً في قبره الآن بعد أن نال القصاص العادل على يدها فمن يحكم عليه بالعدل غيرها؟ كل ذلك قالته لقاضي التحقيق ولا تفهم لماذا كان القاضي وزملاؤه منزعجين بل لا تعرف لماذا قادتها الشرطة بعنف من أمام بناية محكمة الجنايات في بغداد وهي قد سلمتهم المسدس الذي قتلته به بطواعية، لست قاتلة، صرخت بهم، الرجل هذا رجلكم، قتلني قبل خمسة عشر عاماً وأنا نفّذت فيه حكم العدالة لا أكثر ولا أقل فأين هي العدالة التي تنادون بها؟ ولو كانت تعرف أنهم لم يكتفوا باتهام سلمان بتحريضها على القتل إنما ذهبوا لإلقاء القبض عليه لكنهم عندما وجدوه مخموراً لكن ما زالت فيه قوة ليصيح بهم «أيها الجلاد اذهب إلى قريتك الصغيرة، لقد طردناك وألغينا هذه الوظيفة»؟ ضربوه، وهو لم يكن سقط صريعاً إثر تبادل إطلاق النار مع الشرطة كما ادعوا في الصحيفة بل كان ما يزال على قيد الحياة عندما أجبروه على الصعود معهم في سيارة إسعاف، قالوا له، نأخذك إلى مدينة الطب القريبة للعلاج نريد منك فقط الإدلاء بشهادتك، دون أن يدري أنهم سيحقنوه بجرعات كبيرة من المورفين. لو كانت تدري

ما حدث لسلمان، لو كانت تعرف أنه فارق الحياة وهو في الطريق وأنهم ألقوه في مزبلة قريبة إلى المزبلة التي رماني عندها الرجال الملثمون ـ كأن الدولة ومقاوميها موحدون بالمزابل ـ مثل فطيسة تنهشها الكلاب لكانت صرخت في وجوههم بأكثر قوة بالجملة تلك «أين العدالة؟» لكن من أين لها أن تعرف تفاصيل ما حدث لسلمان وقد عزلوها في زنزانة انفرادية في أحد سجونهم السرية، حتى أنا لم أستطع زيارتها فيه.

أنا الآخر لم أعرف ذلك إلا بعد يومين من وليم. لكن قبل قراري بالعودة إلى بغداد، ألا ترى أقول بالعودة وكأنني كنت في رحلة في المنفى وليس في بلادي العراق. أقول قبل قراري ذلك لأن كان عليَ تصديق ما حدث، تصديق ما قرأته في الجريدة الحكومية في ذلك اليوم المشمس من ديسمبر/كانون أول، تصديق أن صديقي سلمان ما عاد على قيد الحياة وأن أحلام الفتاة المظلومة، كما أطلق عليها ماجد مباشرة بعد عودته من شراء علبة سجائر كان فتحها في الطريق، عليها أن تقضي بقية حياتها في زنزانة قذرة تنتظر حكم الإعدام عليها مع بقية نساء أخريات. 1500 امرأة تنتظر حكم الإعدام كما قرأت في الصحيفة ذاتها. طوال هذين اليومين، وحتى زيارتي لوليم في حانة الجنون بقيت مصعوقاً أتحرك مثل إنسان آلي أو نصف نائم. أدفع يداي لمسك شيء فيسقط من يدي. أسير على الطريق فأصطدم بأجساد الآخرين. يتحدث معي الآخرون وأنا

أهزّ برأسي فقط، أحرك رأسي نحو الأسفل عند الإجابة بنعم، وإلى اليمين واليسار عند النفي، ولكي أقول لا أدري أحرك رأسي إلى الأعلى. بالتأكيد نسيت الكثير مما جرى في هذين اليومين لكنني على الأقل ما أزال أتذكر سؤال ماجد الذي ألقاه مثل شكوى ضد العالم وهو يدخل المحل من جديد، بالفعل أين هي العدالة التي يتحدثون عنها؟ وهو يكرر سؤال أحلام. أتذكر أنني سمعته يقول أيضاً وهو ينفث دخان سيجارته بقوة ثم يقطب حاجبيه، القاتل حامد اخطاب يُرشَّح إلى منصب وزير والمرأة المظلومة هذه سينزل فيها القصاص؟ قل لي بربِّك من هو المجرم؟ هو القاتل الذي أعدم ميعاد بدم بارد، زهرة تفتحت للتو، أم المرأة المظلومة التي كانت ضحية رجل من أمثاله؟ أين اللّه إذن من هؤلاء؟ أتذكر أنني قلت لنفسي أيضاً، إذن لهذا السبب فاجأني بعودته المبكرة في ذلك اليوم لم يتحمل الانتظار حتى قدوم المساء والانتهاء من نوبة عمله. أرادني أن أقرأ الجريدة مباشرة بعد قراءته التحقيق الصحفي فيها، لم يتحمل ترديد السؤال الذي ظل يطن في رأسه منذ أن طرحته أحلام. أراد أن يسألني أنا أيضاً، أين العدالة؟ أتذكر أنني فكرت في الوهلة الأولى أن أقول له إن العدالة لا مكان لها في هذه البلاد وإن المسرح يتبختر عليه قتلة ومجرمون لكنني صمتّ، قلت لنفسي، كيف سأوضح له إذن ما دار على جبهات القتال في كل الحروب التي مرت بنا والأخرى التي ستأتي لاحقاً

بالتأكيد طالما هناك عراق، ستكون هناك حروب، لم يختلف عما يدور الآن، إن لم يكن تكملة لما عشناه على مدى عقود؟ كيف أوضح له أنني أنا الآخر مسؤول عن قتل امرأة واحدة على الأقل، مسؤول عن موت زوجتي أزهار، إن لا أريد الاعتراف بمسؤوليتي عن قتل آلاف من الحمير؟ أتذكر أنني فكرت أيضاً بأن أقول له، إنني أعرف سلمان ماضي، الشاعر الذي نشرت الجريدة صورته في الأسفل قبل أن أعرف المرأة المظلومة هذه. إنه صديقي وإن فقداني له غير قابل للتعويض بغض النظر عن رحيله وبالشكل المفاجئ هذا سيتركني في الفراغ؟ لكنني صمّت، قلت لنفسي، كيف سأوضح له إذن غيابي عن سلمان. على مدى سنتين ونصف بل وأكثر وأنا أتجنب الذهاب إلى بغداد أو على الأقل المرور بها، وأنني الآن منذ لحظة انتهائي من قراءة المقال بدأت أعيد النظر بكل ما خططت له حتى الآن، حتى فكرة الإقامة في العمارة والتي ظننتها ستدوم وتدوم، بدأت أشك فيها؟ أتذكر أنني فكرت في لحظة أخرى أن أقول له إنني وللمرة الأولى منذ سنتين ونصف وربما أكثر أفكر بالعودة إلى بغداد. لم يعد يخيفني تهديد الرجال الملثمين. سأعود وليكن ما يكون. ذلك هو قدري وعليّ مواجهته في بغداد. وأنني ربما ما فكرت بذلك لو لم يرمِ هو الصحيفة تلك أمامي، لكنني صمّت، قلت لنفسي، لا أريد أن أجعله يشعر بالذنب أو يحزن بسبب رحيلي وأنا أعرف أننا اعتدنا جميعاً على بعضنا، لا هما الاثنان،

ماجد ومعه الدكتور غالب جعلاني أشعر بأنني غريب في المدينة الجنوبية تلك ولا أنا جعلتهما يشعران أنني قادم بالفعل من المناطق الغربية لهذه البلاد. ربما تظن أنني أبالغ بالحديث عن الغربة وأنا كنت ما أزال مقيماً في العراق، كلا أرجوك لا تسيء الظن إن الشعور بالغربة هو أمر طبيعي ظل مسيطراً في كل تطوافي عبر مدن وقصبات البلاد. صدقني، عجيب هو أمرنا جميعاً، نقول إننا نعيش في بلاد واحدة لكن حالما ننتقل للعيش في مدينة أخرى من مدن البلاد، أو حالما ننتقل من الشمال إلى الجنوب أو من الغرب إلى الجنوب أو العكس حتى نكتشف أننا غرباء. ولا يهم كيف يقابلونا الناس هناك باستقبالهم الحار، بل لا يهم ما نحصل عليه من اعتراف، حتى الطمأنينة تلك أو بحبوبة السلام التي شعرت بها في العمارة أو كما يسمونها في القاموس الرسمي محافظة ميسان بعثت فيّ بعض الريبة كأنني لم أصدق السلام الذي منحتني إياه إقامتي القصيرة هناك ولا أقول ذلك بسبب اختلاف لهجة الناس عن لهجتي التي تعودت الحديث بها، ففي النهاية ازدحمت المدينة بعد سنوات القتل الطائفي والتطهير العرقي بهجرة العديد من العوائل التي عاشت في بغداد العاصمة أو في مدن أخرى في غير جنوب البلاد مثلما لا أقول ذلك بسبب صواريخ الكاتيوشا التي كانت تُطلق من حين إلى آخر في المدينة، هذه المرة على القوات الأميركية التي عسكرت في القاعدة الجوية في البتيرة، 30 كيلومتراً

جنوب المدينة، وردّ القوات هذه بنيران مدفعيتها بقوة، لأن ذلك يظل مقارنة بما رأيته في مدن أخرى لا شيء. «إذا أردت الأمان فاذهب إلى ميسان» ذلك هو الشعار الذي ساد في تلك الأيام، بل أقول ذلك أكثر بسبب تجربتي التي جعلتني في السنوات الأخيرة أرى النصف الفارغ من الكأس ولا يهم أن السلام الذي عشته في المدينة مهما بدا مريباً أو هشاً إلا أنه يظل بمثابة نعيم. ربما هو خوفي من حدوث شيء ينهي هذا السلام. أن يحصل لي أو للاثنين الآخرين صديقيَ الجديدين مكروه. أو ربما هو خوفي مني أنا نفسي، أن اضطر إلى مغادرتهما ذات يوم. شعور غريب لم أعشه إلا مع صديقي سلمان أو على خطوط النار في جبهات القتال مع بقية الضباط والجنود، هو ما جعلني أحصن نفسي بشعور ولو قليل من الغربة لكي أكون مهيئاً لمغادرة المدينة والعودة إلى بغداد كأنني أعرف أن اليوم هذا سيأتي لا محال. أتذكر أيضاً أنني فكرت أن أقول ذلك كله لماجد في العصرية تلك أو أقوله لكليهما، صديقيَ، عندما سنجلس في الليلة تلك في شقتي. لكنني لم أقله لا لماجد عندما كنا ما زلنا في المحل والجريدة ما زالت مفروشة على الطاولة أمامي وهو يدخن السيجارة وراء السيجارة، ولا للاثنين معاً هو والدكتور غالب في الليل. أتذكر أيضاً أنها كانت ليلة غريبة ليس بالنسبة لي وحسب، بل لهما أيضاً، يمكن القول إننا جلسنا على عادتنا وليس على عادتنا. على عادتنا جهزنا مائدة عامرة

بالويسكي والمَزات، وعلى غير عادتنا لأن الصمت الذي لفنا لم نعشه من قبل. لكنني شعرت بلساني يرتد إلى بلعومي مثل صمام، قلت لنفسي، كيف أحدثهما عن رحيلي في ذلك اليوم أن أقول لهما لا بد لي من العودة إلى بغداد، ليس لدفن جثمان صديقي سلمان أو العثور على قبر يليق به وحسب، الأمم تحتفي بشعرائها وكتابها وهذه البلاد تتركهم يموتون مثل الجرذان، كلا ليس لذلك السبب وحسب، مثلما ليس بسبب تفكيري بزيارة أحلام في سجنها، فأنا لا أدري إذا كان سيسأل عنها أحد باستثنائي وإن فعل ذلك أهلها أو أحد أفراد عائلتها وعشيرتها فليس من أجل العناية بها بل من أجل التعجيل بقتلها قبل فوات الأوان، بل الأكثر لكي أزور نخيل زوجة صديقي وابنهما آدم، فأنا أعرف أن سلمان ورغم هربه من مسؤوليته العائلية حرص على أن يبعث لهما شهرياً مبلغاً من المال الذي أخذه مقابل احتلال بيتهما من قبل إيران في الفاو. الآن بعد وفاته لا معيل لهما غيري، على الأقل حتى الآن. طبعاً أعرف أنهما سيتفهمان الموضوع، لا أشك بذلك، وسيقولان لي، هذا ما يفعله الصديق لعائلة صديقه المنكوبة ولكن ما أشك فيه ليس صعوبة توضيح ترك سلمان لزوجته وابنه كل هذه السنوات وحسب بل هو عدم قدرتي تحمل نظراتهما الحزينة عندما تحين ساعة الوداع. خاصة ماجد، من الصعب عليه تخيل حياته دون وجودي هناك. هل تعرف كل ذلك أتذكره حتى اليوم وأنا في البلاد

البعيدة هذه. نعم، أتذكر كل المونولوج الذي دار في رأسي طوال ذلك اليوم حتى ساعة رحيلي في صباح اليوم التالي دون أن أخبر الاثنين. أية مصادفة. هربت من مواجهة قدري الذي قرره الرجال الملثمون الذين احتلوا بيتي في بغداد وتأتي أحلام لتعيدني لمواجهة قدري من جديد؟ أية مصادفة، كأنني أنا الآخر مثله، كأنني أسير على خطى سلمان، نعم، صدقني، ألم أقل لك قبل قليل: نحن نلتقي بالناس ولا ندري أن وجوههم مثل لحاء شجر قديم حفر الزمن فيه القصص الكثيرة، ونحن؟ نقرأ القصة الوحيدة التي نراها أمامنا في الوجه. أنا الآخر أخطأت معها. رأيت فيها وجه البلهاء من الحب فقط. وجه أحلام الذي رأيته في ساعات المساء الأولى من يوم ديسمبر/كانون الأول ذلك ولم أعرف أن المرأة هذه بالذات ستكون نقطة فاصلة للعديد من الحيوات على الأقل لحياة صديقي ولحياتي إن لم يحدث الأمر ذاته لحياة آخرين لا أعرفهم. ألم تصرخ بالمارة في سوق الهرج من حين إلى آخر «كلكم ستنتهون مثلي، أنا قدركم الذي تهربون منهم»؟ أية صدفة، قلت لنفسي، إذن إن المرأة هذه وليس غيرها مَنْ كتب نهاية رحلة كانت بالتأكيد ستطول وتطول. أية صدفة أن تكون هذه المرأة المظلومة أحلام وليس غيرها من سيجبرني على العودة إلى بغداد. نعم، أية صدفة أن يحدث لي بالضبط ما حدث لسلمان، كلانا ظن أنه سيهرب من قدره بسهولة. ألم يفعل هو ذلك عندما

عاد من جبهة الكويت؟ ظن أنه عن طريق اللجوء إلى بيتهم في الناصرية سيبدأ من جديد ولم يعرف أن الأمر لا يحتاج إلا إلى مناسبة صغيرة لكي يكتشف عبث ما فكر به وأن ما ظنه قد نساه ولن يعود إليه هو جمر خامد وليس رماداً. كأنني أنا الآخر أعيد ما حدث له. هو رأى وليم في التلفزيون وتذكر مدينة كركوك وسوق الهرج وأحلام، تذكر عبث أن يهرب من ماضيه ويبنى عائلة وبيت، تذكر شعوره بالذنب بمسؤوليته عن قتل الجندي نهاد وربما عن قتل توأمه الجندي الأميركي دافيد باربييرو، عن قتل وايتمان الأسود كما سماه «أنا قدركم الذي تهربون منه» بالتأكيد تذكر جملة أحلام تلك طوال الليل، قبل أن يقدم على الرحيل، وأنا؟ ألم أفعل مثله: هربت من مهمة القتل التي أراد توريطي بها الرجال الملثمون. هربت من قدر أن أصبح أحد آلاف هؤلاء القتلة الذين يدورون على طول البلاد وعرضها أحراراً طليقين، لكنني وبعد سنة ونصف من الهروب كان عليّ أن آتي إلى مدينة العمارة. أن التقي بماجد كريم وأقيم في المدينة الجنوبية تلك قرابة سنة وشهرين لكي أرى صورتها أمامي ذات يوم، صورة أحلام، لكي أقرأ بعد سنة وشهرين من الإقامة في مدينة الشروگية تلك، عوجة العراق الجديدة، قصتها ومعها قصة صديقي سلمان، لكي اشعر بذلك الشعور الغريب، شعور امتزج فيه الجبن بالعار، شعور كان حتى ذلك اليوم غريباً عليّ «أنا قدركم الذي تهربون منه» آه لو ملكت ولو النزر

اليسير من الشجاعة التي ملكتها المرأة المظلومة هذه والساقطة بعيون الآخرين، آه لو تعلمت منها الوقوف من جديد، مثلما نهضت أخيراً من كبوتها وتصدت للرجل الذي قتلها على طريقته منذ أعوام؟ هل تعرف، ذلك ما فكرت به في ساعة متأخرة من الليلة تلك وقبل أن أنام، كأن يداً خفياً رسمت قدري باتقان أو لأن لكل رحلة خاتمة. كان لا بد أن تكون خاتمة رحلتي أنا مثل خاتمة رحلة سلمان، أحلام، فمثلما حدث له عندما ترك الناصرية بسببها واتجه صوب الشمال، عرفت أنا أيضاً أن عليّ مغادرة الجنوب. نعم ليس هناك مفراً، لا بد من العودة إلى بغداد. إنها لمفارقة ما يحدث لنا في بعض الأحيان. سنتان ونصف أو أكثر دام تطوافي وأنا لم أفكر بالعودة، والآن أريد العودة فوراً، في اليوم نفسه من قراءة التحقيق. صدقني، كأنني صحوت من خدر طويل. كان لا بد لي من التصرف بطريقة ما. أعرف أنه ليس قراراً سهلاً والأكثر صعوبة هو توضيح القصة لصديقيّ العزيزين، الدكتور غالب لطيف وماجد كريم. ولأن القصص تتشابه في مسارها سيحدث لي في وداعهما ما حدث لسلمان عندما ترك زوجته نخيل وطفلهما آدم ولم يخبرها بنيَّته بالرحيل. أنا الآخر أخفيت خبر رحيلي على صديقيّ. جلست معهما في الليلة تلك مثلما جلسنا في ليالي سابقة. وأنا دخَّنت بشراهة لم ينافسني عليها إلا هما الاثنين، وعندما نهضت في الصباح الباكر كان ماجد والدكتور غالب ما

زالا نائمين. لبست ملابسي، دخلت الحمام وخرجت منه دون ضجة وقبل أن أغادر وأغلق الباب بهدوء كتبت لهما ورقة وداع قصيرة تركتها على الطاولة في الصالون إلى جانب مظروف حوى على قسط الإيجار:

وداعاً أيها الشروگيان... سأفتقد صحبتكما إلى الأبد

أرجو المعذرة... لكل رحلة نهاية... لا بد أن أذهب

- ٩ -

العودة للميدان

إذا صدقت القصة التي رواها لي وليم، ولماذا عليه أن يكذب؟ فإن الصحيفة الحكومية «الفجر» وباستثناء الخبر الذي نشرته عن قتل أحلام للقاضي ألف. ش (ها أنت ترى خوفي من تسميته وأنا في الخارج رغم أن الناس إذا تحدثوا عنه، قالوا: وجه إبليس) فإنها كذبت في كل شيء. إطلاق النار من قبل أحلام واعتقالها هما الشيئان الوحيدان اللذان صدق بهما الريبورتاج، الباقي كذب في كذب؛ ليس تقويل الصحيفة لأحلام كلاماً لم تنطق به على الإطلاق وحسب، بل حرّفت كل ما جاء في البروتوكول الأصلي الموجود في المحكمة، فحسب قول وليم وهذا ما لم يعرفه من أحلام وسلمان وحسب بل عرفه أيضاً من الجندي الكردي المعوّق صديقه عماد (هل تتذكر الجندي عماد؟ الذي حمل من جبهة الكويت رسالة سلمان الأولى لي؟) صحيح أن أحلام انتقلت من كركوك إلى بغداد بعد رؤيتها ألف.ش يتحدث عن العدل والقصاص في التلفزيون إلا أنها لم تفكر في البداية بقتله أبداً، ليس لأنها امرأة والمرأة لا تفكر بالقتل بالمسدس بل بطريقة أخرى، دس السمَ أو الخنق بالوسادة مثلاً، رغم أن ذلك أصبح في عداد الماضي وأن الأمر تغير بعد دخول المارينز إلى بغداد، فبعد حوادث القتل في السنوات الأخيرة لجأ العديد من النساء إلى اقتناء السلاح. بدل قلم الحمرة وعلبة

الماكياج أخذ مكانه في حقيبة اليد مسدس ماركة «باريتا» أو مسدس ماركة «طارق» (سعر الأول في سوق السلاح في بغداد وبعد الهجوم على القبة الذهبية في سامراء أصبح 1280 دولاراً والثاني 806 دولاراً) إن لم تحمل بعضهن بندقية صغيرة أوتوماتيكية (تتراوح أسعار البنادق الأوتوماتيكية والرشاشات بين 290 إلى 200 دولاراً). اسأل عماد، قال لي وليم، وهو سيقول لك أن عدد زبائنه من النساء ارتفع في السنتين الأخيرتين. كلا، أحلام من معدن آخر، من غير المهم ما أطلقوا عليها من صفات، ساقطة كانت أم ضحية، والدليل على ذلك أنها وحتى إلقاء القبض عليها ظنت أن هناك عدالة في هذه البلاد وأن الحيف الذي أُلحق بها يمكن أن يُرفَع عنها ذات يوم وهذا ما جعلها لا تنتقل إلى بغداد وحسب بل دارت بين المحاكم في المدينة كلها بحثاً عن قاضيها ألف. ش، الذي أحبها وأحبته ذات يوم والذي حملت منه طفلاً أجهضته بعد تركه لها، قالت: لا أريد ابناً أبوه نذل. وعندما عثرت عليه أخيراً في محكمة الجنايات في بغداد على ما أظن أو ربما في محكمة أخرى، لأنني لست متأكداً، نادت عليه رغم حُرَّاسه البودي گاردز الذين أحاطوا به مثل جدار من الكونكريت. من أين لها أن تعرف أن الرجل الذي أحبته ووثقت به يوماً قد أصبح شخصية مهمة في الدولة ربما بدرجة وكيل وزير أو أعلى من ذلك بكثير. لا أحد يدري لأن هناك إشاعات كثيرة تدور عن وظيفته الحقيقية.

كان كل ما يهمها هو أن تتحدث معه وتطلب منه الاعتذار، قالت له «أريدك فقط أن تعترف بالعار الذي ألحقته بي» حتى في جملتها تلك حافظت على ابتسامتها. ظل القاضي مبهوتاً، كما قال شهود عيان لاحقاً. ربما لم يظن حتى اللحظة تلك أنها ما زالت على قيد الحياة، ففي بلاد مات وقُتل فيها عشرات الآلاف في الأربع سنوات الأخيرة فقط، لماذا تبقى امرأة ساقطة أو عاهرة بعرفه على قيد الحياة؟ أو ربما صعقته المفاجأة أن يرى أحلام لم تحافظ على جمالها كما كانت في شبابها وحسب، بل أصبحت أكثر جمالاً. بالتأكيد أدهشته المفارقة: بأن يرى الفارق بينه هو الذي أصبح عنده كرش ولحية تشبه لحية العنز وصلعة ملساء تماماً تلمع لقَّبها الناس بأنها تشبه مدرج مطار بغداد لما فيها من تعرجات أيضاً (ولو ليس هناك رجلٌ يعترف بقبحة، وآخرهم ألف. ش!) وبينها هي التي رغم العذاب والظلم والاغتصاب لم تصبح إلا أكثر جمالاً بل وحافظت على ابتسامتها؛ ثروتها التي لا تنضب. لكن الدهشة التي سيطرت على القاضي تحولت فجأة إلى عنف وكراهية ـ كما روى بعض الذين تجمعوا في الشارع ـ صرخ بها، أمرها أن تبتعد عن طريقه قبل أن يدعو البيدي گاردز بطردها فوراً. لم يكتفِ بذلك بل طلب من بعضهم أن يتتبعوا أثرها لكي يعرفوا أين تعيش، هل تتذكر؟ سألني وليم، كانت أحلام إلى ذلك الحين تقيم في الشقة الصغيرة فوق الحانة مع سلمان

وعندما عثر عليها البودي گاردز هناك انتظروا خروجها في اليوم الثاني إلى السوق، أوقفوها وأصعدوها سيارة إسعاف وقفت بانتظارهم، ألا ترى معي؟ في العهود السابقة كان رجال الأمن والمخابرات في السبعينات يستخدمون سيارة فولكس واگن أو الرَّگة كما أطلق الناس عليها لأنها تشبه السلحفاة، في الثمانينات والتسعينات سيارات «لاند گروز» المظللة الزجاج والآن يستخدمون سيارات الإسعاف فأية مخيلة يملكها هؤلاء؟ على أية حال، قال لي وليم، قادوها في سيارة إسعاف وألقوا بها في مقبرة قريبة من الميدان، قالوا، إذا عدت إلى منطقة الميدان سنقتلك ونرميك فطيسة للكلاب. انتظرت حتى يوم الجمعة لكي تأتي وتقول لسلمان إنها فضلت السكن في المحكمة. المحكمة التي قصدتها هي المسجد الذي ستنام فيه. ألا ترى معي، كم هي غريبة هذه المرأة؟ طوال السنتين تلك لم تروِ لأحد ما حدث لها. تختفي طوال أيام الأسبوع ولا أحد عرف إلى أين كانت تذهب، وفي يوم الجمعة تأتي لسلمان لأنها تعرف أن يوم الجمعة هو يوم عطلة وأن أغلب المسؤولين هؤلاء وقاضيها أيضاً يذهبون إلى الجوامع في هذا اليوم. بعد قتلها للقاضي شاعت العديد من القصص، بعضهم قال إنه رآها تعمل عاهرة في منطقة البتاوين، البعض الآخر قال إنها عملت في تنظيف البيوت، أو بائعة عندها بسطية على رصيف شارع الرشيد أو شارع السعدون أو شارع الجمهورية.

البسطيات لبيع كل شيء وأي شيء والتي انتشرت في العاصمة بعد أبريل/نيسان 2003. لكن ما لم يعرفه أحد أنها وعلى مدى هذين العامين أو أكثر عملت منظفة في عدد كبير من المساجد الكبيرة في بغداد، فمثلما دارت على المحاكم لكي تعثر على المحكمة التي عمل فيها ألف. ش انتقلت للعمل من مسجد إلى آخر لكي تعرف إلى أي مسجد يأتي في يوم الجمعة. ألم أقل لك، أية امرأة غريبة هي أحلام؟ فهي وبالرغم من البلاهة التي بدت على وجهها الجميل كانت ذكية جداً لدرجة أنها عرفت أن أغلبية السياسيين يؤمُّون المساجد في يوم الجمعة. وما لم يعرفه أحد أيضاً أنها اشترت مسدساً من ماركة «گلوك» ماركة نمساوية، مسدساً يختلف عن المسدسات الأخرى التي حملتها النساء عادة في حقائبها، مثل المسدس المحلي التصنيع من ماركة «طارق» والمسدس الإيطالي من ماركة «باريتا» والمسدس الأميركي من ماركة «براووينغ» وحتى في هذا الأمر كانت أحلام ذكية. لم تشترِ المسدس من صديقنا الكردي عماد بل اشترته من تجار السلاح في منطقة البتاوين، اكتفت بسؤال عماد ذات يوم عن أية ماركة مسدس ينصح زبائنه بشرائها، أيهما أفضل؟ فقال لها عماد، ماركة «گلوك» النمساوية، إنه السلاح المجرب والفعال. قال إنها سألته أيضاً لماذا يذهب كل الساسة والمسؤولين إلى الصلاة في الجامع كل جمعة؟ قال عماد إنه ضحك عندما سمع سؤالها هذا وعندما أجابها،

تفاجأ بأنه عثر على الجواب الذي ظنه صحيحاً، قال لها، لأن عندهم من الذنوب ما يكفي، يكذبون أربع وعشرين ساعة فماذا يبقى لهم غير طلب المغفرة عند رب العالمين؟ في ذلك اليوم والذي كان يوم جمعة، روى عماد لوليم كيف أنه رآها للمرة الأولى تخرج بشكل مختلف من شقة سلمان. إذ خرجت وللمرة الأولى لابسة فستاناً جميلاً أحمر اللون، صفَّفت شعرها بعناية ووضعت ماكياجاً لافتاً للنظر كأنها ذاهبة إلى حفلة أو إلى عرس، ومن يراها في الساعة المبكرة تلك يظن أنها امرأة غريبة لا تعرف ماذا يدور في الحي هذا أو في المدينة، فأية امرأة تجرؤ على الظهور بهذا المنظر وفي وضح النهار في تلك الأيام؟ وليس على عادتها في تلك الساعة حيث كانت تزور سلمان، حتى أن عماد شك أن يكون ذلك اليوم هو يوم الجمعة وعندما رأته يتطلع بها بتساؤل عرفت ما دار في رأسه، قالت له، هذه المرة هي مرة استثنائية، جئت البارحة واليوم عندي موعد في المحكمة، لم يرد عليها عماد ولم يقل لها إن اليوم هو يوم جمعة وليست هناك محاكم. اكتفى بأن قال لوليم مباشرة بعد دخوله حانة الجنون، عجيبة هذه أحلام، مجنونة بالفعل. من أين له أن يعرف أنها ذهبت في ذلك اليوم إلى منطقة البتاوين اشترت المسدس الذي وصفه لها هو ثم ذهبت إلى جامع «س» (أتحفظ على ذكر الاسم هنا أيضاً!) كان آخر الجوامع الذي عملت فيه كمنظفة وعند المدخل الخلفي للجامع انتظرت مجيء

موكب ألف. ش. كانت الساعة قاربت الثانية عشرة ظهراً، ربما قبلها بثماني أو عشر دقائق عندما رأته يترجل من سيارة لم تكن من ماركة لاند كروز لكنها كانت سيارة مظللة الزجاج وقبل أن تلامس قدما القاضي ألف. ش الأرض طلبت منه أن يلتفت وينظر إليها. لم يستغرق الأمر طويلاً، ربما ثانية أو ثانيتين أو ربما ثلاث حتى أن القاضي لم يلحق أن يطلب من البيدي گاردز أن يبعد المرأة هذه التي وقفت تنتظر موكبه بل لم يلحق لكي يستدير ويحمي نفسه في داخل السيارة، ربما شلته الدهشة هذه المرة ليست بسبب جمال المرأة التي ابتسمت بوجهه مرة ثانية بل أكثر بسبب الطلقات المتتابعة التي خرجت من المسدس بسرعة باتجاهه، خمس عشرة إطلاقة بعدد سنوات الحيف والظلم والعذاب. خمس عشرة إطلاقة ومع كل واحدة نادت بجملتها تلك التي لم تقلها منذ مغادرتها كركوك «لماذا تهربون من قدركم... أنا نهايتكم جميعاً» كأنها وبهذا الشكل أرادت أن تختم قصة بدأت قبل سنوات، قصة كان لا بد لها أن تنتهي بهذا الشكل مثل كل قصص الحب الأخرى، «لا حب سعيد» أظنه سلمان الذي قال ذلك؟ قال لي وليم وهو يختم رواية القصة، قصتها، وكل ما لم أقرأه في الصحيفة الحكومية: فاجأتني أحلام مرة أخرى، قلت لنفسي، ألم أقل لك من قبل: نحن نلتقي بالناس ولا ندري أن وجوههم مثل لحاء شجر قديم حفر الزمن فيه القصص الكثيرة،

ونحن؟ نقرأ القصة الوحيدة التي نراها أمامنا في الوجه. أنا الآخر أخطأت معها. رأيت فيها وجه البلهاء من الحب فقط. لم أرَ فيها وجوهاً أخرى، الوجه الذي يقودني إلى ختام قصتي أنا هذه المرة مثلاً؟

أعتقد أنه وليم هو الذي سألني أكثر من مرة، والآن ماذا ستفعل؟ فباستثنائنا نحن الاثنين لم يكن أحد غيرنا في الحانة، فحتى وقت قصير جلس معنا الكردي عماد لكنه اعتذر منا، قال إنه ينتظر زبوناً لبيعه السلاح عند مدخل المكتبة الوطنية القريب ثم دفع كرسيه المتحرك وذهب، كأنه ألقى بالجزء الذي كان عليه أن يرويه من القصة، مثل ممثل مسرحي ثانوي انتهى من دوره واختفى وراء الكواليس. كنا ما نزال أنا ووليم جالسين في حانته، حانة الجنون. لم تعد الحانة كما كانت من قبل أو على الأقل كما كانت حتى مغادرتي قبل عامين ونصف أو أكثر، فبدل العشرين مائدة أو أكثر التي اكتظَّت بروَّادها في السابق، ظلت أغلبها فارغة طوال ذلك النهار، ربما شغل بعض الزبائن ثلاث أو أربع موائد لكن حتى هؤلاء لم يجلسوا طويلاً، غادروا بسرعة. القتل العشوائي وحظر التجول وخطورة المنطقة ثم التهديدات التي تلقاها المسيحيون وأصحاب الحانات في رأس السنة، كل ذلك لم يبعد الزبائن وحسب، وجعلهم يلجؤون لشرب الخمرة في بيوتهم، بل جعل العمل أيضاً يصبح أكثر صعوبة، ففي الشهرين الأخيرين فقط أخبرني وليم أن الحانة تعرضت لهجومين؛ في

الأول انفجرت سيارة مفخخة في مكان قريب وفي الثاني رمى أحدهم وهو على دراجة نارية قنبلة صغيرة إلى وسط الحانة. وليم يفكر بالعودة إلى كركوك، فماذا تبقى له بعد الآن؟ حتى سلمان الذي كان سلواه، يقضي أغلب الوقت عنده إن لم يذهب بجولة عبر شوارع بغداد، حتى سلمان لم يعد هناك، بل حتى أحلام التي كانت تأتي كل جمعة لم تعد هناك. الأفراح الصغيرة اختفت ولم يعد هناك ما يسرُّ أيها الصديق، قال وهو يردد خاتمة قصيدة اعتاد على ترديدها أمامه سلمان في السنتين والنصف أو أكثر، في فترة غيابي، كما قال لي: لا ضربة ناقوس، لا صوت مغني ولا هلهولة عرس، المغني ذبحوه عند دكانة الحي، والعروس ألبسوها كفناً بدل ثوب العرس، ونحن نجلس في الحانة المهجورة هنا بانتظار يوم القيامة. الآن لم يعد هناك ما يسرُّ، أيها الصديق، تلك هي القصيدة القصيرة التي كتبها سلمان أو الكلمات التي رددها في أغلب الأوقات قبل أن يذهب إلى شقته فوق الحانة لينام وكان على وليم أن يرى كيف أن صحته التي أنهكها تعب الأيام بدأت تذوي. نعم، ليس هناك ما يسرُّ يا صديقي، قال لي وليم، كان يستذكر الماضي مع سلمان أما اليوم حتى الماضي هذا اختفى؟ هل تتذكر جملتكما المحببة التي ردّدتماها أنت وسلمان: «أيها الجلاد، اذهب إلى قريتك الصغيرة، لقد طردناك وألغينا هذه الوظيفة»؟ لقد أخبرني سلمان كيف كنتما تسخران بها مما كان يدور حولكما، ترى ماذا

ستقولان اليوم؟ سألني وليم ثم أكمل، الجلادون القادمون من قراهم البعيدة نموا بسرعة مثل نبات الفطر وهم موجودون في كل مكان. إنه هو وغيره الذين سيتركون وظائفهم ويعودون إلى مدنهم «عندما يغيب العقل تستيقظ الوحوش»، قال لي ثم أخبرني أنه يخاف من غزو الوحوش، يريد بيع الحانة، لا يريدها أن تكون سبباً لموته أو لموت أحد، قال لي، الجميع يتحدث عن الإرهاب، عن الدعوة للإيمان وإغلاق حانات الخمور لكن الحملة «الإيمانية» التي تبدو ظاهرياً دينية، كما قال لي، تختفي خلفها مصالح وحوش معروفين وإلا بماذا ستسمي كل أولئك الذين أطلق عليهم بأثرياء «الحواسم» كل أولئك الذين راكموا ثروتهم بعد هزيمة النظام السابق في حربه التي أطلق عليها «أمّ الحواسم» في 9 أبريل 2003 وبطرق ملتوية؟ جميع محلات المسيحيين وحاناتهم تقع في مركز بغداد. بيوت المسيحيين أيضاً في أحياء مثل الكرادة والمسبح والعرصات وكمب الأرمن والبتاوين، كل تلك المناطق التي سكنتها أغلبية العائلات المسيحية هي أحياء تقع في قلب بغداد. الأحياء الثلاثة الأولى التي تقع بجوار المنطقة الخضراء، بعد حوادث الهجوم على الكنائس وفي وضح النهار وبعد ظهور رسائل تهديد تمنع المسيحيين من تأدية القداس في أعياد رأس السنة الماضية بدأ الحديث واضحاً في الشارع عن الجهات التي تختفي وراء التهديدات تلك. صحيح أن بعضها

حمل بصمات الإرهاب لكن أغلبها كان من صنع أيادي المضاربين الطامعين بالعقارات السكنية هناك. حتى وليم نفسه لم يتلقَّ رسائل تهديد دُسَّت له مرات عديدة تحت باب الحانة وحسب، بل وتلقّى التهديدات مباشرة. كان آخرها قبل ثلاثة أيام من جلستنا تلك، وقبل عشرة أيام تقريباً من رأس السنة الميلادية، عندما زاره بعض رجال المليشيات يحذرونه من إقامة القدّاس، رجال لم يلثّموا وجوههم، والذين إذا سألته عن مذاهبهم ودياناتهم، إذا كانوا شيعة أم سنة لأجاب بتهكم: لا أدري، لهجتهم غريبة علي ومن الممكن أن يكونوا أتباع مذهب جاء من بلاد الواق واق. إن رحيل المسيحيين تحت وطأة الخوف يعني بيع البيوت بأبخس الأثمان، أمر يُذكّر ببيع اليهود لممتلكاتهم بعد هجرتهم (أو طردهم) عام 1951، قال لي، كأن التاريخ يعيد نفسه. ففي خمسينات القرن الماضي تعرّض السناغوغ اليهودي في بغداد أيضاً للتفجير. بعد ذلك باع اليهود بيوتهم وأملاكهم بسعر بخس. اليوم يحدث نفس الشيء، لا بد وأن تكون أصابع المضاربين والتجار مغموسة فيما يحدث، قال لي، إن أغلب التفجيرات تحدث في المناطق التجارية. يتهدم المكان وتظهر فوقه فجأة بنايات جديدة وعمارات أو في أسوأ الأحوال يظهر باعة المخدرات، كلا، لا بد من العودة إلى مسقط الرأس؟ قال لي وليم، كانت تلك هي اللحظة كما أظن التي سألني فيها، وأنت ماذا ستفعل؟ لم أعرف كيف أجيبه وسؤاله

حيرني، فأنا جئت بالأمس فقط، حتى لم يتسنَ لي الوقت الكثير لكي أتحدث معه عن الأيام الأخيرة من حياة صديقي سلمان. نعم أعرف أنه تسلَّم الرسالة القصيرة التي أعطيتها لعامل الشاي في مقهى حسن عجمي، سلمها له في اليوم التالي من رحيلي، في يوم السبت. هذا ما أخبرني به وليم روى لي كيف أن سلمان دخل الحانة في ساعة مبكرة من ذلك اليوم قبل الغداء، وهو يردِّد «لماذا يجعل التأمل منا جبناء» أعتقد أنني سألته، قال لي وهو يتذكر، هل هذه قصيدة جديدة له فأجاب، كلا إنه كلام قديم ومعاد. كان وجهه أكثر حزناً مما اعتدنا عليه، أراد وليم أن يقول، جلس سلمان عند مائدة قريبة من مدخل الحانة وقال لوليم أنه يريد أن يشرب اليوم مبكراً وبالأطنان، ثم أراه الرسالة التي تسلَّمَها للتو من عامل المقهى. قرأها وليم بسرعة. أعرف أنها لم تحوِ الكثير من الكلمات فأنا لم أكتب له سوى بضع كلمات وداع. لم أقل له سبب اضطراري للرحيل لكنه حدس ذلك على ما أظن وهذا ما جعله يقول لوليم، أعرف أن صديقي في معضلة وأنا لا أستطيع مساعدته. أي إنسان تعيس أنا، بل سمعه وليم يقول أيضاً وهو يضرب على جبهته، أي إنسان أناني أنا. إنسان لا يصلح لصداقة وحياة، ثم روى له عن زيارة محمد باريس لي في مقهى حسن عجمي وكيف أنه لم يشأ أن يصدق ما قاله لي روبن هود العراق هذا. كم هو ندمان على ذلك الآن، ظن أن الشاب أراد السخرية مني أو نصب لي فخاً

للاحتيال. نعم، لقد سمع كلامه «الهامس» في المقهى لكنه لم يصدِّق أنَّ هناك أميركياً أو بطيخ، ظن أن القصة اخترعها خيال عصابات. قال له لا أدري، إذا فعلت ذلك عن جبن أم لأنني أردت بقاءه معي في الميدان؟ تساءل أمامه بصوت حزين. في ذلك اليوم أخبرني وليم أن سلمان سكر وبكى كثيراً وكان يردد طوال الوقت جملته تلك «لماذا يجعلنا التأمل جبناء؟» حتى اضطر هو إلى حمله إلى شقته فوق الحانة. بعد ذلك تغير سلمان أصبح أكثر صمتاً، كما قال لي وليم، ثم وكأنه أراد مواساتي. ولكن مَنْ لم يتغير منا، يا صديقي، كل البلاد تغيرت مع مرور الأيام. خذ مثلاً الكردي عماد، قال لي وليم، شخص مثله قد فقد إحدى قدميه وإحدى يديه كان عليه أن يترك كل ما له علاقة بالجيش والعسكرية. أتذكر أنه كان يقول، سأعلِّم أطفالي الهروب من الخدمة العسكرية، سأفعل كل ما في وسعي لكي أحمي أولادي من الحروب والموت والدمار، سأكون دائماً إلى جانب حبيبتي ورادار قلبي، زوجتي گول. انظر له ماذا يفعل الآن؟ إنه يأتي إلى بغداد على الأقل مرتين في الأسبوع يعمل وسيطاً بتجارة الأسلحة، لا يهمه لمن يبيع السلاح ولا ماذا سيفعل به زبونه وإذا سألته، لماذا يفعل ذلك؟ لأجابك، وماذا يستطيع أن يعمل معوَّق مثلي مسؤول عن إعالة عائلة؟ أو عن العناية بزوجته، حبيبته ورادار قلبه، كما يحلو له دائماً أن يقول؟ السلاح موجود في كل مكان وأنا وسيط أقوم بنقله من مكان إلى آخر

وحسب. ذلك هو عذره وهو ربما يكون على حق. ماذا يفعل معوَّق مثله في هذه البلاد التعيسة غير أن يستغل عطف نقاط التفتيش عليه لتهريب السلاح. على الأقل فهو يُهرِّب الأسلحة الخفيفة كما يقول، وهي خبرته بالعمل في مستودعات الذخيرة جعلته يميز بين السلاح الصالح للاستعمال والتالف منه. كان يملك محلاً لبيع الجبن والألبان في خانقين، قبل أربع سنوات وكان ما كسبه هناك بالكاد يسدُّ رمقه، لكنه بعد دخول المارينز قرر تغيير مهنته. ليس هو الوحيد من الذين أعرفهم تغيَّر. خذ نخيل مثلاً زوجة سلمان. جاءت في يوم دفن سلمان. لم يكن هناك أحدٌ باستثنائها هي وابنها الصغير آدم وأنا وعماد، ما عدا سيارة إسعاف وقفت عند حائط المقبرة في مكان ليس بعيد منا وأنت تعرف ماذا تعني سيارة إسعاف في بغداد في هذه الأيام. كانت تلك هي المرة الثانية التي رأيت فيها نخيل. المرة الأولى بعد رحيلك بشهرين أو أكثر، قال لي وليم، اتصلت بي على الموبايل وطلبت مني أن ألتقي بها في مكان غير منطقة الميدان. ولو لم تقل لي إن سلمان هو الذي أعطاها رقم تلفوني لما عرفت من هي. اقترحت عليها أن نلتقي في الكرادة في كافتيريا الفقمة، فهو محل حيادي. جلسنا هناك، طلبت مساعدتي ولا تريد أن يعرف سلمان بالأمر، بأنها لم تسدد قسط إيجار البيت منذ شهرين. المدرسة التي عملت فيها أصبح الطريق إليها خطراً، المليشيات بدأت تقتل على الهوية هناك. في لقائنا لم تستطع كتم

غضبها من سلمان حتى أنها طلبت مني أن أكف عن ذكر اسمه أمامها ولكن عندما مات ووقفت عند قبره كان عليك أن تسمع نعاويها وعويلها. أعتقد أن نعاويها كانت السبب أيضاً باختفاء سيارة الإسعاف فمن رآها تحتضن تراب القبر وتصرخ، حبيبي سلمان، مات أمير الشعراء سلمان، كان من الصعب حتى عليه هو وليم الذي رأى الكثير من المصائب والويلات في حياته أن يحبس دمعة أرادت شق طريقها على خده لكنها توقفت عند حد الجفن. تخيل نخيل المعلّمة في المدرسة الثانوية أصبحت خبيرة في ترديد النعاوي، بإمكانك سماع نواعيها كل يوم جمعة وهي تجلس عند قبر سلمان؟ ليس ذلك وحسب، بل سألته أن يخبرها بعنوان السجن الذي ألقوا فيه أحلام، ألا ترى معي؟ سألني وليم، مَن يصدق أن امرأة تركها زوجها وحيدة مع طفلها، امرأة غاضبة، تتحول فجأة إلى امرأة ناحبة ورحيمة بهذا الشكل؟ لكن أين الغرابة، حتى الطبيعة تغيَّرت في هذه البلاد، ألم تسمح بالتماسيح التي ظهرت في نهر دجلة في مدينة الديوانية؟ عند تلك الجملة توقف وليم، لحسن الحظ، لم يقل لي، وأنت؟ ألم تتغير أنت أيضاً؟ وإلا لقلت له كلاماً كثيراً، لكنه فضَّل أن يسكت كأنه أراد أن يقول: يكفي ما رويته لك من قصص اليوم. نعم، ذلك ما رأيته على وجهه. لم يشأ أن يروي لي الكثير عن سلمان في فترة غيابي مثلاً أو عن الأيام الأخيرة من حياته، على الأقل ربما ظن وليم أنني إن لم آت للسكن

من جديد في غرفتي السابقة فوق في الشقة فإنني سأزوره في الأيام التالية على الأقل ولم يعرف أن ما رأيته في بغداد ومنذ لحظة دخولي ضواحيها لا يشجِّع على البقاء. قبل سنتين ونصف وربما أكثر لم أرَ المدينة عندما خرجت منها، صحيح أنها كانت مليئة بالمزابل، وبيوتها آيلة للسقوط لكنها على الأقل لم تُكبَّل بجدران عالية من الكونكريت المسلَّح، جدران عزلت ليس الأحياء عن بعضها وحسب بل وشوارع الأحياء نفسها عن بعضها أيضاً حتى أصبحت الإقامة فيها لا تختلف عن الإقامة في ثكنة، لا يمكن الخروج والدخول منها دون المرور بنقطة تفتيش. وفي ساعات انتهاء الدوام الرسمي تزدحم طوابير كبيرة عند بوابات الأحياء. لقد مرّ يومان على عودتي إلى بغداد عند زيارتي له، لكن ما عشته في ذينيك اليومين جعل شعر الرأس يشيب، وحده مشهد ازدحام المرور سواء بسبب عدد هذه السيارات كلها التي فاق عدد سكان العاصمة أو بسبب تزايد عدد نقاط التفتيش، خصوصاً بعد تفاقم جرائم القتل بكاتم الصوت وفي وضح النهار حتى أصبح خبرها على كل لسان. بعض تلك الجرائم حدثت على الطريق السريع الذي يطوِّق بغداد، بعضها الآخر في الأحياء السكنية. وحده المشهد هذا يثير الرعب ويجعلني وأنا جالس في السيارة مثل من يُسلِّم نفسه إلى مصير مجهول. الناس في بغداد تدرَّبت على هذا المشهد «الإرهابي» بامتياز يومياً، كما أخبرني وليم

نفسه، أو كما سمعته من سُوَّاق السيارات أيضاً، آخرهم سائق التاكسي الذي أخذني من شارع السعدون وحتى ساحة الميدان في ذلك اليوم، رغم أن لا حاجة لهم جميعاً لأن يشرحوا لي الحال التي انتهت إليه بغداد. لقد عشت هذا الرعب بنفسي منذ اليوم الأول لوصولي كلما صعدت إلى سيارة أجرة كلما قلت لنفسي، عليك ضبط أعصابك فهل هناك مشهد يفوق برعبه وإرهابه أكثر من مشهد الجلوس في سيارة على الطريق السريع أو في شوارع بغداد؟ سيارة انحشرت وسط ذلك الزحام، عندما يقف السير ولا يعود هناك طريق إلى الأمام أو إلى الوراء أو ما حول، ومن عنده موعد عليه أن ينساه؟ فأنا مثلاً لو لم يقل لي وليم عندما اتصلت به من تلفون الاستقبال في الفندق لأنني وحتى ذلك اليوم تجنبت شراء أو حمل تلفون موبايل، أقصد لو لم يطمئنني وليم وفي أية ساعة سأصل فيها فإنه سيظل جالساً في الحانة بانتظاري، لدفعت أجرة التاكسي في ذلك النهار وغادرت السيارة فوراً، ولكن حتى الخروج من سيارة السيرفيس أو التاكسي واللجوء إلى السير على الأقدام هو عبث لا غير لأن التجوُّل في أي شارع في بغداد يثير الشبهة عند المارة وفي نقاط التفتيش (كما حصل لي بعد يوم من وصولي بغداد، قيل لنا، إن علينا أن نترك سيارة السيرفيس لأن هناك سيارة مفخخة في الشارع تفكّها قوة إبطال مفعول القنابل: «منو أنت؟ منين جاي؟ وين رايح؟ شتشتغل»، كما

أمطرني مسؤول الأمن المدني في نقطة تفتيش في منطقة الكرادة، عيناه تلمعان كأنه ألقى القبض أخيراً على أخطر إرهابي!) لا مفر إذن من الجلوس في السيارة والتسليم إلى قدر مجهول قلت لنفسي في حينه رغم الخوف الذي استحوذ عليّ، كنت أريد الوصول بسرعة لوليم. لم أشأ أن أموت وأنا في الطريق إليه بصورة عبثية، فماذا لو كانت السيارة التي تقف إلى اليمين أو إلى اليسار، إلى الخلف أو إلى الأمام، ماذا لو كانت السيارة هذه هي السيارة المفخخة التي ستنفجر بعد لحظات؟ ماذا لو كان أحد الجالسين في سيارة الكيا أو التاكسي لبس حزاماً مفخخاً؟ كأنني أمام لعبة روليت روسية، حيث تدور الطلقة الوحيدة المعبأة في المسدس المصوب إلى صدغ الرأس. لكن، قلت لنفسي، في الروليت الروسي هذا يتبارى ذكران أسيريَ فحولتهما «الزائفة» يدور كل منهما القرص ويوجه فوهة المسدس إلى صدغ الرأس ويضغط على الزناد وعندما تمر اللحظة عليه بسلام يدور قرص المسدس مرة أخرى ويسلمه إلى غريمه الذي يقف أمامه. باختصار إن لعبة الروليت الروسي قدر أعمى يختاره اثنان «فحلان» يريان في التحدي طريقاً إلى الحياة، من غير المهم أنهما سيموتان. على عكس الروليت الذي لم يواجهني وأنا في طريقي إلى وليم في ذلك اليوم وحسب بل ارتسم أمامي في كل خطوة خطوتها في شوارع بغداد وعلى طول أيام إقامتي القصيرة أو

بالأحرى الأخيرة فيها. الروليت هذا وطوال أيام جولاتي لم أختره أنا، وما ظننته أنه مبالغة من عائد مثلي غاب عن عاصمة بلاده سنتين أو ربما أكثر من ذلك بقليل، تعلَّم العيش بسلام نسبي في المدن الأخرى وخاصة في مدن الجنوب، أكَّدَه لي سائق التاكسي الشاب الذي أخذني إلى وليم في ذلك اليوم، وكذلك وليم عند وصولي إليه، تلك هي حالنا أيها السيد، قال لي السائق، كلنا نعرف أن الخروج للعمل والعودة إلى البيت مغامرة غير معروف المصير الذي يمكن أن تنتهي إليه، عاين الناس في الشارع؟ سألني، كل واحد يسير لوحده بمواجهة مصيره، وهو عدوه «الغامض» المتخفي تحت أسماء عديدة اعتاد المواطن على سماعها يومياً في الراديو والتلفزيون، في المؤتمرات الصحفية لقيادة عمليات بغداد وفي تصريحات المسؤولين، عدوه الذي يظل غامضاً بالنسبة له أياً كان اسمه هو الذي يختار له الزمان والمكان الذي تخرج الطلقة باتجاهه. الموت في بغداد، أكمل السائق الشاب كأنه عرف أني قادم جديد إلى المدينة إن لم يظن أنني لست من أهالي بغداد، يمكن أن يحدث عند باب البيت أو في الشارع، في محطة الباصات أو قبل الصعود إلى تاكسي، على الطريق السريع أو عند نقطة تفتيش، قبل الدخول إلى مكان العمل أو بعد الخروج منه، في قطاع الكرخ من بغداد أو في الرصافة. نحن ننام ونصحو وفوهة المسدس مصوَّبة إلى صدغنا، قال وهو يصوِّب سبابة

يده اليمنى على صدغه، في النهاية فهو العدو «الغامض» الذي يختار لنا المكان والزمان، ليس ذلك وحسب، بل هو عدوُّنا «الغامض» هذا أيضاً الذي يختار لنا شكل الموت سواء حدث ذلك على شكل انفجار عبوة ناسفة أو طلقة تخرج من كاتم صوت، على شكل انفجار سيارة مفخخة أو تهدُّم بيت، لا يهم، أكمل السائق وهو يختم كلامه، المهم أن على مواطن أعزل مثلي أو مثل حضرتك، قال السائق لي وهو ينظر إلي من خلال المرآة، كأنه أراد التأكد من صحة قوله، أنني مواطن أعزل مثله، الحاصل يا أستاذ، المواطن الأعزل هذا المسلَّح بإصراره على البقاء على قيد الحياة وحسب، المواطن الذي لم يُحصّن نفسه في منطقة خضراء كما يفعل سياسيو البلاد الذين صعّبت الحواجز الكونكريتية العالية التي أقاموها حول بيوتهم حتى دخول الهواء إلى رئاتهم، على المواطن هذا الذي يخرج يومياً بحثاً عن قوت له ولأطفاله القبول بقدره وبشكل الموت الذي هيَّأه العدو «الغامض» له. حديث السائق الشاب ذلك أكمله وليم، كأنهما كانا متفقين على تقويم الوضع دون علمهما، قال لي وليم، هل رأيت بنفسك، كيف أن التنقل من حي إلى آخر خصوصاً إذا كان التنقل يعني العبور من جانب الكرخ إلى جانب الرصافة أو العكس يمكن أن يستغرق ساعات وساعات، ناهيك عن الجهد الاستثنائي الذي تسدعيه الرحلة، الصبر وضبط النفس. الرحلة يمكن أن تدوم ثلاث أو أربع ساعات وفي النهاية عندما يصل

المرء، يُسلِّم على مضيفيه، يشرب استكان شاي، حتى عليه أن يفكر بطريق العودة قبل هبوط الظلام؟ وهو لم يقل لي ذلك لكي يطلب مني الذهاب مبكراً، كلا، بإمكانك البقاء قال لي، ما زالت غرفتك في الشقة على حالها، تستطيع أن تنام هناك متى شئت، رغم أنه يعرف كم يصعب النوم في شقة ازدحمت بآثار صديق غاب، لكنه قال لي ذلك لكي يمنحني صورة عن الوضع، عن بغداد، لكي أفهم قراره ببيع الحانة، سأعود إلى كركوك، ليس هناك حلٌ آخر أمامي، قال بصوت حازم. أعتقد أنها اللحظة تلك التي صمتنا فيها نحن الاثنين. كانت الشمس بدأت تميل للغروب في الخارج وكانت أشعتها انعكست قليلاً على بقية الزجاج المحطم الذي علق عند مدخل الحانة، ربما ظل في مكانه منذ الانفجار الأخير الذي حدثني وليم عنه، لم يكن هناك أحد غيرنا، الزبون الأخير الذي غادر، هذا إذا حسبناه زبوناً، كان صديقه الجندي الكردي المعوَّق عماد. قال إنه على موعد لتسليم صفقة لبيع السلاح، لا أتذكر كم مرّ من الوقت على صمتنا، لكنني أتذكر أنني أتيت على قنينة البيرة الثانية أو الثالثة. عندما رفعت رأسي حدقت به لبرهة، وقلت له، حسناً سأغادر الآن. أعتقد أنه عرف أننا لن نرى بعضنا بعد ذلك المساء، أنني لن أعود إليه، ليس لأنني أجّرت غرفة في فندق ديوان في شارع السعدون كما أخبرته، وأن الطريق إليه حتى ساحة الميدان طويل أو لأنه سيغادر بغداد ويعود إلى مدينته كركوك أو

مدينة المهاجرين الأبدية كما سماها في ذلك اليوم بل لأنه عرف ما أنا مقبل عليه، عرف أنني مقبل على قرار خطير، عرف أنني قررت أن أسترجع بيتي حتى إذا كلفني ذلك حياتي، ربما ذلك ما جعله يحدق بوجهي لثوان، ربما عندما تأكد مما قرأه على ملامحي هناك، ما جعله يبتسم قليلاً ربما ليتردد ثم ليقول بصوت واطئ: أعرف أن بيتك احتله مسلَّحون وأعرف ثمن ما طلبه منك هؤلاء، لقد حدثني بذلك سلمان. لبرهة سكت قليلاً ثم أضاف: لكن القصة انتهت على ما أظن، ألم تسمع بها؟ وعندما رآني أحدق به، لا أعرف ماذا يعني، ألم تسمع بالأميركي المسلم الذي ذبحوه قبل قرابة سنة ونصف أو سنتين، دانييل حسين؟ كان من الممكن أن يقول لي أي خبر ولن يثير الدهشة عندي، لكن أن يقول لي إن الأميركي المسلم الذي قرأت اسمه في الصحافة في ذلك الوقت، هو ليس غير دانييل بروكس نفسه «سمايلي مان» صديقي الأميركي الذي جاء من الولايات المتحدة الأميركية بحثاً عني، ثم وأن يلقي الخبر عليّ بهذا البرود فإن الأمر يحتاج شيئاً من التأمل وما أزال أتذكر الخبر الذي قرأته في إحدى الجرائد التي لم أعد أتذكر اسمها، باستثناء الاسم الأول دانييل لم يكن هناك ما اشترك به الرجل الذي عثروا عليه مذبوحاً مع دانييل الذي أعرفه، لا بشرته التي لم يذكروا لها لوناً ولا دينه يدلَّان على أنه مسلم، رغم أن دانييل بروكس منحني الانطباع بأنه مسيحي وإلا لما طاف على كنائس

أميركية عديدة لجمع التبرعات التي حملها إلى هنا من أجل أطفال كل أولئك الجنود الذين قرأ أسماءهم في الدفتر الصغير الذي تركه سلمان على جبهة حفر الباطن؟ ليس ذلك وحسب، حتى المكان الذي عثروا فيه على جثّته لم يكن المستودعات التي تركتها فيها، أقصد المستودعات القديمة التي كانت تابعة ذات يوم لوزارة التصنيع العسكري، المستودعات التي بناها أبي والتي أعرف كل زاوية منها، كلا، دانييل حسين الذي قرأت خبر مقتله عُثر عليه مرمياً قريباً من جسر صغير قديم على فرع صغير من نهر الفرات، بالضبط على الطريق الذي يوصل بين بغداد والحبانية. ما زلت أتذكر كل التفاصيل هذه كأنني قرأت الخبر للتو، أميركي مسلم في متوسط العمر اسمه دانييل حسين غثر عليه مذبوحاً على جسر قديم في قرية قريبة في غرب بغداد. كان ذلك هو عنوان الخبر الذي أتذكر العديد من تفاصيله. الحديث عن رأسه المقطوع الذي وضعوه إلى جانب جذعه والشكوك التي راودت أولئك الذين عثروا عليه في الأول. لم يظن أحد منهم أنه أميركي، صحيح أن الأميركيين لم يعرفوا بفقدان دانييل بروكس إلا في وقت متأخر لكنهم وحتى يوم مقتله لم يتسلّموا لا شريط فيديو ولا رسالة تهديد تطالب بفدية دسمة كما فعلت كل الجماعات المسلحة في حالات الاختطاف المشابهة، وحتى عندما عثر فلاح عابر على الجثة وذهب ليخبر الشرطة المحلية والتي بدورها أخبرت

الأميركان، لم يعر أحد أي انتباه للجثة، لا الشرطة المحلية ولا المدربون العسكريون الأميركان في القاعدة العسكرية القريبة من المكان «عين الأسد». عشرات الناس يُقتلون يومياً، هوياتهم مجهولة، فلماذا عليهم أن يعيروا الانتباه لجثة مجهولة تُركت في العراء بين الأحراش؟ وفقط عندما ظهر الأطفال في اليوم التالي في شوارع القرية الصغيرة يلعبون بدفتر صغير كُتبت عليه أسماء العديد من الجنود وبقصاصات مكتوبة باللغة العربية والبعض الآخر باللغة الإنكليزية بدأ السؤال عن هوية الجثة المرمية هناك ولم يحتج الأمر وقتاً طويلاً لكي يصبح بحكم المؤكد أن الرجل المذبوح هناك هو رجل أميركي، لا تؤكده القصاصات المكتوبة باللغة الإنكليزية وحسب بل أكّده وبشكل واضح جواز سفره الأميركي الذي عثرت عليه الشرطة المحلية ومعها الوحدة الأميركية الخاصة المشرفة على تدريبها مباشرة عند رفعها الجثة، دانييل حسين، كان هو اسم الرجل إذن، وهو الاسم الذي اختاره بالتأكيد لاحقاً بعد زواجه من كنزة، لكنني في ذلك الوقت عند قراءتي الخبر في الجريدة ولا أدري في أية مدينة كنت، في الحِلّة أو في الكوت، في البصرة أم في الناصرية أو ربما في الديوانية أو كربلاء بل في الموصل ربما أو في دهوك؟ من أين كان لي أن أعرف أن الدفتر الصغير الذي عثر عليه الأطفال، والذي حمل أسماء العديد من الجنود هو ليس غير الدفتر الذي تركه صديقي سلمان على خطوط

الجبهة، أما القصاصات تلك المكتوبة باللغة العربية وباللغة الإنكليزية فهي ليست غير قصاصات القصائد التي تبادلها صديقي سلمان مع صديقه دافيد باربييرو أو وايتمان الأسود، كما أطلق عليه سلمان؟ من أين كان لي أن أعرف أن دانييل حسين ذلك، الأميركي المسلم كما قالت عنه الجريدة، هو الأميركي الوحيد الذي لم يُعرَف تاريخ فقدانه لأنه لم يسجِّل تاريخ دخوله في سفارته. أراد التكتم على مشروعه عندما جاء إلى بغداد؟ من أين كان لي أن أعرف أن الرجال الملثَّمين قرَّروا قتله في النهاية لأن وجوده كرهينة في المستودعات بدأ يشكل عبئاً عليهم، كما سأعرف من وليم لاحقاً، ليس لأنهم انتظروني بما فيه الكفاية وعندما ملُّوا الانتظار قرَّروا قتله، بل لأن الأميركان أرادوا تحويل المستودعات إلى ثكنة عسكرية. لم تعد الثكنة القريبة تكفي خاصة بعد وصول وحدات جديدة للعراق من المارينز، قيل لا بد من ضبط الوضع الأمني ولهذا الغرض جلبوا 15000 جندياً أو أكثر، قرابة نصفهم عسكروا في بغداد. كان لا بد من البحث عن معسكرات جديدة لهم وهل هناك أفضل من المستودعات القديمة؟ من أين كان لي أن أعرف كل تلك التفاصيل وأنا تجنبت حتى المرور ببغداد؟ وليم هو الذي أخبرني بذلك، قال لي إنه عرف قصة ما حدث من سلمان. سلمان هو الذي أخبره، قال له إنه لم يظن أن القصائد التي استبدلها ذات مرة مع وايتمان الأسود،

دافيد باربييرو، ستظهر من جديد ذات يوم، وأين؟ في قرية نائية في غرب العراق عند جسر حجري قديم على ترعة صغيرة متفرعة من نهر الفرات، أي مكان شاعري؟ بل حتى الدفتر الصغير ذلك الذي كتبت فيه كل أسمائكم ظهر أيضاً في هذا المكان، نعم من ظن ذلك؟ تنقص الرسالة الأخيرة التي كتبتها هناك فقط، قال له سلمان، الرسالة التي أراد إرسالها لي مع نهاد، قال لي وليم، بصوت حزين امتزجت فيه نبرة من الندم، ربما لأنه ظنَّ في البداية أن ما رواه له سلمان هو هلوسة من هلوساته، ليس فيما يتعلق بالرسالة التي لم تصلني وحسب بل لأن سلمان قال له إنه الآن يعرف السبب الذي جعلني أغادر بغداد، سلمان حدثه بلهجة العارف لكل شيء، قال له: صديقي لم يستوعب اختفائي المفاجئ هذا بسهولة فمن الصعب عليه أن يفهم كيف أن شخصاً ما عزيزاً يختفي بسهولة دون كلمة وداع، دون أن يقول أي شيء؟ فلو كان ميتاً لدفنه المرء وانتهى من الأمر أو لو كان مختطفاً لفعل المرء شيئاً لأجل تحريره من قبضة خاطفيه لكن أن يذهب ويتبخر في الهواء بهذه السهولة أمر صعب عليه فهمه. الآن فقط يعرف السبب الذي جعل صديقه يغادر بغداد، قال له وهو يقصدني، بأنه فعل ذلك بسبب الأميركي هذا. نعم، كيف ينسى أنه سمع باسم دانييل بروكس أولاً من محمد باريس في مقهى حسن عجمي عندما جاء يطلب منك الذهاب معه، لكن صورة الأميركي المقتول وصورة

الأطفال وهم يدورون في القرية وبيدهم القصاصات والدفتر، دفتر الأحلام كما سمّاه سلمان، تلك الصور التي رآها على صفحات الجرائد وعلى شاشات التلفزيون أكدت لوليم أن صديقه على حق في كل ما قاله وكان عليه في الأيام اللاحقة أن يرى ما طرأ على سلمان من تغيير. كأنّه صار له وجهٌ ثالث أكثر حزناً من وجهيه السابقين، ليس ذلك وحسب بل أصبح أكثر ميلاً للعزلة، بقي في غرفته لا يخرج إلا في النادر، يشرب ليل نهار. لا وليم قادر على مساعدته ولا أحلام. ومن أين لهما أن يعرفا أن الدملة المليئة بالقيح والتي حملها سلمان معه زمناً انفجرت من جديد ورمت قيحها؟ لا أظن أنه روى للاثنين ما حصل له في دورة خفارته الليلية على جبهة حفر الباطن، لا أدري إذا كان حدّثهما عن الجندي نهاد الذي غافله كولونيل أميركي طيّار كان الأسير التاسع والعشرين أو الثلاثين والذي طعن نهاد بسكين، لا أدري إذا حدّثهما عن الأسرى الأميركان التسعة وعشرين أو الثلاثين الذين لا يدري إذا كان هو الذي أبادهم جميعاً برشاشته أم فعل ذلك ضابط أمن الوحدة، العقيد حيدر ملا كريدي؟ لا أدري إذا كان قال لهما إنه ومنذ تلك الليلة التي انتهت فيها الحرب بالنسبة للآخرين لم تنتهِ بالنسبة له وإن المشهد ذاك ما يزال أمامه: مشهده وزملاؤه يطلقون النار في كل الاتجاهات من جهة ومن جهة أخرى أسرى يحاولون الهروب وهناك في العمق يسمع صوت صراخ دافييد باربييرو، صراخ مالبورو كما

أطلق على شريكه في الشِّعر ذات ليلة وهما يتبادلان سجائرهما، هو يعطيه سيجارة بغداد والآخر يعطيه سيجارة مالبورو، أنا بغداد وأنت مالبورو، والآخر يقول له، أنا مالبورو وأنت بغداد. كان يقول له «آم ديفيد، سلمان» ثم بلهجة عراقية «أنا دافيد، سلمان»؟ لا أدري إذا حدَّثهما عن خرابه الذي حمله معه طوال كل هذه السنوات والذي لم يشفِه ترديده الدائم لتلك الجملة التي لم أفهمها في حينه، «بغداد... مالبورو». صحيح أن خرابه ذلك اختفى من وقت إلى آخر، لكنه لا يحتاج إلا إلى مناسبة بسيطة تُذكِّره به، لكي يصبح ماثلاً أمامه من جديد. وها هو يأتيه هذه المرة على شكل صورة أميركي مقتول، أميركي مرمي في العراء، صورة دانييل بروكس أو دانييل حسين، من غير المهم أي الاسمين هو الأصح، والأكثر تعذيباً له في هذه المرة هي معرفته، أن ليس لديه مكاناً آخراً يلجأ إليه. نعم، لم يكن أمامه في هذه المرة غير التحصن في شقته في منطقة الميدان، واحتساء العرق، هذا السمّ الذي يجعله لا ينتبه لما يدور حواليه وعندما جاؤوا لاعتقاله يتهمونه بتحريض أحلام على قتل القاضي ألف. ش لم يلحق حتى النهوض لفتح الباب، ركلوا باب الشقة بأرجلهم ودخلوا عليه ورشاشاتهم مصوَّبة إليه، عشرة رشاشات أو أكثر وعندما أصعدوه إلى سيارة الإسعاف خاطبهم، «أيها الجلادون اذهبوا إلى قراكم الصغيرة، لقد طردناكم وألغينا هذه الوظيفة». كان وليم يجلس عند باب الحانة

وعندما رأوه يهمّ بدفع كرسيه المتحرك باتجاههم طلبوا منه البقاء في مكانه، إن لم يحذورنه من الاقتراب. «ابق في مكانك أيها الكسيح» قالوا له. كانت تلك هي المرة الأخيرة التي رأى فيها وليم سلمان لكنها المرة الأخيرة التي سمعه يقول فيها، لم يعد هناك معنى للحياة. ذهب مالبورو وهذه المرة سيذهب بغداد. كأنه عرف ما سينتظره في سيارة الإسعاف أو كأنه أراد اللحاق بدانييل بروكس إن لم يشأ اللحاق أصلاً بشريكه في الشعر. دافييد باربييرو، مالبورو؟ أتذكّر أنني وطوال الوقت الذي روى فيه وليم ما جرى لسلمان وقفت عند بوابة الحانة، قدم في الحانة وقدم خارجها، لا أعرف ماذا أفعل. كنت مثل من شُلت حركته. أتذكر أيضاً أنني قلت لنفسي، إذن ما زال المسلحون في بيتي ينتظرون مجيئي لو لم يكن الأمر كذلك لتركوا الرسالة الأخيرة التي كتبها لي سلمان في جبهة حفر الباطن مع الدفتر، دفتر الأحلام وقصاصات الشعر. لم يفعلوا ذلك لأن الرسالة حملت عنواني وهذا يعني دلّ الأميركان عليّ. وهذا ما لم يشاؤوه. ألم يقولوا لي، ستعود وسيكون لكل حادثة حديث؟ على عكس لو تركوا الدفتر والقصاصات، أولاً لكي يقولوا، تلك أسماء ضحاياه موثقة في الدفتر، وثانياً، لكي يثبتوا أن ضحيتهم أميركي فمن يقرأ الشعر وبالإنكليزية إن لم يكن أجنبياً؟ ربما رآني وليم على حالتي تلك، لا أنوي على قرار، لا أعرف ماذا أفعل أو ربما أصر على سماع جواب لسؤال

ألقاه عليّ مرتين أو ثلاث من قبل. أتذكر فقط أنني سمعته يكرر السؤال ذاته: وماذا ستفعل الآن؟ صحيح أنني كنت في دوامة في تلك اللحظة، صحيح أن غشاوة غطت نظري كأنها أرادت أن تسد عليّ الطريق، صحيح أن نَفَسي تصاعد وقلبي ازدادت ضرباته، لكن سؤاله هو الذي فَجّر الدُمّلة عندي هذه المرة. كان لا بد لي من الإجابة عليه، ليس لأجله فقط وإنما لأجلي أنا، وربما ذلك ما جعلني أستدير له برأسي قليلاً، أحدِّق به لبرهة، وأقول له بلهجة الواثق: وماذا سأفعل يا صديقي غير أن أشتري مسدّساً في هذه المرة؟ وعندما رأيته يُحدِّق بي مثل مَن فاجأتْهُ إجابتي، أضفت، كأنني أردت طرد أي شك راوده: سأشتري نفس المسدس الذي اشترته أحلام: مسدساً نمساوياً من ماركة گلوك.

أكثر من شهر ونصف، سبعة أسابيع تقريباً والمسدس گلوك في حوزتي سواء عند خروجي من الفندق أو عند بقائي فيه وفي المرات التي ذهبت بها لمعاينة بيتي ولو من البعيد حرصت على حمله معي. كنت ألُفُّه مع الصحف والمجلات في محفظة جلدية صغيرة اشتريتها لهذا الغرض. أما في الأيام التي لم أغادر فيها الغرفة أو إذا غادرت فلمجرد القيام بجولة بلا هدف في المناطق المجاورة للفندق، شارع السعدون، الكرادة، الباب الشرقي مثلاً أو لزيارة قبر صديقي سلمان. أقول في هذه الأيام حرصت على ترك المسدس في الغرفة، في المحفظة الجلدية الصغيرة ذاتها لكن ليس في مكان

مكشوف، دائماً في حقيبة الملابس الكبيرة. أخفيه لكي لا يراه أحد عند تنظيف الغرفة وفي بعض المرات وهي كثيرة أبقى مُجمَّداً في فراشي أراقب الحقيبة، أقاوم رغبة إخراج المسدس من المحفظة ومسكه، تمسيده مثلما كان يفعل أبي مع أسلحته من حين إلى آخر، لكن شعوراً غامضاً كان يجعلني أتردد. من الصعب أن أصف لك هذا الشعور الذي اختلط فيه ربما الخوف مع التوجس والذي استحوذ عليّ منذ شرائي للمسدس. هل من المعقول أنني سأطلق النار على أحدهم؟ وعلى مَنْ؟ هل من المعقول أنني أنا الذي تجنَّبَ القتل في كل السنوات التي مرَّت، في الجيش وفي حياته المدنية، أنا الذي كره السلاح، أحمل سلاحاً الآن؟ المرة الأخيرة التي مسكت فيها مسدساً كانت في سد دوكان عندما كانت وحدتنا العسكرية معسكرة في الشمال لكن حتى ذلك المسدس كان مختلفاً. كان بالنسبة لي أقرب لقطعة ديكور منه لمسدس حقيقي وكان لا بد لي من الاحتفاظ به معي، تلك هي الأوامر والتعليمات، ضابط في الجيش لا بد له وأن يحمل السلاح، إنه جزء من القيافة العسكرية، الأناقة. ضابط دون مسدس مثل رجل بلا عضو ذكري، قال لي ضابط أمن الكتيبة حاجم صالح التكريتي كلما رآني دون أن أكون وضعت المسدس في مكانه الصحيح في الحزام أو أكون لبست حافظة المسدس الجلدية وهي فارغة، نوع من التمويه. كنت أتعمد ترك المسدس في غرفتي الجبلية. الجميع عرف

ذلك حتى سلمان ضحك ذات يوم وقال لي، مسدسك يمكن العثور عليه بسهولة في غرفتك مثل قطعة جوارب أو بسطال وكنت أكتفي بالضحك على تعليقه قائلاً: لكن البسطال أكثر فائدة بالنسبة لي، أما المسدس فهو قطعة جماد مرمية في المكان. تخيل حتى اسم ماركته لم تكن تعنيني فلو سألتني الآن عنها، لقلت لك لا أعرفها لأنني تجنبت حتى النظر إليه. لا أدري إذا كان ذلك له علاقة بما حدث لي مع أسلحة أبي فهو كان ينام والبندقية تحت سريره أما مسدساته الخمسة أو الستة فكان يخرجها من حين إلى آخر من صندوق حديدي قديم علاه الصدأ، ليس بالضرورة من أجل تنظيفها أو دهنها من جديد، أمر لم يهمله حقيقة، بل غالباً وقبل أن يمسكها بيده، يتأملها، يمسدها برقة كأنه أراد التأكد فقط بأنها موجودة وأنها ستحميه إذا استدعت الحال وكان ذلك يمكن أن يستغرق نصف ساعة أو ساعة قبل أن يرجعها إلى مكانها بعناية. وما لفت نظري أكثر في تلك الأيام هو أنني لم أتذكر أنه فعل ذات الشيء معي أو مع أخي الأصغر بغض النظر عن أمي، أن يكون عانقنا أو مسد علينا مرة بمثل هذا الحنان الذي منحه لكل قطعة سلاح من أسلحته، غالباً ما سمعته يقول أيضاً لأمي كلما أسمعته كلاماً غير مريح لاحتفاظه بالسلاح، بأن المسدسات هي بمثابة أولاده أما البندقيتان فهما ابنتاه الاثنتين. لا أدري إذا كانت هي غيرتي منها أو حسدي منها هما اللذان جعلاني أكره السلاح، وإذا كان لا

بد من أن يكون عندي مسدس كما حدث لي في فترة خدمتي في الجيش فليكن وجوده حيادياً فهو موجود هناك لا غير. أما هو فعلى العكس مني لم يُخفِ إعجابه ببندقيَّتَي أبي ومسدساته وحسب بل قال: إنه عندما يكبر سيملأ غرفة الضيوف بالبنادق والمسدَّسات، وكم غضب عندما عرف أننا أنا وأمي رمينا هذه الأسلحة كلها في النهر ولحسن الحظ أن أمي كانت إلى جانبي. كانت تقول، الرجال يعتقدون أنهم يتحكمون بالسلاح وينسون كيف أن السلاح هو الذي يتحكم بهم. كانت أمي تقول، لا يهم إذا كان السلاح سكيناً أم مسدساً. الاثنان فيهما روح العقرب والعقرب لا تعيش دون إفراغ سمومها، المسدس مثلها. ربما ذلك ما جعلني أخاف من المسدس في المرة هذه أكثر من كل المرات السابقة في حياتي. خفت أن يتحكم بي هو، أكثر من أن أتحكم به أنا. خفت أن أصبح أحد أولئك الذين يطلقون عليهم في الأفلام، «پيستيليروس» أصحاب المسدسات أو «الـگيـنـگستير» القتلة الذين يطوفون في طرق البلاد وشوراع وأزقة مدنها يبثون الرعب بين الناس. أو أكون مثل الرجال المسلَّحين الذين احتلوا بيتي وقتلوا «ذه سمايلي مان». أن أصبح قاتلاً، رقماً في الإحصائيات، أياً كان نوع المسدس الذي أحمله كما حاول أن يقنعني بائع السلاح الذي ربما رأى الرعب الذي استحوذ على وجهي عندما وقفت أمامه في ذلك الصباح، لأنه حدق بي مثل طبيب يعاين وجه مريضه، قال لي، وهو يفرز بسطية سلاحه

في زقاق خلفي في منطقة البتاوين ليس بعيداً عن الفندق الذي أقمت فيه، بالضبط في المكان الذي وصفه صاحب الفندق لأحد زبائنه، القضية لها علاقة بالسلاح الذي تريده، هجومي أم دفاعي، كما قال لي وهو يشير إلى قطعتي كارتون وضعهما أمام أسلحته التي فصلها على الطاولة على شكل مجموعتين، إلى اليمين الأسلحة الدفاعية، مسدسات وبنادق أوتوماتيكية وسكاكين، وإلى اليسار قنابل يدوية وأسلحة رشاشة خفيفة، كل أنواع الأسلحة حتى القديمة منها. قال: السلاح الهجومي لا يستطيع الصبر في البيت عليك أن تستخدمه فوراً، أما الدفاعي فيمكن أن ينام عندك في البيت شهوراً وسنين مثل حيّة البيت، غير سامة. طمأنني كلامه، جعلني أسترد أنفاسي وأبلع ريقي قليلاً حتى العرق الذي تصبّب مني توقف فجأة، لكن في الوهلة الأولى فقط لأنني ما إن فكرت بالأمر بعد حديثه مباشرة حتى بدأت حيرتي. حرت. ولأنني لا في لحظة سماعي تصنيفه للأسلحة ولا بعد شرائي للمسدس ماركة گلوك وحملي له في الأيام التالية، عرفت إذا كان شرائي للمسدس لغرض الدفاع عن النفس أم لغرض الهجوم؟ حتى خبرتي السابقة في الجيش لم تنفعني في فك حيرتي تلك، وحسب الخبرة تلك فإن الأسلحة الهجومية هي مدافع ودبابات وطائرات وقنابل. صحيح أن الرجل فاجأني بتصنيفه وجعلني أحار أكثر لكن ماذا تنفعني معرفة تصنيفه، بل ماذا يهم إذا كان السلاح

للهجوم أم للدفاع؟ من ناحية أخرى (وربما قدم لي ذلك بعض العزاء) بالتأكيد إنني لست الوحيد الذي كان عليه مواجهة حيرته تلك أو ذلك ما ظننته على الأقل، وإلا لما لاحظت مراراً وكلما سرت في الشارع والمسدس في جيبي أتلفت يميناً ويساراً كلما رأيت أحدهم يسير أو يجلس إلى جانبي وهو يتصبب عرقاً أو أراه يلتفت مرتبكاً يميناً ويساراً أو كلما رأيت رجلاً يضع يده في جيب سترة أو معطف، بل كلما رأيت امرأة تمد يدها إلى داخل حقيبتها اليدوية كلما ظننت أنني لست الوحيد الذي يحمل السلاح، ألم يقل لي البائع إن من الضروري اليوم أن يحمل كل شخص معه سلاح سينـﮔيلل للاستخدام الفردي والدفاع عن النفس؟ لكن لماذا سلاح سينـﮔيلل وحسب، لماذا لا يحملون أيضاً أسلحة أوتوماتيكية أو نصف أتوماتيكية، تلك الأسلحة التي هي بالنسبة للبائع أسلحة هجومية قطعاً، كما قال لي وهو يشرح ويقدم لي الأسلحة التي صفّها أمامه أو الأسلحة التي أخرجها شيئاً فشيئاً من حقيبة صغيرة أخفاها تحت البسطيّة، ربما لكي يقنعني أكثر بشراء سلاح غالي الثمن منه أو ربما رأى علامات النعمة على وجهي، من يدري، ربما ظن هو ذلك. أخبرني البائع وهو يخرج السلاح تلو الآخر، إنها خصيصاً لي! «لخاطرك» أو «إلك». انظر، قال لي، هذه رشاشة ألمانية ماركة أم پـي أربعين، رشاشة إنكليزية ماركة ستيرلينـﮓ، وهذه رشاشة ألمانية ماركة هكلير أوند كوخ سبعين،

للاختصار أچ كي، كما أوضح لي، وأخيراً رشاشة تومـپسون أم 1929 أي وان، وغيرها من الأسلحة القديمة التي لم أعد أتذكر أسماءها. نعم، لماذا لا يحمل الناس الأسلحة الهجومية تلك؟ ففي بلاد مثل بلادنا ومنذ دخول المارينز ضاعت الحدود بين الدفاع وبين الهجوم، كيف لهم أن يميزوا بين الدفاع عن النفس والهجوم، فمَن احتلَّ بيته وهو أعزل لن ينفعه أن يقول لنفسه بعد ذلك ـ كما في حالتي وفي حالة أحلام عندما رأت الرجل الذي قضى وطره معها وتركها فريسة للذئاب، وأصبح هو قاضياً بدرجة عالية ـ سيقول في حالتينا إنه اشترى سلاحاً للدفاع عن النفس وإنه هو الذي سيتحكم بالسلاح، وليس العكس؟ كلا، الأمر لا علاقة له بكل ما قاله بائع «بسطيّة السلام لبيع السلاح» حتى عندما حاول أن يمنحني الانطباع أنه لم يشأ أن يبيعني السلاح وحسب، بل هو مثل طبيب أو صيدلي، نوعية السلاح الذي يبيعه يحددها هو وليس الزبون، وأن عليّ الوثوق به فهو ليس خبيراً بالسلاح وحسب بل إن كل باعة السلاح الآخرين هم هواة وطارئون على المهنة، «حواسم»، قال لي، ثم هل رأيت يوماً في تلفزيون الستالايت الإعلان الذي يقدمه دويتشة بنك، أقصد البنك الألماني، سألني، يقول الإعلان: دويتشه بنك، لايستونـگ آوس لايدينشافت، يعني إنجازات عن شغف، هو الآخر قال لي، مثل البنك الألماني يبيع السلاح عن شغف لا غير، فهو وَرِثَ المهنة هذه عن أبيه

مثلما ورثها أبوه عن جده. اشتهرت عائلته كلها ببيع السلاح منذ جده الأول، منذ دخول الجنرال الإنـگليزي مود في 11 آذار/مارس عام 1917 إلى بغداد والدليل على ذلك هو حيازته كل الأسلحة القديمة هذه ورشاشة تومـپسون أم 1929 أي وان مثلاً التي نعرفها من أفلام المافيا القديمة، هي خير دليل على ذلك، مثلها مثل مسدس كارل ڤالتير پـي ثمانية وثلاثين الألماني الصنع، المسدس الذي ـ كما عرفت منه ـ استخدمته قوات العاصفة النازية في الحرب العالمية الثانية من عام 1940 إلى عام 1944 في تصفية الخصوم والمعارضين من ضحاياها والذي احتفظ به كقطعة أخيرة لكي يقنعني أكثر بخبرته في ثقافة السلاح كما يبدو، وأنني إذا جئت لشراء سلاح لا مثيل له، كما قال لي، فعليّ أن أشتري مسدس ماركة چيسكا 83 كاليبير 7,65، هل سمعت بضحايا الكباب في ألمانيا؟ قال لي، أكثر من تسعة أشخاص أصحاب محلات كباب قُتلوا بهذا المسدس وفي وضح النهار ومنذ سنوات؛ ثمانية أتراك وواحد يوناني، قُتلوا واحداً بعد الآخر ولا أحد يعرف قاتلهم لا الشرطة ولا أجهزة الأمن، مسدس أمين لصاحبه لا يترك أثراً غير خرطوشة الطلقة في جسم الضحية تستطيع أن تشتريه دون أو مع كاتم صوت. لم يهمني ما قال فإن الأمر الوحيد الثابت هو أن المسدس الذي سأشتريه منه إذا كان ماركة چيسكا 83 وحسب ظنه هو المسدس الدفاعي الحقيقي للرجال، المسدس

الكتوم والذي من الممكن أن يبقى خامداً عندي في البيت شهوراً وسنين (ألا ترى في ألمانيا وعلى مدى كل هذه السنوات من القتل لم يُعثر على صاحبه؟ قال لي) أو إذا كان المسدس النمساوي من ماركة «گلوك» الذي أصرَّيت على شرائه ظناً مني أنني سأسير بهذا الشكل على خطى أحلام وأن ربما تفكيري بذلك وحده سيشجعني وسيمنحني بعض التصميم لكي أنفِّذ ما نويت عليه. لن ينفع أن أبقى في الفندق وأدفع إيجار الغرفة الغالي إلى الأبد، فالمبلغ الذي في حوزتي والذي احتفظت به في بطانة السترة أحمله معي أينما ذهبت سينتهي ذات يوم. منحت نفسي في البداية مدة أسبوع حتى رأس السنة الجديدة، قلت لنفسي، لأحتفل برأس السنة الجديدة في الفندق وبعدها لكل حادث حديث، وهذا ما فعلته. قضيت الليلة في مطعم الفندق وسط صراخ مطرب شاب صوته تعبان ووسط فتيات شاحبات، كأن بقايا أعوام الحصار الاثني عشر من عام 1991 وحتى 2003 تركت آثارها على وجوههن. عبثاً حاولت بعضهن استمالتي وعندما يأسن، اقترحن، سنعمل لك خصماً وتسهيلات، النيك من كل الفتحات والقذف أينما كان، ظناً منهن أن عدم رغبتي بالنوم مع إحداهن هو بسبب المال، أو بسبب رغبات جنسية خاصة، ممارسة الجنس معهن من المؤخرة أو القذف في الفم، كيف أخبرهن بأنني أصلاً لم أحتفل في بار ومطعم الفندق لو لم أكن نويت على قرار خطير، فهل

هناك ما يسر في هذه البلاد، كما قال صديقي سلمان لكي يحتفل المرء برأس السنة أو بأي مناسبة أخرى، بل أردت أن أقول لهن، كيف يمكن لأحدنا أن يشعر برغبة جنسية أو يمكن له الانتصاب والسلاح والقتل والموت في كل مكان؟ لكنني رددت عليهن بلياقة ودبلوماسية. أنا متزوج. ضحكن من جوابي وقلن، ماذا تظن؟ من هم زبائننا إن لم يكونوا جميعهم متزوجين؟ أعرف أنهن على حق، لكنني سكتت. كل ما تمنيته هو أن تنتهي الليلة بسلام. ومرت بسلام، لم ينفِّذ المهددون تهديداتهم لا بضرب الكنائس ولا بضرب الحفلات أو إغلاق الحانات ومحلات الشرب باستثناء بعض الاعتداءات المتفرقة في اليوم الأول من العام الجديد، وكما تعرف فالناس تحتاج هذه التواريخ، تحتاج الأرقام المدوَّرة. خرجوا إلى الشارع وكان الجو لطيفاً أيضاً وجوههم بشوشة بعض الشيء. لماذا لا، قيل إن الوضع الأمني سيتحسن أكثر في هذا العام والناس تصدق، تحتاج أي عزاء، إلَّايَ؛ ليس لأن الوضع الأمني لم يهمني سواء تحسن أم ساء فبيتي ما يزال محتلاً وأصدقائي فقدتهم واحداً بعد الآخر إن لم أضطر لمفارقتهم كما في حالة ماجد كريم والدكتور غالب لطيف، بل كما في حالة أحلام ونخيل، (هذا إذا صنَّفنا الاثنين بصديقتين، لماذا لا؟)، فإن الصديقين الآخرين، سلمان ماضي ودانييل بروكس أو دانييل حسين، قُتلا بطريقة الذين حَكموا عليهما بالموت إن لم أشأ الحديث عن زوجتي أزهار التي قتلتها

طائرات الآباتشي الأميركية في وضح النهار. إلّايَ خرجت في ذلك النهار وعلى وجهي علامات التصميم وأنني سأنتهي من القصة في اليوم الأول من العام الجديد، سأدق جرس البيت وأدخل عليهم وأطلب منهم الرحيل، لكن اليوم الأول انتهى ومعه كل أيام الأسبوع، جاء الأسبوع الثالث وذهب، والرابع وذهب، ثم جاء الأسبوع الخامس وذهب وأنا على نفس المنوال لا أستقر على قرار، كأنني أوقعت نفسي في ورطة أو مصيدة ولا أعرف كيف الخروج منها. إما باقتحام بيتي المقتحم وإطلاق النار على الرجال المسلحين أو إطلاق النار على نفسي. لا تعتقد أنني لم أحاول ذلك لكنني في الحالتين اكتشفت عدم حيلتي وجُبني إذا كان ذلك جبناً، لكنني ما إن أصل إلى مدخل الشارع حتى أقف بلا حراك أتأمل البيت من البعيد ولا أجرؤ أن أتقدم خطوة واحدة على الأقل للتأكد إذا كانوا ما يزالون هناك أم غادروا. فماذا يفعلون هناك وقد أجهزوا على دانييل بروكس أو دانييل حسين؟ لكن ما لم أكن مهيئاً له هو أن أدفع الباب، باب بيتي وأجدهم هناك في الحديقة أو في الصالون. إن مجرد تخيل ذلك أرعبني ففي هذه الحالة لن يظل أمامي غير أن أطلق النار عليهم أو على الأقل أهدِّدَهم بإطلاق النار إن لم يغادروا البيت. لكن كيف أدعهم يذهبون وهم قتلوا رجلاً لم يكن بكل تأكيد هو ضحيتهم الوحيدة، من هم لكي ينَصِّبوا أنفسهم بمثابة الله، ويحكموا بالموت على الآخرين؟ تردُدي ذلك

والذي ينتهي غالباً بالإشارة إلى أي تاكسي عابر، خاصة إذا رأيت دورية من الشرطة أو من الجيش تقترب، أو بالذات إذا كانت دورية أميركية في طريقها إلى معسكرها الجديد في المستودعات كأنني أنا المُطارد. أنا القاتل، وليس أولئك الجالسين في بيتي. في السنتين والثماني شهور الأخيرة طفت البلاد بسبب هروبي من الرجال المسلَّحين، والآن رحت أطوف بغداد كل يوم في مكان، من حي إلى حين، من شارع إلى شارع لكي أهرب هذه المرة من نفسي أنا. في المرة الأولى أرادوني أن أصبح قاتلاً مثلهم، أن أقتل رجلاً لا عداوة لي معه، على العكس رجل جاء أصلاً للبحث عني ربما لكي أدلَّه على توأمه سلمان، والآن أريد أنا لنفسي أن أصبح قاتلاً، أن أقتل قتلة وسفاحين، ألم يقل لي الشاب أيضاً، صاحب «بسطية السلام لبيع السلاح» وفي لحظة وجد وهو يصف لي قطعة سلاح، أنه لا يبيع السلاح لأسباب شريرة بل من أجل سلام الناس وراحتهم، تلك هي الفلسفة التي سارت عليها عائلتة أباً عن جد؟ أعرف أن ما قاله هراء لكنني أعرف أيضاً أنني حسمت أمري وأن لا رجعة عن القرار وكنت كلما عدت خائباً من جولتي وأدركت أن يوماً مضى وأنا ما زلت أتردد بتنفيذ ما عزمت عليه كلما بقيت ساهراً لا أنام أجلس على حافة الفراش غالباً طوال ساعات الليل، أفكر بإطلاق النار على نفسي قبل طلوع الفجر. لا تظن أنني لم أحاول ذلك، ثلاث مرات، في المرتين الأوليتين لم أرفع المسدس إلا

ثوان قليلة في يدي حتى أرجعته بسرعة إلى الحقيبة وقفلت عليها. في المرة الثالثة وكنت شربت على الأقل نصف قنينة من هذا الويسكي الرخيص المصنع من شمال البلاد المزيف مثله مثل كل شيء في البلاد، شعرت ببعض الشجاعة وقفت أمام مرآة دولاب الملابس المكسورة ودفعت فوهة المسدس إلى فمي وأغلقت فمي عليه، ربما هو زجاج المرآة المكسور الذي جعل صورتي تنشطر أمامي حتى بدا منظري مرعباً هي التي جعلتني أصحو فجأة، أسحب المسدس وأعاينه ثم أعيده إلى مكانه في الحقيبة، على الأقل في تلك المرة أعدته بهدوء مثل طفل تضعه أمه في المهد لكي ينام. أتذكر أنني بعدها بكيت كثيراً وبِصَمتٍ كأنني أردت الاحتفاظ بنحيبي لي وحدي وأتذكر أيضاً أنني خرجت في الليل رغم أن الخروج في بغداد ليلاً، مغامرة. ذهبت باتجاه شارع أبو نؤاس، كان الشارع لحسن الحظ مضيئاً، لم يكن وقت انقطاع التيار الكهربائي على ما يبدو. وقفت عند السياج الحديدي الذي يفصل الشارع عن النهر. كانت تلك هي المرة الأولى التي فكرت فيها برمي المسدس في الماء لكنني لم أفعل ذلك لا في الليلة نفسها، لا في اليوم الثاني ولا في الأيام الأخرى. ذلك كان ديدني لمدة شهر ونصف أو أكثر، سبعة أسابيع تقريباً فحتى عندما ذهبت في يوم الجمعة لأزور قبر سلمان ورأيت نخيل جالسة على عادتها كما في كل يوم جمعة هناك عازماً على أن أسلم المسدس لها لا محال.

أنا لا أعرف إذا كانت نخيل تنتمي إلى صنف النساء اللاتي يقتنين السلاح عندنا، لكن من الممكن اقتراح الأمر عليها، لماذا لا؟ لربما السلاح بالنسبة للنساء هو لأغراض الدفاع بالفعل وليس لأغراض الهجوم كما هي الحال عند الرجال وامرأة مثلها تملك الكثير من الحكمة وضبط النفس تستطيع التحكم بالسلاح بدل أن يتحكم هو بها. ترددت بتسليمها السلاح حتى في يوم الجمعة ذاك وأجّلته ليوم جمعة آخر. قلت سأفعل ذلك في جمعة أخرى. لكن لم أفعل ذلك لا في الجمعة التي تلت ولا في أيام الجُمَع الأخرى، رغم أنني هذه المرة، وشكراً لنخيل التي لولاها لما قررت أخيراً تنفيذ ما عزمت عليه منذ مغادرتي حانة وليم في ذلك اليوم.

كان وليم هو الذي أخبرني في زيارتي الوحيدة له بأن نخيل ومنذ موت سلمان واظبت على الذهاب إلى المقبرة، كل يوم جمعة. تخيل نخيل المعلمة في المدرسة الثانوية والتي بدأت بكتابة أطروحة الدكتوراة في الأدب كما سمعت أصبحت خبيرة في ترديد النعاوي، بإمكانك سماع نواعيها كل يوم جمعة وهي تجلس عند قبر سلمان. كانت جملته تلك التي انطبعت في ذهني، قالها لي وهو يردد بعض النواعي التي حفظها منها. هو المسيحي. لكنني في المرات الست التي ذهبت فيها إلى المقبرة لزيارة قبر سلمان لم أشأ أن أزعجها في خلوتها عند القبر اكتفيت بالوقوف عند حائط المقبرة وفي مكان ليس ببعيد لكنه مخفي سمح

لي بمراقبتها في جلستها هناك عند المكان الذي وقفت فيه سيارة الإسعاف يوم دفن سلمان، كما وصفه لي وليم، وفي المرات الست تلك انتظرت انتهاءها من طقسها المعتاد: نثر الورد على القبر، ورد الجوري الذي أحبه سلمان وترديدها لنعاويها والتي حرصت على ترديدها دائماً بصوت منخفض حتى مغادرتها القبر مهما استغرقت جلساتها تلك من الوقت والتي كانت عادة تطول وتطول. المهم عندي أنها لا تراني، لم أشأ أن تعرف أنني هناك، ربما بسبب شعوري بالخجل أو بالتقصير إزاءها. سلمان على حق وما قاله لوليم صحيح، كيف يختفي المرء ببساطة دون كلمة وداع؟ صحيح أنني أنا الذي ساعدتها بالعثور على بيت يأويها هي وطفلها، دفعت أقساط الإيجار في الشهور الأولى إلى حين حصولها على موافقة نقلها إلى مدرسة ثانوية في بغداد إلا أنني لم أسأل عنها هي الأخرى كل هذه السنوات أو ربما تجنبت رؤيتها بسبب عدم رغبة مني بالكذب عليها، كيف لي أن أجيبها لو سألتني، أين كنت كل هذا الوقت، مات صديقك ولم تحضر حتى مراسيم دفنه؟ هل سأقول لها أنني هربت من رجال مسلحين احتلوا بيتي وطلبوا مني قتل رجل غريب، رجل أميركي بالأحرى، ظنَّ أنه شريك سلمان بالجريمة؟ أو ربما جاء أصلاً ليموت على يدي لكي يرتاح من تأنيب ضميره ولم يقل لي ذلك؟ من يدري؟ وإذا كان الأمر يصعب عليّ توضيحه فكيف سأنجح بجلبها إلى صفي

أو بجعلها تقتنع بكلامي على الأقل؟ هذا ما قلته لنفسي في كل زياراتي الست تلك. كنت أنتظر مغادرتها لكي أقترب من قبر صديقي وأنثر الورود التي جلبتها معي عليه لكن في المرة السابعة عندما اقتربت من السياج ورأيت شاباً وقف هناك بالضبط عند مكاني وقد وضع يده في جيب السترة فكرت، تُرى ماذا سأقول لنفسي لو حدث لها مكروه، لو كان الشاب مثلاً يحمل مسدساً وجاء لقتلها بالذات، ألا يقتل البعض دون سبب منطقي؟ للون جلدهم أو لدينهم أو لجنسهم؟ فلماذا لا تكون نخيل هي الضحية هذه المرة وكلنا نحن الذين عشنا سنوات الرعب والقتل على الهوية بقينا على قيد الحياة بالصدفة لا غير؟ صحيح أن الشاب لم تبدُ على وجهه ملامح شريرة وكان ما يزال يافعاً، ربما في الخامسة أو السادسة عشر من عمره. لكن من يعرف الذئب بملابس الحمل، من يعرف القاتل بملابس رجل دين؟ خاصة الهجوم على النساء، فإن مدينة البصرة وحدها فقدت في العام الماضي 136 امرأة قُتلت من قبل ميليشيات دينية (وهذا ليس هو الرقم الرسمي وحسب، بل إنه لا يتضمن أيضاً بقية النساء المقتولات في مدن أخرى وهن بالمئات)، رغم أن الشاب لبس ملابس عصرية، تسريحة شعره ومنظره لم تدلّا على أنه أحد المتطوعين في تلك المليشيات لكن وقفته ويده في جيبه والتي أوحت لي بالتأكيد أنها تمسك بسلاح جعلتني أخاف على نخيل. كانت تلك هي المرة الأولى التي شعرت

بقلبي يخفق هذا الخفقان، هل تعرف، ماذا يعني أن يشتد قلقك على إنسان؟ يعني أنك تحبه. لم أدرِ في تلك اللحظة إذا كان ذلك ما حصل لي وتلك هي أول إشارة بالحب تجاه نخيل لأن قلبي خفق بقوة ليس لها مثيل.كلا، من غير الممكن أن أصف لك إحساسي بذلك الخفقان؟ لنقل إنه يشبه خفقان أذين قلب يلمسه سلك يدخل إليه عن طريق الشريان، لا أدري. هل تعرف بأنني لم أشعر بتلك الرعشة التي تسري من أعلى الرأس حتى القدم منذ زمن بعيد، زمن مضى، يا إلهي كم هو عدد السنوات التي مرت وأنا لا أعرف إن كان لي قلب، ربع قرن؟ أقصد، عندما كنت أرى أزهار قادمة من البعيد، كان القلب يضرب، دُم... دُم... دُم... لدرجة أنك تخاف عليه فتضع يدك على قلبك كأنك تخاف أن يقفز من مكانه ويتركه فارغاً؟ لا أظن أن ذلك غريبٌ عليك؟ من لا يتذكر أول لحظة حب؟ السنون تمضي، صحيح أننا نشيب لكن تظل ذكرى أول خفقة حب حاضرة محفوظة في دواخلنا، نظن أننا نسيناها، ما عدنا نتذكرها أو نعرف طعمها لكنها لا تحتاج إلّا إلى مناسبة ما، كبيرة أم صغيرة لكي تبزغ من جديد مثل برعم يتفتح أو مثل شعاع شمس يشق طريقه عبر الغيوم، كأنني كنت في ذلك اليوم بحاجة لهذا الشاب الذي وقف يراقبها هناك، كأنه الهدية التي نزلت عليّ من السماء؟ ولقول الحق، الآن وأنا أروي القصة لك بدأت أشك إذا كنت رأيت بالفعل أحداً وقف هناك لأنني لا في وقفتي تلك في

الزاوية الأخرى من السياج رأيت الشاب يبتعد، ولا عند مغادرتي للمكان عندما سرت ناحيتها في المرة هذه، ناحية نخيل، إذ فجأة لم أجد الشاب الذي اختفى بلمح البصر من المقبرة، كأن كاتباً روائياً أو مخرجاً سينمائياً أعطاه مهمة أن يظهر هناك لحثّي على التحرك باتجاه نخيل، هذا ما قلته لنفسي عندما وجدتني أقف عند رأسها فجأة وهي جالسة عند القبر، شفتاها تتمتمان ببعض الكلمات، وعندما رأيتها ترفع رأسها وتتطلع بي، عرفتُ أنني حسناً فعلت ولم أُعطِها المسدَّس، ليس لأنني شككت عند التطلع بوجهها الحزين، لكن الغاضب أيضاً بقدرتها على التحكم به، أو ليس لأنني كنت منحتها بهذا الشكل الانطباع أنني رجل مهزوز وجبان، رجل يائس لا يمكن الاعتماد عليه؟ بل لأنني اكتشفت أنّ عليّ أن أفعل كل ما في وسعي لأُجنِّب المرأة هذه الاقتراب من السلاح. كم لعنت في حينه خوفي من رؤيتها وتجنُّبي للقائها كل هذه الأيام فهي لم تحتج إلا لفسحة قليلة من الوقت لكي تسترد أنفاسها، لكي تُصدِّق أنها تراني أقف إلى جانبها عند القبر، هذا ما رأيته في عينيها اللتين فتحتهما على اتساعهما بكل ما حوتهما من بريق في تلك اللحظة كأنها تمنّت هبوطي عليها من السماء وها هي تراني أمامها على الأرض، قالت لي: إذن أنت الذي يأتي بالورد وينثره إلى جانب وردي الذي أتركه على قبر سلمان، ثم أضافت وهي تشير ناحية المكان الذي ظننت أنني رأيت فيه الشاب قبل قليل، لقد

أخبرني ابن صاحب المقبرة بأنه يرى كل مرة رجلاً يأتي بعدي ومعه باقة ورد يضعها على قبر سلمان، قلت لا بد وأن يكون هو أنت وإلا من يتذكر سلمان. كانت نبرتها حزينة لكنها ابتسمت في هذه المرة كأنها لم تبتسم منذ سنوات، أخذت مني باقة الورد الصغيرة التي حملتها ووضعتها بعناية إلى جانب باقتها التي استقرَّت هناك، جلست إلى جانبها، قلت لها، لقد روى لي وليم القصة كلّها وأنا سعيد برؤيتك بعد كل هذه السنوات، كم أنا آسف أنني لم أتصل بك قبلها، ثم رويت لها ما حصل لي كل هذه السنوات، أصغت لي بهدوء وكانت طوال الوقت تُحَدِّق كأنها احتاجت وقتاً أطول ليس لكي تصدق ما رويته لها، فقصتي مقارنة بقصتها أو بقصص أخرى جرت لعراقيين آخرين هي قطرة في بحر لا أكثر ولا أقل، كلا، أظن أنها احتاجت الوقت الأطول لكي يصبح وجودي لها واقعياً، لكي تُصدّق أنني وبعد كل هذه السنوات لست على قيد الحياة وحسب بل لم أتغير ناحيتها أو ناحية صداقتي بسلمان. ها أنت تعود بعد غياب، أهلاً وسهلاً بك، قالت لي، كأنها عرفت أنني كنت على رحيل، ثم أضافت، الباقي ستحله بالحكمة بالتأكيد فشخص مثلك لا تعوزه الحكمة أبداً، أهلاً وسهلاً بك في كل الأحوال. كان بودّي أن أحضنها في تلك اللحظة، لكن حضن وعناق امرأة علناً في العراق يقود إلى نتائج غير محمودة بالتأكيد حتى إذا كانت المرأة أختاً أو صديقة عزيزة. يا إلهي أي شعور استحوذ عليّ في تلك اللحظة،

ليس لأنها تحدّثت عن حكمة مفترضة عندي فأنا نفسي أشك بوجود الحكمة هذه، بل أشك بوجودها على الإطلاق، هل نسيت أن الحكمة غادرت البلاد منذ زمن سحيق؟ كلا، الشعور اللذيذ الذي استحوذ عليَ في تلك اللحظة هو سماع صوتها الرقيق وهي تقول لي، أهلاً وسهلاً بك، كم مرّ زمن على ذلك ولم أسمع الجملة هذه في البلاد، في كل ترحالي كنت مثل الرجل الغريب في المكان الغريب، والآن أنا مع نخيل. شعرت أنني كمن أصبح عنده كل نخيل العراق. بأنني أنتمي إلى المكان، هل نسيت الأغنية التي تقول، الوطن يجب أن يكون المكان الذي تشعر به أنك في بيتك، من غناها، فرقة توكينـگهيد؟ أو الأغنية الأخرى التي تقول، افتح قلبك أنا قادم إلى البيت، لفرقة ﭙنك فلويد على ما أظن؟ في تلك اللحظة شعرت بأنني مثل من يعود إلى البيت وتقول له زوجته، حبيبته، أهلاً وسهلاً نوَّرت علينا البيت، صوتها الدافئ والحزين، طريقتها بلمس أطراف السترة التي لبستها، الكلمات التي اختارتها في الحديث، كل ذلك جعلني أشعر أنني إذا بحثت عن وطن أو ملاذ جديد فلن يكون هناك غير قلب نخيل وأنني إذا أردت أن أفعل شيئاً للمرأة هذه الجالسة إلى جانبي عند قبر صديقي، المرأة التي كانت ذات يوم زوجة صديقي فهو ألا أجعلها تشعر أنني أسحب نفسي عنها، على العكس عليَ أن أفعل كل ما في وسعي لكي أجعلها تشعر أنني هنا إلى جانبها. لا عذر لي بعد اليوم لكي أبدأ معها أو

لكي أبدأ حياتي من جديد، لا بد لي أولاً من تنفيذ ما عزمت عليه، الانتهاء من قصة البيت وتصفية الحساب مع محتلّيه، فكيف سأطلب منها العيش سوية، كيف سأسألها إذا رغبت أن تكون زوجة لي وأنا لا بيت لي؟ حتى تلك اللحظة كنت مصراً حقيقة على البقاء هناك في البلاد، في بغداد بالذات لكن لكي تقول إن هذه البلاد تعود لك وإنك تقيم فيها بصفتك أحد مواطنيها لا بد أن يكون عندك سقف فوق رأسك أو ملاذ يأويك؟ لا أن تعيش مشرداً مثلي بلا أهل ولا بيت ولا أصدقاء؟ لا أظنك تختلف عني في الرأي؟ لا بالأمس ولا في اليوم بل حتى ولا في الغد. على أية حال لا بد وأنني اضطربت حينها بشكل واضح أو لا بد أن أكون منحتها الشعور هذا بالاضطراب لأنني رأيت الحزن يهجم فجأة على عينيها. أتذكر أنني فكرت أنها ربما ظنت بأنها كانت السبب وراء القلق الذي استحوذ عليّ بسبب ما روته لي هي أيضاً من قصص، هو ما جعلني أشعر بعدم الراحة وأثار عندي الاضطراب، قصة ابنها آدم مثلاً، دون أن تدري أن ما روته لي وبالذات ما تعلق بآدم ليس هو ما جعلني أسهو قليلاً وأشعر بالحزن فكيف لي أن لا أفهم ما حصل للصبي. آلاف الصبيان انتهوا إلى نهاية شبيهة؟ روت لي نخيل أنه ومنذ موت أبيه وهو يلحُّ عليها أن تشتري له السلاح، يقول لها، لماذا هو الوحيد في حيّهم الذي ليس في حوزته سلاح. وحتى عندما تطلب منه أن يصطحبها لزيارة قبر أبيه، كان يرفض منذ طفولته أن

يزور القبر قبل الانتقام لأبيه، رغم أنها تستغرب تعلُقه هذا بأبيه وهو لم يره إلا وهو صغير. كان يقول لها بأنه يسامحه إن كان أبوه يشعر بالذنب تجاهه وبأنه تركهما ورحل. طبعاً لم تحدثه لا عن قصة أحلام ولا عن سكن أبيه في منطقة الميدان، لا عن هلوساته وظنونه، لا عن عدم نومه وصراخه في الليل. لم تقل له إن ما قتل أباك هو الشعور بالذنب هذا الذي ظل يلحُ عليه. كان على يقين بأنه إن لم يكن هو الذي قتل الأسرى الأميركان التسعة والعشرين أو الثلاثين فإنه هو وليس غيره الذي قتل صديقه في الشعر الجندي الأميركي، دافييد باربييرو. نعم كان واثقاً من ذلك كما قال لها ذات ليلة. كلا لم تحدثه بكل ذلك حتى عندما كبر وأصبح صبياً قالت له إنها هي التي تركت أباه ولا تريد العودة إليه، كذب أبيض، قالت لي، كان لا بد أن تقول له ذلك ظناً منها أنها بهذا الشكل لن تفقد ابنها؛ فلتجعله يكره أباه. كانت تعرف ما يدور في داخله فهو يتألم ويريد الثأر لموت أبيه وهو في النهاية سواء بمساعدتها أو بدونها سينفذ ذات يوم ما نوى عليه، سيشتري السلاح. قالت لي نخيل، في الحي الذي نسكن فيه يشتري الصبيان أسلحتهم علناً في السوق، صبيان لم يدخلوا العاشرة من العمر وهم يعرفون كل أنواع السلاح، يتحدثون عنه مثلما يتحدثون عن دمى وألعاب، فكيف لا يفعل آدم ذلك وهو يكبرهم بالعمر. القصة تلك التي ظنَّتها أثارت الرعب عندي، دون أن تدري أنَّ ما روته لم يكن غير

قصة، مهما حوت من تراجيديا وألم، إلا أنها تظل واحدة من قصص أخرى شبيهة لها حدثت للآلاف في بلاد الخراب هذه، وأن تقدير الرعب الذي حوت عليه يظل نسبياً. القصة تلك، قصة آدم لم تفاجئني لا في بدايتها ولا في نهايتها عندما روتها لي نخيل بحرقة وألم، كيف أنها في النهاية اشترت السلاح الذي أراد. كان من الأفضل أن أختار أنا له المسدس على أن يختاره له الآخرون خاصة وأن بعض الصبية انطلت عليهم الحيلة واشتروا أسلحة صدئة أو تالفة، بعضها ارتدت طلقاتها عليهم وقتلتهم، قالت لي. دون أن تدري أن السلاح ما إن يصبح في حوزته حتى يبدأ بالتحكم فيه، وليس العكس. لم تعرف أن ابنها الذي أرادت إنقاذه بهذه الطريقة سيبدأ يغافلها منذ ذلك اليوم ويخرج إلى الشارع ليطلق النار على كل سيارة إسعاف تمر في المنطقة، ألم يُقتل أبي في سيارة أسعاف؟ كان يقول لها وكانت هي تصرخ به، ولم تعرف بعدها ما تفعل. فجأة اكتشفت الخطأ الذي قامت به لكن بعد فوات الأوان وكانت كلما أخذت المسدس منه كلما نجح بالعثور عليه مجدداً حتى عندما كانت تضعه في حقيبتها اليدوية كانت تكتشف عند خروجها من البيت باتجاه عملها بأنه سرق المسدس من حقيبتها اليدوية كما حدث في ذلك اليوم المشؤوم. كانت في المدرسة عندما سقط صريعاً، قيل لها بأن دورية للجيش أو للشرطة أطلقت عليه النار، البعض الآخر قال لها، مات مقتولاً على يد مدنيين

مسلحين عندما أطلق النار على سيارة إسعاف غير حكومية هذه المرة، البعض من الجيران كان على يقين أن قتَلَتَه لم يكونوا عراقيين بل مرتزقة لإحدى الشركات الأمنية، شركة بلاكووتير مثلاً أو غيرها، ألا تزدحم البلاد بمئات الشركات من هذا القبيل؟ المشكلة بالنسبة لها هي أن قتَلَتَه ادَّعوا بأنه جريح وأنهم يأخذونه لأقرب مستشفى، لا بد من معالجة جراحه فوراً. قالوا للناس الذين تجمهروا في مكان الحادث. عبثاً فتشت عنه نخيل ولم تعثر عليه في كل مستشفيات بغداد. لقد تبخر آدم، اختفى، قالت لي، حتى جثَّته لم تحصل عليها. مفقود، هل تعرف ماذا يعني ذلك، سألتني، يعني أنه ذهب دون وداع. أية تعيسة أنا، قالت لي بصوت متهدِّج، في الأول فقدت سلمان ثم ابني؟ لكن على الأقل سلمان له قبر، أي عزاء؟ قالت لي، بعد أن هدأت قليلاً ثم اعتذرت مني، سامحني أرجوك، فأنت لا ينقصك الحزن لكي أروي لك هذه القصة، قالت لي وهي تمسح دموعاً شقت طريقها قبل قليل على الخدين. كانت تلك هي المرة الأولى التي رأيتها فيها تبكي. أعرف أن ما حصل لآدم حطَّم قلبها أكثر. ربما حملت كلمة مفقود في الأيام العادية في أيام السلام (مرة أخرى: متى كان عندنا سلام؟) بعض الأمل بعودة من فقدانه لكن في أزمان الحرب والديكتاتوريات يختفي المفقود دون عودة، وعلى الأغلب يعني ذلك تأكيداً على موته لكنه موت لم يُبَتّ به حتى الآن لعدم العثور على

جثّتِه، إنه دفْنٌ بلا وداع أو موتٌ بلا دفْن، إذا شئنا ذلك، هذا ما يجعل ذويه يواجهون فراغاً من الصعب تحمله لأنه كلما كان حزنهم عميقاً كلما ظل دون عزاء لأن المفقود يرفض تقبّل طقس الوداع، لا مكان له، لا قبر له يُزار، من يُفقَد لا يترك شيئاً وراءه أكثر من فراغ وأقرباء. وذلك ما رأيته على وجه نخيل. كم كان بودّي أن أمُدَّ يدي إلى خدها لأمسح دموعها أو على الأقل تلك الدّمعة التي لمعت إلى يسار أنفها بالضبط عند الأخدود الذي حفرته الخيبات، الدمعة التي أصرّت كما يبدو على البقاء في وادي خدّها، كم كان بودي أن أقول لها، لا داعي للاعتذار. لأن ما رأته من قلق واضطراب عندي لا علاقة له بما روته من قصص، له علاقة بي أكثر بترددي هذا الذي تراكم عندي على قرابة شهرين، وإن حديثها معي خاصة ما روته عن آدم وموته ذكّرَني بالواجب الملقى عليّ. لا بد أن أفعل شيئاً. أتذكر أنني في اللحظة التي رأيتها فيها تبكي تذكّرتُ أحلام، وكيف أنها قالت لي ذات يوم، عليك أن تبحث عن امرأة طيبة وجميلة، زوجة لك، فلماذا لا تكون الزوجة هذه هي نخيل؟ ولكن يا إلهي، كيف أقول لها لنتزوج وأنا دون عمل وبيت؟ أتذكر أنني شعرت برعشة قوية لكن سريعة. حدقت بها قليلاً وكأنها لاحظت الرعشة تلك، كأنها رأتني كيف أكوّر نفسي وأضع رأسي بين ذراعيّ أو كأنها عرفت ما دار في رأسي. أتذكر أنني رأيتها تنهض وكأنها عرفت أنني أنا الآخر أريد النهوض في تلك اللحظة وعندما قلت لها،

عليها الذهاب الآن وإنني سأزورها يوم غد وعليها منذ اليوم الاعتماد عليّ، هزت رأسها موافقة كأنها انتظرت الجملة تلك مني منذ زمن طويل حتى أنها تطلعت بي مرات عديدة ونحن في طريقنا إلى خارج المقبرة حتى أصبحنا عند الشارع، وفي تلك اللحظة التي ودعتها فيها بالذات، ورأيتها تصعد في سيارة السيرفيس باتجاه البيت، بيتها طبعاً، مرّ شريط حياتي المستقبلي كله أمام عيني، هل تعرف وحتى تلك اللحظة كان يمر أمامي شريط حياتي الماضية دائماً، وهل لدينا غير الماضي في العراق؟ لكن منذ اللحظة تلك، لحظة مغادرة نخيل ارتسم أمامي وللمرة الأولى شريط حياتي الآتية. نعم، شريط حياتي الآتية تشكَّلَ أمامي بتتابع وبوضوح بما حوى عليه من واقع وخيال، من أمانٍ وأفعال وأنني ربما بهذا الشكل أردت أن أقنع نفسي بأنني تغيَّرت بالفعل وما عدتُ الشخص الذي كان، ومن غير المهم إذا صدّقت أنا نفسي بأنني أنا الآخر سأسير على خطى نائب العريف سلمان ماضي واللويتنانت الثاني دانييل بروكس، سأصبح قاتلاً بالصدفة رغم أن الاثنين لم يختارا لا جبهات الحرب التي أُرسِلا إليها ولا اللحظة التي كان على أيديهما أن تضغط بها على الزناد، وأنا؟ على أية جبهة كان عليّ القتال؟ هل هو قدرنا في بلاد التعساء هذه ألا يعود هناك تمييز بين الجبهات؟ هل قدرنا أن علينا القتال دائماً حتى إذا كنا لا نريد؟ في هذه البلاد عليك أن تختار بين مهنة القاتل أو القتيل؟

قال لي سلمان ماضي ذات يوم، لكن لماذا لا توجد مهنة ثالثة كما ظننت؟ لا أدري، بل لم أشأ لحظتها بالبحث عن جواب، سبعة أسابيع كانت كافية لكي أحسم أمري، سبعة أسابيع كانت كافية لاستنفاذ كل الأعذار. لكن الآن وبعد لقائي بنخيل أي عذر سيتبقى لي؟ أتذكر أنني شعرت بجسمي كله يرتعش وبحرارة تصعد إلى رأسي كأنني تحولت في تلك اللحظة إلى شخص آخر تماماً غير الذي كنت عليه وكأن الأسابيع السبعة تلك لم تكن غير تمرينات أولية للشخص الذي سأكونه. ها أنا أكتمل الآن، قلت لنفسي، ولا أعرف بعدها ما حصل بالضبط، صحيح أنني نسيت الكثير من الأمور بعد ذلك الحين، نسيت إن كان لي اسم آخر، حياة أخرى وبلاد، صحيح أن كل ما حصل بعد ذلك اختلط فيه الواقع مع الخيال، الحقيقة مع الاختراع، الصدق مع الكذب، التذكر مع النسيان إلا أن الأمر الحقيقي الوحيد الثابت هو أن شريط حياتي الآتية امتثل أمامي في عصرية يوم الجمعة تلك بتتابع وبوضوح. بالضبط في اللحظة التي رأيت فيها نخيل تصعد في سيارة السيرفيس وتلوح لي بيدها بإشارة للوداع. نعم في اللحظة تلك رأيته يتشكل أمامي مقطعاً مقطعاً وعلى هواي. هذا ما أتذكره الآن: أتذكر كيف أنني ما إن أرى اختفاء سيارة السيرفيس حتى أشير إلى سيارة تاكسي وأطلب من سائقها أن يأخذني إلى بيتي فوراً وأنني ما إن أصل إلى هناك حتى أقف عند زاوية الشارع ربما سأذهب بعدها إلى

السوق القريب أو ربما سأذهب إلى محل بيت المشروبات الصغير الذي اعتدت الجلوس فيه أيام زمان أو ربما سأظل محافظاً على وقفتي بمواجهة البيت لكن في كل الأحوال سأنتظر اللحظة التي تغيب فيها الشمس لأتجه صوب باب البيت، لماذا يبدأ العمل في المجازر ليلاً والذبح يبدأ في الرابعة فجراً، لماذا هذا التوقيت بين حفلات الإعدام البشرية وذبح الحيوانات، سألني سلمان ذات يوم ظناً منه أنني أعرف إجابة على سؤاله، قال لي، أجبني أنت الجلاد والخبير أنت الجلاد والحكيم، هل نسيت، وكان الفجر رمادياً كضوضاء المحكوم عليهم بالإعدام، قال لي وهو يُحَوِّر بيتاً شعرياً للروسي بوريس باسترناك، حسناً يا سلمان، قلت أخاطب نفسي، لكن كأنني أخاطبه هو، هذه المرة أردت أن أقلب أنا المعادلة، أن أدخل على الرجال الملثّمين محتلِّي بيتي في الساعات الأولى من المساء، قتلة مثلهم ينامون في النهار ويتحركون في الليل، بالضبط بعد ساعات منع التجول، بعد العاشرة ليلاً على أقل تقدير، سأغافلهم في نومتهم، بالتأكيد لن يسمعونني عندما سأدخل عليهم، ليس لأنهم غرقوا في نوم عميق بل لأنني سأدخل عليهم دون ضجيج. أعرف كل زاوية في البيت؛ إنه بيتي وذلك ما رأيته في شريط حياتي الآتية في يوم الجمعة ذاك رأيت كيف أنني ما إن أصبح بمحاذاة الباب حتى أمد يدي من تحت الباب أدوِّر عتلة الحديد وأفتحها كما كنت أفعل أيام زمان عند نسياني المفتاح

وعندما ينفتح الباب أدفعه بهدوء. من الضروري ألا أجعلهم يسمعون في الداخل صوت صرير الباب، أعرف أنني في تلك اللحظة سأردَ الباب ورائي وأغلقه أيضاً بهدوء تام وإذا حدث ونادى أحد من داخل الصالون يسأل عن القادم الجديد فسأخترع لي اسماً في الحال، سأقول له أنا هارون، هارون والي مثلاً، لماذا لا؟ أو ربما سأصمت لكي أجعله يظن أنه واهم لا غير وإذا رأيت أحداً يخرج من باب الصالون سأطلق النار عليه فوراً، لكن إذا نجحت خطتي كما رأيتها في يوم الجمعة ذاك في شريط حياتي الآتية، إذا سار كل شيء على ما يرام فسأقطع الممر وأنا أسير على أطراف أصابعي سأمر بسيارتهم البيك آب متخفياً بعض الشيء، سألتف حول البيت وأدخل عليهم من الباب الخلفي للمطبخ بالضبط عند الفتحة التي تفصل حائط البيت الخلفي عن بيت الجيران، نصف متر لا أكثر لكنها كافية لاستيعاب جسمي النحيف. أعرف أن شباك المطبخ هناك دائماً مفتوح وأنا متأكد تماماً أن لا أحد منهم سيكون هناك. سيكونون جلسوا في الصالون، يعاينون التلفزيون أو يهيئون خططهم الجديدة للقتل. أعرف أنهم ستة وفي مسدسي ما يكفي من الطلقات. من غير المهم أنني لا أحمل كاتم صوت مثل مسدس چيسكا 83 الذي حمله القتلة الألمان قتلة الكباب أو كواتم الصوت الأخرى التي يتجول بها القتلة العراقيون والقتلة من الجنسيات الأخرى طليقين، نعم، أنا أحمل مسدساً عادياً سنگيلل

من ماركة گلوك، لا أدري إذا سيُصنفون مسدسي بصفته مسدس دفاعي أم هجومي لأن كل ما أعرفه هو أنني سأطلق عليهم النار وسأوزع الطلقات على ستة منهم بالتساوي والبقية منها أفرغها في سابعهم، قائدهم الملثَّم الذي وقف طوال الوقت في لحظات استجوابي عند الباب الذي يؤدي إلى غرفة النوم، كل شيء يشير إلى أنه هو الذي يقودهم، لقد رأيت ذلك بنفسي كيف أنني كلما سألتهم عن شيء ذهبوا يتشاورون معه. سيكون نائماً لحظة دخولي بالتأكيد، فعقل مدبر مثله لا بد له وأن يرتاح بعض الشيء لكي يهّيء نفسه لقتل جديد. طاق، طاق، طاق، طاق، طاق، طاق، ست رصاصات سأفرغها بالرجال الستة الذين ناموا على الأرض في الصالون والبقية عشر أو عشرين طلقة، لا يهم، سأفرغها كلها بسابعهم الذي لن ينزع لثامه حتى في النوم سيكون استلقى في غرفة نومي طبعاً، قائد مثله لا بد أن ينام على فراش، فراشي طبعاً، طاق، طاق، طاق، طاق، طاق، طاق... حتى نهاية العالم لهذا السفاح. سأقول له، تلك الطلقة لدانييل بروكس اللويتنانت الثاني السابق، ذه سمايلي مان، لماذا كان عليه أن يموت؟ سأساله؟ ألم يكفِك ما كان فيه من عذاب؟ حتى دينكم الذين تدافعون عنه دخل فيه وأصبح مسلماً، فماذا تريدون؟ وتلك طلقة لسلمان ماضي، بغداد كما سماه صديق له، هل سمعت بشاعر بهذا الاسم، هل عرفت شاعراً لم ينسَ الشعر حتى وهو

في الخندق، هل سمعت بشاعر حمل عذاب ضميره مثل صليب وعندما شعر بالاختناق ترك عائلته وابنه وقال سأذهب للعيش مع المسحوقين حالي حالهم. لم يشأ يوماً لعب دور اللّه؟ وماذا عن دافيد باربييرو الجندي الآخر الذي عشق الشعر، شريك سلمان في المصيبة، والت وايتمان، كما لقبه سلمان؟ إذن خذ هذه الطلقة له، سأقول للملثم وهو في رقدته تلك؟ أما الطلقة هذه فسأطلقها عليك لنهاد، هل تعرف نهاد الصابئي المندائي سليل عائلة سمر ملا ابراهيم الذي أراد السير على خطى أحد أخواله، نقّاش الذهب نور ملا ابراهيم أو الملاك. أراد أن يترك مثله بصمات ختمه على كل نقش في البلاد؟ أي حزن لف أمه ساعتئذ بالتأكيد، مات ابنها صغيراً وقبل أن يحقق حلمه ويصبح نقَّاش ذهب وفنّان، جاءه الموت على شكل كولونيل مارينز، شريك لك بالكراهية والقتل والدمار، سأسأله؟ تلك طلقة لأحلام، هل عرفت أحلام، طبعاً ستقول إنها عاهرة لا شرف لها ولا أخلاق ولا يتذكرها إلا خونة مثلك، لكن لا ضير، خذ الطلقة هذه التي تحمل اسم أحلام، من يدري إذا كانت ما تزال تعيش، فحسب ما أكده لي وليم، السجن الذي وضعوها فيه ليس له عنوان وحتى إذا ظنوا أنهم تخلصوا منها، قتلوها على طريقتهم، فإنهم سيخيبون، أحلام قُتلت منذ اليوم الذي تركها فيها ألِف. ش فريسة للذئاب؟ هل تعرف القاضي ألف. ش شريكك بالقتل ووجه إبليس، من غير المهم أنه من مدينة أخرى

ومذهب آخر غير المذهب التي أنت عليه؟ وأما الطلقة هذه، الطلقة التي أتمنى أن تكون الأخيرة فهي لأزهار، أعرف أنك ستقول لي، انتظر لحظة أرجوك، أنا لم أقتلها، قتلها الأميركان، لكنك لا تعرف أن القتلة والسفاحين لا تفرِّقهم هوية أو يميزهم دين، لا تمايز بينهم في لون جلد أو جنس، كلهم على دين واحد ولغة واحدة، القتلة شعب واحد، عشيرة فتحت مضاربها في كل مكان، هل تعرف الرائد أو اللويتينانت كولونيل، المقدم لاحقاً راي پرينس، سأسأله، راي پرينس الذي رفع شعار «سيرج أند ديستروي» والذي كان القتل له بمثابة روتين، لماذا لا يكون هو الذي قتل أزهار أو بعث لها مَن يقتلها مع عائلتها جميعاً؟ هل تعرف أنه مثلك، قاتل وضع نفسه في مكان اللّه؟ أعرف أنه سيصمت، ستعقد لسانه المفاجأة مثلما عقدت لسان رفاقه الذين فاجأتهم في نومتهم قبل قليل في الصالون، لماذا تندهش إذن، سأقول له، وأنت الذي راهنت على عودتي إليك بأنني مهما هربت من قدري فسأقع في المصيدة التي أعددتها لي، لا بد لي أن أصبح قاتلاً مثلك أو مثلهم ذات يوم؟ لماذا يندهش وها هو يربح الرهان، ها نحن قتلة من المكانة ذاتها، نرى بعضنا من العلو ذاته فلماذا الاندهاش؟ هل ظن أن القتل مشروع فقط إذا قرر هو هوية الضحية التي حكم عليها بالإعدام؟ عليك أن تضحك، سأقول له، فها أنا أسير على خطاك، نعم، عليك أن تفرح لأنني لم أمشِ في النهاية على خطى صديقيَ

نائب العريف والشاعر سلمان ماضي واللويتنانت الثاني دانييل بروكس، الاثنان دفعتهما أيادي غريبة للضغط على الزناد، رغم أنهما ماتا وحملا ذنبيهما معهما إلى القبر، أما أنا؟ أنا الذي لم يشأ القتل ذات يوم بل رفض حتى حمل أو شراء سلاح، ها أنا أتحول إلى قاتل مع سبق الإصرار، لم أمشِ حتى على خطى أحلام. أحلام قتلت رجلاً واحداً، قتلت من قتلها بخيانته لها، بخيانة كل الحب الذي منحته له، وأنا؟ ها أنا لا أكتفي بقتل ستة رجال جلسوا في الصالون بل أصرّ على قتل الرجل السابع ربما شابهت آدم وهو يطلق النار على سيارات الإسعاف لكن آدم كان صبياً في سنوات تعلُّمه الأولى في الحياة، على الضد مني أنا الذي دخلت عمر الخمسين، هل تعرف، سأقول له، إنَّ لا حكمة تصلح في هذه البلاد بعد الآن وإنني ما كنت فعلت ذلك لو لم أعرف أنني فقط بهذا الشكل، ليس عن طريق الحكمة، كلا، فقط بهذا الشكل، أستطيع التحرر من العبء الذي أثقل عليّ. لقد رأيت ذلك في شريط حياتي الآتية وها هو يتأكد لي الآن، ألا ترى الفرح على وجهي؟ ألا ترى الراحة على وجهي؟ ألا ترى الابتسامة التي ارتسمت على شفتيّ؟ كأنني أطلق النار عليكما أنتما الاثنان، قتلة مالبورو وقتلة بغداد، ألا ترى كيف تضغط يدي على الزناد بحماس، طاق، طاق، طاق، طاق، طلقة، طاق، طاق... حتى نهاية العالم، بالضبط كما رأيتها أمامي في شريط حياتي الآتية ليطلقوا عليّ لاحقاً ما شاؤوا من

أسماء. القاتل المجنون مثلاً، أو اسمي الجديد الذي سأتبناه؟ هل تريد أن أخط الاسم الجديد على حيطان البيت لكي عندما تأتي الشرطة (هذا إذا جاءت؟) أو يأتي الأميركان (هذا إذا جاؤوا؟) سيحارون. لماذا لا تريد أن ترى الاسم كما عقّدته أنا على الحائط بالدم، اسمي الجديد، بالضبط كما رأيته في شريط حياتي الآتية. انظر إلى الخط كم هو جميل، أحمر بعمق لون كل الدماء التي جرت في هذه البلاد. أعرف أنه لا يستطيع رؤيتي لأنه تحول إلى جثة لا غير، جثة استقرت على الفراش منذ دقائق بلا حراك وهو أنا الذي لم يشأ التوقف، أدور وأدور في المكان مثل من أراد التأكيد لنفسه أن ما جرى هناك لا علاقة له بالخيال، أن ما جرى هنا جرى على هواي. نعم، بالضبط كما رأيته عند وداعي لنخيل في سيارة السيرفيس وهي تذهب باتجاه البيت، كما رأيته في شريط حياتي الآتية حتى عندما سأنتهي من رسم الاسم الجديد على الحائط وأغادر البيت من الباب الخلفي وأقفز عبر الجدار المجاور خلف البيت، حتى عندما سأدخل إلى بيت الطباخ نمير، فمن الأفضل لي الخروج منه إلى الشارع الخلفي الموازي لشارع بيتي وبهذا الشكل لن أثير الانتباه. أعرف أن نمير ليس هناك. لقد ترك بيته وهرب قبل أكثر من خمس سنوات. كل شيء يشير إلى أن محتليه تركوا البيت أو لماذا لا يكون محتلُو بيتي هم أنفسهم الذين احتلُوا بيتَه؛ فكما أتذكر رأيت هناك سيارة

البيك آب ذاتها التي وقفت في ممر حديقتي، بالتأكيد استخدموا البيتين حسب حاجاتهم الآنية، صدقني كل ذلك رأيته أمامي في شريط حياتي الآتية وحدث فعلاً كما شئت حتى عندما سأقف بعد قفزي إلى الحديقة ومعرفتي أن لا أحد هناك، أقف لأفكر قليلاً أو لأقرر إذا كان من الأفضل أن أفتح الباب وأغادر بيت نمير فوراً أم أن أستسلم لرغبة النوم التي هجمت عليّ وأنام هناك حتى حلول الفجر. أعرف أن لا شرطة ستأتي ولا جيش، صوت إطلاق النار تحول في بغداد إلى أمر يومي وروتين ثم إن الضحايا ليسوا أميركان وحتى عندما قررت أن أغادر البيت على الفور، ليس لأنني لم أستطع النوم لا في الصالون المحطم ولا في غرفة النوم على فراش قذر سيهرب من منظره حتى من غالبه النوم بل لأن تلك الجملة بالذات سترن في أذني، والتي سمعتها ذات يوم من سلمان وهو يحوّر بيتاً شعرياً للروسي باسترناك، أقصد قوله: وكان الفجر رمادياً كضوضاء المحكوم عليهم بالإعدام (باسترناك قال: المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة) الجملة تلك بالذات حملتني على ترك البيت فوراً. لم أشأ أن أكون من هؤلاء المحكوم عليهم بالإعدام. أردت توديع شخصية القتيل التي كنت، كنت مثل من اكتشف نفسه من جديد على عجلة من أمري. لم أشأ أي تأخير، تكفي الأسابيع السبعة السابقة التي أضعتها من حياتي، لم أكد أصدق أنني نفذت أخيراً ما عزمت عليه. المهم الآن هو التسلل من

البيت بخفية، السير قليلاً حتى الانعطافة الثانية من الشارع وأخذ سيارة أجرة تمر صدفة من هناك، لكن المهم أيضاً عليّ ألا أنسى المسدس، عليّ أن آخذه معي وأرميه في أقرب مزبلة أو بالوعة مياه، عليّ الانتهاء من حياتي التي كانت حتى يوم الجمعة ذاك، والمسدس هو آخر ما تبقى لي من ماضي لا أريد له أن يعود. لم أعد بحاجة إليه. أعرف أنني لن أحار بالعثور على مزبلة أو بالوعة فالبلاد غرقت بهما إن لم تتحول كلها إلى مزابل وبالوعات. نعم حتى عندما سأمرُّ في طريقي بالفعل بعشرات المزابل والبالوعات كأن المدينة كلها مثلها مثل البلاد تحوَّلت نفسها إلى مزبلة أو بالوعة. جرى كل شيء بسرعة بل أسرع مما رأيته على شريط حياتي الآتية في عصرية يوم الجمعة ذاك وبتتابع وبوضوح لا يهم ما اختلط فيه من خيال واختراع، من واقع وأوهام، من عزاء وجنون. الأمر الوحيد الثابت بالنسبة لي هو أنني تغيَّرت. كان عليّ أن أدرِّب نفسي على ذلك، وإن الأمر الوحيد الذي بقي عليّ أن أفعله هو الذهاب إلى نخيل، لكن قبل الذهاب إليها لا بد لي من زيارة نمير، ليس لأنني كنت للتو في بيته بل لأنني لم أجد شخصاً آخر يمكنني أن ألجأ إليه يُقرضني المبلغ الذي أنا في حاجة إليه، فلكي أطلب من نخيل الانتقال للعيش معي في البيت لا بد وأن يكون في حوزتي ما يكفي من مال، ليس لتغطية نفقاتنا نحن الاثنين وخاصة في الشهور الأولى إلى حين عثوري على عمل جديد، بل أكثر

لتأثيث البيت من جديد. لا بد من رميّ كل أثاث البيت القديم، لا بد من إزالة كل الآثار التي تركها الرجال المسلحون، محتلُّوه. فيما يتعلق بالجثث فالأمر بسيط جداً، سأتصل من نادي العلوية أو من الفندق الذي نمت فيه بالشرطة لكي يذهبوا إلى بيتي ويخرجوا الجثث من هناك، سأقول لهم مكالمة من مجهول أو سأخترع لهم اسماً ما، هارون والي مثلاً، لا بد وأن الجثث الملقاة هناك تعود لرجال على قوائم المطلوبين تلك التي عُلقت في مداخل الشوارع والأحياء، سأقول لهم، ثم إنها مسألة وقت، هذا ما أعرفه وهذا ما سأقوله لنخيل، ربما سننتظر أسبوعاً أو أسبوعين بل وحتى ثلاثة أسابيع، وسيكون البيت لنا وحدنا نحن الاثنين لكن عليّ أولاً توفير المبلغ الذي يليق، المبلغ الذي في حوزتي والذي سبق وأن احتفظت به في بطانة السترة أوشك على نهايته ولم يخطر على بالي في حينه شخص آخر يمكنه إقراضي المبلغ الذي أريد غير نمير. أعرف أنه سيفرح بلقائي كما توقعت في يوم الجمعة ذاك، سيأخذني في الأحضان وسيصرُّ على تناول وجبة عشاء من الطعام الذي يطبخه، سيجلب لي قنينة من قناني الويسكي الخاصة به، القنينة التي لا يحصل عليها إلا زبائنه المختارون، أهل الصفوة كما أطلق عليهم ذات يوم، ويسكي ديمبل، إذا لم أخطئ الظن. أعرف أنه لن يتأخر بمنحي المبلغ الذي سأسأله عنه وأنه سيربت على كتفي وسيحدثني عن أيامنا التي مضت وأخرى لن تعود،

سيحدثني عن جوارنا طوال سنوات، عن صداقة عائلتينا، صداقة أمي وأمه على وجه الخصوص، سيقول لي كم يفتقد كل ذلك وكم هو يحنّ بالعودة إلى بيته القديم، أعرف أنني سأسكت لأنني لا أستطيع أن أقول له إنني قفزت من جدار بيتنا إلى حديقة بيتك، إنني كدت أن أنام في صالون بيتك لكن جملة سلمان أو جملة باسترناك هي التي أنقذتني. لقد رأيت ما حصل لبيتك من خراب، لا بد أن رجالاً مسلحين آخرين أقاموا فيه وعبثوا فيه كل هذا الوقت ففي النهاية ما حصل في بيته أو بيتي حصل في آلاف بيوت أخرى في البلاد لكن كيف أقول له كل ذلك، دون أن أوضح له ما الذي فعلته هناك؟ نعم، كان لا بد لي أن أسكت، بالضبط مثلما رأيت ذلك قبل أن ألتقيه، رأيته أمامي على شريط حياتي الآتية. سأستطرد معه الذكريات وسأقول له، لا ضير فيما حصل لنا في هذه البلاد ففي النهاية هو درس للجميع وفيما يتعلق بي، فأنا مقبل على قرار عظيم، سأتزوج. سأقول له، سأبدأ حياة جديدة. لقد انتهيت من حياتي القديمة عليّ التفكير بالمستقبل، بمستقبلنا هذه المرة، أنا ونخيل وسننجب طفلاً بل أكثر بالتأكيد، كل ذلك سأقوله بحماس مثلما رأيته على شريط حياتي الآتية في عصرية يوم الجمعة ذاك لكن ما لم أعرفه في تلك اللحظة، لحظة اطمئناني على صعود نخيل في سيارة السيرفيس هو أن شريط حياتي الآتية سيمر بكل السيناريو الذي رسمته في تلك اللحظة بكل تفاصيله

التي مرت بتتابع ووضوح، من صعودي إلى التاكسي وذهابي إلى البيت، بيتي، من قتلي للرجال السبعة ومروراً بقفزي إلى بيت نمير. من خروجي من بيت نمير وذهابي إليه، من جلوسي معه وتسليمه لي القرض الذي أردت بل وحتى من مشهد رميي للمسدس الذي حملته، المسدس گلوك في بالوعة قاذورات في طريقي إليه. نعم، كل ذلك مرّ عليّ في لحظة واحدة في شريط حياتي الآتية، شريط حياتي الذي كنت على يقين أنه سيسير حتى النهاية على هواي، سينتهي نهاية سعيدة كما في القصص التي روتها لنا الجدات: كان يا ما كان، قبل أن تنتهي بالجملة المكررة تلك: تركتهم هناك وجئت، تركتهم يعيشون عيشة سعيدة، كلا، كما يبدو أن لا نهاية سعيدة في هذه البلاد «لا حب سعيد» وأقلها نهاية سعيدة لي، فما لم أعرفه في تلك اللحظة، لحظة صعود نخيل في سيارة السرفيس باتجاه بيتها، لحظة استعراض كل ما سيحدث في حياتي الآتية لا يهم ما حواه من واقع أو خيال، من أماني وسراب، هو أن الشخص الذي تغير هذا، القاتل الذي ظن أنه أصبح أحد الجموع، القاتل الذي أراد الانتهاء من كل ماضٍ ومواصلة عيشه في البلاد وفي عاصمتها بغداد سيفكر تلك الليلة للمرة الأولى بالرحيل، بترك البلاد تلك وراءه فما فائدة العيش فيها عندما سيكتشف ولمفاجأته أن كل ما ظنه سيسير على هواه، هو وهم لا غير لأنه مهما تخيل وأراد، مهما تمنى وخطط عليه ألا ينسى أن هناك على

الطرف الآخر، حياة، حياة تخلق هي الأخرى القصص التي تشاء، سلمان ماضي ودانييل بروكس لم يختارا الجبهة التي يقتلان عليها وأقله اختار هوية مَنْ قتلوه، من غير المهم أنهم لم يقتلوا عمداً أو يعرفوا تفاصيل حياة من قَتلوا كما حصل في حالتي أنا، أنا اخترت الجبهة بنفسي أو لنقل لم يبقَ أمامي خيار آخر. كنت على يقين، أن كل شيء سيسير على هواي، مثلما رأيته يتشكل على شريط حياتي الآتية في عصرية يوم الجمعة ذاك وبتتابع ووضوح وكان عليّ أن ألتقي بنمير أولاً في تلك الليلة لكي أعرف كم أخطأت الظن ففي اللحظة التي أردت فيها أن أودع نمير تلك اللحظة التي ستظل غامضة بالنسبة لي حتى اليوم سمعت نمير ينادي عليّ بصوت واطئ، يطلب مني التوقف قليلاً، بالضبط في اللحظة التي وطأت بها قدمي عتبة باب الصالة أردت الاعتذار منك، قال لي، لم أبع بيتي إنما تركته لمحتلّيه وعندما رآني أبتسم له وأقول لقد عرفت ذلك يا نمير، ابتسم هو الآخر ثم تابع بصوت نبرته باردة، قال: لم أوقفك لهذا السبب أردت فقط أن أسلّمك قبل أن تذهب أمانةً احتفظت بها لك منذ أيام وقبل أن ينتهي من جملته تلك سلّمني رزمة صغيرة مسكها بين يديه، ستفرح بها بالتأكيد، قال لي، لم أحتج وقتاً طويلاً لأعرف أنها الرزمة تلك بالذات، الرزمة التي نسيها صديقي سلمان على جبهة حفر الباطن وعثر عليها اللويتنانت الثاني دانييل بروكس أو دانييل حسين.

كانت أثقل مما هي عليه لحظة تسليمها لي بالتأكيد، لم تعد تحوي لا الدفتر الصغير الذي دون فيه سلمان أسماء الجنود وأحلامهم ولا القصاصات التي ضمت القصائد المكتوبة باللغة الإنكليزية والعربية، فيها الرسالة الأخيرة التي كتبها لي سلمان فقط، في مظروفها الأزرق الذي كُتب عليه عنواني، لا أدري إذا فهم نمير سبب الدهشة التي ارتسمت على وجهي أو عرف ما حصل لي في اللحظة تلك من التباس فأنا رأيت كل شيء يمر على شريط حياتي الآتية في عصرية يوم الجمعة ذاك، وقبل ساعات من وقفتي معه عند باب صالون النادي باستثناء مشهد وقفتنا تلك، كيف أقول له إنني جئت أقترض منه مبلغاً يساعدني أو يساعدنا أنا ونخيل لكي نبدأ حياتنا من جديد ولم آت لتسلُّم رزمة تلقي بي في ماضي ظننت أنه أصبح بعيداً لكن كيف أقول له ذلك وأنا أعرف أنه لم يقم بتنفيذ الدور الذي أعطته إياه الحياة في تلك اللحظة وإلا ما ظل محافظاً على النبرة الهادئة ذاتها في صوته، قال لي، هذه الرزمة طلب مني أن أسلمها لك أخوك، ثم ولكي يزيل عني الحيرة كما ظن أو كما ظننت أنا الذي لم يعرف في تلك اللحظة ماذا يقول، روى لي، كيف أنه ذهب قبل أيام لزيارة بيته لكي يعرف ما حلّ به، أنت تعرف، قال لي، الوضع الأمني تحسَّن، قلت ربما سأجد بيتي بلا محتلِّين، بعدها قلت لماذا لا أعَرِّج عليك بزيارة صغيرة فأنا لم أرك في حينها منذ أكثر من ثلاث سنوات حسب ما أظن، لكنني ولمفاجأتي

ما إن طرقت الباب حتى رأيت أخاك يخرج لي، لم أتعرف عليه في البداية ليس لأنه تغير بل لأن الغترة التي لفها في البداية غطت على وجهه، المهم، قال لي نمير، صحيح أن أخاك تفاجأ بزيارتي لكنني كنت مثل هدية هبطت عليه في تلك اللحظة من السماء، طلب مني أن أنتظر ثم نادى على شخص في داخل البيت وطلب منه أن يجلب الأمانة، تبين أنه أخ زوجتك أزهار. كانت فرصة لأن أراه هو أيضاً فأنا لم أره هو الآخر منذ زمن طويل، قال لي نمير، ثم حدَّق بي وتابع، لم أعرف أنك تصالحت مع أخيك، تركت له البيت وذهبت تقيم في بيت آخر، قال لي أخوك إنك ذهبت للسكن في بيت آخر ونسيت الرزمة تلك، وأن عليّ تسليمها لك في أول فرصة، لا بد وأن يزورك في النادي في أحد الأيام، قال أخوك لي، صمت نمير لبرهة، ثم قال، مثل من يختم خطبة أو موعظة: جميل أنكما سويتما الأمور بينكما بحكمة بعد جفاء، أليس كذلك؟ قال لي وهو يودعني ويرتد إلى الصالة قبل أن يختفي في عمق الصالون: أتمنى لك حظاً سعيداً. نعم، حظاً سعيداً هذا ما أنا كنت بحاجة إليه في تلك اللحظة. أي خراب وأية تعاسة، كما ردَّدَتْ نخيل، عندما كنا في المقبرة. كم كان بوِدِّي الصراخ في تلك الليلة، كان من الممكن أن أفكر بكل شيء في عصرية يوم الجمعة ذاك، باستثناء النهاية تلك. نعم، ها أنا أنتهي إلى النهاية التي لم أخترها. فحتى اللحظة الغامضة تلك، لحظة وقوفي مع نمير عند

باب الصالون لم يكن لضحاياي هوية أو وجه، لم تكن لهم شخصية أو تعريف، كانوا مجرد أجسام، هياكل، رموز وحسب. الآن أراهم دون غترة أو قناع، الآن أراهم بوضوح، أراهم بكل تقاطيع وجوههم التي عرفتها رغم عتمة الليل التي ألقت بحلكتها عليَ، رغم خطواتي التي بدأت تسرع بلا هدف. لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل في تلك اللحظة، هل أذهب إلى الفندق أم أذهب إلى نخيل؟ هل أتصل بالشرطة أم أترك الجثث على رقدتها في البيت؟ لا أدري. لكنني أدركت أن من العبث البحث عن مأوى أو مكان في بغداد. لا تظن أنني خفت أن لا أحد سيصدق أن لا علاقة لي بالمقتولين وأنني لهذا السبب سأكون مطلوباً، إن لم يُنسب لي قتل دانييل بروكس. بل أكثر بسبب معرفتي أن الجثث التي تركتها في البيت ورائي ستتشكل كلها أمامي بصورة أخي وحميَ مثلما تشكّل شريط حياتي الآتية في عصرية يوم الجمعة ذاك بتتابع ووضوح. ستلاحقني صورهم أينما حللت في البلاد التعيسة تلك. نعم ستطاردني في كل قصبة ومدينة، ستنام وتصحو معي، ستتحكم بي مثلما أراد المسدس التحكم بي. في هذه البلاد عليك أن تختار بين مهنة القاتل أو القتيل، ألم يقل لي سلمان ذلك ذات يوم؟ كانت المرة الأولى التي اكتشفت فيها أنني لا أصلح للمهنة الأولى. أعرف أنني يمكن أن أكون كل شيء باستثناء أن أكون قاتلاً وأنني لكي أهرب من المهنة الثانية التي أرادوها لي مهنة القتيل لا بد لي من

الرحيل. الرحيل بأسرع وقت وترك البلاد كلها ورائي. لن أكون وحيداً في هذه المرة على الأقل، سترحل معي نخيل. لا فجرَ رمادياً بعد الآن ولا ضوضاء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة أو ضوضاء المحكوم عليهم بالإعدام. ذلك ما فكرت به في الليلة المجنونة تلك، وذلك ما قلته لنخيل مباشرة بعد زيارتي لها في اليوم الثاني وقبل حلول الفجر. بل ذلك ما نفَّذناه أيضاً في نفس اليوم. لا بد من الهروب من المجزرة تلك، بعيداً هذه المرة. لا بد من البحث عن ملجأ آخر. لا بد من البحث عن بلاد أخرى...!

الآن وقد عرفت القصة عليك أن تتنفس قليلاً. كم أنا سعيد بوصول القصة إليك. كم أنا سعيد بأننا أصبحنا بهذا القرب. تطلع حولك في القاعة وستجدني أجلس في مكان لا يبعد عنك كثيراً. أعرف أننا الآن لا نستطيع أن نشرب الكؤوس التي نحب أو ندخن سجائرنا بحرية مثلما فعل صديقنا سلمان ماضي يوماً ومعه دافيد باربييرو، صديق دانييل بروكس وهما يحلمان بحياة أخرى في وحشة ليل الجبهة هناك، لكننا على الأقل نعرف بعضنا الآن. كم أنا سعيد أن تعرف أنَّ لك صديق من بغداد غامر بنفسه لكي يصل إليك؛ دانييل بروكس أو دانييل حسين، «ذه سمايلي مان»، غامر هو الآخر عندما جاء يبحث عني في بغداد. النهاية التي انتهى إليها لم أتخيلها أنا له ولا هو لنفسه. ذلك هو ديدننا نحن البشر، حالما نجد قرباً لأحد ما حالما نشعر بأننا ننتمي إلى هوية مشابهة، لا يهم أنها هوية متخيَّلة، حتى نُصرَّ على التعرف على بعضنا. المخاطر والأهوال، الحواجز واللا يقين، لن يثنونا عن عزمنا هذا أبداً. أنا نفسي وإلى حين روايتي القصة لك لم أعرف أنني سأنجح بمغافلة شرطة الحدود وخفر السواحل بل أنجح بدخولي إلى هذه المدينة المحصَّنة بأسوار شائكة وبجواز سفري الذي زوَّرته أصلاً في العراق. نعم، كل ما فكرت به هو أن أصل إليك. أما طريق العودة فهو أمر متروك للغيب. للصدفة. من كان سيصدق ذلك أنني سأجلس معك في هذه المدينة العسكرية الصغيرة وعلى بعد ليس أكثر من

أربعين كيلومتراً عن العاصمة واشنطن، مسافة زمنها ساعة واحدة بالسيارة باتجاه الجنوب تبعدك أنت المتهم بالخيانة عن القتلة الحقيقيين. أنت تجلس في زنزانتك وهم يجلسون في مكاتبهم الفارهة في البنتاغون أو في البيت الأبيض. شكراً لمطعم البورگير كينـگ الوحيد في المدينة المغلقة هذه. تعرف محبة شعبك للبورگير. ذلك ما يوحّدهم جميعاً حتى في الصالة هذه. قاضي التحقيق والمُدَّعي العام ومحامي دفاعك بل وحتى الشهود، كلهم يأكلون البورگير. يطلبون أن نحمله لهم في كل الأوقات. ولو لم يقع مطعم الأكل السريع خلف البوابة الرئيسة لصالة المحكمة لما نجحتُ بالتسلل إليك. لما نجحت بالجلوس قريباً منك، ربما دون إثارة شبهات. حتى الآن على الأقل، ولكن قبل كل شيء علينا أن نشكر صديقنا هارون والي فمن دونه ما كان حدث ذلك اللقاء. فهو مباشرة وبعد سماعه القصة مني (أقصد القصة التي رويتها لك) قال لي: هل تتذكر الجملة تلك التي قالها صديقنا الإيطالي إيتالو كالفينو: نحن في الجحيم. وكل ما علينا أن نفعله هو مساعدة أولئك الذين لا يجعلونه أكثر سوءاً؟ برادلي مانينـگ، قال لي. برادلي المعتقل هذا بإجحاف والذي جمعوا أطناناً من التهم ضده هو أحد هؤلاء. لا بد لك من الوصول إليه. بعد أيام سيكون عيد ميلاده الأربعة والعشرين في 18 ديسمبر/كانون الأول والقصة هذه هي أجمل هدية تقدمها له، فلكي يعرف أنه ليس خائناً كما دمغوه، لكي

يعرف أن المعلومات التي سلمها لم يسلمها إلى أعداء، بل سلمها إلى أصدقاء، ولكي لا يشعر في زنزانته بأنه تُرك وحيداً لا بد لك من رواية كل القصص تلك له. هذه المرة سأتنازل أنا عن القصّ. سأترك له الحلبة، قال بسخاء. صديقنا هارون والي أو ملك الحكايات كما سمَّيناه هو الذي جمع لي كل المعلومات عن المكان، عن دين وعمل سكان المدينة هذه العشرة آلاف وربما أكثر بقليل. أغلبهم كاثوليك يعملون في الحصن هذا الذي شيده المارينز أولاً عام 1956، عمر الحصن من عمري، قال لي هارون. البناية الواطئة الكبيرة هذه التي تشبه سجناً كبيراً هي المكتب الرئيس للاستخبارات العسكرية. هنا هو مقر ناشينال سيكيوريتي أجينسي، وكالة الأمن القومية، أو أن أس أي، التي رأسها ذات يوم جون نـگروبونتي الذي وقَعَت في حبه سهواً أحلام. حتى خريطة مدينة الحصن العسكري هذا «فورت ميد» أو «فورت جورج جَي ميد» وفرها لي هارون. بل هو الذي دلَّني في الخريطة على موقع مطعم البورگير كينـگ . اذهب واسألهم عن العمل هناك. الحصول على عمل في مطعم للأكل السريع ليس عملية صعبة للأجانب حتى بالأسود، دون أوراق رسمية. إنه روتين. خاصة إذا كانت زوجتك نخيل تعمل معك. لا يهمك أنها مدينة عسكرية أو مقر للاستخبارات. نجاحك بالوصول إليها أمر سيدخل في قائمة المعجزات. الألمان المشهورون بدقتهم وبيروقراطيتهم لم يكتشفوا جواز سفرك المزور.

قال لي. فلماذا سيكتشفه الأميركان؟ لا أحد أكثر احترافاً من صديقنا جوزيف كرملي أو جوزيف ك بتزوير الهويات والجوازات. لم أشك بكلامه طبعاً، كيف لا وهو هارون والي نفسه مَن خَلَّد جوزيف كرملي في روايته قبل الأخيرة: صورة يوسف. أطلق عليه اسم جوزيف ك. فهو بالنسبة له لا يختلف عن جوزيف ك كافكا. فهو مثله يخاف من الهزيمة أو لا يستطيع تحمُّلَها، لذلك يلجأ إلى التزوير، إلى الانتحال، تزوير الهويات وجوازات السفر فقط. انتحال الشخصيات وحسب. وهو بهذا الشكل ينتصر ويجعلنا ننتصر معه على الحياة كما يقول هارون. كلنا نعرف جوزيف عندما كان في محلِّه في منطقة حافظ القاضي في شارع الرشيد في بغداد أو بعد انتقاله هو الآخر إلى سوق مريدي على أطراف مدينة بغداد. أكبر سوق للتزوير في العالم على ما أظن. نعرف أيضاً مهارته وإخلاصه وتفانيه بمساعدة الأصدقاء. ألم نلفَ أنا ونخيل بجوازَي سفرنا بلداناً عديدة؟ دخلنا وخرجنا دون أن ينتبه أحد إلى التزوير؟ هارون يعرف ذلك جيداً. وهو على قناعة بنجاحي. أدخل أميركا عن طريق المكسيك إذا شئت، قال لي وهو يدلُّني على بدائل للوصول إليك. لا بد لك أن تصل إليه قبل أن يصدروا حكمهم عليه. التهم الموجهة ضده تملأ البناية ذاتها التي يحاكمونها فيها: 400000 تقرير منفرد و91000 تقرير من العراق وأفغانستان و250000 محضر من السفارات الأميركية،

متهم بتسريبها إلى الأعداء، قال لي هارون: اثنان وخمسون عاماً؛ تلك العقوبة التي تنتظره. الآن عمره أربعة وعشرون عاماً. هذا يعني أنه سيغادر السجن (هذا إذا غادر؟) وله من العمر ستة وسبعون. أية مفارقة أن يحاكموه بالذات في الولاية الأميركية الأولى أو ربما الوحيدة التي شرَّعت في تاريخها قانوناً للتسامح؛ قانون ميريلاند للتسامح في عام 1649. أية محكمة تاريخية ستكون شاهدها، قال لي هارون. كلي يقين أنك ستصل إلى هناك. عليك ألا تقلق. سيكون في صالة المحكمة عشرات الصحفيين أيضاً، أوضح لي هارون. بعضهم أعرفهم شخصياً أو من قراءتي لما كتبوه؛ الألماني سيباستيان فيشير مثلاً من مجلة شبيغيل أو الصحفي والمؤرخ السويدي بيتر أنـگلوند، هل تتذكره؟ حدثتك عن كتابه الأخير «جمال ورعب. قصة من الحرب العالمية الأولى يرويها تسعة عشر قدَراً»، كتاب يتحدث أيضاً عن الحرب العالمية الأولى وفظائعها، ولو كان نشر ما كتبه في حينه، في بداية القرن الماضي لكان هو الذي يجلس أمام القاضي بدل برادلي مانينـگ، بيتر أنـگلوند سبق وأن عمل مراسلاً حربياً في حرب الكوسوفو ثم أفغانستان عام 2001 قبل أن يذهب أيضاً إلى بغداد، عام 2004 أو 2005 لا أدري، كل ما أدريه هو أنه يعمل اليوم سكرتيراً للأكاديمية السويدية، الناطق الرسمي باسم لجنة التحكيم الخاصة بجائزة نوبل للآداب. تخيّل ترَك مكتبه الأنيق في الحي القديم

في استكهولم وذهب لتغطية وقائع المحكمة، لماذا لا، أليست هي محكمة حرب لا فارق بينها وبين الحرب؟ بالتأكيد سيساعدك أحدهم في حالة تعرضك للاعتقال أو التسفير. سبيستيان فيشير أو بيتر أنـگلوند سيكونان لك عوناً إذا استدعت الحال. لا بد لك أن تصل إلى فورت ميد، أو فورت جورج جَي ميد قبل أعياد الميلاد، قبل الاحتفال بعيد ميلاده الرابع والعشرين. اتصل بمحاميه أولاً «دافيد كومبس» هو الآخر خدم عسكرياً في العراق. لا بد وأنك ستحمل له البورگير. ذه ووپير بالتأكيد. أنت أو نخيل. سلمه القصة لكي يوصلها إليه. ولا يهمك أن القصة باللغة العربية. برادلي مانينـگ يعرف اللغة العربية على الطريقة العراقية!! تعلَّمَها منذ أن جلس هناك لوحده ساعات وأيام في قاعدته العسكرية على أطراف الصحراء في العراق، قال لي هارون. آه كم كان هارون والي على حق! ها هي قرابة ثلاث سنوات تمر على مغادرتي البلاد لكنني للمرة الأولى أتنفس الصعداء. أشعر بسعادة. أخيراً أستطيع القول مع نفسي: بأنني حسناً فعلت وغادرت البلاد. فمن غيري سيروي كل القصص هذه؟ كل واحد منا له دوره في القصة كما قال لي هارون. دور برادلي مانينـگ هو أن ينشر على الملأ كل ما عثر عليه في الكومبيوتر، وما انتهى أمام ناظريه من وثائق دامغة تدين المارينز بالقتل. مع صفحة ويكيليكس أو بغيرها لا بد من أن يعرف كل العالم الجرائم تلك. أما دورك أنت، قال لي هارون، فهو

أن تروي لبرادلي مانينـگ كل ما حدث لنا من قصص حتى قبل دخول المارينز إلى بغداد. بل حتى القصص تلك التي ستحدث غداً أو التي تحدث أثناء رواية القصة له الآن. نعم يا صديقي، هذا هو دوري، أن أروي لك كل القصص التي لم يعثر عليها أحد في أرشيف أو نطقها على أسماعه لسان. قصص ماضية وأخرى ستجيء: قصة ما حدث لي ولدانييل بروكس. قصة ما حدث لسلمان ماضي ودافيد باربييرو. قصة الكتيبة العراقية التي دُفن جنودها في صحراء حفر الباطن وهم أحياء. دفنتهم بلدوزارات المارينز بعد أن أهالت عليهم التراب. قصة الأسرى الأميركان التسعة وعشرين أو الثلاثين؛ 23 جندياً أميركياً وأربعة ضباط وضابط طيّار برتبة كولونيل ولويتنانت أول في قسم الإعاشة، غنيمة الكتيبة العراقية من معركة الخفجي قبل نجاحهم بالانسحاب من هناك. جميعهم ماتوا برشاش عقيد قاتل وليس كما ظن سلمان. قصة الجندي الشاب نهاد، كان يحلم أن يصبح نقَّاش ذهب من الدرجة الأولى على خطى خاله نور ملا ابراهيم أو الملاك نقاش «ملائكة الجنوب» ولم يدرِ أن أحلامه ستُذبح بسكين عسكري أميركي برتبة كولونيل. قصة أزهار وأفراد عائلتها الأربعة والعشرين. جميعهم قُتلوا وبدم بارد في فجر يوم مشمس. كانوا ما زالوا نائمين على سطح البيت في قريتهم الغافية على نهر الفرات عندما قصفتهم طائرات الآباتشي الأميركية. لا تحية صباح الخير ولا گود

مورنينـگ ولا أية تحية أخرى. فقط صوت القصف والدوي. قصة أحلام التي قُتلت أصلاً قبل خمسة عشر عاماً من قتلها للقاضي ألف. ش. قصة نخيل وموت ابنها آدم لكن أيضاً سعادتها بالعيش معي في آخر المطاف. قصة دانييل بروكس قبل أن يصبح دانييل حسين، قصة غواية تطوعه في المارينز وأعوام الخدمة في المملكة العربية السعودية وهو يتنقل من قاعدة أميركية إلى أخرى دائماً تحت رحمة الرائد في حينه والمقدم، اللويتينانت كولونيل لاحقاً، راي پـرينس عند دخول المارينز إلى بغداد، قصة ما عاشه هناك وهو يرى عوائل كاملة تختفي في مملكة الغبار السعودية، لكن رغم ذلك كان عليه أن يسكت. قصة دانيل بروكس وقد أصبح دانييل حسين. دانييل الذي جاء يسأل عني وقد حلم بأن يعفو الناس عنه، أن يساعد أبناء الجنود أولئك الذين دُفنوا أحياء دون أن يدري بأنه سينتهي مذبوحاً على جبهة بعيدة عن الجبهة التي هرب منها رغم أنها هي الأخرى جبهة تحدُّها الصحراء. قصة حقول الموت في العراق من شماله حتى جنوبه. قصة بغداد التي داستها جزمات المارينز وتركتها لقمة سائغة للقتلة واللصوص. قصة البلاد التي كانت والبلاد التي لن تكون. قصة خرابنا الذي ما بعده خراب. قصتنا جميعاً. قصص قتلانا. كم عددهم؟ مائة ألف؟ مائتان؟ ثلثمائة؟ نعم قصة لكل قتيل ولآخرين ما زالوا بالانتظار. قصتك أنت في النهاية«برادلي مانينـگ» القاضي من أمامك

والسجّانون من ورائك. أما القَتلة فيمرحون على بعد 40 كيلومتراً منك طليقين. كم أنا سعيد بأن أكون قريباً منك أخيراً. كم أنا سعيد بأنني رويت لك القصص تلك. آه كم أشعر أننا أحرار. لا عبء عليك. لا عبء عليَ. لا أحد سيقول لي بعد اليوم: غادرت البلاد لجبن منك لا أكثر ولا أقل؟ كم جميلة الحرية التي أشعر بها الآن. سأذهب، لا تقلق عليَ فأنا تدربت على الزوغان «آلته هازه» أرنب شاطر ومحنك، كما يقول الألمان. سأتسلل من المكان مثلما جئت. سأترك العمل في البورگير كينـگ وأغادر إلى حيثما جئت. وإذا شكُّوا بي وألقوا القبض عليَ فلا ضير. فإن لم يساعدني الصحفيون الأجانب، سيبيستيان فيشير مثلاً أو بيتر انـگلوند أو صحفيون آخرون فسأتحمل نتائج مغامرتي بنفسي. السجن؟ لا بأس. هل سيتهمونني أنا الآخر بالخيانة؟ ليكن ما يكون. اثنان مثلنا أنا وأنت لن يثبِّط من عزيمتهما سجن أو اعتقال. لدينا مؤونتنا في الوحدة. عندنا ما يكفي من الحكايات. أعرف أنك وأنت تتطلع في القاعة خلف كتف محاميك دافيد كومبس ومن خلف نظارتك ستتساءل حالما تراني أنهض. نظراتك وهمساتك أيضاً في أذن محاميك دون أن توقف التطلع بي، كلها ستقول لي: لكنه لم يقل لنا اسمه، لا اسمه في الماضي ولا الاسم الذي هو عليه الآن؟ لماذا يهمك الاسم يا صديقي. إذا شئت فلتطلق عليَ اسم الجندي المجهول أو غيره. كل ما تظنه يليق بي من أسماء. گوست. شبح. أو لماذا لا

أكون ملاكك الذي يحرسك في السجن ليل نهار؟ ملائكتك، ملائكة الجنوب ربما؟ اختر ما شئت من أسماء لكن عليك أن تعرف وأنت تختار لي الاسم الذي يليق بأنني ومنذ أن فتحت المظروف الأزرق الذي حوى على الرسالة التي أراد أن يرسلها لي سلمان، هل تتذكر ما رويته لك عن تلك الليلة، عندما فتحته وأنا أتسلمه من نمير ليلتها في بغداد؟ منذ الليلة تلك ومنذ أن اختلطت عليّ الهويات والأسماء وأنا أدور من بلاد إلى أخرى، لم أعد أتذكر اسماً آخر لي غير الاسم الخليط ذلك الذي حملته العلبتان المطعوجتان اللتان تركهما لي سلمان في بطن المظروف. علبتان فارغتان هما كل ما بقي منه ومن صديقه الأميركي في ليل الحرب الطويل؛ العلبة الأولى هي التي أهديتها له عند ذهابه إلى حرب الكويت، «بغداد» ماركة سجائر عراقية اختفت من الوجود. على عكس العلبة الأخرى «مالبورو» ماركة سجائر أميركية ما تزال تُباع في كل العالم. تلك هي بالتأكيد الرسالة التي أراد أن ينقلها لي دانييل بروكس. أراد أن يقول لي: صديقي وصديقك فهما بعضهما فلماذا لا نفهم بعضنا أنا وأنت؟ أو أراد أن يقول لي وذلك هو الأصح: إذا حدث وقرّرتَ رواية قصتي أو قصتنا جميعاً أميركان وعراقيين، إذا أردت أن ترويها لأحد بعد الآن فليس أمامك غير صورة العلبتين المطعوجتين هذين. بل ليس أمامك غير تعميدنا جميعاً باسم واحد لا غير: بغداد مالبورو. وداعاً يا صديقي وإذا حدث وأن التقينا

قريباً مسجونين... في زنزانة قذرة في فورت ميد أو أحد سجونهم القذرة الأخرى... أو إذا التقينا أحراراً طليقين... في حانة أو مقهى، في واشنطن أو في بغداد، في نيويورك أو في برلين، في البصرة أو في نيو أورلينز، فإن أول ما سأطلبه منك هو أن نشرب نخب صداقتنا. نخب أننا نعيش، نعم أن نشرب نخب أننا أكثر حرية من قبل. أننا لم نصبح قتلة مثل كل الأوغاد أولئك... في واشنطن أو في بغداد. سأطلب منك أن نضرب كأسينا ببعضهما، ندخن بمتعة ونحن نلقي الشعر... لا شيء غير الشعر... في السجن أو خارجه... لا شيء غير الشعر... هكذا تخيلتنا يا صديقي دائماً مثلما تخيلتهما دافيد وسلمان في القصيدة الأخيرة التي كتبها سلمان. قصيدته التي لا يعرفها أحد غيري. لماذا لا ترددها معي إذن منذ الآن:

أعمدة ضوء
تومض في ليل البرية
سجائر تحترق حتى الأزلية
انظر...
أي الأسماء نخط
في وحشة ليل الجبهات
بغداد... مالبورو.

ألا ترى يا صديقي، كأنه نحت أسماءنا نحن أيضاً في وحشة ليل العالم... كأنه عمَّدَنا نحن أيضاً باسمِ واحد لا

غير، اسمٍ يَسبح في الأبدية وحسب، اسم يَسبح في بحر الشعر: بغداد... مالبورو.

17 يناير/كانون الثاني 2011 ـ 1 يناير/كانون الثاني 2012

شكر وتقدير

في البداية أتقدم بجزيل الشكر للسيدة كارين سومَر من مكتب الثقافة لمدينة ميونيخ والمشرفة على ڤيلا ڤالدبيرتا، فلولا رعايتها وحرصها على توفير كل وسائل الراحة لي طوال شهور إقامتي بصفتي «رايتير إن ريسيدينس» لما انتهيت من كتابة هذه الرواية بالوقت الذي شئت.

شكراً أيضاً لفولفغانغ كون من بيت الأدب للنمسا الواطئة في مدينة كريمس آن دَر دوناو ومعه زملائه ميشائيل وسيلفيا و... للخجولة لكن المتأهبة للمساعدة دائماً ڤيرا شفارتزنگير والذين أحاطوني بعنايتهم طوال فترة إقامتي في الشقة 22 لكي أنتهي من البروفات الأخيرة للرواية.

أتقدم بالشكر الخاص أيضاً لصديقي الشاعر ع. ك. فأنا مدين له بالكثير في هذه الرواية. ما كتبه عن صديقنا الشاعر سلمان ماضي سيجد بعضه وقد ضمَّنته في الرواية. كم كان بودِّي ذكر الاسم الصحيح للصديق ع. ك. لكن حرصه على التكتم على اسمه في كل ما يكتبه وخوفه على حياته في العراق جعلني أحترم رغبته بعدم ذكر اسمه الحقيقي. الأمر ذاته حدث مع صديقنا الشاعر ج. ح. والذي سيجد بعضاً مما كتبه عن سيرته في هذه الرواية فحرصي عليه جعلني لا أشير إلى اسمه بالكامل. للصديقين العزيزين أقول لولا ما كتبتماه ما كنت استطعت رواية حياة صديقنا سلمان

ماضي وإغنائها بهذا الشكل.

شكر خاص إلى صديق الصِبا والشباب م. ن. الذي صاحبني في زيارتي الأخيرة إلى العراق وطاف بي في كل الأماكن التي عاش فيها صديقنا سلمان ماضي حتى موته بالشكل العبثي ذاك.

شكر خاص لمطعم الأكل السريع بورگير كينـگ في مدينة فورت جورج جَي ميد في ولاية مريلاند الأميركية الذي من دونه ما كنت وصلت إلى ديفيد كومبس محامي برادلي مانينـگ . كانت تجربة فريدة لي على أية حال. وليعذرني سيباستيان فيشير مراسل مجلة شبيغيل الألمانية في حينه لأنني تجنَّبت لقاءه أثناء محاكمة برادلي في فورت ميد. في الحقيقة لم أشأ إثارة الانتباه وأن يتعرَّف عليَ أحد هناك.

ترجمة الإصحاح الخامس عشر والسادس عشر والإصحاح الخامس والعشرين مأخوذة من باب أمثال في كتاب «كتب العهد القديم والعهد الجديد»، دار الكتاب المقدس، الشرق الأوسط (للأسف لم يُذكر لا عنوان الدار ولا اسم المترجم ولا سنة صدور الكتاب).

بعض ما قالته أشهر الصحف العالمية

في أدب نجم والي

1 ـ «يبدو أن تأثير البطريق، غارسيا ماركيز وصل حتى البصرة، إلى نجم والي»

مجلة نيوزويك الأميركية (2 نوفمبر 2003)

2 ـ «العراقي نجم والي يروي في روايته أحابيل الديكتاتورية»

صحيفة فاينانشيل تايمز (01.10.2004)

3 ـ «نجم والي، الجنوبي العراقي، أكثر الكُتَّاب العرب كسراً للمحرمات، يكتب أنشودة للحياة بمواجهة الجحيم»

مجلة شبيغيل الألمانية

4 ـ «صورة النساء عند نجم والي تميز نفسها بحدة عن الأدب العربي المعاصر. النساء تتسلم في روايته الزعامة»

وكالة الأنباء الألمانية

5 ـ «وطن نجم والي هو النساء، لهنّ ينبض قلبه، هذا ما يشعر به المرء عند قراءة الرواية»

الجريدة الألمانية: زوددويتشه تزايتونغ

6 ـ «والي يروي بشكل ممتع ومفيد، كأنه يستوفي مطالب الملاحم الشعرية القديمة في الغرب»

الصحيفة الألمانية دي فيلت

7 ـ «كتاب قوي، غني بالصور، رحلة حلمية عبر تجارب،

تتحول إلى كوابيس»

الصحيفة الألمانية: هامبورغير آبيندبلات

8 ـ «عبر هذه الرحلة المطهرة للنفس، يرسم نجم والي بنصل نثري حاد لا يرحم هيكل وأحشاء نظام يحتقر الإنسان»

المجلة الألمانية: بوخكولتور

9 ـ «الحذر: من يبدأ في قراءة هذا الكتاب لن يستطيع أن يلقي به جانباً!»

الصحيفة السويسرية: تاغيسشبيغيل

10 ـ «والي يراهن للمرة الثالثة في روايته الجديدة على حصانه المنكسر: وصف مجتمع المهمشين»

الصحيفة الألمانية: كيلير ناخريشتين

11 ـ «نجم والي، يثبت مرة أخرى أنه أحد أحفاد غوتة وريمارك وأحد ورثة الأدب الإنساني المضاد للحرب»

الراديو الألماني: دويتشلاند راديو

12 ـ «والي يصف بشفافية الحب المستحيل في حبائل زمن الحرب والديكتاتورية»

الصحيفة الألمانية: نورمبورغير ناخريتشيت

13 ـ «العراقي المنفي، نجم والي، مكتشف الهمشين العرب، يشنّع الأخلاق المزدوجة وأعداء الجمال»

الصحيفة الألمانية: شفيبيشة تزايتونغ

14 ـ «نجم والي الذي يروي مادته القصصية بشكل ألمعي ويحبكها بشكل ممتع، ينجح عبر روايته وبمهارة بتجسيد الواقعية غير المدركة بشكل خالص

لعراق صدام»
الصحيفة السويسرية: دي لاندبوته

15 ـ «نجم والي يصف بشكل رائع وعبر صور محكمة قوية تفاصيل الحياة اليومية تحت رحمة ديكتاتور لا يرحم»
الصحيفة النمساوية: إنسبروكيرتزايتونغ

16 ـ «من جحيم الحروب يخرج نجم مثل طائر فينيق»
الصحيفة السويسرية: ديربوند

17 ـ «رائعة نجم والي هي مزيج رائع من أفكار ما بعد حداثية عن فن القَصّ والقوة الحيوية للحكي ذاته»
الصحيفة الألمانية: فرايتاغ

18 ـ «مع نجم والى إلى جنوب العراق: المقبرة»
الصحيفة الألمانية: مونشينير ميركور

19 ـ «شكراً لمعرض الكتاب في هذا العام، أن نتعرف على هذه الموهبة الروائية الكبيرة: العراقي نجم والي»
الصحيفة الألمانية: نوردكورييير

20 ـ «نجم والي يكشف بشكل فاضح مصائر بشرية في بلاده»
الصحيفة الألمانية: فيستفيليشه آنتزايغير

21 ـ «فقط القصص المخترعة تقول الحقيقة»
الصحيفة السويسرية: تاغيس آنتزايغير (05.10.2004)

نبذة عن الكاتب

نجم والي (عمارة 1956) تنقَّل بين البصرة والعمارة ودرس في قسم اللغات الأوروبية في جامعة بغداد، وبدأ بالنشر مبكراً في الصحف والمجلات العراقية. اعتُقل في بداية عام 1980 في سجون الاستخبارات العسكرية في وزارة الدفاع، وتعرض لصنوف التعذيب، قبل أن يُطلَق سراحه بأعجوبة. غادر العراق أواخر 1980، بعد اندلاع الحرب العراقية الإيرانية بستة أسابيع. درس الأدب الألماني في جامعة هامبورغ والأدب الإسباني في جامعة كومبليتينسه ـ مدريد. من كتبه التي صدرت: «الحرب في حي الطرب» (رواية، طبعة أولى، دار صحارى دمشق بودابست 1993، طبعة ثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر عمان بيروت 2013)، «ليلة ماري الأخيرة» (قصص، شرقيات القاهرة 1995)، «مكان اسمه كُمَيت» (رواية، شرقيات القاهرة 1997)، «فالس مع ماتيلدا» (قصص، دار المدى دمشق 1999). «تل اللحم» (رواية، طبعة أولى، دار الساقي بيروت لندن 2001، طبعة ثانية ميريت القاهرة 2005). «صورة يوسف» (رواية، طبعة أولى، دار المركز الثقافي العربي، بيروت ـ الدار البيضاء، 2005، طبعة ثانية، ميريت القاهرة 2008). «ملائكة الجنوب» (رواية، طبعة أولى، دار كليم دبي 2009، طبعة ثانية، دار المدى 2010 بغداد)، «بغداد... مالبورو، رواية من أجل برادلي مانينغ» (رواية، المؤسسة العربية للدراسات

والنشر عمان وبيروت 2012)، «كتاب الميلانخوليا... رواية من تسع قصص» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر عمان وبيروت 2014)، «بغداد، سيرة مدينة» (دار الساقي، بيروت، لندن 2015) كما نقل عن الإسبانية مسرحية «خطبة لاذعة ضد رجل جالس» لغابرييل غارسيا ماركيز (مسرحية، طبعة أولى، المركز الثقافي أبوظبي 1998، طبعة ثانية، دار أزمنة للنشر عمان 1999)، أما عن الألمانية فقد نقل «خطوات، ظلال، أيام وحدود» لميشائيل كروغر(قصائد مختارة، دار المدى، بيروت بغداد 2014). هذا وتُرجمت أغلب أعماله إلى عدة لغات عالمية وصدرت عن دور نشر عالمية مرموقة، كما كتبت عنها أشهر الصحف العالمية.

حازت روايته «بغداد مالبورو» جائزة برونو كرايسكي العالمية للكتاب لعام 2014، أما روايته «ملائكة الجنوب» فقد وصلت في القائمة القصيرة لجائزة يان ميشالسكي العالمية للأدب عام 2014، التي وصلت إليها عام 2015 روايته بغداد مالبورو أيضاً.

نجم والي الذي يُعتبر اليوم أحد أكثر الكتّاب العرب والعراقيين شهرة عالمية، يكتب العمود في الصحافة العربية (الحياة والمستقبل والمدى) والألمانية (دي تزايت، دير شبيغيل، زوددويتشه تزايتونغ ونويه تزوريشير تزايتونغ)، كما يعمل متفرّغاً للكتابة منذ 2001 ويعيش اليوم في منفاه الألماني في برلين.